رحلة المئة سؤال وجواب

د. أسماء غريب

رحلة المئة سؤال وجواب

حوار أجراه من ستوكهولم الأديب والتّشكيليّ صبري يوسف

2018

هوية الكتاب

اسم الكتاب: رحلة المئة سؤال وجواب

حوار أجراه من ستوكهولم الأديب والتَّشكيليّ صبري يوسف

تأليف: د. أسماء غريب

الطباعة: دار الفرات للثقافة والإعلام – العراق – بابل

السنـــة: ١٤٤٠هـ / ٢٠١٨م

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٣٠٥٦) لسنة ٢٠١٨م

Al-Furat House for Education and Information

Iraq – Babylon

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾

الإسراء: الآية ٥٣

المحتويات

الجزء الأوَّل: ٥٠ سؤالاً وجواباً

كلمة صبري يوسف

الأسئلة:

١. ماذا تعني لكِ اللُّغة، الحرف، الكلمة، الكتابة؟!

٢. كيف تنظرين إلى اختراغ اللُّغة والإبداع؟!

٣. طفولتك كتابة خلَّاقة من حيث تشبّعك في ألق الحرف ورعاية أسرة فيها من تجلِّيات الحرف الشَّيء الكثير، ما دور عوالم طفولتك في انبعاث حفاوة الحرف لديكِ إبداعيَّاً؟

٤. ماذا ترك لكِ الأبُ، الجدّ من أثر في جموحِ مخيالك الإبداعي؟

٥. بماذا كنتِ تحلمينَ وأنتِ طفلة؟ والآن بماذا تحلمين، هل ثمة تقاطع وتناغم بين الحلمَين؟

٦. ما هي أبرز منعطفات طفولتك الّتي أثّرت في تشكيل عالمكِ الإبداعي؟

٧. من خلال قراءتي لكتاباتك، أرى وكأنّ هناك طفلة مجنّحة في روحانيّتك نحو فضاء البراءة والصَّفاء والسَّلام والحب والحياة، هل انطباعي دقيق في هذا السِّياق؟!

٨. تمتلكين روحانيّة صافية صفاء العرفانيِّين الصُّوفيِّين، كأنّك في رحاب معبد للزهد والتَّرهبن، حفاظاً على نقاء الرُّوح والذّهن، هل هذا النُّزوع يحصِّنُ روحَكِ ونفسَكِ وذهنَكِ من الشُّرورِ المتفشّية في الحياة؟!

٩. كيف تنظرين إلى العمر، الزَّمن الَّذي يعيشه المرء على الأرض؟

١٠. ماذا تعني لك الحياة، وماذا تريدين أن تقدِّمي في الحياة للحياة وللأجيال القادمة؟

١١. كيف تنظرين إلى التّدريس الجامعيّ، وهل طمحتِ يوما ما أن تكوني أستاذة جامعية أكاديميّة ينتفع من علمها الطّلابُ والمتعطّشون للنّهل من تجربتكِ الأدبية العميقة؟

١٢. بعد مُناقشَتكِ في جامعةِ الدّراساتِ والأبحاث بمدينة باليرمو لأطروحتَيْ الإجازة والماجستير اللّتَان كانتَا عن الحروف النّورانية في القرآن الكريم، وعن رحلة الإسراء والمعراج المحمّديّة، أتتْ مرحلةُ تخرّجكِ في جامعة المعرفة بمدينة روما والتّي حصلتِ

منها على شهادة الدكتوراه بميزة جيّد جدّاً مع مرتبة الشّرف عن أطروحتكِ الّتي تمّتْ مناقشتها سنة ٢٠١٢ وكانتْ بعنوان [الحداثة في المغرب من التّاريخ إلى الأدب: محمد بنّيس أنموذجاً للدراسة والبحث]: هلْ يُمكنكِ أن تحدّثي قُرّاءَكِ عن هذه المرحلة وعن ما بقي عالقاً في ذاكرتِكِ منها؟

١٣. ماذا تعني لك الطَّبيعة، الأرض، اخضرار الرَّبيع وما تأثيرها على الكتابة وعلى الرَّسم؟

١٤. البحر، الماء، عناق السَّماء للأرض من خلال المطر، كيف تنظرين لهذا العناق المبرعم بالخير والعطاء السَّماوي الخلَّاق؟

١٥. الخيال، الواقع، اللُّغة، الكلمة، الحرف، الجملة، الصُّورة، كيف تموسقين صياغة هذه الأدوات الّتي تقودك إلى أبهى فضاءات الإبداع؟

١٦. ما معنى أن يكون المبدعُ اليوم متصوّفاً، وكيف ترينَ نفسكِ كأديبة صوفيّة في زمنِ مواقع التّواصل الاجتماعي؟

١٧. كيف تنسجين الومضة الأولى شعريّاً، هل تنبعث من خلال إشراقة ما، فكرة ما، حدث ما، أم من خلال حالة انبعاثيّة لا تستطيعي تحديدها ولا التَّحكُّم بها، أشبه ما تكون الرُّؤيا ـ الحلم/ ووهج الإلهام؟!

١٨. متى تكتبين وترسمين، كيف تكتبين وترسمين، هل ثمّة طقوس معيّنة ترافقك أثناء الكتابة والرَّسم؟

١٩. تكتبين الشّعر، القصّة، النَّص الأدبي، والمقال ولك باع كبير في أغلب الأجناس الأدبيّة، وترسمين هل لكلِّ جنس أدبي، والتَّشكيل اللَّوني خصوصيَّته وتفرّده في تدفُّقِ فضاءات الإبداع؟

٢٠. تترجمين أثناء عبورك فضاء التَّرجمة، تفاصيل ورشاقة النَّص الأصلي، كأنّك تكتبين النَّص الَّذي تترجمينه بروحانيّته، بلغة الأم الأولى، كيف وصلتِ لهذه الخصوصيّة في ترجمة الأعمال الّتي تختارينها؟

٢١. كيف تختارين الكتبَ الَّتي تترجمينها، ما هي شروطك في ترجمة الكتب الَّتي يقع عليها اختيارك؟

٢٢. كيف تترجمين الشّعر، النّص، المقال، القصّة والرّواية وما هي الأدوات والمراحل الإبداعيّة الّتي تساهم في نجاح النّص المترجم؟

٢٣. بعد أن تمكّنتِ من ناصية اللُّغة الإيطاليّة، أصدرتِ ديواناً شعريّاً بعنوان: بدونكَ، باللُّغتين العربيّة والإيطاليّة ٢٠٠٩، ماذا أحببتِ أن تقولي عبر هذا الدّيوان للقارئ العربي والإيطالي؟

٢٤. ترجمت من العربيّة إلى الإيطاليّة ديوان: أربعون قصيدة عن الحرف، للشّاعر العراقي أديب كمال الدّين، المعروف بشاعر الحروفيّة، كيف وجدت حروفيّته الشّاعريّة، قبل وبعد ترجمتها إلى الإيطاليّة؟

٢٥. بعد أن ترجمتِ بدائع حروفيّات أديب كمال الدّين، قمتِ بدراسة نقديّة تحليليّة عن "تجلّيات الجمال والعشق عند أديب كمال الدّين"، تحدّثي عن رحلة الغوص في رهافة انبعاث هذا الشّاعر في بوح الحرف؟

٢٦. كيف استلهمت معالمَ ديوان: "مقام الخمس عشرة سجدة" الصّادر باللّغتين العربيّة والإيطاليّة؟

٢٧. ما هي المحفّزات الّتي دفعتكِ إلى ترجمة المجموعة القصصيّة: "فجر العصافير الطّليقة"، للقاص الفلسطيني نضال حمد من اللُّغة العربيّة إلى اللُّغة الإيطاليّة، وما رأيك بهذه التَّجربة القصصيّة؟

٢٨. توقّفت مليّاً عند ديوان: "تانغو ولا غير"، ديوان مشترك بينك وبين الشّاعر العراقي سعد الشّلاه، كيف ولدت فكرة الكتابة المشتركة وترعرعت إلى أن أصبحت ديواناً ثمَّ ترجمت الدّيوان إلى الإيطاليّة؟

٢٩. لديكِ شغف كبير في التَّرجمة، إلى أي مدى غصْتِ في ديوان: "من مذكَّرات طفل الحرب" للشاعرة العراقيّة د. وفاء عبدالرّزاق؟

٣٠. ترجمتِ ديوان: السَّلام أعمق من البحار، وقدّمت دراسة موسّعة عن أدب صبري يوسف، ما رأيك في آفاقه الأدبية والفنّيِّة نحو فضاءات السّلام، وما رأيك في مجلّة السَّلام الدَّولية الّتي يصدرها سنويّاً؟

٣١. ما الَّذي جعلك في خضمِّ مشاريعك المتنوّعة، أن تترجمي رواية "عشق سرّي"، للروائية الإيطاليّة ريتانا أرميني؟

٣٢. أصدرت عام ٢٠٠٦ مجموعة قصصيّة بعنوان: "خرج ولم يعد"، تحدّثي عن هذا الإصدار القصصي؟

٣٣. ديوان: "٩٩ قصيدةً عنْكَ"، ديوان متفرّد ويشمل جوانب متعدِّدة من الحياة، كيفَ تحافظين على وهج الشِّعر وأنتِ بهذه الآفاق الرَّحبة والغزارة الشِّعريّة المدهشة؟

٣٤. ديوان: "ما لم تبُحْ به مريم لأحدٍ ويليه متون سيّدة: يتضمّن خصوصيّة وتجلِّيات رهيفة، كيف تنامَت عندك فكرة كتابة هذا الدِّيوان بكلّ تفرُّعاته السَّامقة؟

٣٥. كيف تشكَّل لديك هاجس وشغف التَّخصُّص في النّقد الأدبي؟

٣٦. ما هي معاييرك عندما تختاري ديوانا شعريا، مجموعة قصصيّة، عملا روائيا لدراسته نقديّاً؟

٣٧. ما هي أهم محاور مواضيع كتابك النّقدي: "ميثم السّعدي وثنائيّة العرض المسرحي"؟

٣٨. أعددت دراسة نقدية مفصّلة بعنوان: تمَثُّلاتُ السّادةِ الملائكة الكروبيّين في تجربة صبري يوسف الإبداعيّة من الأدب إلى الفنّ التَّشكيلي، ما الَّذي قادكِ إلى كل هذا الغوص في فضاءات صبري يوسف؟

٣٩. انكبَبْت على تحليل ونقد ملحمة الكوميديا الإلهية للمبدع أليغييري دانتي، في وقتٍ كنت تترجمين وتقدّمين دراسات نقديّة أخرى، كيف توفّقين بين عدّة مشاريع إبداعيّة في توقيت واحد، وفي وقتٍ قصير؟

٤٠. يقال إنّ مواقع التواصل الاجتماعي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من حياة المبدعين والأدباء، ولها دور فعّال في انتشارهم إلي أيّ حدّ أنت مع هذا الرّأي ولماذا؟

٤١. نلتِ العديد من الجوائز، منها جائزة الشِّعر العالمي بجزيرة سردينيا الإيطاليّة عن قصيدتك "السَّلطعون النَّاسك" عام ٢٠٠٩، ما رأيك بالجوائز وشهادات التَّقدير الَّتي تكرّم المبدعين والمبدعات؟

٤٢. أعددت رسالة الدكتوراه عن الحداثة في المغرب، من التَّاريخ إلى الأدب: محمَّد بنِّيس أنموذجاً للدراسة والتَّحليل، ما هي أهم تجلّيات الإبداع التَّي يتميّز بها الشَّاعر المغربي محمَّد بنّيس؟

٤٣. في عام ٢٠١٢ نقَلْتِ إلى اللّغة الإيطالية باقةً من النّصوص القصصية هي (العودة حقّ: من شباب فلسطين إلى شباب العالم)، هل يمكنكِ أن تُحدّثي قرّاءكِ الكرام عن هذه التجربة الفريدة، لا سيّما وأنّ مُؤلّفي النّصوص هُم مجموعة من الأطفال الذين بهروا الجمهور ببراعتهم السّردية وذكائهم الخلّاق بشكل منقطع النّظير؟!

٤٤. صدرت عام ٢٠١٦ عن دار الفرات للثقافة والإعلام مجموعتُكِ القصصيّة (أنا رع)، تحدّثي عن هذا الإصدار القصصيّ؟

٤٥. الولادة ثمَّ الحياة، ما رأيك بحقيقة الموت، كيف تنظرين إلى الموت وما أثره في نصِّكِ الإبداعي؟

٤٦. ماذا تعني لك الكتابة، هاجس الكتابة، لحظات الكتابة، ماذا يراودك بعد كتابة نص جديد؟

٤٧. كثُر الحديثُ مؤخّراً عن الأُسْرةِ ودورها الفعّال في بناء مجتمعات سليمة ومتحضّرة، كيف ترى أسماء غريب هذه المؤسسة بشكل عامّ، وما هي النّصائح التي يمكنكِ أن تقدّميها لمتتبّعيكِ الأعزّاء؟

٤٨. كتب العديدُ من الأدباء والمفكّرين والفلاسفة عن الحبّ، واختلفت فيه آراؤهم وأفكارهم ومعتقداتُهم، كيف ترى الأديبة والدّكتورة أسماء غريب الحبَّ وكيفَ تعيشُه؟

٤٩. كيف ترى أسماء غريب الصّداقة في زمن الفيسبوك؟

٥٠. الموتُ والغُربة، أيّة علاقة هذه في بلاد البُعد، وكيف ترينها وتقَيّمينَها؟

الملاحق:

- الشَّاعرة أسماء غريب مشبَّعة بإشراقةِ وهجِ الرّوح؛
- مقدّمة الأديب والتشكيليّ صبري يوسف والخاصّة بالكتاب النّقدي العرفانيّ ((تمثّلات السّادة الملائكة الكروبيّين في تجربة صبري يوسف الإبداعيّة، من الأدب إلى الفنّ التّشكيليّ)).

الجزء الثَّاني: ٥٠ سؤالاً وجواباً

كلمة صبري يوسف

الأسئلة:

٥١. بمناسبة حديثكِ عن صقلّيةَ في أجوبتكِ السّابقة، لاحظتُ أنّكِ ناديتِها بالأمّ الرّؤوم المعطاءة، وأطلقتِ عليها كذلك لقب جزيرةِ الشَّمسِ، هل لكِ أن تحدّثي قرّاءك ومتتبّعيكِ عن هذه العلاقة الرّوحيّة الَّتي تجمعكِ بها، وعن سرّ هذه المحبّة العارمة بينكما؟!

٥٢. مع مطلع هذا العام الجديد (٢٠١٨)، أصدرتِ الجزء الأوَّل من كتابكِ الموسوعيّ (كواكب على درب التبّانة / مقاربات نقديّة)، هل يمكنكِ أن تحدّثي السّادة القرّاء والمتتبّعين لتجربتكِ الإبداعيّة عن تفاصيل ولادة هذا الإصدار وكيف أصبح بهذا الحجم، لا سيّما وأنّه قد سبق لكِ أن أعلنت أيضاً عن عملك الحاليّ على دراسات ومقالات الجزء الثّاني منه؟

٥٣. في حديثك عن سيّدة الطُّفولة زارعة أشجار الصّنوبر والبلّوط إشارة إلى مدى عمق إيمانك بالعطاء والتَّراحم والتّعاون بين البشر، فهلّا أفضت في الحديث عن هذا الجانب ومدى أهمّيَّته في حياة أسماء غريب الإنسانة وكذا الأديبة؟!

٥٤. في حديثكِ عن بعض السُّلوكيّات غير الحضاريّة لبعضِ العيّنات من المجتمع الأوروبيّ، حديث أيضاً عن عدم الوعي العميق لدى العديد من النّاس بمفهوم المواطنة، وبما عليهم من الواجبات ولهم من الحقوق، أنت أسماء غريب باعتباركِ أديبة "مهجريّة" كيف تعرّفين المواطنة والعيش في بلد غير الَّذي رأيتِ فيه النّور؟

٥٥. انطلاقاً من تجربتك بشأن المواطنة والجنسيّة المكتسبة، كيف يمكنك أن تقيّمي المشهد الإيطالي في هذا المجال؟

٥٦. الحديثُ عن علاقة الدّول المُستَقبِلة أو المضيفة بالمهاجرين يجرُّ ولا شك إلى التَّساؤل عن الهجرة العكسيّة، ماذا عنها؟

٥٧. بالعودة إلى ظاهرة الخوف والحذر من "المهاجرين" المقيمين في الدُّول الغربيّة على وجه التَّحديد، والَّتي عادة ما تكرّسُها وسائل الإعلام الدَّوليّة بما تعرضه من برامج

تضرب على وتر غسيل الدّماغ، وتأليب الشّعوب ضدّ بعضها بعضاً، ألا ترين أنّ للمهاجر نفسه نصيب من المسؤوليّة في تكريس هذه الصُّورة النّمطيّة؟

٥٨. لماذا لا يقتربُ الإنسانُ من أخيه الإنسان، بل تزداد الهوّة بين بني البشر، عبر الدُّول والقارّات؟!

٥٩. كيف يتصالح الإنسان مع ذاته ويتسامى رويداً رويداً مع الآخر ويحقِّق وئاماً مشتركاً مع بني جنسه؟

٦٠. يشعر المبدع مغترباً وغريباً عن هذا العالم، ما سبب شعور الكثير من المبدعين بالاغتراب؟

٦١. ما أسباب التَّخلُّف المزمن في العالم العربي، وكيف يُمكن أن ننتشله من هذا التَّخلُّف المرير؟

٦٢. لماذا لا يهتمُّ الشَّرق والعالم العربي بالإبداع والرُّؤية التَّنويريّة، لهذا تنتشر الحروب والويلات؟

٦٣. لا أرى غرابةً في غربة الرّوح لأنّها ليست أصلاً من هذا العالم، أم أنَّ لديك وجهة نظر أخرى؟

٦٤. لماذا هناك ضمور وتقلُّص في الجوانب الأخلاقيّة والقيم الإنسانيّة في توجُّه سياسات هذا الزَّمان؟

٦٥. أينَ ترى المرأةُ المثقّفة والأديبة الكاتبةُ نفسَها أمام هذا الفساد الثّقافيّ المستفحلِ في مجتمعات الشّرق قبل الغرب، وكيف تواجِهُهُ؟

٦٦. وأنت تختمين جوابك بالحديث عن تأثّر كبار رموز الأدب العالميّ بالمرأة والأنثى الخلّاقة، كيف تقيِّمُ أسماء غريب قدرةَ الأديب الرّجل على خلق الشَّخصيّات النّسائيّة في الأعمال الإبداعيّة الضّخمة، وإلى أيّ حدّ ينجحُ في ذلكَ؟

٦٧. الأديبة المبدعة د. أسماء غريب، راودني مراراً وأنا أقرأ إجاباتكِ، كيف تستطيعي أن تحيطي بكلِّ هذه الأجناس الأدبيّة وتمسكي بخيوط هذا الحوار وتنسابين في العطاء وكأنّك في حالة استعداد دائم للتدفّق؟!

٦٨. عندك تجلِّيات عرفانيّة في عالم التَّصوّف والعرفان، ما رأيك بتصوُّف ابن عربي والحلّاج؟!

٦٩. لماذا فشل الإنسانُ في قيادة نفسه وقيادة الدُّول من حيث ترويج الرُّؤى الإنسانيّة الخلّاقة في العالم؟

٧٠. ما هو دورك مبدعةً ومثقَّفةً في إرساء ثقافة السَّلام والتّنوير في المجتمع الشَّرقي والعربي والغربي؟

٧١. إلى أي مدى ترين أنَّ الثَّقافة التَّنويريّة والأدب الخلّاق لهما دور كبير في القضاء على الحروب المجنونة المتفشّية في الكثير من دول العالم، تمهيداً لإرساء سبل السَّلام والوئام بين البشر في العالم؟

٧٢. بمناسبة حديثك عن نهاية العالم وربطك لها بانقراض النّحل، هل يمكنكِ أن توضّحي أكثر للقارئ العزيز تفاصيل هذه الرُّؤية؟

٧٣. متى سيتم التَّركيز في العالم العربي على بناء طفل طبيعي، بعيداً عن لغة العنف والعنف المضاد؟

٧٤. قراءاتُكِ بدون أدنى شكّ غزيرة في مجال الأدبِ المُعاصر، ولقدْ تناولتِ بالنّقدِ والتَّحليل العديدَ منَ الأسماء الأدبيّة منْ كِلا الضفّتين العربيّة والغربيّة في كتابك النّقديّ الجديد (كواكب على درب التبّانة)، ما رأيكِ في كتاباتِ الرّوائيّة التّركيّة "ألف شفق"، ولا سيمَا منها تلكَ ذات الطّابع العرفانيّ؟

٧٥. هناك العديدُ من الجوائز الّتي تُخَصّصُ لتكريم نتاجاتِ الأدباء في مجالاتٍ إبداعيّة شتّى، شِعْراً كانت أو نقداً أو روايةً، ما رأيكِ بالرّوايات الّتي تحصلُ على هذا النَّوع من التَّكريم العالمي؟!

٧٦. الانشغال بالهمّ اليوميّ، والعمل الوظيفيّ هما بدون شكّ من المثبِّطات الّتي تحولُ دون ازدهار الأديب المبدع وتفرّغِه إلى كتاباته اليوميّة، كيف تنظر أسماء غريب إلى هذه الإشكاليّة؟

٧٧. هناك العديد من الأديان غير السَّماويّة لا تختلف بشفافيّتها وروحانيّتها ووصاياها عن الأديان السَّماويّة، هل الأديان السَّماويّة امتداد للأديان غير السَّماويّة أم لديك وجهات نظر أخرى؟

٧٨. هل استطعتِ أن تسبري ما يجول في نفس وروح وخيال أسماء غريب، أم أنّك ما تزالي تبحثين في خبايا الرُّوح والخيال عن الكثير ممَّا يراودك كي تسطِّرينه على وجنةِ الحياة؟

٧٩. صدرتْ لكِ حديثاً عن دار الفرات للثقافة والإعلام في بابل موسوعة (ترجمتُ لك) بجزئيها الأوَّل والثَّاني، هل لكِ أن تحدّثي القارئ عن فكرة هذا المشروع الموسوعيّ في التَّرجمة، وما هي تطلُّعاتك المستقبليّة بشأنه؟

٨٠. مَنْ هي أسماء غريب الإنسان، في حياتها اليوميّة؟ تحدّثي عنها عبر يوم واحد!

٨١. الموسيقى غذاء الرّوح والفكر، وهي اللُّغة الّتي لا تحتاج إلى وسيط، ما موقعها في حياة أسماء غريب، وكيف تعرّفينها أو تقدّمينها إلى القارئ من خلال تجربتكِ الرّوحيّة؟!

٨٢. ماذا عن النَّوم في حياتكِ، كيف تقيّمينه وما أهمّيته بالنّسبة لمسيرتكِ الإبداعيّة؟

٨٣. تحدّثَ العديدُ من أهل الحكمة والأدب والفلسفة عن الصّبر وفوائده الجمّة، كيف تنظرُ أسماء غريب وتقيّمُ الصّبرَ في حياتها؟

٨٤. لِمن ولماذا تكتب أسماء غريب؟

٨٥. تهتمّين في أبحاثك التَّرجميّة ودراساتك النّقديّة حتى بأسماء الشّعراء والكتّاب المغمورين، وتتعاملين مع إبداعاتهم ترجمة ونقداً بنفس الحِرَفيّة والجدّيّة والعمق الَّذي تتعاملين به مع الأسماء المرموقة في عالم الأدب والإبداع، هل يمكن لأسماء غريب أن تشرح للسادة المتتبّعين سبب هذا الاختيار والاهتمام والعناية؟

٨٦. المرض في حياة الإنسان العارف، كيف تراه أسماء غريب؟

٨٧. المرأة، كيف تراها أسماء غريب وتقيّمُ مسارها الحضاريّ؟

٨٨. السّعادة في حياة أسماء غريب، ماذا عنها؟

٨٩. كيف فاتكِ أن تترجمي ما تحملينه من رؤى في نصوص روائية تصبُّ في ألق الكلمة الصّافية صفاء نسيم الصَّباح؟

٩٠. المبدعون والنّرجسيّة أيّة علاقة بينهما، وإلى أيّ مدى ترى أسماء غريب أنَّ المبدع يمكنه أن يشفى يوماً من نرجسيّته؟!

٩١. لماذا يفشل المرء في الحبِّ، في قيادة نفسه، في تجنّب الأحزان والمآسي الَّتي تلاحقه أينما كان؟

٩٢. ما رأيكِ بتأسيس وزارة السَّلام في كلِّ دولة من دول العالم، وتأسيس هيئة سلام عالميّة، وتكون وزارات السَّلام تابعة لهذه الهيئة العالميّة لتحقيق ما يتطلَّبه السَّلام بشكل قانوني في كلِّ دول العالم؟

٩٣. ماذا عن ثقافة الحوار في العالم العربي؟

٩٤. السَّفر في حياة أسماء غريب، ماذا عنه؟

٩٥. ماذا كانت تحبّ أسماء غريب أن تكون غير ما هي عليه الآن؟

٩٦. القراءة وإشكاليَّاتها الثّقافيّة والفلسفيّة والتَّأويليّة، كيف تواجهها أسماء غريب؟

٩٧. لنعد إلى صقلية أو جزيرة الشَّمس كما تحبّين تسميتها، ماذا عن المسرح فيها وبالذّات مسرح الطّفل؟

٩٨. ماذا عن جديدكِ الإبداعيّ؟

٩٩. بعد عامين قضيتهِما في الرَّدِّ على أسئلة هذا الحوار كيف تقيّمين رحلتكِ المئويّة هذه؟!

١٠٠. كلمة أخيرة تكون خاتمة لهذا الحوار.

الملاحق

- التَّعقيبات الّتي عقّب بها صبري يوسف على مجموعة من الأسئلة الخاصّة بالجزء الثّاني من هذا الحوار.

الجـزء الأوَّل

كلمة صبري يوسف

ما الدافع الَّذي دفعني لإجراء هذا الحوار مع الأديبة المبدعة أسماء غريب، في نفس الوقت الَّذي أجريتُ حواراً مع الذّات (ذاتي)، ألف سؤال وسؤال على مدى الشُّهور الثّمانية الأولى من هذا العام ٢٠١٧؟! لأنّني لو لم أجرِ هذا الحوار في حينه ما كنتُ سأتمكّن من إجرائه أبداً بهذا الشُّمول!!!

ليس سهلاً أن تحاور شخصيّة أدبيّة سامقة مثل الأديبة والشّاعرة والنّاقدة المغربيّة د. أسماء غريب حول تجربتها الأدبيّة والنّقديّة والفكريّة والفنّيّة بكلِّ شمولها وتفاصيلها، وقد بدا لي هذا جليّاً من خلال إطلاعي على أدبها ودراساتها النّقديّة وشعرها ونثرها ونصوصها، وتوغّلي في بهاء تشكيل لونها وترميزاتها المتناغمة مع رؤاها في الحياة، فهي تكتب وفي ذهنها وفكرها وخيالها مشروع إبداعي فكري روحي، تترجمه عبر حرفها المضمّخ بالمحبّة والفرح والأمل والسَّلام وأرقى ما في إنسانيّة الإنسان، فهي مبدعة شامخة على أكثر من مسارٍ إبداعي، تعرّشتْ عميقاً بالحرف والكتابة منذ أن كانت يافعة، كأنّ طينتها محبوكة من الأعالي وانبعثت نحو خصوبة الأرض كي تُحبكَ لنا أشهى ما لديها من تجلّيات الإبداع المتهاطلة عليها من سموِّ السَّماء ومن تدفُّقات مخيالها وشفافيّة روحها وروعة آفاقها الجامحة نحو مرامي السَّلام، وهي أشبه ما تكون راهبة جامحة نحو مرافئ الكلمة الخلَّاقة، وكلّما توغَّلتُ في فضاءات كتاباتها، تلمّستُ ينابيع رقراقة تتدفّقُ من انبعاثات إبداعها، لهذا رأيتني أغوص في عوالم كتاباتها على مدى أكثر من خمس سنوات، أقرأ كل ما وقع تحت عيني وبصيرتي من تجلّياتها الشّاهقة، فأسرني حرفها، وقدّمتْ لي فضاءً متميّزاً لم ألمسه عند الكثير الكثير من كتَّاب وكاتبات الضّاد من حيث جموحها الرُّوحاني الشّفاف، وطينتها الإنسانيّة الرّاقية، حتَّى يُخيلّ إليّ أنّها هديّة الأعالي، أرسلتْها لنا آلهة الحبّ والفرح والعطاء من فوق، من عرين السَّماء كي تقدِّم لنا كل هذا الجمال الأدبي والفكري والرُّوحي، وهي مبدعة من طراز الأزاهير الفوّاحة، لأنَّ جلّ تركيزها هو تقديم أبهى ما في الجمال والخير والمحبّة والفضيلة والسّلام للبشر

كلّ البشر. وتبدو لي المبدعة أسماء غريب، هذه الكاتبة الإنسانة الرّهيفة، النّقيّة، الصّافية، المجنّحة نحو الينابيع العذبة، كأنّها بأشدِّ الشّوق أن تسقي عطاشى هذا العالم من مائها العذب الّذي تنثره كحبَّات المطر على وجه الدُّنيا عبر حرفها المعبّق كنداوة نسيم الصَّباح، حيث أغلب كتاباتها تقطفها في الصَّباح الباكر، بعد أن تتأمَّل عميقاً فيما يراودها من رؤى وأفكار خلَّاقة، فتأتي نصوصها مبرعمة بألق الشَّفق الصَّباحي وهلالات بوح المطر، فهي غزيرة الأفكار والانبعاثات الرَّاقية وهذا الفيض يتدفّق من عوالمها الباطنيّة المكتنزة بتلألؤات النّجوم وسطوع القمر، ووميض النّيازك، فيأتي حرفها معبَّقاً بأريج السَّوسن والنّرجس البرّي وشهوة انبعاث الأمل من مآقي السَّماء، فتنسجُ حرفها وهي معتكفة في محرابها وفي أوج ألقها وصفاء روحها كأنّها في رحلة ابتهاليّة بهيجة تطوف في مروجِ الكون، وترسم تطوافها بمتعة غامرة، وتجسّد آفاق رؤاها كأنّها في سباق مع الزّمن كي لا يفلتَ منها وشائج ومِيض الإبداع، فهي كائنة مستتبتة من روح الزّمن، من وهجِ الحياة، من الحلم المنبعث من طيف الخيال، من ضياءِ الشَّمس، من صفوةِ الماء الزُّلال، من بسمة الأطفال، من أحلامٍ مرفرفة في ضرعِ السَّماء، حيث نراها في حالة تأمُّل وتواصل مع بهاء اللّيل والنّهار، تكتب وتقرأ بهدوءٍ عميق وهي على موعدٍ دائم مع إشراقة الصَّباح، ومع تهاطلات زخّات المطر، قرأتْ كثيراً، وكتبَتْ كثيراً، وبعد رحلة فسيحة في محراب الحياة، وجدَتْ أنَّ جوهر الحياة منبعث ومرتكز على هذا الحرف الّذي تدلقه على خدود الحياة، كي يبقى خميرةَ فكرٍ لهذا الزّمان والأزمنة القادمة، وتجدُ سلوى في معانقة الحرف كأنّه شهيقها الأزلي المبرعم من كينونتها منذ الأزل، ويمنحها الهدوء والسكينة والفرح والأمل المنشود على مساحات بوح الرُّوح إلى الأبد.

كم أشعر بالغبطة لأنّني مع الدّكتورة غريب أنجزنا هذا الحوار، ولا أخفي على أسماء غريب ولا على القرّاء أنَّني كنتُ بصدد إجراء حوار موسوعي معها على شاكلة حوار مع الذّات: ألف سؤال وسؤال، لكنّي شعرت في قرارة نفسي وكأنّني أقفُ عائقاً في تدفُّقات حرفها، لهذا اكتفيت أن أجري حواراً مكثَّفاً من مئة سؤال، تاركاً لها

حرّية الإبحار في هذا الحوار بكل تشعُّباته ودقائقه، ويتفرّع منه عشرات الأسئلة الفرعيّة وكأنّه بمثابةِ اختزالٍ لألفٍ سؤال وسؤال، وممكن أن تتطرَّق مبدعتنا إلى ما يحلو لها من تساؤلات وإجابات، وأتساءل هل تمكّنتُ عبر حواري أن أقدِّمها بطريقة جديدة للقارئ والقارئة وكأنّها تحبك بتكثيف كبير سيرتها الإبداعيّة الفكريّة الرُّوحيّة وتجلّياتها الرّهيفة، وهكذا وُلِدَ هذا الحوار من رغبة عميقة في تقديم هذه المبدعة بطريقة غير مسبوقة، حيث أغلب الحوارات الّتي يجريها الصّحافيون والصّحافيات هي حوارات تقليديّة عابرة ولا تتطرّق إلى مساحات شاهقة من آفاق المبدعين، فلا يتمكَّن المتحاور معه/ معها أن يغوص/ تغوصَ عميقاً في عوالمه/ عوالمها كما تستهويه أو يستهويها، لهذا أحببتُ أن أغوص عميقاً في أغلب محاور تجلِّيات أسماء غريب الإبداعيّة، كي أنبشَ عبر إجاباتها ما لديها من دررٍ ثمينة، وأقدّمها للقارئ والقارئة على طبق من حنين وفرح وبهاء جامح نحو رحاب الإبداع، وكم سرّني عندما وافقت على إجراء هذا الحوار، وإذ بي أجدني خلال أواخر أيام ٢٠١٦ وعلى مدى ثلاثة أيام متواصلة أنسج حواري، فجاءت محاوره من وحي قراءتي لأدب أسماء غريب ونقدها وترجماتها وشعرها ونثرها ونصوصها على مدى سنين طويلة، مركّزاً على شموليّة الحوار وكأنّها في رحلة رحبة في عرض سيرتها الإبداعيّة عبر هذا الحوار الشُّمولي، الّذي أجابت على الجزء الأوّل منه، وسوف تستكمل الجزء الثّاني في العام ٢٠١٨، بحسب مخطّطنا وبالاتفاق معها قرّرنا نشر هذا الجزء في العدد الخامس من مجلّة السَّلام الدَّوليّة الّتي أحرِّرها من ستوكهولم في نهاية كل عام كحصاد عام كامل من تواصل المبدعين والمبدعات مع إدارة المجلّة، أتركّكم أيُّها الأحبّة المتابعين والمتابعات مع فضاءات الجزء الأوّل من الحوار والذي أعتبره من الحوارات المهمّة الّتي أجريتها عبر سلسلة حواراتي مع الكثير من المبدعين والمبدعات:

١. ماذا تعني لكِ اللُّغة، الحرف، الكلمة، الكتابة؟!

اللّغةُ أسبَقُ مِنَ الحرف والكلمة، بلْ هيَ ليست بحاجة لهما تماماً، إنّهَا شأنُ الإنسانِ الدّاخليّ، وحديثُه الصّاخب أو الصّامتِ وإنْ كانَ أبكمَ أصمَّ. وما منْ كائنٍ حيّ على هذه البسيطة أو خارجَها أو داخلها أو حولَها إلّا ولهُ لُغَتُهُ، قُذِفتْ في جوفه منذُ أن تجلّى اللهُ بهِ ليُظْهِرَ لنا نفسَهُ ككنزِ الوجودِ الوحيدِ الأوحد. والكلُّ مِهذار، والكلُّ يُحَدِّثُ نفسَهُ بنفسِهِ وإن كان لا يعرفُ القراءة ولا الكتابة. لكنْ وإن كَثُر الحديثُ والكلامُ يبقى خيرُ كلامِ الإنسان التّسبيح، لأنّه لغةُ الكونِ بأسرِه، وحركتُه وعملُه، وهو الّذي به تدورُ الأفلاكُ وتتحرّكُ المحبّة، وينتشرُ النّورُ، ويُمْحَقُ الظّلام. والتّسبيح هو عملُ الإنسان الصّالح وسعيُه للخير في كلّ الأحوال والأكوان.

أمّا الحرفُ، فهو رسولٌ ونبيّ من أنبياء الله المُكَلّفين بِنَقْلِ رسالتهِ إلى العالمين كافّةً، وآدمُ هو سيّد الحروف الأوّل، به ظهرتِ الأسماءُ واكتملتِ العلومُ، وأزهرَ الكونُ وشَعْشَعَتِ المعارفُ، وأمّا الكلمةُ فهِي الرّسالةُ الكُبرى، وهي المسيحُ عيسى ابن مريم مصداقاً لقوله عزّ وجلّ في سورة آل عمران: ((إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)) (آل عمران:٤٥)، أمّا الكتابة فهي كتابة الخالقِ فوق سِفر الكون بيده الكريمة، كتابة هي رديفة لفعلَيِ الخلق والتّخليق، بسرٍّ، ((وإِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)) (يس: ٨٢).

٢. كيف تنظرين إلى اختراغ اللُّغة والإبداع؟!

اللّغة كما يفهَمُها عامّة النّاس هي بالنّسبة لي قيدٌ وسجنٌ، إنّها حجابٌ كثيف يحولُ دون الماء والهواء، ويخنقُ الحياةَ في الجسد، ومهما تحدّثَ بها أو كتبَ بأحرفها إنسانٌ فهي لا تُحرّرُه أبداً: ثمّة بلايين منَ المُجَلّدات والأوراق، وشلّالات من حبرٍ سُكِبَ من أقصى الأرض إلى أقصاها في شتّى العلوم والمعارف وعلى مرّ

الأزمنة والعصور، لكنّ الإنسانَ على الرّغم من كلّ هذا لم يُدرِكْ بعدُ خلاصَه. اللّغةُ الّتي لا تُزَلزِلُ الكيانَ وأرضَ البدن، ليست بلغة تماماً. على اللّغة أنْ تكونَ طوفاناً يجرفُ كلَّ شيء، يُفْرِغُ الإنسانَ من الدّاخل، ويُحْدِثُ بأعماقِهِ مِحرقة. ولغةُ الإنسان الأولى والأخيرة انقرضتْ مع كامل الأسف، وأعني بها لغة العشق. فالعشقُ وحده هو الطّوفان، والعشقُ وحده هو الزّلزال، بلْ هُو التّعرّي من أعرافِ العُقَلاء. إنّهُ السّرّ الّذي يُذاق ولا يُعقل. لذا فإنّ الإبداعَ اليومَ قاصر وعاجز عن التّعبير عن هذه اللُّغة. هذه اللُّغة الَّتي هي بالنّسبة لي أنثى تخترقُ الأُلْفَةَ، وتدفعُ بالحرفِ نحو أفق المُستحيل، لتحفّزَه على قول ما لا يُقالُ، ووصفِ ما لا يوصفُ وكتابة ما لا تطيقه ريشة أو دواة. إنّها اللُّغة اللّيليّة والفجريّة الّتي تُفصحُ عن الجمعِ بلغة الفرقِ، وعن الوحدانيّة بلغة التّعدُّد، وعن القربِ بلغة البُعد، وعن الكلام بلغة الصّمت.

٣. طفولتك كتابة خلّاقة من حيث تشبّعك في ألق الحرف ورعاية أسرة فيها من تجلّيات الحرف الشَّيء الكثير، ما دور عوالم طفولتك في انبعاث حفاوة الحرف لديكِ إبداعيّاً؟

لي طفولتان؛ طفولة عشتُها معَ خالقِي وهي الأصل، وطفولة عشتُها مع والدَيَّ وهي الصّورة. ولي ذاكرتان مُتداخلتانِ عن كلّ واحدةٍ من هاتَين الطّفولتَين، تُكمِّلُ أولاهما الثّانية وتتلاحمُ معها. فأمّا طفولتي الأولى، فأعني بها تلكَ الّتي قضيتُها في الملكوت وأنا لم أزل بعدُ روحاً حيّة بدون جسدٍ ترابيّ، وبقيَ لي منها شغفِي الفطريّ والعفويّ بالله، وبكلّ تجلّياته فوق الأرض، وهذا ما يُفَسِّرُ أيضاً حبّي للطّبيعة الغنّاءة الخضراء، وجِنانها المورقة المُزهرة، وحقولها العطرة الطّيّبة، وطيورها العجيبة، وأنغامها الفريدة. وأمّا طفولتي مع والدَيّ، فهي نعمةُ النّعم، عشتُها مع أمٍّ هي ملاكٌ في صورة بشر، علّمتني أبجديّة الحياة وأسرارها، متوّجةً إيّاي في الختام بإكليل الصّبر والصّمت. أُمّي هيَ مُعلّمتي الأولى الّتي شربتُ من لبن حرفها

الكثير، بدءاً من أمور التّدبير المنزليّ، إلى الدّراسة والجدّ والمُثابرة، إلى الصّبر على الآخرين وتفهُّم ظروف النّاس وأحوالهم. إنّها البحرُ الّذي كنتُ كلّما شربتُ منهُ ازددتُ عطشاً وطلبتُ المزيد والمزيدَ، وقد أثَّرَتْ كثيراً في مساري الأدبيّ والإبداعيّ: فكثيراً ما أراها إلى جانبي في كلّ شيء، وكثيراً ما أسمعُ كلماتها تتردّدُ في جوف قلبي، وهي تحثُّني بكلّ حنان ومحبّة على طلبِ العلم، والتَّقدّم فيه، وتُعَلّمني كيف أمشي في درب الحياة وأكونَ زوجةً صالحةً صاحبةَ ميزان عادلٍ، ينشُدُ الموازنة بين الأمور، وعدمَ الإسراف في شيء ما على حساب شيءٍ آخرَ، إلى أن أصبحتُ ما أنا عليه اليوم. ومهما قلتُ في حقّها من كلامٍ فإنّي لن أوفيها حقّها، فاللّهم ارحمها حيثُ هيَ، واجعل الفردوسَ مثواها مع الأولياء والقدّيسين، وأبلغْها في كلّ لحظة وحين سلامي، وألحقني بها وأنا من عبادك الصّالحين الطّاهرين المُطهّرين.

(في الصور: أسماء غريب ووالديْها)

٤. ماذا ترك لكِ الأبُ، الجدّ من أثر في جموحِ مخيالك الإبداعي؟

والدي روايةٌ من مئات المُجلّدات، مهما كتبتُ أو تحدّثتُ عنهُ فلن يكفيَني حبرُ العالم بأسره، ولا أوراق الدّفاتر والمذكّرات مهما كثُرَتْ أو طالتْ. هُوَ كأمّي، مدرستي الأولى، وجامعتي ومحرابي، إلّا أنّ أبجديتهُ تختلفُ عن أبجديتِهَا كثيراً؛ فهي الغارُ، والهدوءُ والسّكينة والرّحِمُ، وهُو البحرُ العميق، الجامعُ بين الشّيء وضدِّهِ. وهو قبل كلّ هذا وذاكَ "ابني الأصغر".

نعم، لقد كان يقول لي كلّما حاصرتُهُ بمناقشاتي وتحليلاتي الفلسفيّة أو اللّاهوتيّة: ((إنّني في كثير من الأحيان يا ابنتي أشعرُ أنّك مُعلّمتي وأستاذتي. أنتِ يا ابنتي أمُّ أبيكِ)) ومن هنا جاءت العديدُ من قصائدي الّتي أتحدّثُ فيها عن علاقتي بوالدي، كعلاقة سالكٍ ومريد متبادلة القُطْبيْنِ والدّوريْن (يرجى في هذا الإطار الاطّلاع على إصداريَّ الحديثيْن (أنا رع)، وكذلك (٩٩ قصيدة عنكَ)).

كان والدي حكّاءً بالفطرة، وكان كثيراً ما يجمعُنا حول مائدته ليروي لنا حكايات طفولته، وشبابه ومغامراته. وكنتُ كثيراً ما أحَلِّقُ في فضاءات سردهِ عن مكان ولادته وتاريخ أجدادي، وحديثِه عن نسبِنا الشَّريف، وعن قصّة حبّهِ لوالدتي، وعن عمله وتغيّرات الزّمن والنّاس والأهل والأحبّة معه وأشياء كثيرة أخرى. لقد كان بطلنا جميعاً بشكلٍ فيه الشّيء الكثير من أبطال الحكايات الشّعبيّة الأسطوريّة. وكنتُ أستمتعُ للغاية بطريقتهِ في الحكْيِ وشدّ الانتباه والأنفاس: لقد كانت شخصيّتهُ تُجَسّدُ لي ما في وطني المغرب الحبيب من أسرار وسحر وكنوز. لذا فلا عجبَ أنْ يكونَ عالمُ والدي، بالنّسبة لي عالماً غريباً وعجيباً، ضارباً في أعماق التّاريخ، ومُرْتكِزاً في الوقت ذاته على الواقع والحاضر. إنّه حقّاً بحْرٌ وصحراء؛ بحرٌ إذا ما شربتَ منهُ عطشْتَ، وصحراءٌ إذا ما توغّلتَ في فيافيها لم تنلْ منها سوى السّراب وحفنةٍ من الأحلام. كلّ هذا، كان يجعلُ منهُ بالنّسبة لي سرّاً عظيماً ساهم كثيراً في تكوين شخصيّتي، وبالتّالي في طريقة الكتابة والإبداع لديّ لاحقاً.

أمّا عملُه فقد أثّرَ عليّ بشكل خاصّ ومباشر: كانَ مُحَقِّقاً في سلكِ النّيابة العامّة بمحاكم الاستئناف، ثمّ محرّراً قضائيّاً ممتازاً، وإنّي لأعتقدُ أنّ هذا الجانبَ من شخصيّتِه ظَهَرَ لاحقاً وبشكل واضحٍ في طريقة عملي على النّصوص الّتي أتناولُها بالدّراسة والنّقد، وحتّى وإن تعلّقَ الأمرُ بنصوص أدبيّة شعريّة أو تشكيليّة أو سرديّة، إلّا أنّني أتعاملُ معها في كثير من الأحيان بعين وعقليّة المُحقّقِ الّذي يغوصُ في ماورائيّات الحرف والكلمة، محاولاً الإلمام بكلّ الخيوط الّتي ساهمت بشكلٍ أو بآخر في ولادة نصّ إبداعيّ ما.

وماذا أقولُ عن جدّي لأمّي؟ إنّهُ الأنفة والعزّة والكبرياء، والحكمةُ والصّمت الشّديد قبل كلّ شيءٍ: لا يحبُّ كثرةَ الكلام، كثير العبادة والخلوة. مُعلّمي الأكبر الّذي سقاني كأسَ السّرّ، وأدخلني إلى حانة العرفاء.

د. أسماء غريب

من الوثائق القديمة جدا التي حرّرها السلطان المغربي العلوي أبو الفضل عبد الرحمن بن هشام بتاريخ 18 شوال 1261 هـ ، وهي عبارة عن ظهير ملكي يوصي فيها ولاته وخدامه بتعظيم شأن السادة الشرفاء أولاد مولاي بوحي (أيْ أبو يحيى) القاطنين آنذاك بتادلة، وهم أجدادنا وفرع من شجرة نسبنا المحمدي الشريف

(في الصّور: الجَدُّ للأمّ، والوالد، ثمَّ ظهير النّسب الشّريف)

٥. بماذا كنتِ تحلمينَ وأنتِ طفلة؟ والآن بماذا تحلمين، هل ثمة تقاطع وتناغم بين الحلمَين؟

ثمّة جدارٌ فاصلٌ بيني وبين الأحلام: أنا لا أحلُمُ وإنّما أرى، ولا أريدُ، ولا أطمحُ، وإنّما أسعى وأعملُ. وإذا ما حدثَ وتحقّقَ شيءٌ ما في حياتي، فإنّه يكونُ نتيجة كدّي وعملي.

منذ نعومة طفولتي تعلّمتُ أنّ الأحلامَ للنُّوَمِ مِنَ الخَلْقِ، وأنّ الأفعالَ والأعمالَ لليقظى. وأومنُ أكثرَ بالرّؤيا أكثر من الحُلُم، وبالسّعي أكثر من التَّمنّي والرّجاء، وبدور الخالقِ في تحديد مصير الإنسان وتوجيهه أكثر من قدرة الإنسان نفسه على رسم خطوط حياته بشكل نهائيّ أو حتميّ. إنّما هي النّوايا فقط الّتي تُميّز إنساناً عن آخر، ولكلّ امرئٍ ما نوى. وقد يقولُ قائلٌ إنّ الإنسانَ هو الّذي عليه أن يتولّى زمام أموره في كلّ شيء مهما كان صغيراً أو كبيراً، وأقول إنّ ذلك صحيحٌ، ولكن إلى حدٍّ ما، لأنّ الكلمة الأولى والأخيرة تبقى للخالق، صاحبَ سرّ الخَلق الأوّل، والعارفَ بسببِ وكُنْهِ وجود الكون وعلّته.

صحيح أنَّ العديد من الثَّقافات والحضارات سعتْ إلى تحقيق ما يسمّى بالإنسانِ الكاملِ كما اصْطَلَحَ على تسميتِه العديدُ من العرفاء المسلمين، أو السّوبّرمان كمّا سمّوه فلاسفة الغرب، أيْ ذاكَ الّذي يمكنه أن يستغني عن الله تماماً في حياته، وتكونَ لهُ بالتَّالي القدرة على تحقيق كلّ أحلامه، وصنع حياته كما يريد ويشاء هُوَ، لكنّ واقع الأمور والتّجارب الإنسانيّة، أثبتَا أنّ فكرة الإنسان الكامل أو السُّوبرمان، أمرٌ وهميّ، فهي تدعو إلى محوِ الخالق على حساب الإنسان الّذي إذا ما لسعتْهُ بعوضة نكّدت عليه يومه وحياته، وإذا ما ضربتهُ صاعقة أردته قتيلاً، وإذا ما أصابه فيروس صغير جدّاً جعلهُ طريح فراش المرض، والألم وقد يحملُه على النّعش إلى مثواه الأخير.

إنّما الكمالُ لا يتحقَّق إلّا بالله، وأعني بهِ كمالَ الخُلُقِ والفضيلة، وكمال الرّوح الّتي إذا ما بلغت مدارج الصّفاء هتفتْ وقالت: حقِّقْ يا إلهي مشيئتكَ فيّ ولِي وبيّ. وتنازلتْ عن كلّ بريقٍ وبهرج. إنّما السرُّ يا سادتي في هذه ((اللّا أريد))، والحيرة كلّ الحيرة في فعل ((أريد)) الّذي يردّدُهُ ويهتفُ به الجميع. إنّنا أمام نظومة اترك نفسكَ وتعالَ: إنّها الحلّ لكلّ العلل والأمراض، وهي مفتاح الخير والنّعيم كلّه، إنّها الباب إلى السرّ، وسرّ السرّ.

٦. ما هي أبرز منعطفات طفولتك الّتي أثّرت في تشكيل عالمكِ الإبداعي؟

أعتقدُ أنّ علاقَتِي بوالدتِي كانتْ أكثر ما أثّرَ في تشكيل عالميّ الإبداعيّ لليوم، فلقد كانتْ تسهرُ على تعليمي شخصيّاً منذُ نعومة أظافري باعتبارها كانت بالنّسبة لي امرأةً من أرقى نساء التّعليم في المؤسّسات الحكوميّة بالمغرب.

كانتْ رَحِمَهَا اللهُ تجيدُ الاستماعَ إليّ، وتعتنِي جيّداً بمَلَكَتي الرُّؤْيَوِيّة وتُحْسِنُ الحفاظَ عليها وحمايتَها من فضول المُتطفّلين، فلقد كانتْ تعلمُ منذُ البداية أنّني مِنَ الطّفلات الرّائيات، وكانَ هذا يعني بالنّسبة لَها أنْ تُعِدّني لأكونَ من أهْلِ الحرفِ والأدبِ والإبداع، فوجّهتْ طاقتِي نحو القراءة والجِدّ والمُثابرة والتّحْصيل. وحينما كبُرتُ وحانَ وقت اختيار شُعبة التّعليم الجامعيّ، ساندتنِي بكلّ ما كانتْ تملكُ من طاقةٍ ومحبّة.

وكان والدِي يُصرُّ آنذاكَ على أنْ أختار كلّية الحقوق والعلوم الاقتصاديّة والقانونيّة، لأنّهُ كانَ يُريدني أنْ أصبحَ قاضيةً أو وكيلةً للملكِ. وأذكُرُ أنّني أذعنتُ في بدايةِ الأمرِ لوجهة نظره على سبيل التّجربة، لكنْ ما إنْ مرَّتْ سنتَانِ حتّى وجدتُني أهجُر مقاعد الدّروس القانونيّة، وألتحقُ فيما بعد بالدّراساتِ الأدبية والفلسفيّة، ثمّ الدِّراسات التّاريخيّة الّتي هي تخصّصي الحقّ، وكان أنْ حقّقتُ فيها نجاحاً مُنقطعَ النّظير فباركني والدي في كلّ خطواتِي. ويبقى هُو قبل كلّ شيء

المسؤول الأوّل على ما أنا فيهِ منْ عشقٍ للأدب والتّنظير الفلسفي واللّاهوتيّ وما إليهما.

كانَ والدي يُجلسني إلى جواره في كثير من الأحيان (وخاصّة في أيّام العطل المدرسيّة)، ويُدخلني وإيّاه في مناقشاتٍ فقهيّة عميقة على الرّغم من حداثة سنّي آنذاك، وأذكرُ كيفَ أنّه كان يطلبُ منّي إلى جانب هذا أنْ أعلّقَ على روائع الشِّعْرِ الّتي كان يغنّيها آنذاك عمالقةُ الفنّ والغناء العربيّيْنِ بمَنْ فيهم؛ زهرة عبد الحسين، وأمّ كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطرش وناظم الغزالي وصباح فخري ووديع الصّافي وغيرهم، ولا أنسى أبداً بكاءهُ الحارق كلّما استمعَ إلى آياتٍ من الذّكر الحكيم بصوت الشّيخ عبد الباسط عبد الصّمد وهُو يرتّلُ يس ويوسف والرّحمن والتّكوير والشّمس والكوثر. إضافةً إلى ما كان يُتيحُه لِي من قراءات شاهقة لمُجمل ما كنتُ أجدُه في مكتبته الثَّريّة من أعمال أدبيّة وفلسفيّة وفقهيّة. لقد كان يحرصُ كلّ الحرص على أن آخذ من بحرِ الحرفِ أبهى ما فيه من لؤلؤ ومرجان.

هو أعطاني المفتاحَ، وأنا فتحتُ الباب على مصراعيه، واخترتُ من بيْتِ الحرفِ ما يوافقُ طبيعتي الفكريّة والرّوحيّة. ولا يسعني سوى أن أشكُرَهُ من هذا المنبر، وأشْكُرَ معه والدتي الحبيبة، واللهَ أرجو أن يرحمَهُما كما ربّياني صغيرةً، ويجعلَهُما ممّنْ تُقْبِلُ عليهمُ الجنّةُ، ويشتاقُ إليهُمُ الفردوسُ، فيَحْظَيانِ برفقةِ الملائكة والأنبياء والقدّيسين الأطهار. فاللّهم يا رَبَّ السّموات السَّبْع وَمَا أَظْلَلْنَ، وَرَبَّ الأَرَضِينَ السَّبْعِ وَمَا أَقْلَلْنَ اجْعلْ والديَّ فِي ضَمانكَ وأَمَانِكَ وإِحْسَانكَ، وكُنْ لهُمَا الرّفيقَ والأنيسَ الّذي لا رفيقَ ولا أنيسَ قبلهُ أوْ بَعْدَهُ، وأبْلِغهُمَا وهما عندكَ سلامِي ومحبّتي، وشُكْري الجزيل لهمَا حتّى لا يبقى من الشُّكْرِ حرفٌ. ولكَ ختاماً إلهي أجملَ وأنبلَ آيات الامتنانِ والعرفانِ لأنّكَ أنتَ ولا أحدَ غيركَ من أنعمَ عليّ بهِمَا، فكانَا معاً في حياتِي يدَ كرمٍ وعطاءٍ، وقنديلَ محبّةٍ وهناءٍ، وأسمى وأرقىَ آيةٍ عرّفَتْني بكَ ودلّتْني عليْكَ.

٧. من خلال قراءتي لكتاباتك، أرى وكأنّ هناك طفلة مجنّحة في روحانيّتك نحو فضاء البراءة والصَّفاء والسَّلام والحب والحياة، هل انطباعي دقيق في هذا السِّياق؟!

الصّبرُ هو بابُ الطّفولةِ والسّلامِ والمحبّة، والإنسانُ لا يأتي إلى هذه الحياة من أجل نزهة بين المروج الغنّاءة، والاستمتاع بأوقات يقضيها في اللّعب والمسامرات والعيش الرّغيد الهنيّ فقط، إنّما الحياةُ هي للعبادة، وخير العبادات العمل، ولرُبّ إنسانٍ عامل يكدحُ من أجل قوتِ يومه وقوت عياله وأهله، خير من عابدٍ يقضي ليله ونهاره في المحراب. والعبادة الَّتي أشرتُ إليها تقتضي الصّبرَ: الصّبرَ على النّفس وحيَلها وحبالها وألاعيبها وتلوّناتها، والصّبرَ على الزّمن، والصّبر على الآخرين، والصّبرَ على الصّبر نفسه؛ لأنّه بالصّبرِ وحده يُمْكِنُ للإنسان أن يتعلّمَ كيف يعيشُ ويتعايشُ مع الآخرين، ويفهمَ بالتّالي ضعفَهم فيما قد يُظهرونه من قوّة واستعلاء. وبالصّبرِ وحده يُدْرِكُ الإنسانُ موتَ النّفس، وأعني بهذا انطفاء نيران الشّهوة والغضب، والحسد والطّمع، والغلّ والحقد، والغرور والفساد. وإذا ما ماتتِ النّفسُ، عادت للإنسان طفولته، وهناءة باله وكذا قدرته على الإبداع الصّافي ليس في مجال الكتابة أو التّشكيل الفنّي فحسب، ولكنْ في كلّ مجالات الحياة، فالزّوجةُ تُبدع في بيتها وفي تربيتها لأبنائها وحرصها على ضمان السّعادة لكلّ المحيطين بها، والزّوجُ كذلك يُبدعُ في عمله أينما وكيفما كان هذا العمل، سواء في المدرسة، أو المعمل، أو الحقل، أو الشّركة، أو المستشفى، أو المنجم... وكلّ إنسان يُعطي أحسن وأجمل ما بداخله طالما يعملُ جادّاً وجاهداً من أجل الحفاظ على الطّفل حيّاً بداخله، والنَّتيجة بالتَّالي تكون فيضاً من الخير والجمالِ على كافّة المجتمعات. لكن والحال أنّ كلّاً في صراع معَ نفسهِ، وخصام مع روحه، فإنّ هذا الصّراع والخصام، والشَّرّ والعذابَ سيحلّ على الجميع، ولا يدَ لله في كلّ هذا أبداً، لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ، إنّما هي أعمالُ النّاسِ تُرَدُّ إليهم وفقاً لقاعدة فيزيائيّة دقيقة جدّاً لا مجال فيها

للخطأ، إذ لكلّ قوّة فعلٍ، قوّة ردّ فعلٍ، مساوية لها في المقدار ومعاكسة لها في الاتجاه، فإذا زرعَ الإنسانُ خيراً جنى خيراً، وإذا زرع شرّاً فلن يجني إلّا الشرّ، ما عدا في حالة واحدة، وأعني بها، إذا ما حظيَ بعنايةِ ورحمة الله الّذي يتدخّلُ من أجل تحويل الشرّ إلى خير، وسدرة الشّوكِ إلى حقول من الأقحوان والياسمين رأفةً ومحبَّةً منه للنّاس والأرض.

والصّبرُ يقتضي الصّمتَ أيضاً، فلا تنفعُ كثرةُ الكلام والجدال والمهاترات مع النّاس بداعٍ وبدونه، وخيرُ الكلام ما قلّ ودلَّ. ولغةُ العتابِ والشَّدّ والجذب الَّتي نراها اليومَ في المجتمعات لا تجلبُ إلّا الهلاك، والتّعاسة ومضيعة الوقت، لذا فإنّ من الأفضل تجنُّبهَا. ومادُمنا في دار الكدّ والعمل والاجتهاد، على الإنسانِ أن يبتعدَ عن كلّ ما يهدرُ وقتَهُ، وإذا تكلّمَ فليقُلْ خيراً، أو فليصمت، وقولُ الخيرِ بالنّسبة للمبدعين الكُتّاب هو كتابةُ ما فيه الخيرُ للنّاس كافّة، ومدّ الفِكْرِ بمَا يُحييهِ ويعيدُ له صفاء القلب والرّوح، غير هذا فليُمْسِكْ كلٌّ قلمَهُ عن كتابات لا شيء فيها سوى هدمِ الإنسان، واقتلاعِ شجرة المحبّة من قلبه.

٨. تمتلكين روحانيّة صافية صفاء العرفانيين الصُّوفيين، كأنّك في رحاب معبد للزهد والتَّرهبن، حفاظاً على نقاء الرُّوح والذّهن، هل هذا النُّزوع يحصّنُ روحَكِ ونفسَكِ وذهنَكِ من الشُّرورِ المتفشّية في الحياة؟!

صحيح أنّ الكثيرَ منَ النّاس يعتقدُونَ لليومِ أنّ انتهاج طريق الخُويْصةِ فيه منافعُ عدّة لمن ينشدُ الصّفاء والحفاظَ على نقاء الرّوح، لكنْ أيْنَ يفرُّ الإنسانُ من نفسِهِ؟!

ليس الخطرُ في مخالطةِ الإنسانِ لأخيهِ الإنسانِ، وليسَ الحلُّ هو الانعزالُ المُطلقُ عن النّاسِ، وإنّما الخطرُ كلّ الخطر في اختلاء النّفسِ بالإنسانِ قبل أن يبلغَ هذا الأخيرُ مدارجَ النّقاء. فالنّفسُ هي العدوُّ الأكبر، وهي الخزانةُ الّتي يخترقُها

الشّيطانُ والقرينُ، فيجدانِ فيها ما يحلو لهُمَا من القُمصان والأقنعةِ، يَلْبَسانِها لكلّ فِكرةٍ ومناسبةٍ وغرضٍ.

والنّفسُ هي السّاحةُ الّتي تقعُ فوقَهَا كلُّ الحُروبِ، فإمّا أن يَهْزِمَ فيها الإنسانُ شرورَهُ، وإمّا فإنّه يصبحُ الشّرَّ عينُه. وما فائدةُ أن يهربَ المرءُ من النّاس حتّى يتّقي شرّ "النّميمة" على سبيلِ المثال، وهُو يفتحُ حينمَا يختلِي بنفسهِ مجالسَ يتحدّثُ فيهَا لوحدهِ بكلّ سيّءٍ وخبيثٍ عنِ الخَلْق والخليقة؟!

لا تُكسبُ حروبُ الإنسانِ على نفسه إلّا وهُو وسطَ النّاس ومعهُم، فهُمْ مرآتُه، وبهُم يُمْكنُ أنْ يختبرَ قدُراتهِ وطاقاتهِ. لكن إذا ما حدثَ وتمَّ المُرادُ، وأعني به هُنا، وصولَ الإنسانِ إلى أعلى درجاتِ الانصهار وتصفيّة القلبِ من آفات النّفسِ، هنا فقط يمكنُهُ أن ينسحبَ منَ السّاحة ويبتعدَ ليخلو بروحه ويُقدّمَ أجملَ ما عندهُ؛ السّعادة والسّلام والصّفاء والهناء عبر التَّدبُّر في عصارة حياته وتجاربها.

٩. كيف تنظرين إلى العمر، الزَّمن الَّذي يعيشه المرء على الأرض؟

يا لهُ منْ سؤالٍ كبير! العمرُ هو المُدّة الزّمنيّة الّتي يهبُهَا الخالقُ لكلّ كائنٍ حيّ بما فيه الإنسانُ. وهُو أبديّ وأزليّ لا ينتهي على عكس ما يظنُّ الكثيرُ منَ النّاس، لأنّهُ مُجرّدُ تذكرةِ سَفرٍ تُعطى لكلّ واحدٍ ذهاباً وإيّاباً. سفر طويلٌ عريض، والمطاراتُ فيهِ ثلاثة؛ صُلبُ الوالدِ، ورحمُ الأمِّ، ثمّ جسدُه الّذي منهُ وفيه يكونُ الهبوط والإقلاع، وأؤكّدُ على هذين المُصطلحيْن "الهبوط والإقلاع"، لأنّ الإنسانَ كائنٌ مُحَلّقٌ كالطّائر بالضّبط. والرّوح فيه هي هذه الحمامةُ التي تتعدّدُ مقامات ومحطّاتُ سفرِها وتختلفُ من إنسان لآخر.

والعمرُ أمانة عظمى، يُسأل عنها الإنسان، فيمَ وكيف قضاها، بل كيف أخذها وكيف أعادها، وهل أحسن استثمارها أم لا؟

والعمرُ نحنُ من نصنعُهُ ونعطيهِ القيمةَ الّتي يستحقّها، فإمّا يكونُ حافلاً بالإنجازات، وإمّا يكونُ ممتلئاً بالتّرّهات. ولكلِّ امرئ ما سعى. والعمر لا يُباركهُ إلّا اللهُ، وقد يُنْجزُ شخصٌ قصيرُ الأمد ما يُنجزُهُ إنسان يعيشُ لسنواتٍ طوال. ولا توجد ثمّة علاقةٌ بين العمر والصّحّة وسلامة الجسم من الأمراض، وإنّما يُميتُ الإنسانَ أجلُهُ إذا انقضى، وليس جسدُه إذا أصابته علّة أو مرض. وقد يستطيعُ الإنسانُ تحسينَ طريقة عيشه، ومستواها، ويساعدُ الجسدَ على التَّطوّر والارتقاء، لكنّه لا يُمكنهُ أبداً، أن يطيلَ أجلَه أو عمره. وهذا ما يؤكِّدُ أنّ العُمرَ يُمْنحُ للإنسانُ ولا يأخذُهُ أخذاً.

١٠. ماذا تعني لك الحياة، وماذا تريدين أن تقدّمي في الحياة للحياة وللأجيال القادمة؟

الحياةُ محطّة فضائيّة كونيّة كبيرة جدّاً، والبثُّ فيها حيّ ومباشرٌ على مدار الأيّام والسّنين، وكلّ واحد فينا هو قناة إرسال خاصّة، وحياتُه سيناريو طويل تتعدّدُ فيه الشّخصيّاتُ وتتغيّرُ الأدوار، وتتشابكُ وتتأزّم فيه وتنفرجُ الأحداثُ. والكلُّ منهمكٌ في أداء دوره الّذي كَلَّفَهُ بهِ المُخرجُ الكونيّ الكبير: ربُّ العالمين أجمعين. ولا يهمُّ من تكونُ لحظةَ الإرسال؛ المُهمّ هو أن تؤدّيَ الدّورَ وتُبْدِعَ فيه، لا يهمُّ أن تكون شاعراً، أو وزيراً أو ملكاً، أو سفّاحاً أو طاغيةً، أو أن تكونَ سيّدةً فاضلةً، ذات خُلقٍ حميدٍ، أو راقصةً في أرخص الملاهي اللّيليّة، أو مُتسوّلاً في الشّوارع، أو عالِمَ ذرّة، أو طبيباً، أو قائداً حربيّاً. المهمُّ أنْ تُتْقِنَ العملَ والفعلَ والقولَ، وتكون طبيعيّاً إلى أقصى الحدود حتّى وأنتَ تُنافقُ أو تكذبُ أو تسرقُ، عليكَ أن تكونَ صادقاً في هذا أيضاً. فالوقتُ يجري، ولا أحدَ ينتظرُ أحداً، ولا أحدَ قلبُه على أو معَ الآخرِ فعلاً وحقيقةً إلّا في حالات نادرة جدّاً. والكلُّ مشتاقٌ إلى معرفةِ نهاية العرض. ولا تنسَ أيّها الإنسانُ أنّ حتّى حفّار القبور عليه أن يؤدّيَ دوره جيّداً وهو ينقلُ جثمانكَ إلى

مثواه الأخير، وكذا أصحابَ شركات نقل الموتى، وأعني هنا أنّه حتّى وأنتَ ميت، ستجدُ من يؤلّفُ أدواراً جديدة عن موتك، لأنّ جسدَك يساوي الملايين بالنّسبة لهُ حسبَ الأرض الّتي تنتمي إليها والعقائد الجاري بها العملُ عليها، فهناك من سيتفاوضُ مثلاً في السّيّارة الّتي ستنقلك، وشكل التّابوت الّذي سيضعونك فيه، وكذا نوع الماكياج والبخور الّذي يستحقّهُ رفاتكَ أو لا، ثمَّ هناك من سيتفاوضُ على درجات النّاس الّذين سيتبعونَ موكبكَ الأخير، وهلمّ جرّاً من الأشياء الأخرى الّتي تتعلّقُ بالإرث، إذا ما تركتَ شيئاً يركضُ خلفَهُ الرّاكضون ويتنافس عليه المتنافسون من أبنائك وأهلك. لذا، فإنَّ الحياة يا سادتي مسرحيّة لا تنتهي فصولها أبداً، وجمهورها عريضٌ جدّاً، فيهم البشرُ وغير البشر أيضاً من كائنات هذا الكون البديع.

أمّا وفيما يتعلّقُ بسؤالكَ عنْ ما الّذي أريد أن أقدّمهُ في الحياة وللأجيالِ القادمة، فأعتقدُ أنّ أهمّ شيءٍ يمكنُ أن يقوم به الإنسانُ في حياته، هو أن ينجوَ بروحِه من نفسِهِ. فإذا استطاعَ كلّ منّا أن يُحقّقَ هذه المعادلة الصّعبة فالباقي هو تحصيل حاصل، والّذي لن يكون فيه إلّا الخير لهُ ولكلّ الأجيال الّتي ستأتي بعده.

١١. كيف تنظرين إلى التّدريس الجامعيّ، وهل طمحتِ يوماً ما أن تكوني أستاذة جامعيّة أكاديميّة ينتفع من علمها الطّلابُ والمتعطّشون للنّهل من تجربتكِ الأدبيّة العميقة؟

هذا السّؤالُ جاء في وقتِه، لا سيما أنّ الكثيرينَ من الأصدقاء والزّملاء المتتبّعين لحرفي سواء في مجال النّقد أو الشّعر أو القصّة أو التّرجمة يعتقدونَ أنّني أستاذة جامعية، (ولا أعرفُ من أينَ أتوا باستنتاجهم هذا على الرّغم من أنّي لم يسبقْ لي أبداً أن صرّحتُ بذلك لأيّ منبر من المنابر الثّقافيّة)، وهو الأمر الّذي حانَ اليوم إيضاحُه: لم يَكُنِ التّدريسُ الجامعيّ ولوْ ليومٍ واحد من طموحاتي، بل هُو آخرُ شيءٍ يُمكن أنْ أفكّرَ فيه. البعضُ يعدّونه نوعاً من "البريستيج" الاجتماعيّ، أو

العصا السّحريّة الّتي تفتحُ ألفَ باب وباب، وأنا أراهُ باباً كبيراً من أبواب الجحيم المُستعرة. ما رأيتهُ خلالَ فتراتِ دراستي الجامعيّة سواء في المغرب أو بإيطاليا، فتحَ عينيَّ على الواقع المُزري الّذي يعيشُه العديدُ من الأساتذة الجامعيّين على الرّغم من المظاهر الكذّابة والمزيفّة الّتي يحاولونَ أنْ يُجمّلوا بهَا ما لا يُمْكِنُ تجميلُه: الفسادُ بينهُمْ مُستشرٍ في كلّ مكان، والكره والضّغينة والأحقاد متأجّجة في قلوبهم بشكلٍ فظيع. وليتَ الأمورُ تقفُ عند هذا الحدّ فحسب، إذ في كثير من المواقف يجدُ "الأستاذُ الجامعيّ" نفسَهُ أو من يأملُ أن يُصبحَ كذلكَ مضطرّاً لأن يحنيَ رأسَهُ ويتنازلَ، وأنا أعلمُ جيّداً عنْ ماذا أتحدّثُ؛ لقد رأيتُهم ينحنونَ، ويتنازلون، ورأيتُ الغالبيّة العظمى من الطّلبة، والمساعدين الجامعيّين يفعلونَ ذلك مراراً وتكراراً، وفيهُم من يَقْبَلُ على نفسه أنْ يصبحَ ظِلاًّ ذليلاً تابعاً لرئيسِه، وهلمّ جرّاً من المشاهد الَّتي يندَّى لها الجبينُ وأترفّعُ عن الحديثِ فيها. وأمرُ التّبعيّة هذا والتَّملّق وحالات الذُلّ والانبطاح تصدقُ على العديد من مجالات العمل وليس فقط العمل الجامعيّ. ثمّ هبْنِي تنازلتُ وفكّرتُ في الحصولِ على مقعدٍ جامعيٍّ، كيفَ سيُمْكنُنِي أن أخترقَ النّظامَ المافيوزيّ والبارونيّ والماسونيّ الّذي يخْلُقُهُ هذا النّوعُ من الأساتذة حولَهُمْ؟ وهبني أيضاً أصبحتُ بينهَم، هلْ سأقبلُ على نفسي أن أصبحَ "فاسدة" مثل الغالبية العظمى منهُم؟ ثم هبني بدأتُ أدَرّسُ في مدرّجاتهم، فكمْ ياترى ستخصّصُ لي الدّولة كأجرٍ لقاءَ ما سأبذله من مجهود؟ ربّما لا يعرفُ الكثيرُ أنّ أجرَ الأستاذ الجامعيّ هُنا في إيطاليا مثلاً لا يكفيهِ حتّى لسدادِ إيجار البيت الّذي يأويهِ، ولا حتّى ليغطّيَ تكلفة الحياة اليومية، هذا في حالة إذا ما صرفتْ لهُ الدّولةُ حقّا وحقيقةً مستحقاتَهُ المالية. ولربّما لا يعرفُ العديدُ من النّاس، أنّ الكثيرَ من الأساتذة يعملون "مجّاناً" وفيهم منْ لَمْ يتقاضَ أجرَه منذ سنوات، وليس منذ شهور! فبالله عليكُم ما الّذي سيُجْبِرُنِي على تحمّل واقع مُزْرٍ بهذا الشّكل؟ أليس من الأفضل لي أن أكرّس حياتي لما هو أهمّ من ذلك: عِلمي وأسرتي، وصدّقوني لنْ أضع "البريستيج الجامعيّ" فوق

المائدة وأتناوله في الوجبات اليوميّة. الحياةُ تقتضي أن يكونَ الإنسانُ واقعيّاً وعمليّاً. والعمل الجامعيّ فيه هدرٌ كبير للوقتِ والصّحّة والأعصابِ لمن هو منشغل بالإبداع والأدب، ولمنْ يحملُ همَّ الحرف على عاتقه. فالمبدعُ الأديبُ أو الفنّان، هو بحاجة ماسّةٍ إلى كلّ وقته لكي يبدعَ ويقرأ ويسافر ويوسّعَ دائرة علومه ومعارفه. والعمل الجامعيّ لن يسمح لهُ بهذا تماماً، وإن كانت الجامعات في بعض الأحيان تتفضّلُ على بعض الأساتذة ببعضِ المِنح للسّفر إلى بلدان عديدة من أجل البحث العلميّ.

مشكلتي أنّني لا أجيدُ الكذبَ على نفسي، ولا أعرف كيف أمنّيها بأشياء قد يراها غيري الأرفع والأرقى والأسمى. والتَّعليمُ الجامعيّ بواقعه المحزن اليوم، لم يكنْ ولن يكون أقصى ما أتمنّى، بل على العكسِ من ذلك تماماً: فأنا أنفرُ منه ومن أهله نفوراً شديداً، وإن حاولوا كثيراً في الزّمن الماضي معي، واستدعوني لأكثر من مرّة لأكونَ منهم ومعهم، لكن هيهات هيهات، ما كلّ ما يلمعُ ذهباً صافياً، وما كلّ من حملَ حقيبةً أستاذاً، وما كلّ من جلسَ على كرسيّ التّدريس شيخاً أو حكيماً، وما كلّ من ارتدى جبّة أو وزرة بقادرٍ على أن يُنتجَ للمجتمعات نشئاً صالحاً: والدّليل يا سادتي أمام أعيننا: هذا الجيلُ الفاشلُ في كلّ شيءٍ رغماً عن شهاداته العليا الَّتي أصبح يشتريها من "الأسواق" الجامعيّة وبأبخسِ الأثمان. لقد مضى ذاك الزّمان الّذي كانت فيه الجامعةُ محراباً لصلاة الحرف والأبجديّة. أيننا من جامعتَي القرويين والزَّيتونة، وجامعات دمشق ودور الحكمة في بغداد ونيودلهي وقمّ وأصفهان، بل أيننا من مجالس الفكر والفنّ في روما ولندن، وأيننا من مدارس الفلسفة في المغرب الأندلسيّ، بل من طلبةٍ أصبحوا فيما بعد ابن سينا وابن رشد وابن الهيثم وابن عربي والجيلي والنّفريّ وليوناردو دافينشي، وتوماس إيديسون، وهيجل وكانط وماركس، وتولستوي وغيرهم كثيرون؟ لا أحد في زمننا المعاصر، ومع كامل الأسف استطاع أن يقدّم ولو نظريّة واحدة حقيقيّة تنقذنا ممّا نحنُ فيه، ومازالت سوسةُ التّخلّف والرّجعيّة تنخرُ فكرَ الإنسان وتغسل دماغه كلّما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وكيف

لا، وفينا لليوم من يسألُ رجلَ الدّينِ هلِ القُبْلةُ بين الزّوجيْن في شهرِ رمضان تُفسِدُ الصّيام أم لا؟ واعجبي!

١٢. بعد مُناقشَتِكِ في جامعةِ الدّراساتِ والأبحاث بمدينة باليرمو لأطروحتَيْ الإجازة والماجستير اللّتَان كانتَا عن الحروف النّورانيّة في القرآن الكريم، وعن رحلة الإسراء والمعراج المحمّدية، أتتْ مرحلةُ تخرّجكِ في جامعة المعرفة بمدينة روما والتّي حصلتِ منها على شهادة الدكتوراه بميزة جيّد جدّاً مع مرتبة الشّرف عن أطروحتكِ الّتي تمّتْ مناقشتها سنة ٢٠١٢ وكانتْ بعنوان [الحداثة في المغرب من التّاريخ إلى الأدب: محمد بنّيس أنموذجا للدّراسة والبحث]: هلْ يُمكنكِ أن تحدّثي قُرّاءَكِ عن هذه المرحلة وعن ما بقي عالقاً في ذاكرتِكِ منها؟

روما هي مقام وجدانيّ لهُ مكانة عظيمة بقلبي، وهي من أرقى وأسمى المقامات الّتي ارتبطتُ بها روحيّاً منذ نعومة أظافري، أيْ قبل سنوات عدّة من قدومي إلى إيطاليا بهدف إكمال دراساتي الجامعيّة العليا.

أتذكّرُ جيّداً، أنّني في طفولتي رأيتُ روما بعينِ القلب، ولم أكُ قد سافرتُ إليها من قبل أبداً، ولا كنتُ أعرف آنذاكَ حتّى أين توجدُ. كنتُ أبلغ من العمر ١٢ سنة وكان الفصلُ صيفاً، وكان اليومُ خميساً، لكنّي لا أتذكّرُ بالضّبط الشّهر، وأعتقدُ أنّه كان شهر آب، لأنّ والدي كان في عطلة مطوّلة. أذكُرُ أنّني في ليلة الخميس تلكَ رأيتُني هكذا وبدون مقدّمات في ساحة كبيرة جدّاً ببلدٍ لا أعرفهُ، وإلى جانبي جموع غفيرة من النّاسِ لا أعرفُ منهم أحداً، وأذكُرُ أيضاً أنّني كنتُ أحاول ما أمكن أن أتقدّم وسط هؤلاء النّاسِ من أجل الاستماعِ إلى خطابِ رجل متقدّم في السّنّ كان يلبسُ رداءً أبيض واسعاً، وفوق رأسه تاج أبيض كذلكَ، ويزيّنُ بِنصره بخاتم ذهبيّ كبير، لكنّ الرّجل ما إن وقعَ بصرُه عليّ حتّى ناداني من بين الجمع بحركة من إبهامه، وقرّبني إليه، ثمَّ رشّني بقطرات من ماء كان بـ"طاسة ذهبيّة" بين يديه، ونقرَ

فوق رأسي بعصا خفيفة، ومسح على شعري بيديه، وابتسمَ لي وهو يدعوني إلى العودة إلى مكاني دون أن ينبس بحرف، لا هو ولا حتّى أنا.

هكذا انتهت الرّؤيا دون أن أفهمَ منها شيئاً، وفي الغدِ رويتُها لأبي، لكنّه لم يأخذها على محمل الجدّ، وظنّها ككلّ تلك الرّؤى الّتي كنتُ أحكيهَا لـهُ من حينٍ لآخر. ومرّت قرابة عشرة أيّام على هذا الأمر، وبينما كنتُ جالسةً بالقرب من والدي بعد أن انتهينا من تناولِ وجبة الغداء، و(أذكر أنّ اليوم كان أحداً)، إذا بي أرى رجلَ الرُّؤيا صاحب الرّداء والتّاج الأبيضيْن على شاشة التّلفزيون، فهتفتُ بأعلى صوتي قائلة لوالدي: "إنّه هُوَ يا أبي". "هُو من؟" ردّ مستغرباً، "الرّجلُ الّذي رشّ على رأسي الماء، وتلك هي السّاحة الّتي كنتُ فيها يوم الخميس الماضي". وضعَ أبي حاكوم جهاز التّلفزيون فوق الطّاولة ثمّ التفتَ إليّ وكأنّه يراني لأوّل مرّة وقالَ: "هل أنت متأكّدة من الأمر؟"، "نعم"، "أوّلاً يا ابنتي، هذه القناة الإخباريّة فرنسيّة واسمها TV٥، وهذا الّذي رأيتِ هو تقرير إخباريّ موجز باللّغة الفرنسيّة عن نشاطات الرّجل الّذي يبجّلهُ الكثيرُ من المسيحيين، واسمه جوفاني، وهو بابا الفاتيكان، وتلك السّاحة يا ابنتي هي ساحة القدّيس بطرس، أمّا وكونكِ رأيتِ نفسكِ هناكَ، فهذا هو العجبُ العجاب!"، قال أبي وهو يدقّق فيّ النّظر أكثر وأكثر، ثمّ أخذ بيديّ الصّغيرتين وحملقَ فيّ مرّة ثالثة وقال بصوت خافت:"لا تُخبري أحداً برؤياك يا ابنتي، وانسَي الأمرَ، فعلى الغالب هيَ مجرّد أضغاث أحلام ليس إلّا". وتركتُهُ وخرجتُ من الغرفة أركضُ ببراءة وعفويّة وقد نسيتُ كلّ شيء، وصعدتُ إلى الطّابق العلويّ من البيت، وأخذتُ أقرأ إحدى القصص الّتي كانت قد اشترتها لي والدتي وأعتقدُ أنّها كانت بعنوان (البنت والأسدُ) من سلسلة المكتبة الخضراء.

مرّتِ السّنونُ طويلة عريضة، وشاء اللهُ لي أن أرحل من مغربي الحبيب إلى إيطاليا، طبعا لم أتذكّر تلك الرُّؤيا أبداً، بلْ كنت قد نسيتُها تماماً، وبدأتُ أدرسُ في الجامعة وأنجحُ بتفوّق سنةً بعد أخرى، إلى أن حدثت فاجعة مرض ثمَّ وفاة البابا

جوفانّي أو يوحنّا باولو الثّاني سنة ٢٠٠٥، أذكُرُ أنّني أحسستُ بألمٍ كبير في قلبي، وأذكر أيضاً أنّني تتبّعتُ مراسيم الجنازة والوداع عبر التّلفزيون كاملة، وقبلَ ذلك بأيّامٍ كتبتُ لهُ رسالةً حينما كانَ على فراش المرض، وأرسلتُها إلى مقرّ سكرتارية الفاتيكان، ولا أعرفُ إذا كانت قد وصلته أم لا. أجل، فلقد تذكّرتُ رؤيا الطّفولة، وفهمتُ سببها، وكيف أنّهُ كان مُقدّراً لي في الغيب أنْ آتي إلى هذا البلد دونا عن غيره من بلدان العالم. أحببتُ جدّاً هذا البابا، وقرأتُ عنه الكثير فيما بعد، وأذكر أنّني كتبتُ قصيدة أتحدّثُ في مطلعها عنهُ وهي بعنوان (مقامات روما)، وقد نشرتُهَا في ديوان (٩٩ قصيدةً عنكَ) الّذي صدرَ بطبعتين في العراق عن دار الفرات للثقافة والإعلام (٢٠١٥/٢٠١٦)، وقصيدة أخرى بعنوان (١٢) نشرتُها في ديوان (مالمْ تبُحْ بهِ مريمُ لأحدٍ، ويليه متونُ سيّدة) والّذي صدر هو الآخر عن دار الفرات للثقافة والإعلام سنة (٢٠١٦).

انتهت مرحلةُ الدّراسة الجامعيّة الأولى وحصلتُ على الإجازة وعلى الماجستير الدّوليّ بدرجة جيّد جدّاً مع مرتبة الشَّرف، ثمَّ أتت مرحلة الدّكتوراه، وشدَدْتُ الرّحال إلى روما سنة ٢٠٠٧، هناك حيثُ قصدتُ جامعةَ المعرفة (La Spaienza)، وتقدّمتُ من أجلِ امتحان القبول، وفي المساءِ تمّ الإعلانُ عن النّتائج ولم يكُنْ اسمي بين النّاجحين، فانقبض قلبي وخرجتُ من الجامعة وذهبتُ إلى الفندق، وحزمتُ حقائبي وعدتُ في الغدِ إلى بيتي وقد بلغ منّي الحزنُ مداه. ومرّ أسبوع على الأمر، وبينما كنتُ "نائمةً" إذا بي أراهُ كما لم أرَهُ من قبل: صاحبي في حرف العشق؛ جوفانّي باولو الثّاني (أو كارول فويتيلا كما أحبّ أن أناديه) بردائه الأحمر العريض، وقبّعته الحمراء أيضاً: اقتربَ منّي كثيراً بحيثُ لم تُصبح بيني وبينه أيّة مسافة، وقال: "ما بكِ يا ابنتي؟ وما سببُ كلّ هذا الحزن؟"، "متعبةٌ جدّاً، لم يتمّ قبولي في امتحان الدّكتوراه على الرّغم من سهر اللّيالي والتّضحيات الجِسام"، "لا عليكِ، قدّمي في العام المقبل وستنجحين" ردّ مبتسماً، وأخد وجهي بين

يديه، وطبع قبلة فوق جبيني وقال وهو يضمّني إليه بشدّة : "لا تحزني بعد اليوم يا صغيرتي: سيكونُ لكِ شأن كبير، ستصبحين كاتبة مرموقة". انتهتِ الرّؤيا، وانتشرتْ في غرفة نومي رائحة زكيّة كأنّما أحد دخل وأفرغ قارورة عطر في بيتي بأكمله. يا إلهي أيعقلُ هذا: أن تنعم عليّ برؤية صاحبي كارول بعد ٢٥ سنة من هذا العُمر الواسع العريض منْ حياتي!

لم أتساءَلْ ولو ليومٍ واحد كيفَ أنّني المسلمةُ لي رؤى شفيفة يتجلّى لي فيها أصحابي من أهل الدّيانة المسيحيّة: لم يكُن يعنيني كثيراً التَّوصّلُ إلى جواب حاسمٍ ومُطلق، ويكفيني قلبي العامرُ لليومِ بقولهِ جلّتْ قدرتُهُ: بسم الله الرّحمن الرّحيم: ((آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ، كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)) (البقرة: ٢٨٥). صدق الله العظيم.

وفي سنة ٢٠٠٨ قدّمتُ من جديد لامتحان الدّكتوراه ونجحتُ هذه المرّة، وبدأتْ أسفاري ورحلاتي بين المغرب وإيطاليا، ذلك أنّ أطروحتي كانت عن الحداثة في المغرب من التّاريخ إلى الأدب. وكمْ ركبتُ من الطّائرات، والقطارات والحافلات وسيّارات الأجرة، وكم أقمتُ في فنادق مختلفة وعديدة؛ فهذا فندق باليما بالرّباط، وذاك فندق مارسالا بروما، وفنادق أخرى لا تحضرني سوى أسماء بعضها مثلاً فندق (داي ميلّه) وكذا (باركر) و(كابتول) و(بلير). وكانت تكاليف الأسفار والكتب والأبحاث كلّها على نفقتي الخاصّة، ذلك أنّني كنتُ الوحيدةُ الّتي لمْ تحظَ بمنحة دراسيّة كما بقيّة الطّلبة الآخرين!

كانت فترة الدّراسة هذه فرصةً أيضاً للتعرّف أكثر وأكثر على العاصمتيْن روما والرّباط، وعلى مدن أخرى كالمحمّديّة ومراكش والدّار البيضاء.

وبعد أزيد من ثلاث سنوات من البحث والسّهر والجدّ والمثابرة، والسّعي ما أمكن إلى جمع المصادر والمراجع، قدّمتُ أطروحتي، وكانت من ٣٣٩ صفحة،

وتخرّجتُ بأرفع الدّرجات، وهي لمن يرغب في الاطّلاع عليها من البحّاثة توجد في الأرشيف الوطني الإيطالي (باديس) وهذا رابطها:

https://asmagheribblog.files.wordpress.com/2016/08/tesi-di-dottorato-asma-gherib-2010-2011-la-hadathah-in-marocco-dalla-storia-alla-letteratura.pdf

أمّا عن ما بقي لي من هذه السّنوات، فإنّني أقول إنّه بالإضافة إلى تعميق تجربتي الأكاديميّة عبر تكثيف القراءات في أكثر من مجال، فإنّني لليوم مازلت أسهرُ لساعات متأخّرة من اللّيل أقضيها في البحث والقراءة والدّرس في مجالات أخرى ذات صلة وطيدة بعلوم الفقه واللّاهوت والتأريخ: أمّا كتابتي في الشّعر أو الأدب بشكل عامّ فهذا أعدّه بشكل أو بآخر نوعاً من "استراحة المُحارب "، أيْ أنّهُ حينما يُعييني الدّرسُ اللّاهوتي والفلسفيّ أو الفقهيّ أو التّاريخيّ، ألجأ إلى القصيدة، أو حتّى إلى نقد بعض النّصوص أو ترجمتِها من أجل تجديد طاقتي، وتبقى القصيدة سدرة النّور الّتي لم تخذلني ولو ليوم واحد.

بضعُ صور من أسفار أسماء غريب بين المغرب وإيطاليا

صور ولحظات لأسماء غريب من مرحلة دراستها
وتخرّجها في جامعة المعرفة بروما

١٣. ماذا تعني لكِ الطَّبيعة، الأرض، اخضرار الرَّبيع وما تأثيرها على الكتابة وعلى الرَّسم؟

الطّبيعة أمّنا الّتي دمّرها الأبناء العاقّون، وبيتُنا الّذي أضرم فيه النّارَ الأغبياءُ. منذ الأزل، كان الإنسانُ هكذا ولم يزل: يُدمّرُ ويحرقُ ما حوله من جمال. إنّه كائنٌ قلقٌ، مهووس، مسكون بالدّخان والظّلام. وقلّة هم أولئك الّذين يحاولون المقاومةَ والعيشَ وسط هذا الخراب. قلّة هم أولئك الّذين يحملونَ القلمَ والرّيشةَ لا البندقيّة، والوردة والحمامةَ لا السكّينَ، ويشربون من خمرة العشق وإكسيرِ المحبّة لا من دماء الأطفال والشّيوخ والنّساء. أقولُ هذا لأنّني عاينتُ بعضاً من مظاهر هذا الجفاف والقحط البشريّيْنِ في طفولتي. إذْ أذكرُ أنّ أكثرَ الجرائم بشاعة الَّتي كانَ قدْ حقّقَ فيها والدي (رحمه الله) بحُكْم عملهِ، وقَعتْ كلّها في القرى، حيثُ الطّبيعة والخضرة والأشجار والطّيور والحقول اليانعة والجمال الّذي يتغنّى به الشّعراءُ ويهيمُ به الرّسّامون. وقد كان أمراً طبيعيّاً أن تخلقَ هذه المفارقة الغريبةُ بداخلي سؤالاً مهولاً: ألمْ يكن جمال الطَّبيعة هناك بكافٍ ليحصّنَ النّاسَ من شرور النّفس؟ ما الّذي كان ينقصُهم حتّى يرتكبوا جرائم بهذه البشاعة؟ أين الخللُ إذن؟

وحينما لم أجد الجواب الشّافي، تعاظمت الأسئلةُ وكبُرَتْ كلّ يومٍ أكثر فأكثر، لا سيَّما حينما بدأتُ أرى النّاس يبيعون كلَّ ما يملكُونَ ويهجرون القرى ليسكنوا بالمدن. وهذا واقع مرير فتحتْ عينيّ عليه حتّى هنا بجزيرة صقلّية: الكثير من الصّقلّيين "يخجلون" من السّكن بالقرى حيث الطَّبيعة المعطاءة، والجمال البرّي النَّقيّ، إنّهم مهووسون بالمدينة، يبيعون كلّ شيء ويأتون لسجن أنفسهم في صناديقَ من الإسمنت، ثمَّ يملؤون الشّرفات بالأزهار والمزروعات والأشجار علّهم يتذكّرون بها شيئاً ممّا تركوه هناك في القرية. وبمرور الوقت بدأت هذه الأشياء تخلُقُ بداخلي علامات استفهامٍ جديدة، وصرتُ أنذهل من هذا الهروب المُستمرّ من كلّ شيء فيه

أصالة وعراقة وأمومة، لذا، فإنّي أعتقدُ أنّهُ أمرٌ طبيعيّ جدّاً أن يستوحشَ الإنسانُ، ونتوحّشَ طينتُه ويجفَّ قلبُه.

حتّى في بعض دول أوروبا الشّماليّة الإِسكندينافيّة لمْ تنفعِ الطّبيعةُ الخلّابةُ الإنسانَ في شيء: الكثيرُ منهم يعانون من حالات الاكتئابِ الحادّ، والعديد منهم يُصاب بأمراض خطيرة، وفيهم أيضاً من يُقدم على الانتحار، وهذا كلّه يذكّرني بالإنسان الأوّل، وبأوّل جريمة في تاريخ البشريّة: قَتْلُ قابيل لأخيه هابيل والّذي تمّ طبعاً حينما كانتْ أمّنا الأرض مازالت بكراً بكلّ ما تحملُ الكلمةُ من معنى. وهذا ليس لهُ سوى تفسيرٍ واحد: ثمّة طبيعةٌ وأرض أخريَيْنِ يجبُ الاعتناء بهما قبل الطّبيعة والأرض بمفهومهما العامّ لدى النّاس. بل ثمّة غابات وأدغال يجبُ الغوص والبحث فيهما عن النّمر الغاضب، والأسد الباطش، والثّعلب الماكر، والذِّئب السّفَّاح، والضَّبع المخاتل، والحرباء ذات الأقنعة، والثّعبان الأفّاق، والطّاووس المختال، والطّائر اللّص، والقرد المتمرّد، والقطّ الوصوليّ، وهلمّ جرّاً من عيوب النّفس البشريّة. ذلك أنّ تلكَ هي أرضُ الإنسان الأولى الّتي ما لم يعرف كيف يزرعُها ويعتني بها ويشذّبها من الحشائش والنَّباتات الضّارّة، فإنّه لن يمكنه أبداً أن يرى ما حوله من جمال خلقَهُ اللهُ من أجله فوق هذا الكوكب البهيّ. وطالما في أرض القلبِ يعمُّ الخرابُ، فإنّ الإنسانَ سيبقى هكذا يسعى إلى الخراب في كلّ ما يقوم به في حياته اليوميّة: والدّليل على ذلك هذا الدّمار وهذه النِّيرانُ المستعرةُ في كلِّ رُكنٍ منَ الأرض. وبناء على هذا فإنّي لا أعتقدُ أن الطّبيعة بمعناها المحسوس هي الّتي تُؤثّرُ في تربية الذّوق الجماليّ لدى الإنسان بشكل مباشر، إنّما الطّبيعة الحقيقيّة هيَ تلك الّتي تتجلّى بداخل القلب الصّافيّ، فيطّلعُ بعين الرّوح على ما لا عين رأت ولا خطرَ على قلب بشر، وإلّا فما معنى أن يشدو الهزار وهو في القفص بأجمل الألحان، ويرتّل العندليبُ وهو فوق الشّجرة أروع الأناشيد والمزامير؟ ألم نسأل أنفسَنا ولو ليوم واحد: من أين لهما بكلّ هذا الجمال؟ إنّهما يغنّيان ما يريانِ في

القلبِ من بهاء، لأنّهما أوّلاً وقبل كلّ شيء من أهل التّسبيح، وهكذا هُمُ الشّعراء والمُبدعون؛ أهلَ الحرف الأكبر: إنّهم يملؤون الدّنيا جمالاً رغماً عن الخراب الّذي حلّ بهذه الأرضِ.

أنا مثلاً، لستُ بسيّدة كثيرة الخروج من بيتي، حتّى في طفولتي ومراهقتي لم أكنْ كذلكَ، لكنّني أرى الطّبيعةَ بداخلي. لذا، فإنّي أكتبُ وأرسمُ ما أرى، وما أسمعُ أيضاً في قلبي وروحي. وقد نجدُ بين الفنّانين من يذهبُ إلى الارتماء في أحضان الطّبيعة والمرأة، وما إليهمَا من مظاهر الجمال، لكنّهم مع كلّ هذا، وعلى الرّغم ما قد يصنعونه من جمال، لا يصلون إلى السّعادة الحقّة، وسعادتهم الحسّية تبقى في كثير من الأحيان ناقصة ولا تعني في ميزان أهلِ الجمالِ الحقّ شيئاً. إنّهُ أمرٌ أشبه بالفرق الّذي يكون بين الإنسان وصورتِه في المرآة: الصّورة تبقى مجرّد صورة، وسرّ الحياة يوجدُ في الأصل. وما الجمال الّذي فوق الأرض سوى صورة، أمّا الأصل فهو في الملكوت، ذاك الّذي لا يسعُه سوى القلبِ الصّافي، مركز النّور الأوّل والتَّجلّيات.

١٤. البحر، الماء، عناق السَّماء للأرض من خلال المطر، كيف تنظرين لهذا العناق المبرعم بالخير والعطاء السَّماوي الخلَّاق؟

الأصلُ في الخلْقِ والخليقَةِ الماءُ، والأرضُ كوكبٌ مائيٌّ لا ترابيّ. والمطرُ رسولٌ من رسل الله إلى عبادِه، وهو في دُنيا النّاسِ مطرانِ: مطرٌ للجسدِ ومطر للرّوح. فأمّا مطرُ الجسد، فهو الَّذي ينزلُ على الأرض فتهتزُّ وتربو وتُنبتُ من خيرات الله ما يسرُّ النّظر ويُغذّي الجسدَ، ويُذْهِبُ الجوعَ ويُطفِئُ الظّمأَ، وأمّا مطرُ الرّوح فهو عِلْم الله اللّدني المُتَنَزّلِ على عبادهِ الصّالحين، بمنْ فيهُم الأنبياءُ والأولياءُ. ومن مطرِ الجسدِ تظهرُ بحار الجسدِ، ومن مطر الرّوح تظهر بحار الرّوح. فأمّا البحارُ الأولى فهي ثلاثة: بحر في صُلبِ الأبِ يأوي الابنَ ويُسجّلُ لهُ

خصائصه وسماتهُ الأولى، وبحرٌ في رحِم الأمِّ يحميهِ ويُغذّيهِ، وبحرٌ على الأرضِ، هُو الحِلُّ ميتهُ والطّهور ماؤهُ، وقد صنع الإنسانُ السّفُنَ والمراكبَ والغوّاصات من أجل البحثِ عن ما فيه من رزق وخيرات لم يصل منها لليوم إلّا إلى نزر قليلٍ. وأمّا بحارُ الرّوح فهي أربعة: بحر أسود، وهو أخطرها على الإطلاق، لأنهُ بحر الذّات الإلهيّة، ولا قدرةَ لأحد على الخوض فيه ولا على الاقتراب منه أو ركوب موجه. وبحرٌ أحمر وهو بحر التّلوين والامتحان، ولا ينجو منه المرءُ إلّا بعصا الحقّ والنّور، وهو بحر موجه كالطّود العظيم، وفيه تتلقّى الرّوح الدّعم الإلهي وتنجو منه كما نجا موسى من بطش فرعون النّفس وألاعيبه وحيله، وأمّا البحرُ الثّالثُ فهو بحرُ الوهم والخيال، والنّفس هي القائد والرّبّان فيه، لأنّها تكشفُ للرّوح ما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر، والويل لمن يقع في شراكها، وشراكِ كلّ الإرسالات الّتي تردُ على شاشة جبهة الإنسانِ، أو ما يسمّى بالعين الثّالثة بكلّ ما فيها من أوهام وخيالات تخترق خصوصيّة الإنسان بحضورات قد تصيبه بالجنون والخبال، فيصبح غير قادر على التّمييز بين ما هو من صنع الشّياطين وما هو من صنعة الملائكة، لأنّ الصُّنعَ الأوّل قد يلبسُ ويتلبّسُ الصّنعة الثّانية فتكون الطّامة الكبرى: إنتاجُ سلسلة من العلوم ومن الأفعال والكتابات يكون ظاهرها طيّباً وباطنها فيه العذابُ والشّقاء لذرِّيّة آدم على مرّ الأزمان والعصور.

وأمّا البحر الرّابع والأخير فهو بحر الطّمأنينة والسّكينة، وهو لمن أغلق دون نفسه البابَ وختم الأسفار وخلع النّعل ورأى شجرة النّار والنّور، إلّا أنّه كبقيّة البحار الأخرى لا يخلو من خطر، أهونها مكرُ الله.

لذا فلا أمان للماء، أمطراً كان أو بحراً، ومهما خبر المرءُ العوم والغوص، فلا بدّ من الغرق، وكيف يدّعي الكلّ النّجاة ونوح قلوب النّاس مازال لليوم يصرخ ويبكي، وسفينة الأجسادِ مازالت تتلاطمها الأمواج؟!

١٥. الخيال، الواقع، اللُّغة، الكلمة، الحرف، الجملة، الصُّورة، كيف تموسقين صياغة هذه الأدوات الّتي تقودك إلى أبهى فضاءات الإبداع؟

الخيالُ جزء لا يتجزّأُ من طبيعتنا البشريّة، هو مُختبَر الحياة، فيه يُنسجُ كلُّ شيء قبل أن يصبح واقعاً ملموساً يُرى بالعين المجرّدة. والخيال لا التَّخيّلُ هو أصل كلّ شيء، وله شاشة في القلب وأخرى في العين وثالثة في العقل. ومن أُعْطِيَهُ مفتاح الخيال، أُعْطِيَتْهُ العوالمُ برمّتها، يجبُ فقط الحذر من الوهم والوسواس لأنّهما إذا تسرّبا إلى قلبِ الإنسان فسُدَ خيالُه، وأصبحَ لا فائدة منه ترجى. وللخيالِ دور كبير في صياغة أعمالي جميعها لا الأدبيّة فقط وإنّما الفكريّة الحياتيّة أيضاً. وسلامة وصحّة الخيال تتأتّيَانِ من صحّة العقل والجسد، ونقاوة الفطرة والطّينة الّتي منها وبها عُجِن الإنسان. لذا، يجبُ الحرص ما أمكن على أن ينأى المُبدع عن كلّ ما يُكدّر صفاء الخيال، لأنّ ذلك يؤثّر بشكل آليّ على نقاء اللّغة والصّورة واللّون والنّوتة. وما الخرابُ الّذي يحيطُ بنا اليوم إلّا بسبب فساد خيال النّاس ومرض العقول والنّفوس. وختاماً أقول إنّ الخيالَ لا يصفو حقّاً وحقيقةً إلّا في حضرة الله؛ صاحبَ الخيال الخصب السّاحر الباذخ صورة وواقعاً، غير هذا فلا خير في خيالٍ لا تُنسّقه ولا تُموسقه يدُ الله في عقول وقلوب أهل الحرف.

١٦. ما معنى أن يكون المبدعُ اليوم متصوّفاً، وكيف تريْنَ نفسكِ كأديبة صوفيّة في زمنِ مواقع التّواصل الاجتماعي؟

هذا سؤال كثيراً ما أطرحُه على نفسي، وإنّي لأجدُ فيه أكثر من إشكاليّة يجبُ التّوقف عندها مليّاً، وسأبدأ بصفة الصّوفي وأتْبِعُها الحديثَ عن المُبدع المتصوّف، ثمَّ أختمها بالكلامِ عن علاقة هذا الأخير بمواقع التّواصل الاجتماعي.

بالنّسبة لصفة الصّوفي وسأتحدّثُ هنا بصيغة التّأنيث، ما دمتُ أنا المعنية بالأمر، والسُّؤال موجّهاً إليّ، فإنَّ الفتاةَ أو المرأة الصّوفيّة كانت ولم تزلْ حبيسةَ عُنجُهيّة المخيال الذّكوريّ المتسلّط الّذي لا يتعاملُ معها إلّا من موقعها الأنثويّ لا الإنسانيّ أبداً، ولمْ تسلمْ منهُ حتّى رابعة العدوية نفسها! وإنّني لا أستطيع أن أغفرَ لليوم ما ارتكبتْهُ في حقّها السّينما المصريّة من تشويهٍ حينما أنتجت فيلماً كاملاً عنها يُصَوّرها ويُجسّدُ تجربتها بطريقةٍ سطحيّة تافهة يشمئزُّ منها كلّ عقل سليم ورصين. لقد رفضتُ هذا النّتاج الفنّي عنها منذُ سنواتِ مراهقتي الأولى جملةً وتفصيلاً، وتعاملتُ معهُ بمثل تعامُلِ الخالقِ عزّ شأنُه وجلّ ثناؤه حينما قال الجهلاءُ في حقّه إنّ الملائكةَ بَناتُهُ! وهو الأمرُ الّذي ردَّ عليهِ قائلاً: ((أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ، تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ)) (النّجم: ٢١-٢٢). ولرُبَّ سائلٍ يقولُ وما علاقة هذا بذاك، فأقول: ما لكُم كيف تحكمون، أحينما يرغبُ الرّجلُ منكُم باتّخاذ خليلةٍ لقلبه وروحه، يحرصُ كلّ الحرصِ على أن تكونَ ذاتَ عفاف وطهر وحشمة وحياء، وحينما تتحدّثون عن "خليلات" الله، تتخيّلونهنّ كافّة منْ خرّيجاتِ الملاهي اللّيليّة والحانات، راقصاتٍ مُعَرْبدات مُنْحلّاتٍ في كلّ شيء؟! ما هذه المفارقة الغريبة العجيبة؟ وهل كانت رابعة يا ترى كما صوّرتها السّينما المصريّة بتلك الطّريقة السّاقطة، باعتبار أنّها لمْ تتُبْ أو لم يتعرّف إليها وعليها اللهُ إلّا بعد أن جرّبت حياة السّقوط والمُجون؟ إنَّ منْ يعرفُ البصرةَ وتاريخَها، وأرضَ العراق وترابَها النّقيّ، يعرفُ جيّداً مَنْ كانت وتكونُ رابعة: إنّها العفافُ والطّهر منذ البداية. ولا أريد هنا أن أسمعَ أحداً منكم يقول لي: وهذا لا يمنعُ منْ أن يدخلَ الخطّاؤون إلى ملكوت الله. لأنّني سأجيبه وأقول: لم تكن مريم خطّاءة، ولا سارة ولا إليصابيت، ولا خديجة ولا فاطمة ولا آسية، ولا رابعة، ولا حتّى مريم المجدليّة، وكذلك "خليلات" الله اللّائي أتيْنَ وسيأتينَ من بعدهنّ. وانتبهوا جيّداً إلى لَقَبِ "الخليلات"، فحتّى هذا حُرمتْ منه المرأة، وأُعطيَ للرّجل فقط.

والملكوت درجات، وفيه الغرفة العليا، وفيه المقام المحمود، وفيه مقام الوسيلة والشَّفاعة، وفيه وفيهِ، ولكلِّ مقام، والخطّاؤون بعد التوبة يلجونه ويفوزون بأعلى درجات القُرب والخلّة، هذا أمر لا شكّ فيه أبداً، لكن لا بدّ من التّصحيح والتّصويب فقط في بعض المفاهيم حتّى لا تبقى مُضبّبةً ومُعمّمة على كلّ الحالات والصّفات.

وكما الأمس، لم ينلِ الفتاةَ الصّوفيّة من الرّجل اليومَ سوى نظرته الدّونيّة لها: إنّها خادمةُ المعبد، وخادمة العارف "الواصل"، وليس لها الحقّ في القيادة العرفانيّة أبداً، فمازلنا في عهد "نظام" معشوقة ابن عربي، وعهد "بياتريس" فاتنة دانتي، وعهد "الحور العين" اللّائي من أجلهنّ فقدَ الرّجل "العابد" صوابَه. ومازالتِ القصائد "العرفانيّة" تضجُّ بصورة الأنثى كرمز إلى "الله"، ويُلْجَأُ إليها كحيلة لتمرير العديد من الصّور والمكبوتات: لا، أيّها السّادة الأفاضل الكرام؛ استيقظوا فـ "الله" ليس بأنثاكُم، ولا يتجلّى في جمال المرأة فقط. نعم إنّه ربّ الجمال وربّ الأنثى السَّاحرة الفاتنة الخلَّابة شكلاً وروحاً، لكنّه ليسها هيَ وحدَها فقط.

حينما تظهرُ الفتاةُ العارفة إلى الوجود بغضّ النّظر عن الانتماء الدّيني أو العرقيّ، فإنّه يتبعُها كلّ ذباب الأرض: الكلّ يريدُها ويشتهيها، ولا يعرفون أنّهم هكذا ربّما عن قصد أو بدون نيّة مبيّتة يريدون الإطاحةَ بعرشها، ونسفهِ من الجذور: لا أحدَ يتحمّلُ أن يرى صورة خليلة الله على الأرض، لا أحدَ يقوى على النّظر في وجه الشَّمس: ولتتذكّروا، لقدْ نعتوا مريمَ بالزّانية، ومازالوا لليوم يحقدون على ابنها: إنّه المخيال الجَماعيّ المريض، الّذي يريدُ أن يحملَ كلّ شيء بِكرٍ إلى سرير قذارة الرّوح، ليُفرغَ فيه أمراضَهُ العصيّة. لذا فإنّ العارفةَ الحقّة تأنفُ منْ أن ينعتَها أحدٌ بهذه الصِّفة، وأنا كذلك لا أحبُّ أن ينعتنِي أحد بالعارفة أو الصّوفيّة، وأقول اليوم كما قالتْ مريمُ ذات محنة (يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا) (مريم:٢٣): هو الخلاصُ هذا النّسيُ المنسيّ في زمن أصبح فيه الكلُّ يتسابق على لقبِ العارفِ

بشكل يدعو للغثيان والاشمئزاز، ويتبارزون عليهِ كالدّيَكة في كلّ المحافلِ والمنصّات بين مشعوذين وسَحرة وأدعياء ومهرّجين.

أمّا عن إشكاليّة إذا كانت المرأةُ الصّوفيّة مبدعةً، فهذه طامّة أخرى: لأنّها ستجدُ من سيتآمر ضدّها، ولنْ يصحَّ إلّا الصّحيح، ومهما طال زمن المِحن والاختبارات فلا بدّ لحرفها أن ينتصرَ ويتوهّجَ كلّ يومٍ أكثرَ فأكثرَ.

بقيتْ قضيّة مواقع التّواصل الاجتماعي: هذه أمرها بسيط، وأتعامل معها بالمنطق والحكمة والمعرفة، وكما أحرص على صيانة روحي من توارد الخواطر والهواجس والتّمثّلات غير المحمودة، فإنّي أفعلُ الشّيءَ نفسَه حينما أكون على "الفيسبوك" مثلاً: أحظرُ كلّ شيء من شأنه أنْ يكدّر صفوي. ولا شيء يزعجني أكثر من فضول البشر!

١٧. كيف تنسجين الومضة الأولى شعريّاً، هل تنبعث من خلال إشراقة ما، فكرة ما، حدث ما، أم من خلال حالة انبعاثيّة لا تستطيعي تحديدها ولا التَّحكُّم بها، أشبه ما تكون الرُّؤيا ـ الحلم/ ووهج الإلهام؟!

قلبي الحيّ هو الّذي يحدّثني بصوته الشَّجيّ الحنون، فيلقي في سمعي وبصري شعراً أو نثراً أو قطعةً موسيقيّةً أو لوحة فنّيّة. وهذا الإلقاء أو الإرسالُ عادة ما يكون في عمق اللَّيل صوتاً وصورةً، فأنتبه من النّوم، وأقوم من دفء الفراش لأحملَ القلم، وكأنّ الأمر فيه نداء لعبادة من نوع آخر. وهي الحالة الّتي كانت ترافقني منذ طفولتي، ولو أنّني كنت لا أفهم فحواها ورسائلها آنذاك بشكل جيّد كما هو الشَّأن اليوم، حتّى أنّني كنتُ أظنُّ في الأمر أرقاً، وحينما نضج تفكيري أكثر فأكثر، بتُّ أقول في نفسي: ليت كلّ الأرق هكذا: خلوة مع القلب وصاحبه. وقد ناقشتُ مسألة تدفُّق الإبداع هذه، صوتاً وقراءةً وصورةً في القلب ومنه وإليه عبر قصيدة نُشرتْ في ديوان (مقام الخمس عشرة سجدة) الصَّادر في طبعته الثَّانية عن

دار الفرات للثقافة والإعلام بالعراق، أعتقدُ أنّني كتبتُها في العشرينيات من عمري أقول فيها:

" بقلبي مذياعٌ لهُ دائرةٌ
تهتزُّ كُلّ آخر ليل عند قدميّ
وبُوقُه الحَلزونيُّ الأخضر
أعلّقه لَحظة كلّ إرسال كالقِرْط بأذنيّ
ومَوْجاتُه تُحرّكُها كهْرباءُ الكونِ
كَالبرَق الأسْود وسطَ نونِ يديّ.
مذياعُ قلبي حكايتُه غريبة
ومَحطّاتُ إرْسَاله عجيبة
مذيعهُ واحدٌ، يُسامِرُني كلّ ليلةٍ
بصَوتِه الرّخيمِ إلى الرّابعة
يُحَدّثني عن الله الواحد الأحَدِ
عن الطّواويس المُطوّقة بالنّور
عن الغِرْبان البيض والحُمر
عن دَوائر القَهْر والسّتر والسّرّ والغُفرانِ
وأنا كغريبٍ يحملُ ببُطيْناتِ قلبه
وردةً من ياقوتٍ مُنْصهر
أهرُبُ وحيدةً بِدار إذاعتي
بعيداً بعيداً بعيداً
حيثُ أنْهار العَسل والنّبيذ واللَّبن
أسمعُ وأسمعُ وأسمَعُ
لا أكلّ ولا أملُّ

فمَا أعْذب صَوْتَ مُذيعي بلْ ما أشْجاه
كلّ ليْلة بأذكاره بألحانه وترانيمِه
يُبْكيني يبْكيني يبكيني."

١٨. متى تكتبين وترسمين، كيف تكتبين وترسمين، هل ثمّة طقوس معيّنة ترافقك أثناء الكتابة والرَّسم؟

ليست لي طقوس معيّنة، لحظةُ الإبداع هي الّتي تفرض نفسها بنفسها: كثيراً ما أستيقظ في عمق اللَّيل (كما سبق وأشرتُ في الجواب الآنف)، أسجّلُ الأفكار الرّئيسة في قصاصات من الورق، وأدعها فوق طاولة المكتب، وقد أعودُ إليها في اليوم الثّاني، وقد يحدثُ أيضاً أن أهجرها لفترات أطول ولا أعود إليها إلّا بعد شهر أو ربّما أكثر، وهذا لا يعني بتاتاً أنّها تفقدُ طراوتها أو بريقها بل على العكس من ذلك تماماً، إنّها تنضج أكثر فأكثر إلى أن تكتمل بشكل نهائيّ صورتُها الّتي ومضت في قلبي أوّل مرّة. فقط حينما يقعُ الاكتمال أمُرُّ إلى لحظة الكتابة أو الرّسم والّتي عادةً ما تحدثُ بعدما أكونُ قد أنهيتُ التزاماتي اليوميّة المتعلّقة بالبيت والحياة الأسريّة وما إليهما.

١٩. تكتبين الشّعر، القصّة، النَّص الأدبي، والمقال ولك باع كبير في أغلب الأجناس الأدبيّة، وترسمين. هل لكلِّ جنس أدبي، والتَّشكيل اللَّوني خصوصيَّته وتفرّده في تدفُّقِ فضاءات الإبداع؟

تجربتي الإبداعيّة تقول لي إنّ الشّعرَ هو الحاضن لكلّ الأجناس الأدبيّة والإبداعيّة قاطبَة، وهو أبٌ غيور جدّاً لا يقبل أن يشاركه في المحبّة أحد، وقد عاينتُ هذا الأمر في حياتي اليوميّة لأكثر من مرّة، إذ أكون مثلاً منهمكةً في كتابة دراسة نقديّة وغارقة في البحث عن المصادر والمراجع وما إلى ذلك، فيداهمني

الشّعر، أو بتعبير أصحّ، تداهمني القصيدة. والشَّيء نفسه يحدث أثناء لحظات الرّسم أو التَّرجمة. لا فكاك، إنّها بداخلي تتحدّثُ في كلّ لحظة وتحيط بي من كلّ جانب. القصيدة أمّي، حاضرة معي وترعاني وتسهر على سلامة روحي من كلّ آفة أو علّة. ومن يدري، لعلّها ربّي الّذي يخاطبني بلسان المحبّة، ويقول لي اكتبي شعراً صافياً تتحدّثين به إليّ ما استطعتِ، حتّى وأنتِ في عمق النّقد أو التّرجمة أو الرّسم أو السّرد القصصي. كوني شاعرةً في كلّ شيء، لأنّ الشّعرَ علامة من علامات صدق المبدع وعمق خشوعه وهو في محراب الحرف الحقّ. وأعتقدُ أنَّ هذه الحقيقة عبّرتُ عنها بشكل جليّ في نصّ من نصوصي أذكرُ أنّ عنوانه كان (سبْعةُ قناديل وسبعُ لآلئ) وقد نشرتُه ضمن مجموعتي الشِّعريّة (٩٩ قصيدة عنك) الصّادرة عن دار الفرات للثقافة والإعلام في العراق، بطبعتيه الأولى والثّانية، وأقول فيه ما يلي:

[الشِّعْرُ أنتَ وأنا:
أنتَ أيّها العابدُ الأحمَر
الَّذي يرتّلُ لي كلّ ليلةٍ
بلسانِ مريمَ أسرارَ المَجدِ والفرحِ
وأنا النّقطةُ البيضاءُ
الّتي تُنشدُ لكَ عندَ كلّ سَحَرٍ
بلُغةِ فاطمة ترنيمةَ الفراشةِ والشّمعة
*
الشِّعْرُ قلمٌ يكتبُ نفسَه بنفسِهِ
وحقولٌ مِنَ القُطْنِ الأبيضِ
وأنهارٌ منْ زيتِ الزّيتونِ
وشجرةُ لهبٍ أزرق

أشْعِلُ بها عندَ كلّ فجْرٍ سبعةَ قناديلَ
وأرصُّ لكَ بهَا فوقَ إزارِ العشقِ
سبعَ لآلئ هي النّورُ الّذي يسعى
بين يديْكَ ويديّ عِنْدَ كلّ ضحى:

*

الشِّعْرُ طفلةٌ سمْراء
تنطقُ وتقولُ بلسان النّار والنّور:
ثمّةَ في أعماقِ البحْرِ لؤلؤةٌ
هيَ ذهولُ الحرفِ الذّهبيّ
عن العوالم والأكوانِ
وطمأنينةُ القلبِ الأخضَر
بذكر اِسْمِ الحيّ القيّوم
الدَّائم الَّذي لا يموتُ

*

ولؤلؤة ثانية، هيَ حرارةُ الشّوق
المتأجِّجِ في صدركَ وصدرِي
ولذّةُ الموتِ بلغةٍ آراميّة
هي لغةُ يسوعَ والرّوح القدس
ونشوةُ الانبعاثِ بلغة عربيّة
هي لغةُ محمد والأمين جبريل

*

ثمَّ لؤلؤة ثالثة، هي سرٌّ
لا أعرفُ مَا هوُ،

يُدْرِكُني ولا أدْركُه

يعشقُني وأعشَقُه

وقد تكونُ أنتَ وقد أكونُ أنا

وقد يكونُ هُو الَّذي لا هُوَ قبْلَهُ

أوْ بعدهُ إلّا هُوَ

*

ولؤلؤةٌ رابعة، هيَ خمرة بقاءٍ

وإكسير صَحوٍ

أسقيكَ منهُمَا كلّ يومٍ

في حانةِ القصيدةِ والقوافي

كأسَ الصّبابةِ والجوى

ولا أبالي ببُحورِ الشِّعْر

إنْ كانتْ في حالِ مَدٍّ أو جَزْر

ولا بالقَمر إذا اكتملَ ساعةَ الوصالِ

أو لمْ يكتملْ لحظةَ الرّحِيل

*

ولؤلؤة خامسةٌ، هي وردةُ سلامٍ ومحبّة

تُزْهِرُ في مَحارةِ فؤادكَ وفؤادي

كلّما سمعنَا الفجْرَ يغنّي لنَا

عندَ كلّ أذان ودقّة جرَس:

يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ

ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً

فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي

*

ولؤلؤةٌ سادسةٌ، هي سوسنةٌ ثملى
تصيحُ لحظةَ الكشفِ والتَّجلّي:
الغوثَ الغوثَ يا أهلَ الشّعرِ والقصيدِ
وتردُّ عليهَا أنتَ بلسانٍ رطبٍ:
يا بسمةَ أملٍ تصدحُ فوقَ أحلامِ الطُّفولة
اكتبي شعراً ما استعطتِ
أيّتها السَّابحة في زرقة السَّماء
اكتبي ألقاً أيّتها المحبوكة
من حبقِ الياسمين

*

ثم لؤلؤة سابعةٌ، هي مائدةٌ
لا يجلسُ إليها إلّا الشّعَراء الفقَراء
أهلَ التَّسليم والتَّجْريدِ من كلّ شيء
أولئك الّذين لا يأكلونَ مثلكَ ومثلي
سوى مِنْ حنطةِ الحرفِ
ولا يشربونَ سوى منْ خمرةِ النّقطة
ولا يكتبون سوى عن كنزٍ خفيّ
لا أحدَ يعرفُ كيفَ هُوَ، ولا أينَ هُوَ؟!].

٢٠. تترجمين أثناء عبورك فضاء التَّرجمة، تفاصيل ورشاقة النَّص الأصلي، كأنّك تكتبين النَّص الَّذي تترجمينه بروحانيّته، بلغة الأم الأولى، كيف وصلتِ لهذه الخصوصيّة في ترجمة الأعمال الّتي تختارينها؟

التّرجمةُ جُرحي الّذي لن يندمل؛ لقد ترجمتُ الكثيرَ الكثيرَ حتّى أنّني لا أتذكّرُ كمْ من النّصوص والكُتُبِ الَّتي قمتُ بترجمتها لغزارتها، وكأنّني بحر يُتَرجمُ ويُتَرْجِمُ ويترجمُ إلى ما لانهاية. ولديّ شيء أحبُّ أن أقوله ليبقى مسجّلاً ضمن أوراق هذا الحوار "التّاريخيّ": سأظلُّ أنا "أسماء غريب الشّرقيّ محمّد الجعديّ" شاهدةً على قُبح "الكاتب" العربيّ وبشاعته. وغداً حينما ستُفْتَحُ الكُتُبُ أمام البارئ سأكونُ الصَّوْتَ الحاملَ لمظلوميّة كلّ مترجمي العالم والكونِ، لكوني أكثر منْ يعرفُ ويُحسّ بآلامهم وأحزانهم: إنّهم رسل الله إلى الحرف ينقلونه من لغة إلى أخرى ولا أحد يشعرُ بهم، وأنّى يحدثُ ذلك وهُم لا ينالهم من أشباه "الكُتّابِ" و"المبدعين" و "دور النّشر" سوى الجحود والنّكران للجميل.

كُثْرٌ أولئك "الكُتّابُ" الّذين يريدون الوصولَ إلى العالميّة، وكُثر هُم من يحملون قلوباً مفعمة بالغرور والاستعلاء والاستكبار وجنون العظمة، فهم لا يرون في التّرجمة سوى شيء يوصلهم إلى الضفّةِ الأخرى لأنّهم يستحقّونَ ذلكَ ويُرضِي الأمرُ غرورهم، ولا شأن لهم بالمُترجِم أبداً، فهم كما الغالبيّة العظمى من دور النّشر يعتبرونهُ "عبداً" عندهم، ويكفيه شرفاً أنّه يُتَرْجِمُ لهم، لكأنّهم ينسونَ أيضاً أنّهم لا يدفعون له حتَى أجرَ تعبه وعمله. وقد يحدثُ أن يقول "الكاتبُ" من هذه الشّرذمة المُستعلية للمترجم إنّ تكلفةَ نشر الكتاب ستكون عليه، وانتبهوا أعزائي؛ فصاحبُ العمل المترجَم هنا لا يكون كريماً، بقدر ما يكون وصولياً للمرّة الألف، فهو لا يأبَهُ للمترجم مرّة ثالثة ورابعة، ولكنّه يدفعُ تكلفة نشر الكتاب لأنّه يهمّه جدّاً أن يُنْشَرَ كتابهُ لا أن يبقى حبيسَ غرفة المكتب. أمّا عن بعض دور النّشر فحدّثْ ولا حرج، فهي تنشرُ الكِتابَ المُتَرْجَمَ وتطبعه للمرّة الأولى والثّانية والثّالثة والرّابعة والخامسة،

ولا يخبر أصحابُها المُترجِمَ بأيّ شيء، ولا حتّى يُرسلونَ لهُ نسخةً ورقيّةً من عمله. وإنّي لأعتبرُ نفسي من المحظوظات وممّنْ يحيطهم اللهُ بعنايته، كوني لا أعيشُ من عملي الإبداعيّ ولا أعتبره مصدرَ رزقي اليوميّ، وإلّا لكانَ الأمرُ بحقّ كارثة!

ولا ينجو من هذه الخيانة العظمى للحرف إلّا القليل جدّاً ممّن أعتبرهم من خيرة أدباء العالم العربي وأنت واحد منهم أديبنا المفضال صبري يوسف، فترجمتِي لديوانك (السّلام أعمق من البحار)، كانت من أجمل التَّجارب الإبداعيّة الَّتي صادفتُها في مساري الأدبيّ.

لكن تعالوا معي أعزّائي ننظرْ في هذه المشكلة لنقفَ على أسباب هذه العلاقة الشّائكة والمتوتّرة بين "المُتَرْجِم والكاتبِ" والمحكومة بمنطق الانتهازيّة والوصوليّة في زمن المعلوميّات ومواقع التَّواصل الاجتماعيّ:

معظم الكتّاب عادةً ما يكونون ممّنْ يحترفون الكذبَ والنّفاق ويدّعون غير ما فيهم، والكثيرُ منهم يلجون إلى عالم الكتابة من هذا الباب، فهُم يتظاهرون بالثّراء مثلاً، وبالشّهرة، وبالاستغناء والاستعلاء، وبأنّ الآخرين هُمْ من بحاجة لهم، باعتبار أنّ المجتمعات بدون فِكرهم لن يمكنها أن تتقدّم أبداً، وهذه الشّريحة هي الجزءُ الفاسدُ في كلّ المجتمعات وأشدّها خطورة لأنّها تَدعمُ منظومةَ الفسادِ الفكريّ الّذي يطالُ فيما بعد كلّ جوانب الحياة، بما فيها السِّياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة. ولأنّها تُجيدُ سرقةَ كلّ شيء، فالويل لمن يقع بين أيديها من المُتَرجِمينَ. لأنّهم إضافة إلى فقر هؤلاء الكُتّابِ الرّوحي تجدهم أيضاً موسومين بالفقر المعرفيّ، فهم لا يفقهون شيئاً في علوم التَّرجمة الأدبيّة وما تقتضيه من صبر وجُهد من أجل نقل نصّ الانطلاق من لغةٍ إلى أخرى، والاعتناء بالتّالي بتفاصيله النَّحوية واللُّغويّة الدَّقيقة مع الحرص على التَّماهي مع تجربة الكاتب للوصول بالعمل إلى مستوى غالباً ما قد يكونُ أفضل وأرفع من مستوى النَّصّ الأصليّ نفسه. لأجل هذا أقول، إنّ هذا النّوعَ من الكُتّابِ يلزمهم مترجمون من طينتهم: "شيوخ" في الكذب والنّصب والاحتيال!

وبعد هذه التَّحليلات الموجزة جدّاً، دعونا نمرّ الآن إلى الشّقّ الآخر من السُّؤال: المتعة الَّتي تحقِّقها التَّرجمةُ للمُتَرْجِمِ: عليه أن يكون مستغنياً عن ما قد يرميه لهُ الكاتبُ من فتاتٍ حتّى يستطيع أن يعمل بمزاج عالٍ (وأركّزُ أكثر هنا على الاستغناء الرّوحي والخُلُقي)، لا سيما وأنّهم قلّةٌ أولئكَ المترجمونَ الّذينَ يرونَ أنّ عملهم هذا هو في الأصل عمل رُسْلِ الله المُجَنّحين، فهُم خير من ترجمَ كلام الله ونقله من اللّوح المحفوظ ونزل به إلى قلوب الأنبياء وصدورهم بكلّ اللُّغات، حتّى تحلّ كلمة الله في كلّ مكان، وهم الأمناء الحفظة الكتبة البررة الكرام. ولذا على المترجمين من أهل الأرض أن يكونوا بمثل أمانة ونزاهة مترجمي أهل السَّماء حتّى يحقّقوا على هذا الكوكب السّلم والسَّلام، ويمدّوا جسور المحبّة والأمان بين الشّعوب، ويرسوا ركائزَ التَّقدّم والتَّطوُّر المنشودَيْنِ. وثقوا بي أعزائي القرّاء، لولا تسلّحي بصبر المترجمين المُجنّحين وكرمهم وتفهّمهم لما استطعتُ المضيَّ لليوم قُدُماً في عالم التَّرجمة إيماناً منّي بأهمّيّة ما أقوم به من عمل، ستأتي الفرصةُ حتماً لنشره كاملاً في كُتُب موسوعيّة مع دار النّشر الّتي تستحقُّ أن يرتبط اسمي باسمها، وذلك حتى أتوّجَ جهدي وأكلّلَ صبري بالنَّجاح، وأقدّم لإخوتي في الإنسانيّة عملاً يجمع شتات الكلمة من المحيط إلى الخليج.

٢١. كيف تختارين الكتبَ الَّتي تترجمينها، ما هي شروطك في ترجمة الكتب الَّتي يقع عليها اختيارك؟

أنا قاسية جدّاً على نفسي، وصارمة في كلّ اختياراتي بما فيها التَّرجميّة: ثمّة خطوط حمراء أضعُها أمامي ولا أحبُّ تجاوزَها أبداً. فما كلّ شيءٍ يُتَرْجَمُ، وكم رفضتُ من الكُتُبِ الَّتي عُرِضَت عليّ في سنوات ماضية من حياتي بعضها كان من النّوع الدّينيّ التَّبشيريّ، والآخر من النّوع التَّطبيعيّ المحض والمباشر، وثالثة من النّوع الجنسيّ الإباحي المُمَرَّرِ تحت غطاء "التَّصوّف". ومُعظمُ هذه الاقتراحات

كانت تأتيني من جهات سياسيّة عليا، من قبيل الوزراء والسُّفراء وعمداء ورؤساء الجامعات الّذين لا يرسلون عادة طلباتهم للترجمة بشكل مباشر، وإنّما عن طريق قنوات ثقافيّة أخرى، حتّى يبدو الأمرُ كما لو أنّه مجرّد خدمة ثقافيّة لا أقلّ ولا أكثر، وكنتُ أقابلُ الأمر بالرّفض؛ هكذا وبكلّ بساطة، مع أنّني كنتُ أعلمُ جيّداً أنّ رفضي هذا، سيقصيني من مجال التَّنعّم بما يتنعّمُ به مترجمون غيري من "ميزات" في شتّى المجالات، وهذا ما حدث بالفعل: لا تأتيني الدّعواتُ أبداً من مراكز التَّرجمة العربيّة والعالميّة، إذ لا أحدَ يقترحُ مثلاً، ترجمة أعمال قيّمة شكلاً ومضمونا مقابل أجور جيّدة. هذه الأجور التي عادةً ما يستولي عليها الغير وتُقَدَّرُ بعشرات الآلاف من الدُّولارات وربّما أكثر: لا شيء يأتي، اللَّهمّ من يريدُ أن يقتاتَ على ظهري بوسيلة أو بأخرى: لأجل هذا توقّفتُ عن التَّرجمة في الفترةِ الأخيرة، مع بعض الاستثناءات الّتي كانت مجرّد تطييب خاطر لبعض من "الزّملاء" ممّن عرضوا نصوصهم أو كتبهم ليس إلّا. وأنا حالياً أركّزُ أكثر على ترجماتٍ خاصّة أنتقيها بنفس التَّروّي والتّؤدّة المعهوديْن فيّ، وهي لأدباء رحلوا منذ زمن بعيد، فالتَّعامل مع شرفاء الموتى وأنقيائهم، أفضل بكثير ممّا يحيط بنا من قبح. إضافة إلى أنّني التفَتُّ إلى ترجمة أعمالي وكتبي الشّخصيّة الّتي تحتاج منّي إلى عناية واهتمام من نوع خاصّ. أمّا بالنّسبة للأعمال الّتي ترجمتُها آنفاً، فقريباً بإذن الحيّ القيّوم ترى النّور بكلتا اللُّغتين: العربيّة والإيطاليّة.

٢٢. كيف تترجمين الشّعر، النّص، المقال، القصّة والرّواية وما هي الأدوات والمراحل الإبداعيّة الّتي تساهم في نجاح النَّص المترجَم؟

بالنّسبة للنصوص الأدبيّة ثمّة منها ما لا يحتاجُ أمرُ ترجمتِها سوى لبضعة سويعات، وذلك لسلاستها، وعذوبتها وجمال أسلوبها وخفّته ورشاقته، وأشعرُ أثناء ترجمتها بمتعة لا تضاهيها متعة. وثمّة أخرى تقتضِي منّي أنْ أقرأها لأكثر من مرّة،

وبأكثر من مفتاح، وقد يتطلّبُ أمر ترجمة الواحدة منها شهرين وربّما أكثر، لأنّها تحتاج إلى الخروج منها واللّجوء إلى مراجع تساعد على تفكيك محتواها، ثمّ بعد ذلك العمل عليها خطوة خطوة. ولا ينتهي الأمر هنا أبداً، إذ بعد ذلك تأتي مرحلةُ قراءةِ النّصّ المترجَم مرّات ومرّات، ومقارنته مع نصّ الانطلاق، حتّى إذا ما تأكّدتُ من تطابق المعاني أو تقاربها في أقصى الحالات، ختمتُ العمل بشكلٍ نهائيّ.

وثمّةَ نصوص أخرى لا يمكنُ ترجمتُها أبداً، ليس لسوء محتواها، وإنّما للاستحالة التّقنيّة للعمل التّرجميّ عليها، وغالباً ما يحدث هذا الأمر في حالة قصائد الشّعر الحداثي المنثور، الّتي تبدو كما الهذيان أو ثرثرة المجنون في خلوات الفلا تحت القيظ الحارق. هذا النّوع من النّصوص متعة قراءتها لا تتحقّقُ إلّا من خلال اللُّغة الأصليّة الّتي كُتبت بها منذ البداية، وإلّا لأصبح الأمر كارثة بحقّ بعد التّرجمة، لأنّ هذه النّماذج من النّصوص تتحوَّلُ إلى شيء لا علاقة له بنصّ الانطلاق، وتصبحُ مشوّهةً، ركيكة، وثقيلة الحرف وغير مستساغة المعنى.

الأمرُ يختلفُ تماماً بالنّسبة للقصّة والرّواية، والعمل على هذا النَّوع من الإبداع يكون أكثر يسراً من النَّاحية التّقنيّة والعمليّة والشكليّة، لكنّه من النّاحية الجوهريّة يحتاج لعمل خارجيّ مكثّف، ينقسم إلى عدّة مراحل، إذ تجبُ قراءة العمل لأكثر من مرّة، والبحث عن ترجمات أخرى لهُ (في حالة إذا ما وُجدت)، ومقارنتها بالنّصّ الأصليّ، ثمَّ بعد ذلك يجبُ البحثُ في كلّ تفاصيل الرّواية أو القصّة بدءاً من المُؤلِّف، إلى الشَّخصيّات، إلى الأسلوب إلى الحبكة وكلّ ما إليها من العناصر الّتي بها تُبنى الرّواية، لذا فإنّ العمل التَّرجميّ هو أقرب بكثير من العمل النّقديّ. وهو يحتاج أيضاً إلى خبرة واسعة وشاملة في كافّة مدارس التّرجمة ومنظّريها.

٢٣. بعد أن تمكّنتِ من ناصية اللُّغة الإيطاليّة، أصدرتِ ديواناً شعريَّاً بعنوان: بدونكَ، باللُّغتين العربيّة والإيطاليّة ٢٠٠٩، ماذا أحببتِ أن تقولي عبر هذا الدِّيوان للقارئ العربي والإيطالي؟

أعتقدُ أنّ الكاتبَ الحقّ هو مَن لا يُفَكِّرُ في القارئ بتاتاً حينما يكون غارقاً في محيط الكتابة، تهدهده أمواج الحرفِ ذات اليمين وذات الشّمال. وذلكَ لأنَّ الإبداعَ لحظة حميميّة جدّاً، كما لحظات الوصال مع الحبيب، إذ يتمُّ فيها الولوج إلى أعماق الذّات للبحثِ عن تلك اللذّة التي صدرَ ويصدُرُ عنها كلّ شيء، والّتي لا تتحقّقُ إلّا عبر فعل الحبّ باعتبار أنَّ الكتابة نفسُها هي فيض روحيّ متدفّق من شلّال ماء الحياة والوجود، [وأستثني من هذا الأمر الكتابة المُمَنهجة، أو الموجَّهة إلى قارئ بعينه، أو الخاضعة إلى نوع خاصّ من التّقنين والتّحديد بهدف تحقيق مصالح خاصّة بمجتمع معيّن أو بثقافة وحضارة ما، مثلاً الكتابات البيداغوجية، أو التَّاريخيّة، أو الجغرافيّة والاقتصاديّة أو السِّياسيّة وما إليها. وهذا ليس مجال حديثنا، لأنّ الأمرَ فيهِ يخضَعُ لآليات من نوع خاصّ].

أمّا عن الكتابة العشقيّة الَّتي أشرتُ إليها قبلَ لحظاتٍ فتقتضِي العزلة التّامّة، حتَّى يتمَّ التَّواصلُ مع سرِّ الحرفِ، وسرّ الشّعر وسرّ الإبداع، وهي عزلة صوفيّة تكونُ ثمرتُها أنْ يُفْصِحَ الحرفُ عن نفسه بنفسهِ، ومتى ما وقعَ ذلكَ وجبَ الإصغاء إليهِ جيّداً وهُو يتحدّثُ، كما يجبُ النّظَرُ إلى عينيْهِ وهو يبكي، ويجبُ احتضانُه وكفكفةُ نزيفه بيدِ العشق، والمحبّة والسّلام، لأنّه في تلك اللَّحظاتِ يُصْبحُ مرادفاً لحرف الوحي، ومن هذا المنطلق جاء الدّيوانُ كشاهدٍ على تجربةٍ وجدانيّة عميقة أصبحتِ الكتابةُ فيها بدون الاسمِ الإلهيّ الجليل أمراً مستحيلاً، ومن هنا جاء العنوان (بدونكَ).

أمّا عن كوني ترجمتُه إلى اللّغة الإيطاليّة، فهذه قصّةٌ أخرى، مفادُها أنّ بعض قصائد الدِّيوان كتبتُها مباشرةً باللُّغة الإيطاليّة، وكانت بالنّسبة لي إيذاناً

بحدوث التَّواصل الحقّ مع الأبجديّة الإيطاليّة، ليس لأنّي كنتُ أفكّرُ في القارئ الإيطاليّ لحظة الكتابة، ولكن لأنّي كنتُ أفكّرُ في وباللّغة الإيطاليّة نفسها، وفي هذا الحرفِ الّذي بات يُفْصِحُ عن نفسِه إيطاليّاً وأنا في المغرب أو الأردن أو إيطاليا. لقد كان الأمرُ ممتعاً للغاية، وهو ما جعلني أقرّرُ فيما بعد ترجمةَ النّصوص الأخرى الّتي نظمتُها منذ البداية باللُّغة العربيّة وضمّ الكلّ في هذا الدِّيوان.

وبعد هذه المرحلة قمتُ بنشر الدِّيوان على موقعِي الرّسميّ فحدثَ أنِ اطّلعتْ عليه وانبهرتْ بهِ قارئةٌ من بلد آخر تماماً: لقد كانت ناشرةً ألبانيّة الأصل. ولأنّها تجيدُ اللُّغةَ الإيطاليّة، كتبتْ لي وقالت إنّها أعجبتْ بالدّيوان وتودُّ أن تنشره لدى دارها!

وبالفعل بدأت رحلةُ الدِّيوان على يد هذه السَّيّدة الألبانيّة، ورأى النّورَ، ولم أعجبْ من الأمر بتاتاً، لأنّ الحرفَ لهُ أسفار لا يعلمها إلّا خالقه وصاحبه، ويكفيني أنَّ لقبَها مكتوباً بالأبجدية الألبانيّة (رَسولي) كان يحملُ في طيّاتهِ "الدّوْرَ" الّذي كان مُقدّراً لها أن تقوم بهِ تجاه هذا الدّيوان: لقد كانت هذه السّيّدة "رسولتي" إلى القارئ الإيطاليّ قبل العربيّ، وإلى القارئ الألبانيّ بدون أدنى شكٍّ في زمن يعلمه الحيّ القيّوم الَّذي لا تخفى عليه خافية.

٢٤. ترجمت من العربيّة إلى الإيطاليّة ديوان: أربعون قصيدة عن الحرف، للشّاعر العراقي أديب كمال الدِّين، المعروف بشاعر الحروفيّة، كيف وجدت حروفيّته الشَّاعريّة، قبل وبعد ترجمتها إلى الإيطاليّة؟

أعتقدُ أن تجربة الشّاعر العراقيّ أديب كمال الدِّين في وعن الحرف، هي تجربة فريدة من نوعها، لذا أثارت اهتمام العديد من النّقاد والمترجمين غيري. ولقد وجدتُها قريبة منّي للغاية لأنّي كنتُ ومازلتُ منذ سنوات عدّة ممّن يهتمّ بالحرف

عرفانيّاً، ومعظم أطاريحي الجامعيّة كانت عنهُ، حتّى قبل أن أتعرّف على وإلى التَّجربة الحروفيّة لأديب كمال الدِّين.

لم تصادفني أيّة مشاكل أو صعوبات في رحلتي التّرجميّة لديوان (أربعون قصيدة عن الحرف)، لا سيّما وأنّني اعتمدتُ تقنيّة النّقحرة بالنّسبة للحروف العربيّة الواردة في النّصوص الشِّعريّة، وزوّدتُ كلّ حرفٍ بنقطة هامشيّة موسّعة أشرح فيها للقارئ الإيطالي المعنى العرفاني له، ودلَّلْتُه على بعض المصادر والمراجع الّتي يمكن اللّجوء إليها ليوسّع معارفه في هذا الشّأن. وعليه يمكنني أن أقول إنّني حافظتُ على خصوصيّة القصيدة "الأديبيّة"، وجعلتُها في متناول الإيطاليِّين بشتّى انتماءاتهم واختلافاتهم العقائديّة والفكريّة.

بعد أن صدر الكتاب، أقامت دار النشر نووفا إيبسا إيديتوره في آذار ٢٠١٢ احتفاليّة من أجل توقيع الدِّيوان، واستدعتْ لذلك الشَّاعرَ أديب كمال الدِّين، وقد كان الأمر مناسبة للتعرُّف على الشَّاعر وعلى تجربته بشكلٍ أكثر عمقاً. وقد تداولتِ العديدُ من المجلّات والجرائد والمواقع الإيطاليّة وكذا العربيّة نبأ هذه الزِّيارة، ويمكن الاطلاع على تفاصيلها سواء في موقعي الشّخصي أو موقع الشّاعر أديب كمال الدِّين.

وأذكر أنّه بعد صدور الدِّيوان مترجَماً، بدأت تتقاطرُ عليّ رسائل القرّاء من كلّ صوب وحدب، يسألونني عن النّقطة من تكون، وعن الحرف من هو؟ ولم أكن أستغرب الأمر مطلقاً، بل على العكس من ذلك تماماً. لقد شعرتُ آنذاكَ بأنّني قمتُ بعمل جيّدٍ، وبأنّ ترجمتي للديوان بدأت رحلتها في نفوس القرّاء الإيطاليِّين بشكلٍ سليم.

٢٥. بعد أن ترجمتِ بدائع حروفيّات أديب كمال الدِّين، قمتِ بدراسة نقديّة تحليليّة عن "تجلِّيات الجمال والعشق عند أديب كمال الدِّين"، تحدّثي عن رحلة الغوص في رهافة انبعاث هذا الشّاعر في بوح الحرف؟

إنّ فكرةَ الكتابةِ عن التّجربة الإبداعيّة للشّاعر أديب كمال الدّين لمْ تكن وليدة مصادفة أو اندهاشٍ بسيطٍ أو عابرٍ بخطّه الأدبيّ الجديد أو بحروفيّاته ومواقفهِ الألِفيّة، ولكنّها كانت بذرة نَمَتْ داخل رحمٍ ثلاثيّ الظّلُمات ومحيطٍ أبيضَ صافي الأعْمَاق وإنْ بدَا مُضطربَ السّطح وعاتيَ المَوج. أقولُ رحماً ذا ظلماتٍ ثلاثٍ، لأنّ العملَ المُستمرّ والقراءة المُتجدّدة لأعمال الشّاعر وتتبُّع إصداراته القديمِ منْها والجديدِ كان منْ بين أهمّ الأسباب الّتي خصّبتْ بُوَيْضَة التّفكير في القيام بدراسة تحليليّة ونقديّة تجْعلُ قصائد الشّاعر في مُتناول يدِ القارئ والمتلقّي وتُزيح عنْها قداسة التّعالي وتجعلها بالتّالي قريبة من كلّ مُستويات التّلَقّي وإنِ اختلفتْ أو تنوّعت. وأقولُ: محيطاً عاتي المَوج وصافيَ الأعماقِ، لأنّني اكتشفتُ أنّ التّحدّي الأكبَرَ الّذي كانَ عليّ تجاوزه، ليس هو فكرة كتابة هذا العمل ذاتها بقدر ما كان كيفيّة صياغته ونوعيّة المنهج الواجب اختياره والسّير على أثره، الأمر الّذي جَعلني أشْعرُ وكأنّني ربّان لهُ بوْصلة موزّعة الاتّجاه بيْن الشّرقِ والغرْب، وبين الظّلمات والنّور، وبيْنَ عَوالم يذوبُ فيها الإنسانُ وتحيا المادّة، وأخرى يحيا فيها الإنسان وتفنى المادّة. بل ربّان سفينة ليس أمامه سوى أن يُشمّر عنْ ساعِدِ الجدّ ويتمَنْطقَ بِحزامِ عُلوّ الهمّة وقوّة الإرادة حتّى يَصلَ إلى شاطئ الأمان وبين يديه شباكٌ تتكاثرُ فيها خيراتُ العنبِ والقمحِ والسّمك إلى أبد الآبدين.

فهل من سبيل إذن إلى مواجهة هذا التَّحدّي؟ هلْ يُمكن حقاً التَّحليق بتجربة الشّاعر إلى حيث ما من حدٍّ أو مدّ أو أمدٍ؟ نعم هو الجواب الّذي يعقبه قلق آخر يخرُج من بطن نصّ أعتبُره القشّة الّتي قصمت ظهر البعير، وأقصد به قصيدة: (إشارة أولئك) الّتي وضع فيها الشَّاعر إصبعه على دمّل لطالما أوجعه

وقضّ مضجعه، محاولاً بذلك تشخيص داء ليّ عُنق نصوصه الشّعرية أو داء القراءة الإسقاطيّة في تفسير وتحليل قصائده المتنوّعة والمختلفة. والحقّ يُقال إنّ ما أشار إليه الشّاعر في نصّه هذا، لا يُمْكن اعتباره مسألة تهمّه والمتلقّي فقط، فالأمر أكبر وأعظم من حصْره بين مبدع واحد وعدد من المتلقّين، ذلك أنّ الإشكاليّة قديمة قدم الإبداع الأدبي والفنّي بشكل عام، وقد أسماها منظّرو النّقد والأدب بنظريّة التّلقي وجمالياته وأضيف قائلة: وأسلوبيّاته وأخلاقيّاته. ولا مجال للإنكار بأنَّ أيّ أثر أدبي مهما بدا للقارئ أو للباحث والنّاقد غامضاً فإنّه ينطوي على دلالات بعينها يتقيّد بها تأويله ويُحدّ بها فهمه، واللُّغة تُعدّ أوَّل هذه الحدود الَّتي يظهر فيها هذا الأثر، لأنّ ما تحويه هذه اللُّغة من علاقات هي الَّتي تحيل القارئ على ثقافة وحضارة مجتمع ما، الشّيء الَّذي يُلزمه بتحرّي نوع من الموضوعيّة الَّتي لا يُمكن تجاوزها أو التَّخلّي عنها. أما الحدّ الثّاني الَّذي يتقيّدُ به تفسير النّص وتحليله فهو بناء النّص ذاته بكلّ ما قد يحويه من غموض وفراغات قد يضعها الكاتب مُنتظراً أن يملأها القارئ: اللُّغة إذن والبناء هما اللَّذان يلزمان القارئ بقدر من الوفاء لمقصد الشَّاعر ولطبيعة العصر والزّمن الَّذي ألّفَ فيه مجاميعه أو نصوصه الشِّعريّة. لذا فإنّ الأثر الأدبيّ وبالتَّالي نصّ الشّاعر أديب كمال الدّين لن يحمل بين طيّاته معنى واحداً فقط تقتصر القراءة على اكتشافه، كما أنّه لنْ يكون في الوقت ذاته منفتحاً على قراءات شتى، تجعل منه نصّاً قابلاً لأيّ تأويل يُوضع له.

وحتّى في تجربتي هذه لي بعض المواقف الطَّريفة الَّتي حدثت بعد إصدار الكتاب عن دار ضفاف اللّبنانيّة واطلاع العديد من القرّاء عليه، لا سيّما العراقيّين منهم: لقد بات يراسلني "الطّلبةُ الجامعيّون" على حسابي في الفيسبوك بأسماء وهميّة، ويطلبون كتباً عن الحرف، وعن النّقطة والتَّصوف والعرفان، وكثير منهم كان يسألُ السُّرعةَ في الرَّدّ دون أن يخبرني أيُّ أحدٍ منهم بأنّه "طالب أو طالبة" جامعيَيْنِ، وبصدد إعداد أطروحة جامعيّة عن شعر أديب كمال الدِّين الحروفيّ:

كانوا كلّهم يعتقدون أنّني لم أفقه أو أدرك الأمرَ جيّداً، حتّى أنّ منهم من كان يراسلني من أكثر من حساب وبأكثر من اسم، وأذكرُ أنّني كنتُ أتلقّى المسألةَ بصدر رحب، وذلك لسبب واحد لا غير: إنّ للحرف بلبلة عظيمة، وللنقطة حيرة ومكابدة لا ينجو منهما إلّا من تسلّح بزاد اليقين والصّبر والجلَد. لذا كنتُ أعذر أولئك الطّلبة والطّالبات (الآباء منهم والأمّهات، والأزواج منهم والزّوجات، والمعلّمات منهم والأساتذة) وأتفهّم جيّداً ما كانوا فيه من بلبلة وحيرة وهذيان، كنتُ كثيراً ما أقابلها بالتّظاهر بأنّني لا أفهم من أحابيلهم وتلاعباتهم شيئاً.

٢٦. كيف استلهمت معالمَ ديوان: "مقام الخمس عشرة سجدة" الصّادر باللّغتين العربيّة والإيطاليّة؟

هذا الدّيوانُ لهُ قصّة ضاربة في جذور الرّوح؛ بهِ عُدتُ إلى لغتي العربيّة الأمّ الّتي كنتُ قدْ توقّفْتُ عن الحديث بها لما يزيدُ عن خمس عشرة سنة. أيْ نعمْ، بقيتُ أقرأُ وأكتبُ بها هنا في إيطاليا، ولكنّي لا أتكلّمُها؛ لا في الشّارع ولا حتّى في البيت. والكلُّ يعلمُ جيّداً أنّ اللّغةَ الّتي لا تُمَارسُ ولا تُسْتخدمُ بشكلٍ مستمرّ في الحياة اليوميّة تُنسى أو يفقِدُ الإنسانُ طلاقةَ الحديثِ بها؛ فما بالك إذا كان ممّن اختارَ حياة العزلة مثلي: فأنا لا ألتقي النّاسَ إلّا قلّ ما ندرَ، كما أنّي اخترتُ تجنُّبَ الاختلاط بالعرب المهاجرين، أو النّاطقين باللُّغة العربيّة هنا. وإذا خرجتُ فإنّي لا أخرجُ إلّا لطلب علمٍ، أو لتقديم إصدارٍ لي معيّن بذاته، أو لضرورة قصوى أخرى. وأعتقدُ أنّ أمرَ الخلوة هذه له علاقة بتركيبتي الرّوحيّة الميّالةِ منذ أعوام الصّبا الأولى إلى الزّهد في الخروج بسببٍ أو بدونه، حتّى أنّ الكثيرَ منَ النّاس كانوا يعتقدون أنّ لوالديَّ بنتانِ لا غير، ولا يعرفون شيئاً عنّي أو عن درجة قرابتي ضمن بقيّة أفراد عائلتي: فأنا البنتُ البكر الّتي اختارت أن تبقى هكذا بعيدة عن الأضواء، حتّى بعدَ أنْ قدِمتْ للدّراسة ثمّ الاستقرار في إيطاليا. وعزلتي هذه هي عزلة تفكير

وسلامة، وراحة نفسيّة، لا تعادلها راحة ولا سكينة. لكنّ حرف الشّعر الصّوفي أخرجني من صمتي، وبدأتُ أشعرُ بتلكَ الرّغبة العارمة في أن أخطّ خلجات الرُّوح والوجدان على الورق بلغتي الأمّ، لا سيّما أنّ صوت الشِّعر بداخلي كان كثيراً ما يسامرني بلسان عربيّ فصيح. لقد كان ذلك نداءً خاصّاً، وله رموز عميقة للغاية. وما كان منّي سوى أن استجبتُ للنداء، وعدتُ إلى قاعة الدّرس، ومعلّمه الملاك الفارس الحافظ لسرّ الحرف وأهله، وبدأت أخطّ كما الطّفل الّذي يحبو أولى مسامرات ومكالمات القلب، وكنت أعلمُ جيّداً أن أبياتي تلك كانت لا تخلو من بعض الهنّات النّحويّة أو اللُّغويّة، لكنّ ذلك كان لا يعنيني تماماً بقدر ما كان يعنيني جوهر هذه التّجربة العجيبة، الّتي كانت تأخذني في كثير من الأحيان إلى أبواب كنت أسمع فيها الحرف هطّالاً فيّاضاً في علوم الشّعر العرفاني، لم أكن أقوى على تذكّرها كاملة، لا سيّما وأنّني كثيرة النّسيان في مثل هذه الأمور، وكنت أكتفي بخطِّ الأثر، أو البصمة، وترك التّفاصيل الّتي كانت تغيبُ عنّي تماماً. هل يمكنني أن أقول إنّ هذه المرحلة كانت نوعاً من النّظرة الإلهيّة؟ ألا يقولون إنّ العشق يبدأ بنظرة؟ أجل، تلك كانت نظرة، نزلت على قلبي قطرة ففاض منه ما فاض من أشعار يمتدُّ حرفها حتّى سنوات طفولتي. وأحبّ أن أضيف شيئاً آخر أقول من خلاله، إنّ العشق أيضاً يبدأ بالسّماع، وأنا سمعتُ صوتَ الحرف يتحدَّثُ قبل أن ينظر إليّ، وقد كتبتُ عن هذا في العديد من قصائد هذا الدّيوان.

ثمّ صدر الدّيوان بخطأ نحويّ في العنوان، وكان هذا الأمر هو الرجّة الّتي دفعتني دفعاً عنيفاً نحو لغتي للمرّة الألف، وبدأتُ أركضُ بكل ما فيّ من عنفوان لأستعيدها وأعود للغوص فيها أكثر وأكثر، ليس بحثاً عن تنقيحها وتشذيبها، بل بحثاً عنّي أنا، وعن مقامي في لغتي، وعن المزيد الّذي مايزال في جعبة الحرف من رسائل وهبات وعطايا تخصّني لوحدي. وأذكر أنّني عن هذا الخطأ أو السّهو في عنوان الدِّيوان كتبتُ (محراب الخطأ)، وهو نصّ قصصي سيرذاتيّ، نشرتُه في

مجموعتي القصصية الجديدة (أنا رع) التي صدرت سنة ٢٠١٦ في العراق عن دار الفرات للثقافة والإعلام.

أمّا عن لماذا اخترتُ له كعنوان (مقام الخمس عشرة سجدة)، فإنّ ذلك فيه إشارة منّي إلى عدد سجدات تلاوة القرآن الكريم، وكذا إلى عدد السَّنوات الَّتي قضيتها صامتة لا أتحدّثُ فيها شفاهاً بلغتي العربيّة الفصحى إلّا في مرات قليلة جدّاً. ثالثاً، وهذا أمر اكتشفتُه بعد أن أنهيتُ تحرير نصوص المجموعة: هناك سيّدة مسيحيّة عُرفت قبلي بكتابتها عن (الخمس عشرة، لا سجدة، وإنما صلاة)، وأعني بها القديسة بريجيتا شفيعة السُّويد، وقد كانت من سلالة الملوك القوطيِّين، وكان والدها هو الأمير بيرجير. لا أتذكّر جيّداً كيف اكتشفتُ هذه الحكاية؛ ربّما حينما كنتُ أبحثُ عن القاعدة النّحوية الخاصّة بجمع الأعداد في اللُّغة العربيّة، لكنّي أتذكّرُ جيّداً كم كانت فرحتي عارمةً حينما عرفتُ بريجيتا، وحكاية صلواتها الخمسة عشر، سيما أنّ ديواني فيه بعضٌ من القصائد الّتي تتحدَّثُ عن سيّدنا المسيح (ع)، وإبراهيم الخليل (ع)، وعن روما الّتي قضت فيها بريجيتا فترة من حياتها حينما ذهبت عام ١٣٥٠ لطلب موافقة البابا من أجل تأسيس طريقة رهبنتها الجديدة. ولا يفوتني أن أقول، إنّ اطّلاعي على قصّة بريجيتا هو الَّذي حفّزني على ترجمة الدِّيوان إلى اللُّغة الإيطاليّة، ولو كنتُ أعرف اللُّغة السُّويديّة لما تردَّدتُ في ترجمته إلى لغة بريجيتا أيضاً.

وعلى ذكر روما، أحبُّ أن أشير إلى أنّ العديد من قصائد هذه المجموعة الشِّعريّة كتبتُها في هذه المدينة، أيّ خلال السّنوات الّتي كنتُ أسافر فيها إلى جامعة المعرفة من أجل حضور دروس الدّكتوراه تخصُّص (تاريخ حضارات وثقافات كلّ من آسيا وإفريقيا).

وحينما صدرَ الدّيوانُ، أحببتُ أن يكون أوّل من يطّلع عليه شيخٌ مُسنٌّ مشرّد، يعيش في ركن من شوارع روما الفسيحة. كنتُ قد رأيتهُ وتعرّفتُ عليه ذات

سفر وأنا عائدة من الجامعة إلى فندق إقامتي. كان الدِّيوانُ في حقيبتي اليدويّة، فتحتها وأعطيته له، وكتبتُ إهداء خاصّاً بداخله: لقد كان اسم الشّيخ (ملاك)، وآلت حياتُه إلى ما آلت إليه بسبب غدر الأهل والإخوة بعد أن كان من الأثرياء.

بكى ملاك (آنجلو) كثيراً حينما عرف أنّ الدِّيوان يحملُ قصيدة تتحدّثُ عنه (مقام روما)، وروى لي ولزوجي تفاصيلَ حكايته المريرة، وكيف أدمنَ شرب الخمر وحياة الشّارع. وبكيتُ أكثر منهُ في صمت حارق حينما في اليوم الثّاني وأنا ذاهبة إلى الجامعة رأيتُهُ من بعيدٍ وقد اجتمعَ حوله السّكارى والمشرّدون وبين يديه ديواني يقرأُ لهم منه قصائدي. كانت تلك لعمري أجمل احتفاليّة تقديم للديوان أهدتني إيّاها مدينتي العارفة بالله: روما.

وحينما عدتُ إلى باليرمو، كتبَ لي النّاشر، قائلاً إنّهُ بصدد الاستعداد لتنظيم احتفاليّة باذخة تليق بالدِّيوان، وما كان منّي سوى أن اعتذرت منه بكلّ أدب ولباقة: فهو لم يكن يعرف أن روما قدّمت لي الكتاب واحتضنته واحتفلت به أفضل ما يكون الاحتفال، وذلك كان يكفيني!

مرّت ثلاث سنوات على هذا الإصدار الأوّل، ثمَّ صدرت للديوان نفسه طبعة ثانية سنة ٢٠١٦، ولكن هذه المرة في العراق (بابل)، عن دار الفرات للثقافة والإعلام، ولقد كانت فرصة لكي أراجعهُ بشكل جيّدٍ، وأنقّحَ بعض نقاط السّهو والهفوات اللُّغويّة فيه.

وكلّ ما يمكنني أن أختم به حديثي عن هذا الدّيوان هو القول، إنّهُ كان ولم يزلْ تجربةً في غاية العمق، تلتْها تجارب إبداعيّة مختلفة من حيث الرُّؤيا والمنهج: إنّني وعلى الرُّغم من إصداراتي السّبع عشر مازلتُ في تطوّر وسفرٍ مستمرّيْنِ داخل روحي ونفسي، داخل قلبي وعقلي، وأحمق من يقول إنّه قد وصل مادام في القلب نبض، وفي الحياة متّسع من الوقت للعمل والعمل أكثر فأكثر.

٢٧. ما هي المحفّزات الّتي دفعتكِ إلى ترجمة المجموعة القصصيّة: "فجر العصافير الطَّليقة"، للقاص الفلسطيني نضال حمد من اللُّغة العربيّة إلى اللُّغة الإيطاليّة، وما رأيك بهذه التَّجربة القصصيّة؟

مع هذا الكتاب بالذّات، لمستُ حقّا وحقيقة الدّورَ الكبير الّذي يمكنُ للتّرجمة أن تقدّمه للإنسان وللمجتمعات والحضارة. فـ (فجر العصافير الطَّليقة)، لم يكن مجرّدَ قصص قصيرة جمعها الكاتبُ نضال حمد في كتيّب صغير وكفى، وإنّما كان رسالةَ حبّ موجَّهة إلى إيطاليا الّتي احتضنته جريحاً منذ ٣٤ سنة، أيْ منذُ أن حُمِلَ إليها على متن طائرة قادمة من لبنان كانت تقلُّه هو ومجموعة من الجرحى الَّذين أصيبوا في مجزرة صبرا وشاتيلا، والّتي فقد فيها نضال ساقَه.

كلّ شيء انطلق من هنا، أيْ من حادثة السّاق المبتورة الّتي كتبَ عنها نضال قصّةً ترجمتُها إلى اللُّغة الإيطاليّة لما فيها من أحداث وذكريات تتحدّثُ عن تلك الفترة المريرة من التَّاريخ الفلسطينيّ وعن الدّور الرّائد الّذي قامت به إيطاليا في الاعتناء بالجرحى وأُسَرِهم. في هذه القصّة وفي قصص أخرى أرسلها لي فيما بعد نضال، كان الكاتبُ كثيراً ما يتحدَّث عن الممرضة الإيطالية إيفونا، أو (الأمّ إيفونا) كما كان يحبّ أن يناديها، ومن خلال أحاديثه هذه أحسستُ ورأيتُ بعين قلبي شجرةَ الشّكْر والعرفان متبرعمةً في قلب هذا الأديب المناضل الَّذي لم ينسَ إيطاليا وبالذّات بولونيا الحمراء، ولا الأيّام الّتي قضاها فيها ولا الأصدقاء الإيطاليّين الّذين تعرّف عليهم هناك. فقلتُ في نفسي، سأترجمُ قصصَهُ وسأنبِتُ له أجنحة ليطير بهما إلى هنا، ويبحثَ عن الأمّ إيفونا. كان ذلك أمنية ربّما مستحيلة آنذاك، لكنّني أذكر أنّني رجوتُ اللهَ من كلّ قلبي أن يحقّقها لي ولهُ.

ومرّت سنوات على ترجمتي للقصص، ونضال بمثابرته وجدّه المعهوديْن فيه لم يهدأ له بال إلى أن عثر على طريق يوصله إلى الأمّ إيفونا وإلى أصدقائه

الإيطاليين، وكذا الفلسطينيّين القدامى الَّذين ظلّ بعضُهم في إيطاليا ولم يغادرها منذ تلك الفترة الأليمة.

وكم كانت فرحتي عظيمة حينما علمتُ بالأمر، وعلمتُ أيضاً أنّ نضالاً سيأتي إلى إيطاليا من أجل تقديم كتابه، وقد دعاني إلى الحضور لكنّني اعتذرتُ وذلك لأنّني أحبُّ لكُتّابي الَّذين أترجمُ لهم كتبَهم أن يبزغَ نجمهم لوحدهم وتُسَلّطَ عليهم الأضواء بدون أن أكون حاضرةً معهم، حتى ينصبَّ الاهتمام عليهم بشكل خاصّ وكامل. لا سيّما في مثل قضيّة وقصّة عميقة مثل قصّة نضال.

في عام ٢٠١٤ سافرَ نضال إلى ميلانو، بعد أن كنتُ قد زوّدته بكلّ التّرجمات الأخرى الّتي يمكن أن يحتاجها خلال احتفاليّة التَّقديم، بما في ذلك كلمة الشّكر والاستهلال، وكذا ذكرياته عن هذه المرحلة. واحتضنتْه مكتبة (الكلمات)، وبعد أن انتهت السّهرة ونشر نضال بعضاً من صورها على صفحته في الفيسبوك، بكيتُ في بيتي بحرقة شديدة: لقد رأيتُ صورته مع الأمّ إيفونا، وفهمتُ جيّداً أن صلاتي ودعائي قد تحقّقَا، واجتمع الشّتيتين بعد ٣١ سنة من الفقد والغياب والضّياع، وتمكّن نضال من شكر هذه السَّيّدة النَّبيلة مرّة أخرى على جميل صنيعها، وقد كَبُرَا في السّنّ وأصبحَ هوَ زوجاً مثاليّاً وأباً حنوناً وأديباً ذا حضور متميّز.

هي هكذا التَّرجمة، صانعة المعجزات، وهذا هو دورها الحقّ، إنّها تلاقح بين الأرواح والعقول والثّقافات.

لم يسبق لي أن عرفت نضالاً شخصيّاً ولا حتَّى رأيتهُ، لكنّني بترجمتي لكتابه استطعتُ أن أحرّك الجبال: أوليسَ عيسى (ع) هو من قال (فَالْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَوْ كَانَ لَكُمْ إِيمَانٌ مِثْلُ حَبَّةِ خَرْدَل لَكُنْتُمْ تَقُولُونَ لِهذَا الْجَبَلِ: انْتَقِلْ مِنْ هُنَا إِلَى هُنَاكَ فَيَنْتَقِلُ، وَلاَ يَكُونُ شَيْءٌ غَيْرَ مُمْكِنٍ لَدَيْكُمْ) (آية مت: ٢٠/١٧)؟! إنّه اللهُ حينما يكون مع فمِ الإنسان ولسانه، وقلبه ويده وعينه وقدمه.

وبعد النّجاح الّذي حقَّقه نضال في ميلانو، توالت عليه دعوات أخرى من أجل تقديم الكتاب في أكثر من مدينة إيطاليّة، وقد سعدتُ بذلك أيّما سعادة، وفضّلتُ كما العادة البقاء في بيتي، أعاينُ عن كثبٍ نجاحات هذه التّرجمة وتوزيعها في مناطق ومدارس مختلفة من التّراب الإيطاليّ، ولربّما سيأتي ذاك اليوم الَّذي سأعدُّ احتفاليّة تكون خاصّة فقط بدور التّرجمة في حوار الحضارات وزرع شجرة السَّلام في الأرض، وأكون حاضرة فيها كمترجمة وأديبة ناقدة أتحدّث فيها عن كافّة أعمالي وعن الجانب العلميّ والنَّظري والأدبيّ والحضاري لرسالة التّرجمة والمترجمين السّامية والنّبيلة.

(الأمّ إيفونا ونضال حمد، وقد التقيا في إيطاليا بعد ٣١ سنة من البعد والغياب بمناسبة احتفالية تقديم فجر العصافير الطليقة بمكتبة الكلمات)

٢٨. توقّفتُ مليّاً عند ديوان: "تانغو ولا غير"، ديوان مشترك بينك وبين الشّاعر العراقي سعد الشَّلاه، كيف ولدت فكرة الكتابة المشتركة وترعرعت إلى أن أصبحت ديواناً ثمَّ ترجمت الدِّيوان إلى الإيطاليّة؟

انبلجت فكرة هذا الدِّيوان المشترك من باب كتابي النّقدي الَّذي كان قد صدر في بيروت عن دار ضفاف للنّشر والتَّوزيع بخصوص تجربة الشَّاعر الحروفيّ أديب كمال الدين وأعني به (تجلّيات الجمال والعشق عند أديب كمال الدِّين): في تلك الفترة أذكرُ أنّني كنتُ قد أرسلتُ منه أزيد من أربعين نسخة ورقية إلى العديد من "الزّملاء" المقيمين في جهات مختلفة من العالم، وعلى الرّغم من ذلك ظلّت تتوالى عليّ العديد من الرّسائل من بعض الطّلبة والأساتذة الجامعيين العراقيين الّذين كانوا يرغبون في الحصول على نسخة ورقيّة من الكتاب، وقد تحسّرتُ كثيراً على كون الكتاب لم يصدر منذ البداية في العراق ما دامت معظم الطّلبات كانت تأتيني بالأساس من هناك، ولا يعقل أن أستمرّ في إرسال نسخ ورقية منه للجميع لأنّ الأمرَ أصبح آنذاك مُكلفاً للغاية وفاق بكثير حتّى سعر نشره، وانتهيتُ إلى أنّه لربّما سيكون من الأفضل الاكتفاء بإرسال النّسخ الإلكترونيّة لمن يطلبه. وفي غمار الانشغال بهذه التّفاصيل، أذكر أنّني في أحد التّعليقات بصفحة الشَّاعر أديب كمال الدِّين عن موضوع يهمّ كتابي النَّقدي هذا، استفسر الشّاعر سعد الشَّلاه عن كيفيّة الحصول على نسخة منه، فما كان منّي سوى أن أرسلتُ له النّسخة الإلكترونيّة الَّتي طلب، ثمَّ أخبرني أنّه يودُّ أن تكون أطروحة تخرّجه عن تجربتي الأدبيّة، وسعدتُ بالأمر كثيراً، وبدأت رحلة الإعدادات الأوَّليّة للأطروحة والمصادر وما إليها، وجاءتني بعد ذلك من الشَّاعر سعد قصيدة صوفيّة هي (نون الحنّاء)، قرأتُها بتأنٍّ، وفهمتُ منها أنّها كانت طريقته الرّاقية في التَّعبير عن شكره، ووجدت نفسي أفكّر بشخصيّة الإنسان العراقيّ بشكل عامّ، وفي مدى قدرته على مواجهة بشاعة الحرب والاحتلال والأجواء السِّياسيّة القاهرة والمتأزّمة بالمحبّة والإبداع، والانبعاث من بين

الأنقاض والتَّجدّد باستمرار بنوع خاص من الطّاقة الَّتي لا يمكن شرحها بمجرد كلمات بسيطة، لأنّها لن تكون كافية أبداً من أجل الحديث عن هذا النّموذج المتفرِّد من الإنسان، ولا عن حضارته ولا عن صلابته وقوّته عند الشَّدائد. وفقط في تلك اللّحظة وجدتني أغيّر وجهة سفينتي بشكل رسميّ نحو العراق من خلال أدبائه ومشاعل النُّور فيه؛ وقلتُ سأهدي هذا البلدَ ديواناً شعريّاً يكون سابقة فريدة من نوعها في عالم الشِّعر العرفاني بين "مُتصوّفيْن" يتحاشيان قدر الإمكان الحديث عن هذا الجانب الرّوحيّ من حياتهما، فكان أنْ بنيتُ لهذه الأرض المضمَّخة بعطر دماء الشُّهداء، والأولياء والأنبياء عشّاً بين أضلعي، وخرجتُ عن صمتي واقترحتُ على الشّاعر سعد الشّلاه أن نكتب ديواناً عرفانيّاً تكون قصائده معراجاً روحيّاً نمشيه معاً خطوة بخطوة، ونؤسِّس له عبر لغة الرّمز الصُّوفي. فكانت النّتيجة أن كتبنا النُّصوص في وقتٍ قياسي من عام ٢٠١٣ ، أيْ (من الجمعة ٣٠ آب إلى الخميس ٣١ تشرين الأوّل)، ولم يفتني أن أزوّدَ المجموعة الشِّعريّة بلوحات تشكيليّة مستوحاة من النُّصوص وأسفارها الرُّوحيّة، وقمتُ في الوقت نفسه بكتابة مقدِّمة للديوان ثمَّ بعد ذلك ترجمتُه كاملاً إلى اللُّغة الإيطاليّة. وحينما أصبح جاهزاً بحثتُ له عن دار نشر هنا بإيطاليا، ونشرته في وقت قياسي كذلك!

ثمَّ أرسلتُ على وجه السّرعة للمبدع سعد في العراق دفعتين من الدِّيوان؛ في كلّ دفعة خمسون نسخة ورقيّة، وأقمتُ له في إيطاليا احتفاليّة بسيطة للتعريف الأوليّ به، ممّا دفع بالنّاشرة أن تقترحَ عليّ أن تقيم له احتفالية أخرى من أجل تقديمه بحضور الشّاعر سعد الشّلاه. وذاك ما كان بالفعل، فلقد أرسلتِ الدعوةَ للشاعر سعد كما وعدت، إلّا أنّها لم تصله في الوقت المحدّد، وحدثَ ما لم يكن يخطر على بال أحد: عادت الدعوة للناشرة وفوق الطّرد عبارة تفيد أنّ هذا الإسم غير مطابق، ولا بدّ من تصحيحه باسم آخر هو (سعد الصلاح)، بدلا من سعد الشلاه. حينئذاك أدركتِ الناشرةُ أنّ الأمر فيه شيء ما: كأنْ يكون هناك من عرقل

الأمور حتى لا تصل الدعوةُ للشاعر، على الرغم من أنه سبق لنا أن أرسلنا له نسخا من الدّيوان واستلمها ولأكثر من مرة وعلى العنوان والإسم نفسه!

حاولنا ألّا نتوقَّفَ كثيراً عند الأمر، خاصّة وأن مثل هذه الوقائع كثيراً ما تحدث في مجال يفترضُ أن يكونَ عنوانُه الأدبُ والنَّزاهة، وشعارهُ النّقاء. وقلنا الخيرُ فيما يختاره الله، لا سيّما أنّ الّذي جاء بعد نشر هذا الدّيوان كانَ أجملَ وأبهى، لأنّ الشّاعر سعد الشّلاه أصدرَ بعد ذلك ديوانيْن شعريَيْن أخْرَييْنِ في العراق؛ الأوَّل كان بعنوان (كفّ أمّي) والثَّاني (النّجمة والدَّرويش) وكانا معاً من تقديمي، إضافة إلى مجموعة قصصيّة هي قيد الإصدار أذكر أنّها كانت بعنوان (الجندي والمجرشة)، وقد كتبتُ عنها دراسة نقديّة كانت بعنوان (الإيروس والثّاناتوس في غويرنيكيات سعد الشّلاه).

كان (تانغو ولا غير)، رحلة مميّزة في محراب الحرف الصّوفيّ، أثرتني بشكل أكثر عمقاً ممّا كنتُ أتوقّعهُ، وفتحت عين قلبي على أكثر من مستوى واتّجاه، وتعلّمتُ فيها الكثير من الحِكم والأخلاق الّتي لا تليقُ سوى بأهل المحبّة والقلوب النّيّرة. وإنّي لأعتقدُ أنّ الأمرَ نفسه قد حدث للمبدع سعد، ذلك أنّ كلّ تجربة على هذه الدّرجة من الوعي والصّدق والجدّيّة والمثابرة لا يمكنها أن تطرح سوى الخير والمحبّة والتّقدير والاحترام المتجدّد والمتواصل.

٢٩. لديكِ شغف كبير في التَّرجمة، إلى أي مدى غصْتِ في ديوان: "من مذكَّرات طفل الحرب" للشاعرة العراقيّة د. وفاء عبدالرّزاق؟

ما معنى أن أترجم حرفَ الأديبة العراقية وفاء عبد الرّزاق؟ سؤال لطالما طرحته على نفسي منذ أوَّل لقاء كان لي مع حرفها الشِّعري حينما قرأتُ لها قبل فترة قصيدتها (بيت الطّين). كنتُ آنذاك لم أطّلع بعدُ على ديوانها هذا ((من مذكّرات طفل الحرب))، إلَّا أنّني شعرتُ لأوَّل وهلة بأنّي أمام حرفٍ لا ككلّ الحروف، وأمام

بوحٍ له بصمة خاصّة مغرقة في الأصالة والإنتماء. وفاء عبد الرَّزاق هي باختصار؛ نخلة أصلها ثابت وفرعها في السّماء. والنّخلة لها معان وأسرار لا يقوى عليها أيّ دارس أو باحث أو سالك ما لم تكن في مزوَّدة سفره كسرة الصّبر وجرّة طول النّفس، وشمعة قوّة العزيمة، غير هذا فإنّه لن يناله من فيافي نصوص وفاء سوى حفنة من سراب باهت وظلال بلا لون ولا ضوء.

في (بيت الطِّين) وجدتُ وفاء وحضن أمّها، وكُتُبَ أبيها ومحبّة جدّتها، ويدَ جدّها وقلبَ وطنها المضمّخ بعطر الماضي والتّاريخ والحضارة العريقة. وليس هذا فحسب، لقد عثرتُ على اللَّوح الّذي كتبت فوقه وفاء تاريخ شعب بأكمله بمسامير سومريّة حملتني إلى زمن الكتابة الأوَّل. ووجدت أيضاً جسدَها وجسد الوطن المثخَّن بالجراح، وأخيراً وجدتني في كلِّ نصّ من نصوصها، وهذا له معنى واحد لا غير: صوت وفاء هو صوت الأمّ الأرض، وحينما تتحدَّثُ الأرض يصخي أبناؤها السّمع، لا فرق فيهم بين الأبيض أو الأسود، ولا بين العربي أو الأعجمي، ولا بين مُعْتقِدٍ في الله الواحد الأحد أو غير مُعتقِدٍ في أيّة ديانة توحيدية كانت أم لا، فالكلُّ هنا معنيّ بالأمر. الكلُّ عليه أن ينصت لحرف وفاء بأذن القلب، والكلُّ عليه أن يقرأها بعين الرّوح، لأنّها تروي مأساة وآلام الإنسانيّة جمعاء. هذا هو معنى أن أترجم لوفاء عبد الرّزاق؛ أن أحمل حرفها إلى أبعد الحدود، أن أقرأ لها أكثر وأكثر، وهذا ما قمتُ به فعلاً: أيْ أنّني قرأتُ المزيد والمزيد من نصوصها. إلّا أنّه حينما وصلني منها قبل أشهر ديوانها ((من مذكّرات طفل الحرب)) شعرتُ أنّه أصبح عليّ لزاماً أن أنتقل بقلبي من بحر القراءة وأدخل به إلى محيط التَّرجمة. لأنّ الأمر غدَا رسالة، بل حمامة يجبُ عليّ أن أطلقها كي تطير بجناحيها عالياً وتصل إلى هنا: إلى إيطاليا.

أما عن السَّبب الّذي دفعني دفعاً إلى ترجمة هذا الدِّيوان فكلُّ ما يمكنني أن أقوله سوى إنّي لا أعرفُ إلى أيّ مدى يمكنني أن أعتبر نفسي محظوظة أو لا، حينما وجدت بين يديّ لا النّسخة العربية فقط لـ ((من مذكرات طفل الحرب)) وإنّما

النّسخ الفرنسيّة والإسبانيّة ثمّ الإنجليزيّة! الأمر الأكيد طبعاً هو أنّ تعدُّد النّسخ هذا وبلغّات مختلفة، يعني عملاً مضاعفاً يقتضي ضرورة الاطلاع عليها جميعاً مع التَّركيز على بعض التَّفاصيل فيها والمتعلِّقة خاصّة بطريقة عمل كل مترجم على حِدَة. وأعتقد أنّ هذا الأمر أعطاني طاقة أكبر وزاد من تعلُّقي بحيثيات الدِّيوان في لغته العربيّة، لأنّه تحوّل بين يدي إلى قبّعة سحريّة كلّما أدخلت يديّ في فوّهتها أخرجتُ المزيد من المفاجآت الّتي كانت تتوالد باستمرار لا متناه وبشكل أصبحت معه التَّرجمة إلى اللُّغة الإيطاليّة أمراً ممتعاً للغاية، لا سيّما أنّي بتّ في حوار لا ينقطع مع وفاء عبر حرفها الشِّعري، وازدادت قناعتي أكثر وأكثر بأنّ العديد من النّصوص وإن كان المتلقِّي يقرؤها بلغته الأمّ، فإنّ وردة حرفها في كثير من الأحيان لا يفوح عطرها الحقيقي إلّا إذا قرأَها بلغة أخرى يتقنها غير اللُّغة الأم. ذلك أنّه ثمّة من المعاني الّتي لا تفتح أسرارها للمتلقِّي إلّا إذا فكّكها حتّى آخر حرف في جملها أو كلماتها، وما التَّرجمة إلّا إحدى هذه المفاتيح الّتي لا يمكن الاستغناء عنها أبداً. وأظنّ أنّ هذا هو السّبب الحقيقي الَّذي دفعني إلى التَّمسُّك بترجمة ((من مذكّرات طفل الحرب)).

ما من شكّ أنّ التّرجمة رهان صعب، ومحنة ما بعدها محنة، والسّفر بين صفحات ديوان وفاء لم يكن بالسّهل أبداً، لقد كان أشبه بالصُّعود إلى قمّة جبل بعيد جدّاً مشياً ثمَّ العودة من هذه القمّة ركضاً. وأعني بهذا الأمر؛ الصُّعود بخطى وئيدة إلى النّصِّ ثمَّ النُّزول منه جرياً حيث الجملة والكلمة ثمَّ الحرف وعلامات التَّرقيم والفراغات البيضاء الموجودة بين أبياته دون إهمال وقفات الكلام وصمت الأسطر أحياناً. وعملي هذا كان يستدعي منّي أيضاً الحرص على تعويض بعض الخسارات الّتي تكون قد حدثت سواء أثناء عملي داخل مسبك الحرف أو في ما سبق من التّرجمات الأخرى الّتي صدرت للديوان نفسه، ممّا جعلني أشعر أحيانا بالإقامة بين نارين: نار الوفاء والحرص على الدّقّة في المعنى، ونار الشّكّ في مدى دقّة ما

ترجمْتُه وما تمّت ترجمَته آنفاً إلى لغات أخرى. وهذه مشكلة عويصة غالباً ما أصادفها في النُّصوص الشّعريّة، لأنّ الهمّ الأساس هو محاولة الحفاظ على نوع من الاتّحاد بين المعنى والصّوت، ثمَّ بين الدَّال والمدلول وهما ينتقلان بين يديّ من نصِّ الانطلاق إلى نصّ الوصول مرورا بنصّ ثالث لم يكن موجوداً آنفا، ولكنّه وُلد أثناء محاولتي أن أقول نفس ما قالته وفاء عبد الرزاق في بعض الأجزاء من نصوصها ولكن بطريقة مختلفة: أيْ بعلامات وكلمات وأشكال نحويّة مختلفة لدرجة أصبحتْ معه الكتابة من اللُّغة العربيّة إلى اللُّغة الإيطاليّة كتابة وطنيّة وعالميّة في الوقت ذاته، ولعلّها الإشكاليّة عينها الّتي سبق أن أثارها الفيلسوف والعالم اللّغوي الألماني (فيلهلم فون هومبولدت) (Wilhelm Von Humboldt) حينما قال متحدِّثاً عن هذا الطَّابع الوطني والعالمي للغات:

<<...que la diversité des langues excède une simple diversité des signes, que les mots et la syntaxe forment et déterminent en même temps les concepts, et que, considérés dans leur contexte et leur influence sur la connaissance et la sensation, plusieurs langues sont en fait plusieurs visions du monde>>

وتعدُّ قضيّة تحقيق نوع من توازن الدَّلالة بين مصطلحين من لغتين مختلفتين تماماً من بين أعقد الصّعوبات الَّتي واجهتها أثناء رحلتي التّرجميّة هذه، ذلك أنّه كان عليّ بداية أن أبذل قصارى جهدي كي أدخل حضرة التَّماهي الرُّوحي والعقلي مع ما كان يدور بخلد الشَّاعرة أثناء كتابتها لقصائد هذه المجموعة دون إهمال تصوُّراتها المستقاة من حياتها وتجاربها ومخزونها الفكري والحضاري. وحرصي على تحقيق هذا النَّوع من التَّوازن الدَّلالي لا يعني أبداً الطّمع في تحقيق التَّعادل المطلق للمعنى بين ألفاظ تنتمي إلى لغتين مختلفتين؛ العربيّة والإيطاليّة سيّما وأنّني أدرك تماماً أنّه لا يوجد شيء في اللُّغة اسمه تعادل مطلق بين وحدتين من وحدات الشّفرات اللُّغويّة. لذا، كان عليّ أن أركّز في ترجمتي على إعادة

صياغة الشّفرة اللُّغويّة الخاصّة برسائل نصّ الانطلاق ثمَّ إعادة إرسالها بصيغة أخرى إلى نصّ الوصول، وهكذا أكون قد حصلتُ على رسالتين متعادلتين بشفرتين مختلفتين لأنّهما تنتميان إلى نظامين مختلفين في تقسيمهما للواقع وتحديد الأفعال والصّفات والأسماء عبر مستويات مختلفة للمعنى أهمُّها المستوى الشُّعوري، الَّذي غالباً ما يهتمُّ بتجلِّيات المعنى المختلفة والّتي تولد عبر ما يحدث بين الكلمة والأشياء من تلاقح وانسجام داخل سياق الجملة أو خارجها، ثمَّ المستوى اللُّغوي بكامل شجرته الّتي يزهر فوق غصن جملتها الاسم أولاً ثمّ يتبعه الفعل ثمَّ اللّواحق النّحويّة واللّغوية الأخرى، وأخيراً المستوى الإحالي الَّذي لا تخضع فيه العلاقةُ الدَّلاليّة لقيود نحويّة، بل لقيود دلاليّة محضة تقتضي تطابق الخصائص الدّلاليّة بين العنصر المحيل والعنصر المحال عليه، فيقع التَّماسك عبر استمراريّة المعنى الّتي تتحقّق من خلال سماح الإحالة بحفظ المحتوى مستمرّاً في المخزون الفعّال من دون الحاجة إلى التّصريح به مرّة أخرى.

أنهيتُ ترجمة الدِّيوان وكتبتُ عنه بعد ذلك دراسة نقديّة معمّقة نشرتُها في أكثر من موقع، ثمّ بدأتُ في البحث لهُ عن دار نشر جديدة غير دار النّشر الّتي سبق ونشرتُ معها (تانغو ولا غير) أو الدِّيوان المشترك مع سعد الشّلاه، وذلك لأنَّني كنت أعلم علم اليقين بمدى انشغال النّاشرة بتحضيراتها لحفل زواجها والتّغييرات الّتي من المؤكّد ستتلوه من أسفار وما إليها، إلّا أنّني لم أجد داراً تستحقُّ أن تكون محطّ ثقتي وتكون قريبة من مدينة إقامتي أو فيها، حتّى أتفادى العديد من المشاكل الّتي عادة ما يتعرّضُ لها الكتّاب والأدباء في هذا المجال. لكن ما من حلّ، فقد جاءتني أجوبة كثيرة من دور نشر مُحْبِطة، لا تفهم في الإبداع العربيّ والإنسانيّ شيئاً، إضافة إلى أسعارهم الخياليّة، فقرَّرت بعد ذلك أن أعرض الكتاب على دار نشر أريانا، وتمنطقنا أنا والدّكتورة وفاء عبد الرزاق بحزام الصّبر وتفهّمنا ظروف النّاشرة الجديدة وانتقالها للعمل في منطقة أخرى بوسط إيطاليا. وحينما

شارفَ الكتاب على الصّدور كنت آنذاك أستعدُّ للسفر إلى المغرب الحبيب لقضاء العطلة فيه كما العادة، وقلبي منقبض للغاية لأنّني كنت أشعر بدواخلي أن صديقتي وفاء ليست بخير، على الرُّغم من أنّها كانت تتكتّمُ على الأمر، إلى أن عرفتُ منها أنّ زوجها في أيامه الأخيرة بسبب مرض عضال لم يمهله طويلاً. سافرتُ وفي قلبي جرح غائر، وأنا أفكِّر في عظمة هذه السَّيِّدة الكريمة المعطاءة ذات القلب الكبير الّذي يسع الكون، وفي شموخها حتّى بعد أن رحل زوجها، وقد كانت في حياته الملاكَ البشريّ الّذي سهر عليه ولم يفارقه أبداً أبداً. كان هذا الأمر درساً عظيماً وحكمة كبرى علّمتني كيف تولدُ القدّيسات من رحم الألم والعذاب. ولم يفارقني طيف وفاء وأنا في المغرب بين الأهل والأحبّة، وانتهت العطلة وحان أوان الرّجوع إلى إيطاليا بلدي ووطني الثّاني، وقلت في نفسي لا بدّ أن أسمع صوت والدي قبل الذّهاب إلى النَّوم لأنّه لم يكن معي في الأسبوع الأخير في نفس مدينة إقامتي، وذاك ما كان بالفعل، إلّا أنّ صوته كان مختلفاً، وقال لي كلمة ظلّت ترنّ في أذني طوال اللّيلة: ((أحسنتِ صنعا يا فلذة كبدي، فمن يدري، فلربّما تكون هذه آخر مكالمة بيننا: سفرا طيبا يا أميرتي، ونوماً سعيداً هنيّاً)). وفي الفجر الباكر، وبينما أنا بين يدي الرحمن لصلاة الفجر، أحسستُ بوخز أليم في صدري، وحينما ختمت صلاتي، حضرت بقلبي صورة والدي بقوّة، فطلبتُ له الرّحمة والغفران والصّحة والعافية، وسارت الأمور على غير المتوقّع، فلقد فارق أبي الحياة في اللّحظة نفسها الّتي شعرتُ فيها بذلك الألم في صدري. وذهبت إلى مراكش، وقبّلت جبين والدي (البارد جدّاً)، وحضرتُ مراسيم العزاء، ثمّ انطلقتُ في اليوم نفسه إلى مطار الدّار البيضاء لأركب الطّائرة الّتي حملتني إلى إيطاليا سيّدةً مصلوبةً وبتاج شوكيّ فوق الرّأس!

فيا لذاكرة هذا الطّفل الّذي كتبتْ عنه وفاء عبد الرّزاق، إنّها ذاكرة ذرّيّة أبينا آدم من الرّجال وهم يخطّون حروف الألم والكفاح والكدح فوق لوح الحياة الكبير

ثمّ يرحلون الواحد تلو الآخر، تاركين لنا دروساً عظيمة، تكون لنا الزّاد والنُّور في هذا الطَّريق المليء بالمطبّات والمنعرجات.

فشكرا للغالية وفاء إذ ظهرت في حياتي قنديل أمل، وشكرا لزوجها المحترم الَّذي تعلّمتُ من ألمه الكثير، وشكراً لكَ أولاً وأخيراً يا أبي، أيُّها الفارس المغوار الَّذي مازال حاضراً في قلبي روحاً وفكراً، أهتدي بنبراسه وضيائه المتوهِّج في كلِّ آن وحين.

٣٠. ترجمتِ ديوان: السَّلام أعمق من البحار، وقدّمت دراسة موسّعة عن أدب صبري يوسف، ما رأيك في آفاقه الأدبية والفنِّيَّة نحو فضاءات السّلام، وما رأيك في مجلّة السَّلام الدَّولية الَّتي يصدرها سنويَّاً؟

لكلِّ خشب ساعة الحرق عطرٌ ورائحةٌ زكيّة مُعَيّنيْن، ولكلّ مبدع أسلوبٌ وبصمةٌ يُميّزانه عن غيره من المبدعين، وأنا كلّما كنت أمام تجربة إبداعية لأديب ما، شعرتُ بمحنة ما بعدها محنة، إذ عليّ أن أبحث عن هذه البصمة، أو هذا العطر الَّذي يميّز شجرة الإبداع عنده، حتَّى لا تصبح الكتابة التّرجميّة أو النَّقديّة تكراراً لما سبق وكتبتُه عن غيره، ممّا يعني أنّه عليّ أن أبدأ سفري من القراءة المكثّفة عن هذا المبدع، ثمَّ بعد ذلك المرور إلى مرحلة البحث والمصادر الَّتي تتوافق مع ما أنا بصدد القيام به من دراسة أو ترجمة. وإنّي لأعتبرُ نفسي من المحظوظين في هذا المجال، لأنّ الوهّاب منّ عليّ بنعمة النّسيان: نعم، أنا كثيرةُ النّسيان، أنسى بسرعة ما أقرَؤُه من كتب ومصادر، وروايات وقصص، بل حتّى ما أراهُ من أفلام أو ما أسمعه من قطع موسيقيّة، وهذا قد يجدُهُ البعض مشكلةً، لكنّني أعدّه كنزاً ما بعده كنز، لأنّه يعني أنّ نفسي وروحي وعقلي كلّهم معاً في تجدّد مستمرّ، ففيهم المساحة الكافية دائماً لتلقّي المزيد والمزيد، وفي هذا، أشْبِهُ النّوتيّ البحّار؛ وهو حيوان بحريّ صغير بحجم قبضة اليد، ويحيط برأسه المخروطي قرن

استشعار قصير، يتواصل به مع العالم المحيط به. وأغرب شيء فيه هو صدفته المتكوّنة من غرف كثيرة، كلّ غرفة أكبر من سابقتها ومغلقة بإحكام من جميع الجوانب بواسطة جدران دقيقة ما عدا الغرفة الأخيرة الَّتي يوجد بها جسم النّوتي الرَّخو.

وهذا النّوتي، كائن مائيّ "أعمى"، يعيش خلال النّهار في أعماق المياه المظلمة ولا يقترب من سطح الماء إلّا ليلاً، وكونهُ أعمى فهذا يعني أنّه مكتمل البصيرة القلبيّة والرُّوحيّة، أمّا عن كونه ينتقل من غرفة إلى أخرى، فهذا دليلٌ على أنّه منشغل بالبناء والتَّجديد، فهو دائماً يبني حجرات جديدة أكبر حجماً كلّما نما جسمه بشكل أكبر ويهجر الحجرة القديمة كي يقيم في الجديدة، وفي بعض الحالات يمكن لغرف قوقعته أن تصل إلى ثلاثين غرفة. وكلّ هذه الصِّفات لا يملكها إلّا المبدع المتنوّرُ من أهل الحرف، المنشغل بالتّفكيك والهدم وكسر القواعد من أجل شرب حليب الأبجديّة والوقوف على أسرارها.

وأذكر أنّني كنتُ خلال قراءاتي الأوليّة لمؤلّفات صبري يوسف وإبداعاته التّشكيليّة، كلّما مضيتُ قُدماً في الدِّراسات الأوليّة، أحاطت بي الرِّسالات والصُّور من كلِّ جانب، قادمةً من أماكن مختلفة. وهو أمر كان يحتاجُ منّي إلى الكثير من الصّبر والجَلَد حتّى أستطيع استيعابها كاملة، لأنّها كانت تحملني إلى آفاق أكثر شساعة وشموليّة، حيث الحرف يُفصح عن نفسه وبأشكال جديدة، فوجدتني وأنا في غمرة القراءة والتّرجمة، أنظِم قصائد جديدة شكّلتْ جسد ديوان آخر هو (مالمْ تبح به مريم، ويليه متون سيدة)، والذي تحوّل بشكل أو بآخر بين يدي الأديب صبري يوسف إلى ديوان آخر نابع من التَّجربة ذاتها وأعني به (تجلِّيات من وهج الانبهار)، وقد كان هذا كلّه نوعاً من الدَّوران في الاتّجاه المعاكس لعقارب السَّاعة، أو لأقُلْ صلاة دائريّة تشبهُ دورة تلك الخطوط المنحوتة على جسد النّوتي أو قوقعته الّتي ترمز إلى كمال الخلق والتَّخليق.

ماذا يعني كلّ هذا؟ أنّ السَّلام الّذي كان يتحدّثُ عنه صبري يوسف في ديوانه هو الله. ولستُ هنا بصدد حصر الدِّيوان في إطار لاهوتيّ ميتافيزيقيّ محض، بقدر ما أنا بصدد الحديث عن شفافيّة رسالة ديوان (السَّلام أعمق من البحار) والّتي وصلتني كاملة، وفتحت عين قلبي بشكل جميل جدّاً، حتّى أنّي صرتُ في تلك الفترة لا أجلس في مكان إلّا وأجد حروف السَّلام وإشاراته من حولي. لقد بتُّ آنذاك أرى كلمة (السَّلام) مكتوبة فوق الجدران وفوق السِّيارات، وفي اللّافتات، وعند مداخل الأزقّة والطُّرقات، سواء هنا في إيطاليا، أو هناك في المغرب.

وكلّ هذا دفعني إلى المزيد من التَّأمّل في تاريخ الإنسان: فأنّى له أن يجدَ السّلام، وقد قتل اللهَ بداخله؟!

سيقول المتفيقهون إنّ الله لا يُقتَلْ، إنّه حيّ دائم باقٍ، وأقول: نعم هو كذلك، لكن في قلوب القلّة، وأمّا في قلوب أغلبيّة النّاس فهو ميّت غائب ومُغَيَّب، وإن كانوا من ذوي الأذكار والتّلاوات، والرّكوع والسّجود في المعابد والكنائس والمساجد، فهذا لا يعني شيئاً بتاتاً مصداقا لقوله عز وجل: ((وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً)) (الأنفال: ٣٥).

هي الأجساد تصعد وتهبط، والأفواه والشِّفاه تمكو مكاء لا ينقطع، لا أقلّ ولا أكثر. لن يحلّ السّلام في قلوب لا تعرف اللهَ ولا تعترفُ به: إنّه هو السَّلام، ومهما بلغ الإنسان من التَّقدُّم، فإنَّ عقله يبقى الحجابَ الأكبر الَّذي يحول بينه وبين الوصول للسلام والطّمأنينة. السَّلام لغة القلب والرُّوح، ويجب التَّجرُّد من كلّ شيء من أجل الإحساس به، وتحقيقه.

كلّ الأنبياء جاؤوا به، وكلّ المؤمنين والأولياء اضْطُهدوا من أجله. وحينما عذّبَ الحاقدون المسيحَ مثلاً، إنّما أرادوا قتل الله في صورته، وبالتَّالي محو صورة السّلام، وهو الشَّيء نفسه الّذي حدث مع أمير المؤمنين عليّاً (ع)، ومع ابنيْه من

بعده. ثمّ بعد ذلك يتساءل المتفلسفون وأدعياء الفكر؛ من أين تأتي الحروب ولماذا كلّ هذا العذاب على الأرض؟!

ليس بالأمر الهيّن قتلُ الله كلّ يوم؟ وعبثاً يحلم النّاس بالفردوس والجنان والحشر مع الصّدّيقين والأبرار: يجبُ إحياء السَّلام في القلوب، يجب إحياء الله، يجب النّزول إلى الجحيم إذا أراد النَّاسُ الجنّة، فالطّريق يبدأ من هناك، وعبثاً يتحدّث العرفاء عن الحبّ ما لم يتحدّثوا عن الكراهيّة، وعن الملائكة ما لم ينظروا في عينَيِ الشّيطان ومواجهته وجهاً لوجه، ونسف وجوده من الأعماق. أعتقد أنّه قد حان الأوان لتفكيك منظومة الجحيم والجنّة، والملائكة والشَّياطين، من أجل السَّعي إلى السَّلام الحقّ، وعلى أطبّاء النّفس وعلومها أن يعيدوا النَّظر في كلّ إرث فرويد ويونغ وغيرهما، لأنّ جنون الإنسان المستمرّ وشقاءَه الَّذي لا نهاية له، أثبتَ فشل هؤلاء في تقديم الحلول النّاجعة لتفادي كل هذا الخراب الرُّوحيّ الكبير.

السَّلام يشفي الإنسان من كلّ شيء، وأنا أعني ما أقول جيّداً، وقد خبرتُ هذا الأمر لأكثر من مرّة، وآخرها كانت يومَ وفاة والدي: حينما جاءني الخبر، لم أبكِ ولم أصرخ أبداً، حتّى أنّ السَّائقَ الَّذي حملني إلى مراكش لأحضر مراسيم العزاء والدّفن، استغرب الأمرَ كثيراً.

كنتُ أشعر بطمأنينة كبيرة مصحوبة بجرح وألم، كان الأمرُ يُشبه جرح العاشقة في ليلة زفافها، وهي تتعرّفُ لأول مرّة على السَّعادة العشقيّة. والموتُ بالنّسبة لي، هو نوع من الزّفاف، حيث الرُّوح تخرجُ عروساً من دار إلى أخرى، والجرح والألم هو فقط وقتيّ من أجل سعادة أبديّة.

كنتُ أعلم أنّ روح والدي قد بدأت رحلتها نحو هذه السّعادة، ولم يكن يعنيني أبداً إذا كانت سعادتها ستبدأ بعروج نحو المحرقة (الجحيم)، أو نحو (الفردوس). لأنّني على يقين أنّ كلاهما مطهّر، وأن لا أحد في الكون كلّه أرحم من الله على النّاس، فهو خالقهم. هذا الشُّعور جعلني أشعر بخفّة في الرّوح والجسد بين

الأهل وهم يبكون ويصرخون من شدّة ألم الفراق. وحينما كنت في مطار الدَّار البيضاء عائدة إلى إيطاليا، شعرتُ أنّني ريشة تطير في الهواء، وأحسستُ بسعادة تغمرني ما بعدها سعادة. أيْ نعم كان جسدي مرهقاً من كثرة الأسفار وهول المفاجأة لكنّ روحي كانت تحلّق في السَّماء. إنّه نفسهُ السَّلام الّذي ترجمتُه في ديوانِ صبري يوسف، والّذي يتحدَّثُ عنهُ أهل الحقّ، إذا حلّ بالرُّوح شفاها من أسقامها وأحزانها. لذا فإنّي أرجو من الله عز وجلّ أن يُنوّر قلوب الفقهاء المفسّرين ويرأفوا بالنَّاس وهم يُحدّثونهم عن النّار والجحيم والعذاب، لأنّ الأمر فيه صور مجازيّة، ورموز ينبغي تأويلها بعين الحكمة والتَّروّي والمحبّة قبل كلّ شيء.

حينما ركبتُ الطَّائرة المتوجّهة إلى إيطاليا، ابتسمتُ وفي القلب رعشة ونور: قلتُ في نفسي، يا لهذا اليوم العجيب: دُفِنَ والدي بمرّاكش في مقبرة المطار، وكأنّه أراد أن يقول لي إنّ الحياة مجرّد سفر. لقد كان يحبُّ الأسفار كثيراً، ودُفِنَ في مكان تقلع فيه الطَّائرات على مدار الأربع وعشرين ساعة، وقبره يحمل رقم السَّنة التي وُلِدْتُ فيها. ربُّ السَّلامِ أراد هذا، وأراد لي أيضاً أن يكونَ أوّل ما قمتُ به بعد عودتي أن أراجع وأنقّح ديوان (السلام أعمق من البحار) لأكثر من مرّة، وأدفعَهُ لدار النّشر وأتتبّعَ كلّ خطواته إلى أن أصبح حقيقة على ورق، فصدر وفي القلب فرح ما بعده فرح.

أمّا عن مجلّة السلام الّتي يرأس تحريرها الأديب صبري يوسف، ويسهر على نشر موادّها الموسوعيّة الواحدة تلو الآخر، فكلّ ما يمكنني أن أقوله عنها، إنّها يمامةُ محبّة تشدو بالجمال والعشق وسط هذا الزّخم الكبير من النّشاز المحيط بنا من كلّ جانب.

٣١. ما الَّذي جعلك في خضمِّ مشاريعك المتنوّعة، أن تترجمي رواية "عشق سرّي"، للروائية الإيطاليّة ريتانا أرميني؟

حينما طرق النَّاشر والأديب الفاضل أيمن الغزالي باب نوني وقلمي وبين يديه جديد ما ألّفته الكاتبة الإيطالية ريتانا أرميني مقترحاً نقل صفحاته إلى اللُّغة العربيّة، قلت في نفسي لا بدّ قبل الخوض في أيّ شيء من قراءة أولى وثانية وثالثة للكتاب حتى أعرف من أيّ طرف سأمسك بتفاصيل هذه الحكاية الجديدة، وأقيّم بالتّالي مدى أهمّية رفد المكتبات العربية بها أم لا. وقرأتُه فعلا من الغلاف إلى الغلاف، ووافقت شكلاً ومضموناً على ترجمته. ثمّ تركتُهُ لبعض الوقت في انتظار أن يختمر فعل التّرجمة الإبداعي بداخلي، وحينما لمست اكتمال استعدادي الفكري والرُّوحي، عدتُ إليه، وبدأتُ رحلتي الطَّويلة معه غائصة بين صفحاته أياماً وليالي طوال قضيتها وأنا أدقِّق النَّظر بين حروفه وكلماته وأحاور فقراته الواحدة تلو الأخرى، إلى أن أصبح الكتاب على ماهو عليه اليوم.

وأذكر أنني كنتُ آنذاك كلّما مضيتُ قُدماً في صحراء القراءة المتجدِّدة على الدَّوام، ظهرت لي طبقات وتلال من المعاني يختلف أولاها عن ثانيها، وثالثها عن رابعها، حجماً ولوناً وشكلاً ولغةً، وكلّما اختلف المعنى ازدحمت أمام عينيّ الأسماء والأماكن، وظهر الكتاب بأكثر من لباس وصورة، فهو تارة يبدو كأنّه رواية، وتارةً أخرى يظهر كأنّه عمل سردي ذاتيّ بيوغرافي، وتارةً ثالثة تجده وقد تحوّل إلى كرّاس تاريخي وسياسي وصحفيّ في الآن ذاته، وتراه مرّة رابعة وقد اجتمع فيه كلّ هذا وذاك مشكّلاً جنساً أدبيّاً جديداً يصعب تصنيفه أو تعميده باسم خاصّ ومعيَّن، ممّا جعلني أشعر وكأنّني في دارة الرّكض وراء سراب تمسكه ولا تمسكه، وتشرب من مائه ثمّ تعطش من جديد، لأنّك تكتشف أنَّ ما شربته لم يكن ماء عذباً وإنّما ملحاً أجاجاً، فتقف طالباً الغوث وباحثاً عن خيط متين تجمع به بداية فصول

الكتاب في لغته الأمّ، وتخيط به في الختام كتاباً آخر بلغة جديدة حتّى يصبح متاحاً بين يدي كلّ من يعرف لغة الضّاد في كلِّ منطقة من مناطق العالم.

لكن من أين لي بهذا الخيط السّحريّ العجيب، بل من أين لي بالإبرة الّتي سأدخل فيها هذا الخيط لأحيك به أطراف ما أقرَؤه وأترجمُه في الوقت نفسه؟ وأنّى لي أن أحقِّق كلّ هذا والكتاب قد تحوّل بين يدي إلى أذنين عريضتين، هُما أذنيْ فيل ضخم، ما إن أمسكتهما حتَّى تحوَّلتا إلى مروحتَين كبيرتَين من الأوراق، حملتاني إلى عالم واسع من الكتب المختلفة التَّخصُّصات والتَّوجُّهات، ذلك أنّني كنت كلّما قرأت كلمات ريتانّا، وجدتُني أغادر الكتاب من أجل البحث في كُتُب أخرى عمّن تكون مثلاً إينيسّا بطلة الأحداث الرّئيسة، أو ناديا كروبسكايا وأليكساندرا كولونتاي، وعن المصادر والمراجع الّتي استقت منها الكاتبة معلوماتها التّاريخيّة والسّياسيّة، وكذا عن المؤرِّخين الّذين بحثت في كتبهم وقراءاتهم عن المادّة الخام الَّتي بها شكّلت مؤلّفها الجديد هذا، كما وجدتني أيضاً أبحث عن الأماكن وأسمائها، وعن البلدان والمدن والمقاهي والحدائق، والقطارات، والمدارس والمنافي، إلى درجة أنّني كنت في كثير من الأحيان أشعر أنّني أصبحت شخصيّة من شخصيّات هذه "الرِّواية" البيوغرافيّة، أركض في الطُّرقات وأعيش مع الأبطال أحداثهم المشوقة ومغامراتهم المحفوفة بالأخطار. نعم، لقد كنتُ أركض وأنا أمتطي ظهر كتاب هو فيل، أمسك بأذنيه المروحيتيّ الشَّكل، دون أن أعرف كيف تحوّل فجأة إلى صقر ذهبيّ أخذني على بساط التّرجمة من سورية إلى إيطاليا، ومنهما إلى روسيا، ومن هذه الأخيرة إلى فرنسا وسويسرا والسُّويد وألمانيا وكراكوف، بل إلى كلِّ مكان كانت فيه إينيسّا مع حبيبها لينين.

وإذ أصبحتُ على ظهر هذا الصّقر المحلّق في سماوات الزّخ والبوح النّاريَّيْنِ، ممسكة بالقلم المتوهّج، وغامسةً إيّاه في مدواة النّون لأغرف منها حرف التّرجمة، سمعتُ الطّائرَ الذّهبيّ يقول: أنت الآن تجلّ من تجليّات سارة، ودار نينوى

للدراسات والنّشر والتّوزيع هي صورة جديدة لإبراهيم الّذي نظر نظرة في النّجوم وقال إنّي سقيم، فانظري ما أنت فاعلة بهذا الكتاب في مهمّتك الجديدة هذه. حينئذ تذكّرتُ نصّاً من نصوصي الشّعريّة الَّذي كنتُ قد كتبته عام ٢٠٠٣ ضمن قصائد ديوان (مقام الخمس عشرة سجدة) وعنونته بـ (مقام إبراهيم)، وهو مقام يقين وثبات على رسالة الحرف، وقلت في نفسي؛ عجيب أمر هذا الكتاب، إنّه يخاطبني كما كولن ولسن بلسان اللّامنتمي، ويطالبني في الوقت ذاته بالانتماء، وأقول اللّامنتمي، لأنّه حينما طرقت بابي دار نينوى فعلتُ بالضّبط كما فعلت سارة، ضحكتُ وقلت: أيعقل هذا وأنا الّتي لا أنتمي إلى أيّ حزب سياسي، ولا إلى أيّة إيديولوجية معيّنة، ولستُ من أهل اليمين، ولا من أهل اليسار، فكيف يطلب التَّواصل معي كلّ من ريتانا وصاحبتها إينيسّا، ولينين برفقتهما، إنّ هذا والله لأمر عجاب! وكيف عليّ إذن أن أستقبلهم ونحن على عتبة زمن شاخ فيه الجميع، وبات الكلّ ينتظر ريحاً تغيّر مجرى الأحداث، وتحمل البشارة والأمل في غد أفضل؟ ما من شكٍّ أنّ خير ما سأقوم به هو ما قامت به سارة حينما وقف الأغراب أمام خيمة إبراهيم؛ إنّها لم تسألهم عن هويّتهم، ولا عمّا يريدونه من زوجها؛ لقد ابتسمت وشمّرت عن ساعد الجدّ وفتحت بيتها، وأشعلت الحطب، وجلبت الماء والقمح والزَّيت، وطهَت الخبز الطّازج، ولحم العجل الحنيذ وقدّمتهُ للضيوف، وهذا كلّه يعني أنّها لم تكتفِ بالقيام بواجبها كزوجة لنبيّ، بل بواجب الاستقبال والاحتضان والتَّرحيب، وهكذا عليّ أن أقوم أيضاً، وأنا في بيت الضّيافة هذا، الَّذي هو هنا بيت التَّرجمة، لأنّ هذا هو دور المُترجم الحقّ؛ عليّ أن أفتح قلبي وأستقبل الكتاب وأرحّبَ بشخصيّاته أحسن ما يكون الاستقبال والتّرحيب، وأقدّم لهم أفضل ما عندي: تقصّي المعنى والأمانة عند نقله من لغة الانطلاق إلى لغة الوصول، وإثرائه بقراءات أخرى تصبُّ في الكتاب ذاته، ثمَّ البحث عن الأديبة ريتانّا أرميني من أجل فتح قناة للحوار معها، وإشراكها في عمليّة الإطلال على الضّفّة الأخرى؛ ضفة الحرف العربي المبين. وهذا ما حدث

بالفعل، لقد اتّصلتُ بها، وتعرَّفتُ عليها، وجمعتني وإيّاها مراسلات قيّمة، تحدَّثنا فيها عن الكتاب، وصوّبنا معاً بعضاً ممّا كان فيه من السّهو، ووجدتها هي الأخرى سارة من نوع جديد، تُحسن الإنصات والإصغاء، وتهتمُّ بقضايا المرأة بغضِّ النَّظر عن انتماءاتها العقائديّة أو الجغرافيّة والسّياسيّة، وتؤمن بما في التَّواصل بين الإنسان وأخيه الإنسان من سحر، وقوّة قادرة على تغيير مسار التّاريخ وصنع أحداث جديدة. نعم، هو صنع الحدث الّذي سيكون هديّة ضيوف بيت التّرجمة لنا جميعاً، بالضّبط كما تلك الهديّة الّتي بشّر بها ضيوف إبراهيم سارة، حينما أخبروها بقرب قدوم الابن الّذي طالما انتظرت وحلمت بإنجابه، ذاك كان هو ثمن صبرها وكدّها ولطفها وحسن ضيافتها، والابن هنا بالنّسبة لي ولريتانّا أرميني كما كان لسارة أيضاً، هو أن نحمل على عاتقينا مسؤوليّة تجديد الحرف، الّذي هو قبل كلِّ شيء حرف التّحضّر والتّمدّن والتّقدّم العلمي، ذلك أن الحضارات لا يمكنها أن تُبنى إلّا من خلال غربلة الماضي وأحداثه، والإفادة من أخطائه، من أجل المضيّ قُدُماً نحو غدٍ أكثر عدالةً وإشراقاً ممّا مضى.

حينما تحدَّثتُ كتابةً إلى ريتانّا أرميني، وقرأت معظم مُؤلّفاتها واطّلعتُ على العديد من حواراتها الصّحفيّة المقروءة والمسموعة والمرئيّة، وأصغيتُ لها وهي تتحدَّث عن الكثير من القضايا الحساسة، وتأمّلتُ مسارها الصّحفي والسِّياسي العميق، تأكّد لي أنّها امرأة ذات رسالة، إنّها تبحثُ عن المخبوء في التّاريخ لتظهره إلى العالم، وكونها بحثت عن إينيسّا في أرشيفات تاريخ الثَّورة البلشفيّة المسكوت عنها، فهي لم تفعل هذا من أجل أن تقول للعالم فقط إنَّ لينين كانت له عشيقة سرّيّة هي إينيسّا أرماند، بل على العكس من ذلك، لأنّ الباحث الرَّصين الحق، لن يهمّه ما كانته إينيسّا في حياة لينين الخاصّة، لا سيّما وأن مجرّد عمليّة تنقيب بسيطة سوف تظهر له أنّها لم تكن المرأة الوحيدة في حياته، - ربّما كانت أهمّهنّ ولكنّها لم تكن الوحيدة - ، فالذي يهمُّ حقيقة هو كيف كان لينين يتعامل كرجل

سلطة مع المرأة، لأنَّ هذا سيساعد الدَّارس على إجراء مقاربة تقابليّة بين الماضي والحاضر عبر طرح مجموعة من الأسئلة الّتي ترمي إلى تحديد موقع المرأة من السِّياسة سواء في روسيا أو في غيرها من مناطق العالم، بما فيها إيطاليا والبلدان العربيّة. ومن هنا ينبع سرّ اهتمامنا بطرح هذا الكتاب وعرضه في المكتبات العربيّة.

قد لا تكون ريتانّا تعرف أنّني من مواليد الثّامن من آذار، ولكنِّي على يقين أنّها إذا علمت بهذا الأمر فإنَّ اهتمامي بترجمة كتابها هذا سوف يعني لها الكثير، لا سيّما أنّني أعرف جيّداً أنّها تهتمُّ بالسّيميائيّات التَّاريخيّة ودلالات الأرقام والسَّنوات، ولا يخفى على أحد أنَّ الثَّامن من آذار هو اليوم الَّذي اعتمدته كلّ الحركات النّسويّة في العالم ليمثل المرأة الّتي تناضل من أجل حياة كريمة بعيدة عن الحيف والظّلم والغبن الّذي يمارس عليها في شتّى مجالات الحياة وخاصّةً منها السِّياسيّة، وليس من قبيل المصادفة بتاتاً أن تكون إينيسّا هي من النِّساء الأوائل اللَّائي سعيْنَ من أجل أن يكون هذا اليوم هو يوم المرأة بامتياز، واليوم الّذي أصدرت فيه أيضاً جريدة (رابوتنيكا). لقد كانت إينيسا تجسِّد البذرة الّتي تبرعم منها ما يسمّى اليوم بالفكر النّسوي، وفكر الجندر وما إليه من قضايا أخرى من قبيل أزمة الهويّة في النّظريّة النّسويّة، والمطالبة بصوت المرأة، ونظريّة السِّياسة الجنسيّة. ولأنّها عانت من تهميش التَّاريخ الرَّسمي والسّلطوي لها، فإنَّ ريتانا أرميني تحاول بكتابها هذا ردّ الاعتبار إليها، وكيف لا تفعل ذلك وهي الَّتي ألّفت كتاباً آخر أسمته (النِّساء الأوائل: لماذا يُحرم الجنس الثَّاني من العمل السِّياسي) لتندِّد بالظُّلم الّذي يُمارَس على المرأة في عملها السِّياسي والضّغوطات الّتي تعاني منها بسبب تجنِّي وتسلُّط الرَّجل الَّذي يسعى ما أمكن إلى إقصائها من الحياة السِّياسيّة وسجنها في أدوارها المنزليّة التَّقليديّة، وهو الكتاب الَّذي تطرَّقت فيه أيضاً إلى قضيّة السِّياسيِّة والقياديّة الفرنسيّة ماري سيجولين رويال؛ رئيسة المجلس الإقليمي لبواتو شارانت وعضو سابق في الجمعيّة الوطنيّة، ومرشّحة الحزب الاشتراكي الفرنسي للانتخابات

الرئاسيّة الفرنسيّة لسنة ٢٠٠٧، وكانت ستصبحُ في حال نجاحها أوَّل امرأة تتولّى هذا المنصب في فرنسا، ولكنّها خسرت الانتخابات أمام مرشح يمين الوسط نيكولا ساركوزي بعد أن حصدت ٤٦.٨% من الأصوات.

إينيسّا هنا ماهي سوى رمز لنساء قياديّات عديدات امتهنّ العمل السِّياسي، وكرّسن حياتهنَّ لقضاياه الحساسة دون أن يحظين بالتَّقدير الكافي لعملهنَّ، ولا بالاعتراف بمدى أهمِّيَّته، ولعلّ الكاتبة ريتانّا تريد من خلال طرح حكاية هذه المرأة مع لينين، التَّساؤل عن كم من إينيسّا مازالت حاضرة بيننا، وإن كان يفصلنا عن زمن الثَّورة البلشفيّة العديد من السَّنوات، وكأنّ شيئاً لم يتغيّر، وكأنّ الزّمن مازال واقفا هناك، فمن يدري، لربّما الأزمة الحقيقيّة للمجتمعات المعاصرة تكمن هنا: الإنسان لليوم لم يعرف كيف يتعامل مع تاء التَّأنيث، والرّجلُ مازال لم يفكّ بعد أسرار حواء وطاقاتها الكامنة، ربّما لو حاول ذلك لتغيّر كل هذا الجحيم الَّذي يعيش فيه الإنسان المعاصر، إلى ما هو أفضل وأعمق وأقيم، من أجل حياة إنسانيّة كريمة وعادلة.

كثيرون هم أولئك الّذين انتقدوا لينين، وكتبوا عنه العديد من الأشياء غير المحمودة بين قائل إنّه حكم في البداية بطريقة ديكتاتوريّة حزبَه البلشفي، وبعد ذلك الدَّولةَ الَّتي أُنْشِأت في ظلّ الثَّورة، وقائل إنّه كان المسؤول الرَّئيس عن موت الآلاف من الأشخاص الأبرياء، والمؤسِّس الأوّل هو ورفيقه تروتسكي لدولة بوليسيّة شموليّة لا تعمل إلَّا من أجل تنفيذ مصالحهما معاً. ولقد انتقده حتى اليساريُّون، لا سيَّما بعد معارضته للحركة الأناركيّة المستقلّة في أوكرانيا، وتدمير اللِّجان العمَّاليّة الَّتي تكوّنت في المصانع بعد الثَّورة، ولم يسلم حتّى من انتقاد نساء الحزب البلشفي له، لكنّه بالمقابل كان له أيضاً العديد من المؤيّدين والأنصار، والمدهش في كلّ هذا أنّه مازال لليوم حيّاً في ذاكرة العديد من المهتمّين بالفكر السِّياسي الرُّوسي، وكثيرة هي الكتب الَّتي تتحدَّث عن عمله العسكري المسلّح، لا كمظهر من مظاهر الإرهاب

الدّمويّ، ولكن كصياغة جديدة ضروريّة من أجل إحراز النّصر في معركة الدِّفاع عن الوطن الاشتراكي بقوّة السِّلاح، وإرساء أسس العلم العسكري السُّوفييتي، خاصّة وأنّ الماركسيّة اللِّينينيّة ترى أنَّ هذا الأمر هو حتميّة تاريخيّة في مسار الصِّراع من أجل تأسيس ودعم المجتمع. وريتانّا أرميني تحدّثت عن هذه النّقطة بالذّات في بعض صفحات كتابها هذا، ولكنّها لم تكتفِ فقط بالحديث عن الجانب الثَّوري والعسكري والسِّياسي في شخصيّة لينين، وإنّما حرصت بشكل أكبر أن تقدّم للقارئ صورة جديدة عنه ولا يعرفها أحد سوى المقرِّبين منه، وهي صورة لينين العاشق الّذي ذرف الدّموع الحارّة بعد وفاة حبيبته إينيسّا، هذه المرأة الّتي استطاعت أن تحفر بيديها النّاعمتين في قلبه، وتخلق بداخله نهراً جارياً من المشاعر الدَّافئة والحنونة وسط تلك الجدران الّتي كان كثيراً ما يلجأ إليها من أجل إخفاء الجانب العاطفي والإنساني من حياته الخاصّة، وإينيسا كان يعتبرها جزءاً حميميّاً من خصوصيّته هذه، لذا لم يكن يودّ أن يعلم أحد أيّ شيء عمَّا كان يكنّه لها من مشاعر الحبّ والعشق الدَّفين، ليس فقط لأنّه كان يخشى من أن يؤثّر ذلك على حياته السِّياسيّة، ولكن لأنّه كان يخاف عليها من أفكارها، لا سيّما تلك المتعلّقة بالحرّيّة الجنسيّة النّسويّة، الّتي كان يظنُّ من وجهة نظره أنّها قد تتسبّبُ في سوء فهم الآخرين لها، أو التّنقيص من قيمتها، وهي المرأة الّتي لا يعرف معدنها الحقيقي الأصيل سواه، لأنّه اقترب منها بشكل أكبر، وعمل وقضى إلى جانبها أجمل سنين حياته. هذا هو لينين هنا، بطل قصة مجهولة في التّاريخ البلشفي، رجل بروليتاري، أحبّ امرأة بورجوازية، وريتانّا أرميني روَت لنا حكايتهما بطريقة بوشكينيّة بديعة.

٣٢. أصدرت عام ٢٠٠٦ مجموعة قصصيّة بعنوان: "خرج ولم يعد"، تحدّثي عن هذا الإصدار القصصي؟

نعم، مازلتُ أذكر جيّداً هذه المجموعة القصصيّة، وقد كانت أوّل ما صدر لي في المغرب. وهي عبارة عن قصص كتبتُها في سنوات مبكرة من حياتي الجامعيّة الأولى، أيْ حينما كنت طالبة بجامعة القاضي عياض بمراكش. حاولت أن أرصد فيها بعضاً من الأحداث الّتي كنت أراها متفشّية في الواقع الشّبابي وكنت أجد صعوبة في استيعابها، أو إيجاد مبرّر منطقيّ لها، مثلاً ظاهرة هجرة الشَّباب إلى أوروبا على الرّغم من أنّهم ليسوا بحاجة لذلك تماماً، وكذا ظاهرة انتشار التّعاطي للمخدرات بين صفوفهم. كما لم أغفل الحديث عن بعض مآسي المجتمع النّاتجة عن تفشّي العديد من الأمراض النّفسيّة والعقليّة بين النّاس، وعدم السَّعي إلى الخروج من قوقعة التَّخلف العلميّ والحضاريّ، والاكتفاء بالاعتقاد أنّ التَّقدّم يكمن في كل ما هو "حداثيّ" مستورد من عوالم الغرب بما في ذلك المنظومات الثّقافيّة والقانونيّة والاجتماعيّة الّتي فشلت فشلاً ذريعاً هناك، وكأنّها معاطف تُفَصَّلُ وتُخَاطُ في المختبرات الأجنبيّة، ثمّ تُلَبَّسُ لمجتمعات لا تمتُّ لها بأيّة بصلة.

لم يفتني أيضاً تقصّي بعض الحالات الجنائيّة الّتي هزّت المجتمع الإيطالي، وأعني بها قصّة جينفر دزاكّوني، الشّابّة الحبلى الّتي دفنها عشيقها حيّة تحت التّراب، فقط لأنّها أرادت منه أن يعترف بأبوّته للجنين الّذي كان يعيش وينمو في أحشائها. وأعتقد أنّني في هذه المجموعة كنتُ متأثرة بطبيعة عمل والدي رحمه الله، وبالقضايا الجنائيّة والجنحيّة وكذا بعض قضايا الأحوال الشَّخصيّة الّتي كانت تناقَش في بيتنا منذ طفولتي، وبقيت عالقة في ذهني إلى أن أصبحت بشكل أو بآخر نصوصاً تناقش القضايا الاجتماعية المسكوت عنها في العديد من المجتمعات. إضافة إلى نصّ آخر أذكر أنّه نبع من سؤال لاهوتيّ محض طرحتُه صغيرة على والدي، وأفقدَه النَّومَ ليلةَ ما طلبتُ منه الإجابة عنه. ولقد كان السؤال

يتعلّق بظاهرة "إبليس": فإذا كان هو من يُوَسْوِسُ للإنسان بفعل الشَّرّ، وتخريب كلّ ماهو جميل في الحياة، فمن يُوَسْوِسُ للشيطان بفعل كلّ هذه الأشياء؟ لا بدّ أن يكون وراءَه أحد ما؟ من ذا الذي يُسلّطُهُ على الإنسان؟ ومن يدري لربّما يكون اللهُ هو الشّيطان أيضاً، فيكونا بالتّالي معاً وجهان لشيء واحد؟ وإلّا فإنّ إبليس قد يكون شيئاً آخر غير ذاك الَّذي صوّرتْهُ النّصوص الدِّينيّة، كأن يكون مثلاً مجرّد غريزة متجذّرة في السّلوك البشري، مثلها مثل غريزة الأكل أو الجنس، أو نوعاً من المشاعر الّتي عادة ما تنتابُ الإنسانَ، واتفق الجميع على تسميتها بـ (الشَّيطان).

أذكر أنّني حينما قلتُ ذلك لوالدي، كنتُ لم أتجاوز بعد سبع سنوات، وأذكر أيضاً أنّه امتقع لون وجهه، وبقي صامتاً لوقتٍ طويل، وقبل أن يخرج من حالته تلك، صدمتُه بسؤال آخر قائلة: هل الله ذكر أم أنثى، أم هما معاً؟ وأذكر أنّه قال لي: إنّه لا يمكن إلحاق الصِّفات البشريّة بالله. إنّه ليس كمثله شيء وكفى. فأجبتُ: لم تقنعني يا والدي، هذا ليس بردّ شافٍ. أنتَ مثلاً بالنّسبة لي أبي وكذلك أمّي، إنّي أرى فيك كلا الصِّفتين، وكذلك الله، لأنّهُ رحمن رحيم، والرحمة صفة تنبع عن من يجتمع فيه عنصر الذّكورة والأنوثة أيضاً. بهتَ والدي، ثمّ قال: ليلطف بكِ الرّحمن يا ابنتي، وحاولي ألّا تسألي الأغراب مثل هذه الأسئلة.

بعد ذلك وجدتُ نفسي أكتبُ قصّة (حبيبة البحر المالح)، وكنتُ قد بلغتُ من العمر عشرين سنة. ثمّ خبأتها كما العادة في خزانة ملابسي، إلى أن قرّرتُ فيما بعد نشرها هي وبقيّة القصص الأخرى في كُتيّب صغير صدر بطبعتين: الأولى في المغرب، والثّانية في العراق عن دار الفرات للثقافة والإعلام، بعد أن أعدتُ تنقيحها وترتيبها بشكل جيّد. تلك كانت تجربة، حاولتُ أن أطوّرها وأزيدها نضجاً وعمقاً في تجارب سرديّة وشعريّة أخرى.

٣٣. ديوان: "٩٩ قصيدةً عنْكَ"، ديوان متفرّد ويشمل جوانب متعدِّدة من الحياة، كيفَ تحافظين على وهج الشّعر وأنتِ بهذه الآفاق الرَّحبة والغزارة الشِّعريّة المدهشة؟

أوّل ما يحضرني في الذّاكرة من هذا الدّيوان مُقدّمتكَ النَّقديّة الّتي كتبتَها عنهُ متناولاً فيها بالتّحليل والدّراسة تفاصيله العميقة، وهي المقدّمة الّتي سيجدها القارئ الكريم بالملاحق في الصَّفحات الأخيرة من هذا الجزء الأوّل. وكلّ ما يمكنني أن أقوله عن هذا الإصدار إنّهُ يحكيني ويحكي قصّة مدينتي العارفة بالله ويحكي أسرار المتلقّي الدَّفينة، وإذ أقول مدينتي فإنّني أعني بها آسيف، وهو الإسم الأمازيغي القديم للمدينة الّتي رأيتُ فيها النّور، ويعني الوادي أو النّهر. واستناداً إلى النّظرية الّتي تقول بأنّ وجود الأنهار في منطقة جغرافيّة ما، غالباً ما يكونُ السّببَ الحقيقيّ لنشأة وظهور المدن، فإنّ أسيف نَشأتْ على ضفاف نهر عظيم اسمه (الشّعبة)؛ وشَعَبَ الشيءَ في اللُّغة العربيّة يعْني جَمَعَهُ ثُمّ فَرّقَه، وشَعُب النّهر، تفرقتْ منهُ المياه، أمّا الشِّعبُ فهُو مسيل الماء في بطن الأرض، وهي كلّها دلالات لغوية كافية لاستنتاج المعنى الحقيقي لِإسم هذه المدينة، صاحبةَ النّهر الّذي يتشعّبُ منه الماءُ ويتفرّق. وكيف لا تكون كذلك وقد كان نهر الشّعبة كلَّما حَبلَ سريرُهُ بالمطر الغزير، هاج وفاض ماؤه ودخل إلى جنان وحقول المدن المجاورة.

وأسيف هي من مدن العالم العريقة جدَّاً، وقد ذكرها عالم الفلك اليونانيّ بطليموس في كتابه الجغرافيا بِاسْم (تائسفه)، وهي مدينة فينيقيّة، أسَّسَها الملكُ والقائد العسكري حانون الّذي جاء إلى المغرب بأسطوله العسكري بنحو ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد، وقد كانتْ في عهد هذا القائد ذات عمارة، تأتيها السُّفن التِّجاريّة من كلّ صوب وحدب، وتنقسمُ اليوم إلى ثلاثة أقسام: المدينة المسوّرة بالسّور البرتغالي، ورباطُ الشّيخ أبي محمد صالح الماكري، أمّا القسمُ الثّالث فَهُو الّذي ظهر بعد أن اتّسع العمران وامتدّتِ الدّور والبنايات، وهُو على ثلاث جهات: الجهة الأولى وتوجدُ

بجنوب رباط المدينة، والجهة الثّانية وتسمّى بالمدينة الجديدة، أمّا الجهة الثّالثة فتوجد في الشّمال، وقد امتدّ فيها العمرانُ إلى أن أصبحتْ أشبه بمدينة أخرى في قلب المدينة الأُمّ.

مدينتي الحبيبة اليوم تُسمّى بآسفي، وهي اللُّطف الخفيّ والجنا الحفي، والوعدُ الوفيّ، وهي الدّماثة والجمال، والصّبر والاحتمال، والزّهد والمال، قليلة الأحزان، صابرة على الاختزان، وافية المكيال والميزان، رافعة اللّواء بصحة الهواء. بلد موصوف برفيع ثياب الصّوف، وبه تربة الشيخ أبي محمد صالح، أجل، هو هذا الشّيخ الوليّ الَّذي كانت تحملني أمّي إلى ضريحه في طفولتي البعيدة كلّ ليلة قَدْرٍ، وأصبحتُ أذهبُ إليه حينما كبرتُ كلّما اشتعل بقلبي الحنينُ إلى ذكريات الطّفولة، وإلى تلك اللَّيالي القَدْريّة المُضمَّخة بنفحات الذّاكرين المسبّحين المحوقلين وهُم يرتِّلون القرآن الكريم ويقرؤون إلى الفجرِ دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصَّلاة على النَّبيّ المُختار.

وكانت آسفي إبّان المرابطين مركزاً خاصّاً بتجميع قوافل الذَّهب الإفريقي الّذي كان يُنقل عبر السّفن إلى الأندلس لسكِّ النُّقود هناك، كما أنّ ميناءها كان ولم يزل من أهمّ موانئ المغرب لتصدير الحبوب والسُّكّر والصُّوف، وقد أقام بها سلاطين المملكة ما بين ١٧١٦ و١٨٣٠ م، داراً لسكّ النُّقود ومعالجة الذَّهب والفضّة، كانت متواجدة بالمكان الّذي يوجدُ به اليوم ضريح سيدي أبو الذّهب. وقد كان القرن الثّامن عشر فترة ازدهار وتنافس كبير بين الأوربيين على ساحل ومرسى آسفي، وخاصة بين فرنسا وبريطانيا، والدّنمارك الّتي نجحت في عقد اتفاقيّة مع السّلطان المولى عبد الله سنة ١٧١٥ تحتكرُ بموجبها التّجارة في ميناء المدينة لمدّة ثماني سنوات. وقد ظلّت آسفي محتفظة بنشاطها التّجاري خلال حكم السّلطان محمَّد بن عبد الله الّذي اعتمد في مداخيلها الماليّة على الإيرادات الجمركيّة، فقام بتحصين المدينة مزوَّداً إيّاها بعددٍ كبير من البحّارة والمدفعيّات العسكريّة. وظلّت

النّقودُ تُضرب بدار الذَّهب هناك طوال حكمه، وبعد وفاته اتخذ ابنه المولى هشام مدينة آسفي عاصمة له بعد انتقاله من مدينة مراكش ما بين سنة ١٧٩٤ و ١٧٩٧م .

مُذْ طفولتي، كانت مدينتي وَلَمْ تَزَلْ تخطفُ بَصَري ببحرِها المُشمس الصّافي، وسمائها القمراء ذات النُّجوم السّاحرة. والجميلُ في كلّ هذا أنّني كنتُ أعرفُ مَنْ تكونُ شموسُ مُحيطها الأطلسيّ، ونجوم سمائِها كذلك، وإن أهمَلَهَا التّاريخ وجارتْ عليْهَا يدُ النّسيان، وغفلتْ عنها الدِّراسات والبحوث الأكاديميّة. أمّا الشُّموسُ فأعني بها أولياءَ الله الصّالحين وأتقياءَه من أهل الزُّهد والتَّصوُّف الَّذين أثروا الدُّنيا بعِلْمِهِم وعَمَلِهِم وفاضوا بوهجِ النُّور وعطر الحروف على الأرض، مِنْ مشارقها إلى مغاربها. وأمّا النُّجومُ فهي أسماء عُلماء آسفي الكبار الّذين وهبوا حياتهم لشتّى العلوم كالرّياضيّات والميقات والطّبّ والفقه والقضاء وغيرها من العلوم الأخرى. ولَمْ أكُ لأعرفهم لولا نُزهاتي الطُّفوليّة البسيطة الّتي كانت تحملُني من حين لآخر إلى المدينة القديمة، وإلى رباطِ الخير.

ففي المدينة القديمة كُنتُ أبقى مشدوهةً أمامَ هذا العددِ الُمدهش من أفران الطّين الّتي تُصنَع فيها أواني الفخار والخزف ذات الشّهرة العالميّة، وأمامَ تلكَ الدّكاكين الزَّرقاء الصَّغيرة المرصوصة الواحدة تلوَ الأخرى كأحجارٍ مِنَ الفيروز الكريم في تناسقٍ وتناغم عجيبيْن، والّتي كانَ مُعظمُها في الأمس البعيد، زمنَ الحُكْمَيْنِ المُوَحّدِي والسَّعْدِي، وفي بداياتِ العهْدِ العلويّ مِلْكاً لرجال العلم الّذين كانوا يتطوّعون بالتَّدريس في مساجد المدينة وفي الوقت ذاته يمتهنون التّجارة أو الفلاحة للتعيّش منهما.

أمّا في رباط الخير، فإنّني كنتُ أشعر دائماً بهذا الوصل والتّواصل الجميل بين زمنيْن يبحثُ أحدُهما عن الآخر بشغفٍ وعشق قلّ نظيره؛ حاضرٌ عن ماضٍ، وأبناءٌ معاصرون عن أسماء من ذاكرةٍ عِلميّة رحَل أصحابُهَا وتركُوا العديدَ من

الكتب القيّمة الّتي تشهد للمدينة بعُمق ورقيّ حضارتها وحضارة المغربِ كافّة؛ أمثال الشّيخ الإمام أبي محمّد صالح الماكري المتوفّي سنة ٦٣١، وتلميذه العلّامة الأصولي النّحوي أبي الحسن علي بن مسعود الرّجراجي مؤلّف (مناهج التَّحصيل فيما للأئمة على المدوّنة من التَّأويل)، والإمام الفقيه أبي عبد الله بن شعيب الدّكالي نزيل تونس، والفقيه محمّد أمغار الكبير وأولاده الشّيوخ الّذين سارتْ بذكرهم الرّكبان وصارت زاوية تيط مركزَهم العلمي، والفقيه الفلكي أبي الطَّيب عبد الله بن ساسي الآسفي صاحب كتاب (الكوكب اللّامع في العمل بدوائر المطالع)، وابنه الفقيه الميقاتي، الطيّب بن عبد الله بن ساسي مؤلّف كتاب (رياض الأزهار في علم وقت اللّيل والنّهار)، وأبي حفص عمر بن مبارك الزّبدة صاحب كتاب (الكوكب السّاني في النّسب الكتّاني)، ثمّ أحمد بن علي الصّويري الآسفي، شارح قصيدتي (الهمزيّة والبردة)، دون نسيان ذكر الأديب التهامي الفاروقي صاحب كتاب (الأقمار في مناقب الأخيار) وشارح قصيدة (بانت سعاد)، ومحمّد بن أحمد التّريكي صاحب كتاب (إرشاد النّبيه إلى معاني التّنبيه). ولا يمكن الحديث عن العلم والعلماء ونجوم آسفي وكواكب سمائها القمراء دون ذكر ما كان للزّوايا من دور فعّال في إثراء الحضارة الثّقافيّة والعلميّة والسّياسيّة للمدينة على مرّ العصور، بدءاً من الزّاويّة الماجريّة، ومؤسِّسُها هو الشَّيخ أبو محمّد صالح الماجري الآسفي (١١١٥ ــ ١٢٣٤) ويعتبر أوّل من حاول في المغرب الخروج بالنّشاط الصُّوفي من المجال الفرديّ الضَّيِّق إلى مجال جماعيّ أوسع، مروراً بالزّاوية الجزوليّة الّتي أسّسها الشَّيخ والإمام محمّد بن سليمان الجزّولي على شاطئ أموني قرب رباطِ الشَّيخ أبي محمّد صالح، وفيها أعلن عنْ طريقه الصُّوفي ليقصده أثناء حياته أزيدَ من اثني عشر ألف من الأصحاب، ووصولاً إلى الزّاوية الغنيميّة ومؤسِّسُها ببادية آسفي هو الحسن بن رحّو، وعنها تفرّعتْ عدّة فروع أخرى في دُكّالة والشّاويّة وسطّات وأولاد سعيد وابن سليمان وغيرها من مناطق المغرب.

آسفي أو حاضرة البحر المحيط كما نعتها ابن خلدون في مقدِّمته، هِيَ البئْرُ الَّتي شربتُ مِنْهَا حرفَ العشق والمحبّة، ليس فقط لأنّها كانتْ ولمْ تزلْ مُعلّمي الأوَّل، وإنّما لأنّها صورةٌ مُصغّرة لبلدي المغرب الحبيب؛ هذا الأبُ الحنون، والأمُّ العطوف الرّؤوم الّتي رضعتُ مِنْ ثديها كيْفَ أكونُ مؤمنة قبْلَ أن أكونَ عابدة، وكيْفَ تكون لغتي لغةَ سماء ملكوتيّة قبْل أن تكونَ لغةَ أرضٍ ناسوتيّة، وكيْف يكونُ حَرْفِي حُرّاً ناطقاً بشهادة الإسلام، ومُرتّلاً للقرآن الكريم وحافظاً لأدعية السّجّاد وابنِ ناصر الدّرْعيّ، وعارفاً بالصّلاة الربّيّة، وباحثاً في البذور والمواعيد، وكيفَ تكونُ كتاباتي يمامةً تُرفرف في مجرّةٍ لبنيّة يتزاوج فيهَا المئزرُ بالسُّها، ويتعانقُ فيها محمّد بداوود ويسوع، وهُدهُداً يروي حكايةَ حاضرةٍ تحتضنُ لليوم أكبر كاتدرائيّة مسيحيّة في المغرب هي الكاتدرائيّة البرتغاليّة ثمَّ عدداً من الكنائس الّتي تُعَدُّ على رؤوس الأصابع ككنيسة سان فنسان دي بول (Saint Vincent De Paul)، وكنيسة سيّدة جبل الكرمل (Notre Dame du Mont-Carmel) الّتي أصبحتِ اليومَ مقرّاً للجمعيّة المغربيّة للأطفال الصّمّ، ناهيكَ عن المقبرة الكاثوليكيّة الّتي لا يمكنُ أن تُمحى آثارها من ذاكرتي، سيَّمَا وأنّ قدمَيّ كانتا كثيراً ما تحملاني إليها، لأنّها كانتْ توجد على بُعد مسافة قصيرةٍ منْ بيتنا الّذي كنّا نقطن فيه سابقاً أثناء بدايات العشرينيّات من عمري، حتّى أنّني لم أزل أحملُ لليوم أسماء الأموات المسيحيِّين في قلبي، وصُوَر قبورهم المغطاة بالحشائش والزُّهور. هذا دُون التَّغاضي عنِ الإشارة إلى وُجود أكبر مَشهد عِبْريّ بآسفي، هُو مقام أبناء زميرو السّبعة.

ولم تكن وحدها دروس التَّسامح التَّوحيديّ العظيم الّتي كانت تُلقّنُني إيّاها مدينتي العارفة بالله في كلّ يوم وحين، وإنّما فيها تعلّمتُ أيضاً كيْفَ تكونُ قصيدتي نحلةً تتَّخِذُ مِنْ شجرةِ الشِّعْرِ بيتاً تكونُ فيهِ الحروفُ بلابل عدنيّة تشدو بأحلى التّرانيم، والكلماتُ صوتاً لا مرئيّاً يتحرّكُ ويتمدّدُ إلى أنْ يلامسَ أبعدَ نقطةٍ في المدى الواسعِ، ويُصبحَ هديّةَ عيدٍ هي روحٌ تخترقُ المكانَ والزّمان لتدْخلَ عوالمَ اللّافضاء

واللّازمان. وهديّةَ فجرٍ قُطبيّ هي صورةٌ تنعكِسُ فوق مرآةِ القصيدة ولا يستطيعُ أحدٌ أنْ يُمْسِكَ بها أو يَلمسَها لأنّها قادمةٌ من الفردوس الملكوتي البهيّ. وهديّةَ ليلةٍ قمراء هيَ تجلٍّ صوتيّ لفِعْلٍ سَمْعيٍّ يصدُرُ عنْ فكرٍ خلّاق بسرّ: ((قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ)) (آل عمران: ٤٧).

أجلْ، فَمِنْ ((كُنْ فيكون)) وُلِدَتْ شجرتي الشّعريّة، وكلُّ ما فيها من قصائد ومناجيات ومشاهدات ومقاماتٍ هُو ممّا أثمَرَتْهُ من فاكهة الحرفِ. وشجرتي هيَ شجرةُ مُلْكٍ لها ثلاثةُ أغصان فضّيّة: غصنٌ على اليمين، خاصّ بإشكاليّة قراءة النَّصّ الصُّوفي وتفاعلِ المتلقّي معه وتُمَثّلُه في الدِّيوان قصائد مختلفة من بينها على سبيل المثال لا الحصر؛ (القصيدة الذَّهبيّة) و(لا)، و(لا يقرأ)، ثمّ (عجيب غريب)، و(إربـاك) و(مكتبة النّقطة الذّهبيّة) وكذلك قصيدتيْ (لماذا؟!) و(القِدْرُ والسّيْفُ والنّمر). أمّا الغصنُ الثّاني فهُو على يسار الشّجرة وفَوْقَهُ أيْنَعَتْ كلُّ الثِّمار الخاصّةِ بحكاية أهل التَّوحيد عبر نصوص عديدة أسردُ منها: (حانة العشّاق) و(خمسةُ أسرار)، و(خمسُ خزّانات)، ثمّ (جرس) و(هجرة) و(شجرة الصَّوم) وكذلك قصيدة (مظلّة هوائيّة). وبين الغصنين الأوَّل والثَّاني ثمّة غصنٌ ثالث مُنْتصبٌ نبتَ من بذرةِ (فاستقمْ كما أُمرتَ) وهو مُجسّدٌ بقصيدة واحدة هي (جمال آسر) ومنْها خرجتْ كلّ الآيات القرآنيّة الّتي جاء ذكرُها في العديد من النّصوص الشِّعريّة، وبهَا اهتزّت طرباً شجرة الدِّيوان كاملةً، وزقزقتْ عصافيرُها مغرّدة أنشودة الفرح في حضرة الحرف الَّذي تلاقَحت بِسِرّه أسماءٌ عديدة نقشتْها يدُ التّأريخ بمدادٍ من ذهب لمَا قدّمته مِنْ خدماتٍ عظيمة للإنسانيّة في كافّة مجالاتِ العطاء والإبداع، وخصّصتُ لها في الدّيوان قصائد تحكي عنها بصَوتِ التّسبيح والتّبليغِ، مثلا قصيدة (فيثاغورس والقنفذ)، و(نفرآتون)، و(نارام سين) وغيرها من القصائد والنّصوص.

فرحُ الدِّيوان وألوانه لا يعني فقط الإشادة بأسماء متنوّعة من أرشيف التّأريخ الكبير، والّتي قد يفوق عددهَا التّسعة والتِّسعين اِسماً، ولكنَّهُ يعني أيضا كيْفَ أنّ

عطر هذه الشّجرة وصلَ لأقصى المدى، فبدأ يقتربُ منها الشّعراء والنّقّاد بعين المحبّة ويدِ العناية بُغية محاذاة بعض معانيها أو قطف بعض ثمارها، فجاءتِ القراءاتُ النّقديّة مُتَتَاليةً الواحدة تلو الأخرى طيلة الفترةِ الّتي قضيتُها في محراب هذا الدِّيوان، أعملُ ليل نهار على كتابةِ وتنسيقِ قصائده المئة والخمسِ والعشرين، وعلى ترتيبها وفهرستها وتنقيحِها وتشذيبها بما فيها تلك الّتي كتبتها مُنذُ أزيد من عشر سنوات كنصوص (حفيدة جالينوس)، و(رقعة الشّطرنج)، و(كتابة المحو)، ثمّ (ليالي زفافنا السَّبع) و(حمامة الفجر) وغيرها من القصائد الأخرى.

أمّا عن السّادة الأفاضل الكرام من النقّاد الذين كتبوا عنْ بعض قصائد هذا الدّيوان فهُم وفقاً لترتيب تاريخ الكتابة؛ الأديب المسرحي صباح الأنباري، والنّاقد الفيلسوف حيدر علي سلامة، ثمَّ الباحثيْن الأكاديميين غسان العبيدي وأسامة غالي، والقاصّة نوال هادي حسن الجبوري، وختاماً الدكتور عوّاد الغزّي.

ليست هذه هيّ المرة الأولى التي أكتبُ فيها عن الحرف بلُغة الشّعر، ولا عن إشكاليَتَيْ؛ "حَرْفَنَةُ الإنسانِ وأَنْسَنَةُ الحَرْفِ" بلغةِ النّقدِ، ولا هذا هُو الدِّيوان الأوَّل الَّذي أناقش فيه قضايا النُّقْطةِ وأنْسَنَتِها، وقضايا الإنسانِ وَنَقْطَنَتِهِ، ذلكَ أنَّ علاقتي بالحَرفِ والنّقطة قديمة جدّاً، إنّهُمَا معاً صفةٌ حاضرةٌ في جسدي وعقلي وقَلْبي وقُلَيْبِي. صفةٌ وَرِثْتُها عَنْ أجدادِي وَثَبَّتَهَا الخالقُ في حمضيَ النَّووي، تتحرّكُ بداخلي وتعملُ في صمتٍ ولا أشعرُ بالسّعادة والاطمئنان إلّا إذا كتبتُ عنهمَا بِنَفَسِ التّسبيحِ، هذا النَّفَسُ الّذي دفَعني دفعاً إلى أنْ أحزم أمتعتي وأشُدّ الرّحال إلى إيطاليا في رحلة عِلميّةٍ فريدة من نوعها، إلّا أنّني بدلَ أن تكون أطروحةُ إجازتي عن قضيّة تهتمُّ مثلاً بالشّأن الأدبيّ الإيطالي، أو بالشّأن التّاريخي والفلسفي أو الاجتماعي أو الإعلامي بهذا الوطن الثّاني الجديد، وَجَدْتُني وبدون أدنى تردُّدٍ أفكِّرُ في الحرفِ، فجاءتْ أطروحتي عنهُ وتحديداً عن الحروف النُّورانيّة في القرآن الكريم، لأنّني كنتُ أعلمُ تمامَ العلم، أنّهُ هُو وحدَه الاهتمامُ بالحرفِ سيزيدُ مِن قوّة تلكَ اللُّحْمة ورابطة الدّم

الّتي تجمعُني برحمِ الكونِ، وسيجعلُ منْ تساؤلاتي عن جذور وهويّة الإنسان، وعن شأنه كيف كان؟ وكيفَ أصبح؟ ولماذا أضاع البوصلة وضلَّ عنِ السّبيل، تساؤلاتٍ أكثرَ عُمقاً وتأمُّلاً. نعمْ، هو الحرفُ كان ولَمْ يزَلْ طائرتي، وهي النّقطة مطاري الأبدي الّذي مُذ نزلتُ فيه لأوّل مرّة، لم أفكّر ولو لثانية بمغادرته، لأنّهُ كهفي الجديد القديم الّذي لا أدري كمْ ستدومُ فيه إقامتي! كهفٌ هُوَ مَنْحَتٌ أحفُرُ في صخورهِ باستمرار وبدون هَوادة، أبحثُ عن حفريات عتيقة هي كنوزٌ يحويها القلب، وملحٌ نادر لا يوجد إلّا في محيطاتِ العين، وكواكبُ درية تدور في فلكِ العقل، وكبريتٌ أحمر لا يوجدُ إلّا في مناجم الرّوح.

ومن الأطروحة الّتي ناقشتُها لنيل شهادة الإجازة في الدِّراسات الشَّرقيّة الإسلاميّة باللّغة الإيطاليّة، جاءت مرحلةُ الماجستير أو الدِّراسات العليا، وكانتْ وقفتي فيها مع الإسراء المُحمّدي وبهِ نلتُ شهادةً جامعية دوليّة أخرى من خلال أطروحةٍ جديدةٍ قاربتُ بها الرّحلةَ المحمَّديّة وفقاً لمناهج التّفسير العديدة والمتنوِّعة مع التَّركيز بشكلٍ خاص على المنهج الصّوفي الّذي يعتمد التّفسير الإشاري لمقاربةِ حروف الذّكر الحكيم، وكانتْ هذه المحطّة فرصةً أخرى لي كيْ أضخّ دماءً جديدة في طريقةِ كتابتي للقصيدة العرفانيّة ممّا أدّى إلى ولادة نصوص مختلفة عن صاحبِ التّاج والمعراج وأهل بيته الأطهار الكرام، أهمّها قصيدتيْ (جمالٌ آسر) و(أساورُ الفجر) و(جدّي لا تبكِ ولا تحزنْ).

وبعدَ الماجستير جاءت مرحلةُ نيل شهادة الدكتوراه فشددتُ الرّحالَ من باليرمو عاصمةَ صقلية المجيدة إلى روما، وبدأتُ رحلتي الجديدة مع الحرفِ في جامعةِ المعرفة (La Sapienza) قسم الدراسات الشَّرقيّة (تخصُّص حضارات وثقافات دول إفريقيا وآسيا)، هناكَ حيثُ دخلتُ محراب الحداثةِ في الشّعر المغربي واعتكفتُ فيه لثلاث سنوات طويلة من البحث والجهد والتَّنقّل بين المغرب وإيطاليا للنّهل مِنْ معين مَنْ سَبَقَني من رواد الأدب المغربي وأعلامه من أهل العرفانِ

والتَّصوف انطلاقاً من عهد الملكيّة السّعديّة وصولاً إلى الملكيّة العلويّة بما فيها الحقبة التّاريخيّة المعاصرة، وقد ركّزْتُ على الموروث الثّقافي الضّخم للمملكة المغربيّة بكلّ خزّاناته، العتيق منها والحديث وما تحويه من كنوزٍ وكتبٍ نفيسة، مع سردٍ لتجارب مميَّزة لعلماء أثروا التَّاريخ المغربي بمخطوطاتهم ومؤلّفاتهم بما فيهم بعضٌ من ملوك المغرب مِمَّنْ عُرف عنهم العلم واحترامهم وتشجيعُهُمْ لأهله. هذا ولم أهْمِلِ التَّطرُّقَ إلى الجانبِ النَّقدي لتجربة الحداثة الشِّعريّة في المغرب عبر أعمال لأدباء مغاربة مختلفين اخترتُ منهم كنموذج الشَّاعر والأديب محمّد بنِّيس باعتبار أنّه إلى جانب أسماء أخرى علامة فارقة في التّجربة الحداثيّة المغربيّة، دون أن يفوتني تسليط الضَّوء أيضاً على الشّعر من حيث كونه مصدراً تاريخيّاً لهُ قيمة علميّة كبيرة تقودُ الباحث إلى الاطلاع على مراحل مهمّة من تاريخ المغرب عبر الرّمز التَّاريخي الَّذي تحبل به العديد من النّصوص الأدبيّة والقصائد الشِّعريّة لأدباء وشعراء المملكة المغربيّة. ومن هذه التّجربة الجديدة وأسفاري الكثيرة وتنقّلي بين روما وباليرمو، والرّباط والدَّار البيضاء، والمحمَّديّة ومراكش تبرعمتْ قصائد جديدة في شجرة هذا الدِّيوان، أذكُر منها (رسالة دكتوراه) و(صيدليّة النّقطة)، و(مقامات روما)، و(أوتاد الله) ثمّ (باخ وكانط وبودلير). وهي كلّها قصائد ما إنْ تَفَتَّحَتْ عنها قريحتي الشّعريّة حتّى تهاطلتْ بعدَها قصائد أخرى تتغنّى بالحرف والنّقطة وتدخُل في جدل ونقاشٍ عرفاني فلسفيّ عميق يطرحُ العديدَ من علامات الاستفهام حول قضايا التَّصوُّف عبر التَّاريخ محاولة الإفادة من إرثِ الماضي معَ زعزعة ما علقَ بهِ من ترسّبات وتكلّسات أفقدتِ الحرفَ العرفانيّ الإسلامي هيبته وقدسيّته، وأذكرُ من هذه القصائد على سبيل المثال قصيدة (حداثة عرفانيّة)، ثمّ (واعجبي!).

الشِّعْرُ قِدْرُ الكونِ الأخضر، والقصيدةُ هيَ الحنطة والخمرة المعتقة الّتي تُطهى بداخلها على نارٍ هادئةٍ، والشّاعرُ هو القيّم على تنّورِ الكتابة، يُدْخلُ مغْرَفَتَهُ الفضّيّة في القِدْرِ ويضعُ فوق المائدة صحونَ الكلمات طازجةً ينْبَعِثُ منهَا أريج

الدّفء والمحبّة والحنان لكلّ جالسٍ إلى مائدةِ الحرفِ. وإذ أقولُ الجالس فإنّي أعني بهِ القارئَ، الّذي ما إن يبدأ في تناولِ أوّل قطعة خُبز، وشُرب أوَّل كأس من حانة القصيد، حتّى يشعرَ وكأنّه في بيت الأهل والأحبّة، وقدْ عادتْ بهِ السُّنون إلى زمن الطّفولة العدنيّة الأولى حيثُ البدءُ كانَ نقطةً وحرفاً، فيرى نفسَهُ في كُلّ قصيدةٍ كتبتُها، وينتابهُ شعورٌ بأنّ كُلّ حرفٍ منْ حروفي هو كلمةُ حبٍّ وعشقٍ موجّهة له، ويحسُّ كأنّهُ شمس تبريز والبدر الأحمر، أو بيكاسو وأينشتاين، أو إينخيدوانا وديهيا، أو كلّ الأسماء الّتي وردتْ في ديواني هذا. وكيفَ أُنْكِرُ هذه الحقيقة، وأنا أؤمنُ أشدّ الإيمانِ بأنَّ الشّاعرَ الحقّ هو الَّذي يختفِي تماماً ما إنْ يُنْهي قصيدتَهُ ويضعها بين يدي المتلقّي. ويُعْجِبُنِي كثيراً أنْ أسجّلَ لحظة الاختفاء هذهِ، وذلك لحرصيَ الشّديد على أنْ ألتقطها بعدسة عينِ الرُّوح علّها تصبحُ مع مرور الزّمن صورةً أزليّةً بينَ صُورِ ألبوم الحَرْفِ الّتي لا حدَّ ولا حصر لهَا، فوحدهَا هذه اللّحظة، ووحدها هذه الصُّورة تُثبتانِ للشاعرِ بأنَّ قارئه لَمْ يعُدْ وحيداً، بَلْ أصبحَ يعيشُ برفقتهِ، يحملُ حرفَهُ في قلبهِ ووجدانهِ، وهي صداقةٌ منْ نوعٍ خاصٍّ متميّزٍ ومتفرّدٍ تدومُ بينَ الشّاعر والمتلقّي مادام الحرفُ هو الحبْلُ السّرّيّ الّذي يجمعُهُما معاً كَمَا الأمُّ بصغيرهَا. وهذهِ هي الأمومة الّتي بهَا ومنها كتبتُ ديواني وجعلتُ منهُ قِدْراً يَغْرِفُ منها ليس القارئُ وحْدهُ ولكن شعراء آخرونَ استلهموا نصوصَهم الجديدة من بعضِ قصائدي لأنّها ذكّرتهم بشكل أو بآخر ببيْت الطّفولة العدنيّة، حيثُ الحرفُ لا يعرفُ شيئاً اسمه عُنفُ الإيديولوجيا أو المذهب أو الطّائفة، وحيثُ المتلقّي طفلٌ يبحثُ عن حليبِ الكَلِمَةِ في زمنِ الجوع والعطش. ولقد كانت لقصيدة (لا) الصّدارة في تأكيد نظريّة هذه العلاقة الفريدة الّتي تجمع بين المبدع والمتلقّي، إذ أنّها في ظرف وجيز من الزّمن أصبحت موضوع مساجلة شعريّة فيسبوكيّة كتب بصددها الشّاعر السُّوري والأبُ القسّ الفاضل جوزيف إيليا المقيم في ألمانيا نصّا بعنوان (لا تهربي)، وأتبعهُ الأديب والفنّان التَّشكيلي صبري يوسف المقيم في السويد بقصيدة أخرى بعنوان

(الشِّعْرُ ترتيلةُ شوقٍ إلى قُبّة السَّماء)، ردَدْتُ عليهما معاً بقصيدتيْن هُما (خمسةُ أسرار) و(سبعةُ قناديل وسبعُ لآلئ)، جاء بعدهما ردٌّ ثانٍ من الأديب صبري يوسف على شكل مقالة شعريّة فلسفيّة عميقة بعنوان (كيفيّة انبعاث تدفّقَات الشِّعر)، أجبتُ عنْها بمقالة ذات صيغة رسائليّة عنونتُها بـ (سيّدَة الصَّمت والرِّضا).

إلى جانب كُلِّ هؤلاءِ المتلقِّين مِنَ الأدبَاءِ والشعراء، وغيرهِم منَ القارئاتِ والقُرّاء الأعزّاءِ الّذين كانتْ تصلهُم قصائدي حمائمَ خيْرٍ ومطرَ عشقٍ عبْرَ البريد، وكانوا يجدونَ فيها أنْفُسَهم، وكأنّها تحكي حياتهُم وأسرارهم الدَّفينة، ثمَّةَ مُتلقٍّ آخر، غالباً ما لا يتحدَّثُ عنه أهل الأدب، متلقٍّ غير ذلك الّذي ينتمي لشبكة القرّاء الواسعة المنتشرة في كلِّ بقاع الأرضِ، وغير الشّعراء والأدباء الّذين يرون في ديوان ما، أو رواية ما، أو كتاب ما عن التَّاريخ أو الفلسفة أو الرّياضيات أو حتّى عن السِّياسة مادّةً دسمة لإشباعِ جُوع المعرفة؛ متلقٍّ لولاهُ، لما قرأَ أحدٌ كتاباً، لأنّهُ قارئٌ حينما يُدْخِلُ مِغْرَفَتَهُ الفضّيّة في قِدْرِ الشِّعْر ويتذوّقُ طعمَ خُبزهِ ونكهةَ حليبهِ وعذوبةَ خمرتهِ، يقعُ سريعاً في حبّ الحرفِ الأكبَرِ، ويصبحُ هُو الآخر من عشّاقِ النُّقطة وأهلها، يبحثُ عنْ ذهبِ المعنى ومُحّ الكلمة في أشعارِ القدامى والمحدثين من أهل الأدب العرفاني، هذا القارئُ هُو النّاشر، صاحبَ العينِ الذّهبيّة والقلبِ الزّمرّدي، الّذي أتوجّه له هنا بكلمة شُكرٍ عرفانا منّي بعظيم الدّور الّذي يقومُ به وإن كان الزّمن الرّقمي قدْ حاول أنْ يقلّص من حجمه ومن قيمة عِلْمِه وعمله في زمن الكتاب الإلكتروني وزمن المعلوميات الّتي قضتْ على كل شيء أصيل وجميلٍ في حياة الإنسان المعاصر، وحَفَرَتْ في ذاكرتهِ وتاريخهِ ثقباً مُظلماً عميقاً ومهوّلاً، ابتلعَ كلّ الألواح الّتي كانت تروي حكاية آدم وحواء. لكن هل علينا نحن معشر الشّعراء أن نفقد الأمل؟ طبعا لا، فالأملُ هو باقة قصائدنا الّتي يفوحُ عطرها كلّما سقيناها بماء المحبّة وحرصنا كلَّ الحرص على أن تصلَ إلى النّاس عبر يدِ ناشر، هو رسولُ حرْفي إليكَ يا قارئي العزيز أينمَا كُنْتَ وَحَللتَ.

٣٤. ديوان: "ما لم تبُحْ به مريم لأحدٍ ويليه متون سيّدة: يتضمّن خصوصيّة وتجلّيات رهيفة، كيف تنامَت عندك فكرة كتابة هذا الدّيوان بكلّ تفرُّعاته السَّامقة؟

أهُوَ نوع من الرّقابة العليا هذا الَّذي أنا بصدد ممارسته على نفسي حينما أسألها عن سببِ هذا الدِّيوان الجديد وفحواه؟ ربّما يكون الأمرُ كذلك، إلّا أنّني لا أعرفُ إلى أيّ مدى يحقُّ للمُبدعِ عموماً طرح سؤال الإبداع هذا، فهُو غالباً ما يكونُ سؤالاً مُحرجاً لأنّهُ يغوصُ بعينه المجهريّة في بحارِ الذَّات الإبداعيّة ليُخرجَ مكنوناتِها العميقة ويجعلَها تطفُو بكلّ يُسرٍ وعفويَّةٍ أمام أعين القرّاء، ولأنّهُ أيضاً سؤالٌ وجوديّ وثبوتيّ لهُ علاقة قويّة بهويّة الإنسان ورسالتهِ العظمى في هذه الحياة. لا سيّما وأنّ كلّ مبدع وإن كان يتظاهرُ بتجاهل مسألة التَّأويل لدى القارئ وأبعادِها الإبستمولوجيّة، إلّا أنّه تبقى بداخلهِ تئنُّ خجولةً تلك الرّغبة الدّفينة في أن يُوفَّقَ المُتلقّي إلى المعنى الحقيقيّ لما يكتبُهُ، أو يرسمُهُ أو يعزفهُ، أو يغنِّيه، إلى غير ذلك منْ مظاهر الإبداع الإنساني.

حينما بدأتُ في كتابة هذا العمل الإبداعيّ الجديد، لمْ أكُ بعدُ قد تخلّصتُ من تأثير (٩٩ قصيدةً عنكَ)، إلّا أنّني شعرتُ بحاجة جديدة تجديديّة في التَّحرّرِ منْ كليشيهات التّجنيس الأدبيّ، ذلك أنّ ما أنا بصددهِ اليوم تجربةٌ أخرى، ليستْ بكلام مُقفّى، ولا بشعر عمودي، ولا هي بشعر نثري، ولا بنصوص سرديّة كاملة، وإنّما هي مزيج من هذا وذاك، فحقّ عليّ إذن أنْ أصهر لهَا في بوتقةِ الكلمات عنواناً يليقُ بها، ويتحدّثُ لغتَها الكونيّة الّتي لا علاقة لها بالتّجنيس والتّمفصلات الأدبيّة والسّياسيّة والطّائفيّة وغيرها من هاته المتاهات الّتي لها فعلُ السّوسِ في جسد الحرف، ما إن تقترب منهُ حتّى تجعلهُ مهترئاً لا شيء فيه سوى شبحِ الخواء وغبارِ البارود، خاصّةً وأنّنا اليوم نعيشُ في زمن الفراغ الدّاخلي والباعة المتجوّلين بالكلماتِ في أسواق الفساد وصناعة الخراب، وفي زمنٍ انقلبت فيه الأعمدة وانهدمتِ البيوت، وأحرقتِ المُدُنُ والمزارعُ، وتسوّس القمحُ وحَمُضَ الخبزُ وتعفّن. أيْ في زمن

اختفى فيهِ المعلّمون وتمّ التَّعتيمُ على الكلمة الرُّوحيّة. لذا، كان لزاماً عليّ أن أجعل عنوانَ الدّيوان دالاًّ على هذه الرّغبة في عزفِ أنشودةٍ تعيد لهذه الكلمةِ نورَها وبهاءَها؛ حينئذ جلستُ في ركن بعيد من مكتبي، أعيدُ قراءة نصوصيَ المكتوبة فقلتُ: [ستكونُ الصّدّيقة مريم (ع) هي أيقونة هذا الدِّيوان]، وعليهِ اخترتُ العنوانَ التالي: «مالمْ تبُحْ بهِ مريمُ لأحدٍ، ويليه مُتون سيّدة»، انطلاقاً من أنّ العديد من النُّصوص أتحدثُ فيها عن السّيدة مريم عليها السَّلام، وباعتبار أنَّ جملة العنوان الأولى قد تكرَّرتْ في أكثر من نصّ شعري وآخر نثري. لكنّ دوام الحال منَ المُحال، فقد ظلّتِ القصائدُ الأخرى وهي في طريقها للهطول على قلبي تشتغلُ بداخلي على مهل، إلى أنْ حدث ذاتَ فجر من شهر أيار لسنة ٢٠١٤ ما قلبَ كلَّ الموازين لديّ، فقررتُ أنْ أجعل منْ صاحبتي في المحبة والعشق سيّدة عيسى الرّدِيف، قصيدة القصائد في هذا الدِّيوان، وأنْ أهدي كلّ نصوصهِ لروحها الطَّاهرة. وأعتقدُ أنّني هنا بحاجة إلى طرح سؤال ثالثٍ، قد يكون له هو الآخر صفة الرّقابة الذّاتيّة على تفاصيل ميلاد الحرفِ الإبداعي عندي، وعليهِ، فإني أقولُ، ـ وأعلم أن القارئ قد سبقني للقول ذاته بلحظات ما إن قرأ كلمات الإهداء التي بها افتتحتُ هذا العمل الجديد ـ : [لماذا سيّدة، ومنْ تكون حقيقة؟]!

سيّدة أو الخالة سيّدة كما كانتْ تحبُّ نساء ديريك أنْ تناديها، هي الأمّ الطّاهرة الصّالحة التي علّمتني كيفَ أطرحُ بعمقٍ إشكاليّة علاقة الموتِ بالإبداع، أو علاقة قيامة الأجسادِ بالحرف، وأعني هُنا بمصطلح القيامة، عودةُ الإنسان إلى الانوجادِ بعدَ تحقُّقِ الفناء.

أجل، فوحده الإبداع في كلّ مجالات الحياة قيامةُ الإنسان من موت النّفس والروح، ووحدهُ حرفُ الكتابة كانَ يقول لي وصاحبتي سيّدة إلى جانبي: «لا تخفْ أيّهَا القطيع الصّغيرُ، لأنّ أباكم قد سرَّ أنْ يعطيكُمُ الملكوت»، ووحده جلوسي أمام الحاسوب لكتابة هذا العملِ الجديد كانَ يحملُنِي إلى الأبديّة.

كمْ منْ مُبْدِعِي الحرفِ الأكبر يتأمّلُونَ حقيقةً في وضعية الجُلوس هذه أمام الحاسوب، أو إلى طاولة أخرى والقلم بين أيديهم يسكبون منه عصارة الرُّوح والفكر؟ ربّما هُم قلّة، والأقلُّ بل الأندرُ منهُم أولئكَ الّذين يرونَ الكتابةَ صلاة. نعم أحبّتي، فصلاتي هذه، هي الّتي كانتْ تجعلُ سيّدةَ تطيرُ على جناح السّلامِ من ديريك إلى صقلية حاملةً لي بين يديها إكليلَ المحبّة. وإنّي لأجدُ في هذا القول اعترافاً صارخاً مدوّياً لكلِّ المبدعين المكلَّلين بتاج النُّور، لأنّهُ سيكشفُ لهُم أنْ لا أحدَ منهُم يستطيع أنْ يعيش بدون كلمة مكتوبة. وأنا أيضاً مثلهُم، ذلكَ أنَّ الأمر فيه تجربةُ مَنْ سبقَنِي ممَّن أقامهُمُ اللهُ ونصّبهُم في الحياة ليكونوا مُرشدين ومعلّمين مُمسكين بقنديل الحرفِ وسط ظلمة الدّرب والطّريق.

وضعي وأنا جالسة كُلَّ فجر على كرسي الكتابة، هو اشتياق روحيّ عميق للأبدية، عبر الانعزال حيثُ الهدوء والسَّكينة وحياة التَّأمّل والإنصات والإِستماع. إنَّهُ نوع من الخضوع والخشوع، لأنّي أخلو فيه بحبيبي، الَّذي علّمني أنّ الكلمةَ وحيٌ فصلٌ وما هو بالهزل، وبأنَّ منْ يعرفُ اللهَ يجلسُ ليقرأَ، ومنْ يقرأُ يجلسُ ليكتبَ، لذا فإن وضعيّة الجلوس هذه مهمّة للغاية لمنْ يعرفُ ما معنى أنْ يقتلعَ الإنسانُ نفسَهُ من زحمة الحياة ويسافرُ بها بعيداً إلى فيافي الفكر حيثُ شمسُ الحرف والكلمة تذيب كلّ ما علقَ بالنّفس من جليد الزّمن. لأنّ معركةَ الإنسانِ الحقّة كانتْ ولمْ تزل معركةَ فكرٍ، وليستْ كمَا يحاولُ الغيرُ إظهارَها حرباً على مصادر الطّاقة أو غيرها من خيرات هذه الأرض.

وعليه فإنّ الإنسانَ مدعو الآن وأكثر من أيّ وقتٍ مضى إلى أن يحملَ الكونَ كلّه في كيانه، ويضعَ الخليقة بأكملها في وعيه ويحيطَها بمحبّتهِ وعشقهِ حتّى يُقدِّمَ بها صلاة شُكرهِ الخاصّة لله، ويُحدّدَ بكُلّ ما رُزقَ مِنْ فِكرٍ اسْمَ كلِّ مخلوقٍ حيٍّ، لأنَّ حروبَ اليوم هي حروبٌ على كلِّ الأسماءِ الَّتي علّمَهَا الخالقُ لآدم، والعدوُّ مُصرٌّ على محو أثرِ الخالق والخَلْقِ وبصمتِه في الكون، أيْ على محو

الإنسان، لأنّهُ كائنٌ يحيا بنسمةٍ مُنبَعثةٍ مِنْ ربِّ العزّة والجلال، بها ينمُو ويحْمِي نفسَهُ منْ أنْ تلتصقَ بالوَحَلِ، ولأنّهُ صورةُ الحقّ في الكون التي بها يسكُنُ ويسيرُ معَنا وفينَا مصداقاً لقوله عزّ وجلّ ((وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)) (الحديد:٠٤).

وانطلاقاً منْ مفهوم الإقامةِ الإلهيّة في أجسادنا وأرواحنا، وفي كُلّ شيءٍ يحيطُ بنا ممّا نُدركُه ولا ندركُه قرّرْتُ أنْ أضيفَ إلى عنوان الدّيوان الأصليِّ إشارةً رقمية رياضية، هي ⟦√٢٩٧⟧٨٥٧٨، وقدْ جسّدتُها منْ خلالِ لوْحَةِ الغلاف مُتفاديةً الخوضَ في شرحِ أسرارِ هذه الإضافة تاركةً أمرَ كشفِهَا لبصيرة القارئ النّافذة ولخبرةِ السّادَةِ النُّقّاد والبحّاثة في علوم الحرف والرّياضيات، ومكتفيةً بالإشارة فقط إلى أنّني بهذا الرّقم شرحتُ مَنْ تكونُ حقّاً سيّدة، أو هويّةُ الحرفِ المُتجلّي عبْرَ وجههَا واسْمِهَا في جُلِّ نصوص هذا الدِّيوان، دونَ إغفالِ الإشارةِ كذلكَ إلى قضيّة الجمع بينَ الحرفِ العيسوي والمحمّدي لما لها مِنْ أهمّيَةٍ قصوى في حياة الإنسان اليوم على ضوء مُستجدّات العصر التَّاريخيّة والسّياسيّة، وذلك عبر سردِي للعديدِ من الأسماءِ والتّجارب الفكريّة المختلفة جامعةً بين قطبَي الأرض، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، وشعراً ونثراً بلُغةٍ جديدة قديمة هي لغةُ الله الكونيّة، أو رياضياتُه الحقّة.

٣٥. كيف تشكَّل لديك هاجس وشغف التَّخصُّص في النّقد الأدبي؟

النّقد ضرورة حياتيّة لا بدّ منها، إنّهُ مراجعة للأمور، إعادة نظر فيها من أجل المضيّ قدماً بهامة مرفوعة: وأنا منذ صغري نشأتُ ناقدة: من الصّعب عليّ أن أتقبّل الأشياء كما هي دون أن أناقشها، دون أن أقلّبها ذات اليمين وذات الشّمال. ولا يعنيني كثيراً أن أتحدّث للآخر عمّا لا يعجبني بصوت مسموع، أو عن نظرتي للأمور الّتي قد تختلف عن نظرته أو فكرته لأثير انتباهه، لأنّني وبكلّ بساطة منشغلة بنقد نفسي باستمرار. ونقد النّفس يحتاج إلى العمل بصمت حتّى

أستطيعَ أن أعيد النّظر فيّ وفيما يحيط حولي من مؤسّسات وعلاقات اجتماعيّة. وأظنّني بدأتُ بالمؤسَّستيْنِ؛ الأبوسيّة والأموسيّة، أو ما يسمّى بسلطة الأب والأمّ، ثمَّ بعد ذلك وجّهتُ بحثي إلى سلطة البنوّة نفسها، أيْ كيف على الإنسان أن يكون ابناً وسط نموذج عائليّ فُرِضَ فرضاً على كل المجتمعات، الشَّرقيّ منها والغربيّ: لا فرق. ولقد اقتديتُ في هذا الأمر بسيرة إبراهيم الخليل وحكايته مع أهله، وكذا بقصّة النّبيّ محمّد وتاريخه مع أعمامه وزوجاته، ولم أنسَ أبداً سيرة المسيح وقصّة ولادته الّتي أقامت الدُّنيا ولم تقعدها، ومازالت محطّ جدال النَّاس لليوم. وكما يلاحظ القارئ، فإنّ كل هذه الأمثلة تروي حكايات قد خلخلت المنظومات الَّتي أكل عليها الدّهر وشرب. لذا فإنّ الإنسان في حاجة دائمة إلى نقد كلّ شيء، وبالذَّات ما يحجم الآخرون عن نقده. ليس بهدف النَّقد هكذا بدون سبب أو منطق معيّن، وإنَّما من أجل تحرير العقل عبر طرح الأسئلة ومحاولة السَّعي إلى حلّ معضلاتها وإشكاليّاتها الأزليّة. وخير النّقد ما يبدأ بنصوص اللّاهوت والأديان المختلفة، لأنّ الدّاء كلّ الدّاء ينبع منها، لكن على النّاقد ألا ينسى أبداً أخلاقيَّات النَّقد الحقّ، كما عليه أن يتحلّى بدماثة الخلق، وحُسن المنطق، وسلامة النِّيّة، حتَّى لا تصبح كتاباته تجريحاً أو تصفية حسابات شخصيّة، أو تنفيساً عن مكبوتات لا يعلمها إلّا صاحب الغيب المطّلع على كلِّ صغيرة وكبيرة.

والنَّقد يتطلّب الخبرة بالعديد من العلوم، وإن كان النّاقد مختصّاً في المجال الأدبيّ فقط، فهو مُطالَب بأن تكون لديه الأدوات اللّازمة من أجل العمل الجيّد، كأن يكون ملمّاً بالتَّاريخ والجغرافيا، والسّياسة والاقتصاد، وعلم النّفس والطّبّ وما إلى ذلك. عليه أن يكون كثيف القراءة وغزير المعلومات، ولا ينفع أبداً أن يزجَّ أيٌّ كان بنفسه في هذا البحر المهول، كما لا ينفع في شيء أبداً أن يكون النَّاقد مصاباً بعقدة "السبيسيزم" العربيّ، وهي عقدة عنصريّة ساديّة ترافق الأديبَ العربيّ وتجعلُه يظنُّ نفسه أسمى من الكائنات الأخرى، وأن هناك تراتبيّة هرميّة بين الخلق تجعله يرى

نفسه في قمّة الهرم، وبالتّالي فهو ليس في حاجة إلى النّظريّات الغربيّة، ولا إلى علوم الضّفة الأخرى، لأنّه يراها قاصرة عن الغوص في خصوصيّات النّص العربي بشتّى أجناسه.

٣٦. ما هي معاييرك عندما تختاري ديواناً شعريّاً، مجموعة قصصيّة، عملاً روائيّاً لدراسته نقديّاً؟

– أن يكون العمل بعيداً عن الأحقاد السّياسية والمذهبيّة والطّائفيّة والدّينيّة، وأنْ يتمتّع بصفات جماليّة وإبداعيّة تجعل الاشتغال عليه وفيه وبه أمراً ممتعاً؛

– أن يكون بعيداً عن الكتابة الولائميّة الجنسيّة الّتي أصبحت تختصّ فيها العديد من المبدعات العربيّات ظنّا منهنّ أنهنّ بهذا سوف يرضين الذّوق العالميّ، ويُظهرنَ للجميع أنّهنّ قد بلغن مبلغاً عظيماً في مسألة الحريّات والحقوق، وكأنّ تقدّم الفكر لن يتحقّق إلّا بالحرف وهو يُعرّي المرأةَ ويجعلها حفلة شواء في الهواء الطّلق تتمتّع بها قطعان الذّئاب الضّالّة، وصعاليك "المبدعين" في كلّ مكان. وإذ أقول هذا فإنّني أريد أن أؤكّد أنّني لستُ ضدّ الكتابة عن جسد المرأة والتّأريخ له، ولكن لا ضير أن يكون ذلك من باب الإيروتيك الجماليّ، وكذلكَ من باب التأريخ لقصّة العنف المذبحيّ الّذي عانت منه المرأة ولم تزل لليوم، دون السّقوط في بؤرة الشّبقية والفاحشة المفرطة الّتي لا ولن تنفع الأدب ولا الفكر في أيّ شيء.

– وأخيراً، وهذا أمر مهمّ للغاية بالنّسبة إليّ: أن أعطي لكلّ عمل حقّه ووقته الّذي يحتاجه، ولا يوجد في الدّنيا شيء يزعجني أكثر من العقليّة الاستهلاكيّة الّتي تريد من النّاقد أن يكتبَ دراسة نقديّة في يوم أو يومين أو بالأكثر في أسبوع. هذا أمر مرفوض تماماً لديّ، لذا فإنّي أحرص كلّ الحرص على عدم التّعامل أبداً مع "الأدباء" المستعجلين والمتسرّعين في كلّ شيء.

٣٧. ما هي أهم محاور مواضيع كتابك النّقدي: "ميثم السّعدي وثنائيّة العرض المسرحي"؟

مسرحية (مدارات على كوكب شمسيّ)، كانت هي البوصلة الَّتي قادتني إلى مسرح ميثم السَّعدي، ولم أزل أتذكَّر لليوم اللَّحظة الّتي توصّلت فيها بنصّ هذه المسرحيّة، والّذي كتبه صاحبه منذ أزيد من ربع قرن ؛ كنتُ آنذاك (شباط ٢٠١٤) أعمل على ترجمة ديوان شعري يتحدَّث عن قضيّة الدّمار الّذي أصابَ العراق منذ حرب الخليج إلى اليوم، فقلت في نفسي ما أشبه هذا الدِّيوان بنصّ ميثم، لم أكن أعني طبعاً التَّشابه من حيث المضمون، أو طريقة السَّرد، ولكن من حيث استخدام كلا الكاتبين لتقنيّة مسرحة الحياة، فالحربُ في الدِّيوان الشِّعري كانت هي المسرح العظيم الّذي اختارته كاتبته لتحريك شخصيّاتها المتنوّعة، والحرب هي أيضاً في نصّ ميثم السَّعدي المحرّك الأساس الّذي دفعه إلى كتابة هذه المسرحيّة، كي يعالج فيها، لا قضية الحرب بشكل مباشر، وإنّما تداعيات هذه الحرب ونتائجها الوخيمة على المجتمع العراقي. وإذ كنت بصدد التَّأمُّل في هذا الاستنتاج، تبادر إلى ذهني سؤال غريب: ما علاقة الكواكب ومداراتها بنص هذا الكاتب المسرحي، خاصَّة وأنّني حينما قرأته، لم أجد أثراً يذكر لا للشمس ولا للقمر، ولا لنجوم اللَّيل، ولا حتّى لهذا الكوكب الشَّمسي الَّذي خصّه بالذّكر ميثم السّعدي في عنوان مسرحيّته. فما الّذي كان يعنيه أو يريد الوصول إليه من خلال عنوانه هذا؟ لا أعتقد أنَّ هناك فجوة سيميائيّة بين العنوان ونصّه، وإذا كان الحبلُ الَّذي من المفترض أنْ يوجدَ كيْ يربط بين النَّص وعنوانه غائباً (على الأقل ظاهريّاً)، فلا شكّ أنّه حاضر في ذهن كاتبه، ولا بُدّ لي أن أجدهُ. كيف ذلك؟ سأباشر بترجمة النّصّ، ثمّ من التّرجمة إلى التَّحليل والتَّفكيك ومنهما إلى الرّكض وراء المعاني المتخفِّية أو المتقنِّعة بألف قناع وقناع بين الأسطر والحروف.

إنّ للترجمة مفعول السّحر، إنّها حقّاً مفتاح من مفاتيح التّأويل العجيبة، لأنّها تساعد أولاً في التّركيز بشكل دقيق على معاني النّص بغرض نقلها إلى لغة أخرى، ثمَّ ثانياً على الغوص بشكلٍ أكثر عمقاً في معانيه بلغته الأمّ. وإذ أنا أقوم بهذا العمل تركيزاً وغوصاً في حروف ميثم السَّعدي، اكتشفت أنّ الجواب وارد في عنوان المسرحيّة ذاتها وبالذّات في حرف الجرّ (على) [مدارات (على) كوكب شمسي]. وهو هنا، أيْ حرف الجرّ يقوم مقام ظرف المكان (فوق)، ومن المعلوم أنَّ المدار يكون حول، لا على، ولا حتّى فوق، وكون كلمة (مدار) جاءت في العنوان بصيغة الجمع ومرتبطة بكوكب شمسي، فهذا يعني أنَّ الأمر فيه حديث بلغة أهل الفلك عن مدارات كوكبيّة، وأن الكوكب الشَّمسي المعني بالأمر هنا قد يكون كوكب الأرض، باعتباره واحداً من أهم كواكب المجموعة الشَّمسيّة. فالكوكب الأرضي تدور فوقه (أو عليه)، كواكب أخرى. ومادام صاحب النّص هو مخرج وكاتب مسرحي، فما من شك، أنّه يقصد بكوكب الأرض هنا صورة المسرح مجازاً، وعليه تصبح الكواكب الأخرى هي الشَّخصيّات الّتي تدور فوق أرض المسرح. فحياة النّاس ـ الّذين هم هؤلاء الكواكب ـ، هي مسرحيّة كبيرة، إذ تراهم فوق الخشبة الأرضيّة منهمكين بكلِّ عمق في أداء أدوارهم، كل حسب تركيبته الشَّخصيّة. وما من عبث قال المخرج والمسرحي الكوميدي الشّهير شارلي شابلن: "الحياة عمل مسرحي عفوي، لا تسبقه تدريبات تحضيرية، لذا، فما عليك أيّها الإنسان سوى أن ترقص، وتغنِّي وتحبَّ حياتك وتعيش بعمق كل لحظة فيها، قبل أن تسدل السِّتارة، وتنتهي المسرحيّة بدون تصفيق".

وفي مقولة شارلي شابلن نداء مُلحّ للعودة إلى نصّ ميثم السَّعدي وتصفّح الطَّريقة الّتي نسَّق بها كمخرج حركة الشَّخصيّات فوق خشبة المسرح، ويا للمفاجأة الّتي تمّ اكتشافها: فعدد الشَّخصيّات الّتي أدرجها ميثم في أوَّل صفحة تقديميّة لنص المسرحيّة هو اثنتا عشرة شخصيّة، عَشرٌ منها تدخل في الحبكة العامّة للنص

واثنتـان تجسِّدان وتلخِّصـان التَّركيـب العـام للشخصـيّات الثّانويّـة، وللجمهـور أيضـاً. فماذا يعني هذا العدد؟ ألا يذكّرنا بعض الشَّيء بأجرام المجموعة الشمسيّة كاملة؟!

نعم الأمر فيه تشبيه بالشَّمس وكواكبها التّسعة، لكن مـاذا عن الكوكبين الآخرين اللَّذين هُما هنـا مجازاً الشَّخصيّات الثَّانويّـة، ثمّ الجمهور. هل كـان ميثم السَّعدي يعرف أنّ عدد أجرام المجموعـة الشَّمسيّة سيرتفع مـن تسعة أجرام ليصبح اثني عشر جرماً، ومِن هذا العدد أستلهم بالتَّالي عدد شخصيّات مسرحيّته (مدارات على كوكب شمسي)؟

إلـى حـدود سـنة ١٩٨٨، وهـي سـنة كتابـة نـصّ ميـثم كـان عـدد أجـرام المجموعـة الشَّمسية المعروف آنذاك لـدى كلّ علمـاء الفلك، تسـعة فقط، أيْ تسـعة كواكب تدور حول الشَّمس، وآلاف الأجرام المنتشرة في حزام محدَّد يقع بين كوكبي المريخ والمشتري يطلق عليها اسم الكويكبات، وعددٍ لا يحصى من الشُّهب والنَّيازك، وكمِّيـات كبيرة مـن الغـازات والغبـار الكوني المنتشـر بـين الكواكـب. إلَّا أنّـه مـا بـين سنتي ٢٠٠٣ و٢٠١٢ اكتشف العلماء أن كواكب هذه المجموعة قد ارتفعت وأصبح عددها اثني عشر كوكباً، بما فيها ((نيبيرو)) الجديد وكذلك كوكب ((سِيدنا)).

لكن مهلاً، ثمّـة نقطـة أخرى يجب عدم إهمالها وأنـا بصـدد الحديث عن مقاربـة الكاتب لقضيّة المسرح عبر علـوم الفلك: ميثم السَّعدي عراقـي، وهذا يعنـي الكثير بالنّسبة له كأديب مسرحي، أيْ أنّه لا شك متأثّر بعلوم حضـارة بـلاد الرَّافدين القديمـة وأسـاطيرها الخالـدة، وأخصُّ بالـذّكر الحضـارة السُّومريّة، أجل، فمن غيرهم السُّومريون كانوا أكثر دراية بالنّجوم والكواكب؟! السُّومريون هُمُ الّذين قالوا منذ أكثر مـن ٤٥٠٠ سـنة، أي قبـل علمـاء اليـوم ونظريّـاتهم وأبحـاثهم الجديـدة بـأنّ النّظـام الشّمسي يتكوَّن من اثني عشر كوكباً، وهو أمر تؤكّده الرُّسوم والكتابات المسماريّة المحفوظة في متحف برلين، هذا يعنـي أنّ ميثم السَّعدي كان علـى دراية تامّة بكلِّ الحيثيّات الّتي نبع منها عنوان نصّه المسرحي (مدارات علـى كوكب شمسـي)، وأنّه

لم يكن لينتظر حتّى يكتشف علماء الفلك اليوم أنّ عدد أجرام المجموعة الشَّمسيّة هو اثنا عشر أو أكثر أو أقلّ.

من هذه الصُّورة الاستعاريّة الَّتي جمع فيها ميثم بين المفهوم الفلكي والأدبي الإبداعي لفنِّ المسرح، يصبح السُّؤال الَّذي يجب طرحه الآن هو الآتي: مادام قد تمّ تحديد الشَّخصيّات الرَّئيسة والثّانويّة في نصّ المسرحيّة باعتبارها كواكب تدور في فلك المجموعة الشَّمسيّة، فمن تكون الشَّمس الّتي تدور حولها هذه الكواكب داخل نص ميثم؟!

ما من شك في أنّها ستكون الشَّخصيّة الأهمّ بين كل شخصيّات المسرحيّة، أي تلك الّتي تحرِّك كلّ الكواكب، وتجعلها تدور حولها في كلا يوميها الفلكي والشَّمسي، أيْ في كلا لحظتَي الإضاءة والإظلام على خشبة المسرح. ومن غيرهُ يا ترى سوى المُخرج! ولا أدلّ على ذلك من هذه العبارات الّتي وردت في نصّ المسرحيّة بالمشهد الثّاني:

"المُخرج: الحقيقة أنا الرَّجل الوحيد الَّذي لم يبلَّغ بالحضور إلى المحكمة.... أوه لقد نسيتُ أنّني قد هيّأت كلّ شيء ولا أحتاج لأيّة دعوة

الجميع: أنت قد هيَّأت كلَّ شيء؟ فمن أنت إذن؟

المخرج: أنا سيّدكم ... أنا المُخرج".

أصبحت الصُّورة واضحة؛ فالمُخرج في هذه المسرحيّة هو الشَّمس، والشَّخصيّات الأخرى هي الكواكب الّتي تدور حوله، والمسرح الّذي تجرى فوقه الأحداث لحظة الإضاءة (اليوم الشَّمسي) والإظلام (اليوم الفلكي) هي الحياة (الدُّنيا). هو مسرح الحياة الَّذي غالباً ما يلبس فيه النَّاس أقنعة معيَّنة يؤدّون عَبْرَها أدوارهم كُلَّ يومٍ، كُلٌّ حسب كفاءته وقدرته على التَّمثيل، وهو المفهوم ذاته الّذي عبّر عنه المخرج والكاتب المسرحي ميثم السَّعدي في نصّه (مدارات على كوكب شمسي) عبر استخدامه لتقنيّة مسرحة المسرح وازدواجيّة الأقنعة.

وبعد مسرحيّة (مدارات على كوكب شمسيّ) حدث أنِ استلمتُ في يومه ٠٤ أيار ٢٠١٤ ورقة ميثم السَّعدي الخاصّة بمشروعه "ثنائيّة العرض المسرحي" بغرض ترجمتها إلى اللُّغة الإيطاليّة. لم أكُ بعدُ قد استوعبت بشكل كامل حقيقة هذه التَّجربة في المسرح العربي والعالمي كافّة على الرُّغم من قراءتي المتعمّقة لورقته الَّتي شرح فيها بشكل موجز كيفية تصوره ومقاربته لمشروعه وكيف ينوي تطبيقه على خشبة المسرح. ووجدت نفسي أتساءل باستمرار عن معنى وجدوى إقدام ميثم على هذه الخطوة وإصراره على تطبيقها بحماس منقطع النَّظير، أيْ ما معنى أنْ يقسّم الرّكح إلى جزْأين ويعرض فوقهما مسرحيَّتَين وفي وقت واحد؟ وهل سيكونُ هناكَ حاجز بين ممثِّلي نصيّ المسرحيّة الأوَّل والثَّاني، وما أثر كلّ هذا على جودة التَّمثيل وقوّة تأثيره في الجمهور، وعلى توزيع الوقت بين الممثِّلين، بل كيف سيختمان معاً عرضهما، هل في وقت واحد، أمْ هل سيختم كل واحد منهما عرضه بغض النَّظر عن الوقت المخصّص لكلاهما؟ ثمَّ ما مدى تأثير كل هذه العناصر على الجمهور، هل سيتمكّنُ يا ترى من التَّركيز ومتابعة كلا العرضين وبالتَّالي تذكّر أحداث كلتا المسرحيَّتين؟ وهي كلّها أسئلة مشروعة كانت تزيد من حيرتي، ذلك أنّني كنتُ على علم أنّها هي وحدها التَّجربة كفيلة بإجلاء كلّ الأمور. عندئذ قرَّرتُ أن أكتفي بترجمة الورقة وجعل الأفكار تختمر لوحدها في ذهني، وانتظار تطوُّرات الأحداث خاصَّة وأنّني كنتُ على علم بأنَّ المشروع لن يظلَّ مجرّد حبر على ورق، لأنّ ميثم كان يفكر في شدّ الرّحال إلى الجزائر بهدف التَّطبيق الفعليّ والحيّ لتجربته هناك. لكنّ الَّذي حدث هو أنّني في يومه ٠٢ أيلول ٢٠١٤، وبينما كنتُ منهمكة في تحرير بعض الأوراق الخاصّة بكتابي الجديد باللُّغة الإيطاليّة عن ((الملائكة بين النّصِّ القرآني والنّصّ الأدبي))، إذا به تصلني من ميثم رسالة يشرحُ لي فيها آليات تقسيم الرّكح إلى جزْأَين وما إلى ذلك من التّفاصيل ذات الطّبيعة الرّياضيّة المحضة، فكان عليّ أن أحوّل انتباهي من أوراق كتابي، وأتوجه بعين

التَّركيز والقراءة إلى فحوى نصّ الرّسالة، وإذ أنا أقوم بهذه العمليّة في أقلّ جزء من الثَّانية إذا بجرس الباب والهاتف يرنّان معاً في الوقت نفسه، فكان لزاما عليّ في تلك اللّحظة أن أقوم بأكثر من حركة وأعطي لكلّ وقته الخاصّ به؛ أيْ أن أفتح الباب وأردّ على الهاتف وأجيب ميثم، ثمَّ أعود بعد ذلك إلى كتابي. وكان كلّ هذا لحظة فارقة وعلامة مهمّة في يوميّاتي الخاصة بمشروع ميثم السّعدي المسرحي: ألمْ أكنْ أبحث عن تطبيق فِعْلي لما شرحه ميثم عن مشروعه، أعني تطبيقاً عملّيا يُمكّنني من فهم حيثيات التَّجربة من الدَّاخل ومقاربة سرّها وأسرارها المكينة رغماً عن المسافات بين إيطاليا وأمريكا، وبينهما معاً والجزائر حيث كان المسرح والجمهور ينتظران ميثم كي يحمل لهما بين يديه أفكاره الجديدة؟! وحدها هي هذه اللّحظة الّتي قمت فيها بأكثر من عمل كانت كفيلة بأن تعطيني الجواب الشّافي وتدفعني إلى التّفكير في تحرير كتاب كامل عن الفكر المسرحي الميْثمي، لأنّني حينما دخلتُ كهف الفكرة توضّح لي بشكلٍ كامل المنطق الَّذي يحكم مشروع ميثم والنَّسق الفكري الّذي هو بصدد إنشائه: إنّه نسق يخاطب العقل أكثر من العاطفة، بل خطاب يرمي إلى تحفيز قدرات العقل البشري الّذي أصابه السّكون والخمول، وتشجيعه على أخذ زمام الفعل الحضاري من جديد، وهو الأمر الّذي شرحه وإن بإيجاز في هذا المقطع المقتطف من ورقة المشروع:

"....الذّهن واسع كالأفق ويمكنه أن يستوعب أي شيء وانظر إلى العلماء كيف اخترعوا التّلفاز والرّاديو ومحرّك السّيارة والطّائرة والكهرباء والبطاريّة والكاميرا والسِّينما. وفعلاً صرت أتمرَّن على كتابة أشياء كثيرة باللّغة العربيّة ومن اليسار إلى اليمين.... إذن الموضوع هو التّركيز.

قلت لنفسي؛ الأطفال يتابعون أكثر من مسلسل في اليوم نفسه ويتذكَّرون أحداث كل مسلسل، وحتّى العوائل استطاعت أن تتابع في اليوم الواحد أكثر من أربعة مسلسلات متباينة الأحداث فتعرف أين وصلت الأحداث في كلِّ حلقة. ممّا

ذكرت استنتجت أنّه بإمكاني أن أقدِّم مسرحيَّتين مونودراما على ركح واحد وبوقت واحد وكل موضوع منفصل عن الآخر وبالتّجربة سأقدّم مونودراما بطولة ممثّل، ومونودراما بطولة ممثّلة وكل نص مسرحي يتحدّث عن موضوع مستقل عن الموضوع الآخر وبالوقت نفسه سأحتاج إلى مديري مسرح فلكلّ مسرحيّة تفاصيلها المتنوّعة من أزياء واكسسوارات وحركة وإضاءة ومؤثّرات وموسيقى تصويريّة وديكور وسينوغرافيا. قد أجد استياء من بعض النّقاد أو المنظِّرين وكذلك سأجد ترحيباً لما ابتكرته في هذه النّظريّة الّتي أعتقد أنّ اسمها سيكون ((ثنائيّة العرض المونودرامي المزدوج))".

الذّهن كما سرد ميثم هنا على لسان قائد الكتيبة واسع كالأفق ويمكنه أن يستوعب ويقوم بأشياء كثيرة في وقت واحد، يكفي فقط تدريبه على ذلك، وهي عبارة اختزلت فلسفة الكون كلّها، واختزلتْ أيضا الكيفيّة الّتي ينظر بها ميثم إلى المسرح، الّذي هو بالنّسبة له أولاً وقبل كل شيء مسرح تجريبيّ يدعو من خلاله إلى التَّغيير والتَّجديد سواء فيما يتعلّق بمفردات العمل المسرحيّ أو بطريقة تنفيذه فوق الخشبة. إنّها رحلة استكشافيّة يسعى من ورائها إلى إيجاد ساحات فكريّة وإبداعيّة لم يطأها أحد قبله وذلك انطلاقاً من إيمانه العميق بقدرة الإنسان الخلّاقة على صنع المستقبل واستشراف آفاقه وعوالمه الجديدة مع الحرص الدّائم على تحقيق ذاك التّوازن الخفي بينه هو كمبدع وبين حركة التّغيير وآلياتها الهادفة إلى إيجاد البديل عن واقع راهن متآكل، مع الابتعاد ما أمكن عن كلِّ ما له علاقة بالتّكرار والجمود الفكريّ والثّقافيّ. لذا فإنَّ مسرحه ليس لعرض الأفكار والآراء الجاهزة ولكن لهدم أركان ما سبق من فكر أكل عليه الدّهر وشرب، لأنّه فكر إيديولوجيّ أنتجته ظروف الحرب القاسية الّتي مرّ ويمرُّ بها العراق منذ الحرب الإيرانيّة إلى اليوم، والّتي بموجبها أصبح المسرح الميثمي صرخة موجّهة ضدّ الفساد الّذي أصاب العالم في ظلِّ بورجوازيّات الحروب والأسلحة ومافيات العقائد والشَّرائع الدِّينيّة على اختلاف مذاهبها ومشاربها،

والّتـي سـحقتِ النّـاس بفسـاد الخُلـق وتضـخّم الأنـا والجشـع الرّهيـب الّذي حوّلهـا مـن كائنـات آدميـة إلـى وحـوش بشـريّة، وهـي صـورة قريبـة جدّاً مـن تلـك الَّتـي كثيـراً مـا حاربها ألفريد جارّي عبر نزعته الباتافيزيقيّة وفلسفة العبث اللّامتفلسف، وما رفضُ الفساد والتّمرد عليه سوى حالـة إنسانيّة يجب إبرازها عبر الفنّ دون اللّجوء أبداً إلـى أسلوب الموعظة والحكمة، وهي الفكرة ذاتها الَّتي تشبّث بها ميثم مع الحرص الشَّديد علـى أن تكون خشبة المسرح مكاناً خاصاً فقط بتقديم صور مختلفة وعميقة عن عزلـة الإنسـان وعذابـه وقهـره النَّفسـي، دون أنْ تتحـوّل أبـداً إلـى مكـان للمعـارك السِّياسـيّة الطَّاحنـة. فالهـدف فـي نصوصـه هـو السُّلوك البشـري ونقل خصوصـيّة الشَّخصيّة المسرحيّة إلى عموميّة الإنسان بدءاً من حركة الممثّل وفعله وصولاً إلى مفردات العرض المسرحي، وهذا أمر دفع بميثم السَّعدي إلى الانتباه هنا إلى ما للممثل من أهمِّية قصـوى فـي إيصـال فكره الإبداعي ممّا جعلـه يركـز كثيـراً علـى المهارات الَّتي يتمتَّع بها كلّ ممثّل على حدة، وهذا أمر لا يمكن حدوثه سوى في المسرح التّجريبيّ، لأن ميثم لم يعتمد فيه فقط على نصه المكتوب، ولا على ما فيه مـن حـوارات تنطـق بهـا الشَّخصـيّات لإظهـار السّلوك الإنسـاني ولكـن أيضـاً علـى الممثل نفسه وانفعالاتـه المستقلّة وحركتـه ومدى انسجامه مـع الجمهور ومـع أجواء خشبة المسرح ذاتها.

وكون ميثم السَّعدي قد تأثَّر كثيراً بتجارب عمالقة المسرح التَّجريبي العالمي أمثال ستانيسلافسكي وبيتر بروك وصمويل بيكيت، فإنَّ هذا لا يعني أبداً أن فكره المسرحي منقول عن المسرح الأجنبي، بل علـى العكس من هذا تماماً، لأنّ الَّذي حدث هو أن ميثم أفاد من مناهج الغرب في المسرح باعتبارها ثارت وتمرَّدت على تقليديّة المسرح ثمّ وظَّفها في تأسيس منهج مسرحي مستقل تماماً عن تجارب من سبقه، يعتمد على تقنيّة التَّأصيل وبلورة قواعد المسرح العالمي في أشكال وأساليب مختلفة لبنـاء الشَّخصيّة وتطوير أشكال التَّصـاعد الدرامي وإتقـان الحبكـة، فأصبح

مسرحه عربيّاً خالصاً ناتجاً عن حالة الإحباط والدَّمار الّتي مُنيت بها الشُّعوب العربيّة بسبب الحروب المستمرّة والنّزاعات السِّياسيّة العقيمة والثَّورات الفاشلة، وما مسرح ميثم سوى ابن لهذه الظُّروف ومرآة تعكس هذه الحالة المريعة من الانهيار النّفسي الَّتي جعلت من العرب شعوباً تتشبَّث بالبقاء أكثر ممَّا تسعى نحو التَّغيير والتَّطوُّر والتَّقدُّم، ولعلّه هو نفسه هذا المسرح التَّجريبي الميثميّ الَّذي ينظر إليه الجمهور اليوم بعين الاستغراب والرِّيبة سيكون هو وغيره من التَّجارب المسرحيّة المعاصرة المادّةَ الخام لنهضة مسرحيّة شاملة تكون أكثر أصالةً ممَّا سبقها وكفيلة بتحقيق التَّغيير المطلوب والسّير قُدُماً نحو مستقبل أكثر إشراقاً وأكثر وعياً بأهمِّيّة الإنسان وفكره الخلّاق.

٣٨. أعددت دراسة نقديّة مفصّلة بعنوان: تمَثَّلاتُ السّادةِ الملائكة الكروبيّين في تجربة صبري يوسف الإبداعيّة من الأدب إلى الفنّ التَّشكيلي، ما الَّذي قادكِ إلى كلِّ هذا الغوص في فضاءات صبري يوسف؟

هذا الكتابُ ثمرة سنتين أو أكثر من الانتظار والصّبر، أقول هذا لأنّ مضمونه كان محفوراً في فكري منذ زمن وكنتُ أنتظر فقط أن أحوّله من فكرة إلى أحرف مرقونة فوق ملفّ رقميّ، لا سيّما أنَّني كنتُ في تلك الفترة ملتزمة بالعمل على كتب أخرى أذكر منها ترجمة ديوانيْ (من مذكَّرات طفل الحرب)، و(السَّلام أعمق من البحار)، ثمَّ رواية (عشق سرّي) وكتب أخرى صدرت ما بين عامَيْ ٢٠١٥ و٢٠١٦.

وفعل النّقل لكلّ ما اختمرَ بذاكرة الرّوح عن تجربة هذا الأديب الإبداعيّة، يستدعي وبدون أدنى شكّ من المتلقّي أن يتعلّم كيف يقضمُ الوقتَ بأسنانهِ، أقولُ هذا لأنّ صبري يوسف نفسه قارض كبير للزّمن؛ يكتبُ بلا هوادة، والحرفُ يركضُ بين أنامله كشلّالٍ هادرٍ يجرفُ عقاربَ السّاعة ودقائقَها وثوانيها ويحوّلُها إلى

قصص وروايات وأشعار ولوحات لا تتحدَّثُ إلّا باسْمِ المحبّة والسّلام، والصّداقة والحكمة، والدّروس الَّتي أفادها من رحلة حياته الطَّويلة القصيرة. ورُبَّ سائلٍ يقول، وهل يُقرضُ الوقتُ، أو الزّمن؟ أَوَلَيْسَ الزَّمن من يقرضُ النّاسَ وأعمالَهم ويواريهم تحت التُّراب بدون شفقة ولا رحمة؟ أليسَ الزّمنُ هو من ينخُر عظامَنا وخلايانا وكلَّ ذرّة تراب وماء فينا؟ فمن ذا الَّذي يقدرُ عليهِ يا تُرى؟ من ذا الّذي يستطيعُ أن يهْزِمَ الوقتَ؟ ولهُ أقولُ ألّا أقْدَرَ على الزّمن من الأدباء والمبدعين، ومن العُمّال أهل الصّنعة والحرفة في كلّ ميادين الحياة، ومن العلماءِ أهل الحرف والرّقم، أهلَ النُّون والقلم وما يسْطُرون، هؤلاء وحدهم كالأنبياء يعرفونَ كيف يجعلون من الزّمن حبراً أسوَد على ورقٍ، وَكَيّاً محفوراً في القلب بسيف اللّهب، وعملاً يُؤرِّخُ ويوثِّقُ على مرور السّنين والقرون لحضارة الإنسان، منْ ألِفِ الكونِ إلى يائِهِ، ومن قِدْرِهِ الحمراء الكبيرة إلى كأسِه الحبلى والتَّملى بخمرة الخَلْق والتّخليق. وكلُّ من لا يضعُ الزَّمنَ في فمه، ويقرضُه بين أسنانه، فإنَّهُ يبقى ولا ريبَ خارج الحدود، وخارج الحرف واللّغة والوجود والانوجاد، لأنّه وحده منْ يُصاحبُ الزّمنَ، تُطوى له مسافات القُرب بينه وبين خالقه، ويُصبحُ ابنَ وقته.

نعم أيُّها القارئ النّهم، أنا أيضاً ابنةُ وقتي، تعلَّمْتُ كيف أضعُ الزّمن في فمي، مُذْ سنوات طفولتي الأولى، حينما كنتُ لم أتجاوز بعد أعوامي التّسعة. أذكرُ آنذاك، أنّ والدتي كانت تُرسلني لشراء خصلاتِ الزّعفران الأصيلِ من عطّار الحيّ لتُنَسِّم به أطباقها وتزيدَها لذّةً وتعطيها نكهة خاصّة بها وحدها، نكهةً كأنّها توقيع أو بصمة ختاميّة لا يجيدُها أحدٌ سواها. وكنتُ كلّما دخلتُ دكّان هذا العطّار، انتابني شعور بأنّني دخلتُ غرفةَ زمنٍ آخر غير الزّمن الّذي أنا فيه، فقد كان الرّجلُ يُبهرني بلباسه المغربيّ التَّقليديّ الأنيق جدّاً، وبعِطْرِ المِسك الأخّاذ الَّذي كانَ ينبعثُ منهُ كلّما تحرّك وسط الدّكان، عاداك عن وجهه الطّيّب السّموح ولحيته البيضاء الخفيفة لرجلٍ بلغَ منَ العُمْرِ ما يناهزُ السّبعين عاماً؛ رجلٌ هو فقيه مُتبصّر وكذا عطّار، أيْ

أنَّه يعرفُ سرّ الحرفِ وسرّ الزّرع، وسرّ الزّمن وكُنْهَ الأشياء، أيْ نُسْغَها وعطرها، وإلّا لما كانَ عطّاراً. وكانَ هو كلّما رآني، قام من مكانه، وابتسمَ لي بفمه الصّغير وأسنانه النّاصعة البياض والمصطفّة بعناية عجيبة كأسنان المشط، واتّجهَ صوبَ ميزان صغير جدّاً، كان يضعهُ فوق أحدِ رفوف دكّانه الكبيرة، وبدأ في وزن خصلات الزّعفران، ولفِّها داخلَ ورق أبيض شفّاف، ليقدّمها لي بكلِّ عناية وحرصٍ، كأنّما كانَ يُسلّمني جدائل من الذّهب الخالص. وقبل المغادرة كان يأخذُ من برطمان زجاجيّ كبيرٍ، حفنةً من السّكاكر ويهديها لي وهو يقول بفيهٍ باسمٍ وعينيْن صغيرتَيْن ضاحكتَيْن: «كُلِي الزّمنَ، والْتَهِميه التهاماً، فلا أحد يستطيع أن يفعل هذا مثلكِ». كنتُ آخذ حبّات السّكاكر، وأطلقُ ساقيَّ للرّيح جذلى بهديّة العطّار، أعْطِي الزّعفران لوالدتي، وأدخلُ إلى غرفتي كيْ أستمتع بأكل "سكاكر السّاعة"، وأنا أنظرُ بشغفٍ إلى ألوانها البِيض والصُّفر، والورديّة والبرتقاليّة، وإلى عقاربِ الوقت وإشارات الدّقائق والسّاعات المرسومة فوقها، وأستلذُّ بطعمها وهي تذوبُ في فمي حلوةً ليس للذّتها مثيل. والآنَ وقد مرّت على تلك اللّحظات عشرات السّنينِ عرفتُ أنّ أوّل درس عن الزّمن أعطانيه دونما أن أشعُرَ بذلكَ، رجلٌ عطّار فقيه. لقد كان يقولُ لِي ألّا شيء في الوجود أجملَ من استمتاع المرء بقضاء وقته في الأشياء الّتي يُحبُّ، ومنذ ذاك الحين وأنا أحرصُ على ألّا أعمل سوى الأشياء الّتي تجلبُ لي السّعادة، وأقصدُ بالسّعادة هنا، سعادة الرّوح والقلب بالعمل الطّيّب الطّاهر النّقيّ عبر الخدمة والعبادة في محراب الحرفِ، لأنّ الحرفَ نفسُه هو الزّمن، وهو السّاعة الآتية الّتي يكادُ يُخْفِيهَا الخالقُ لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سعتْ إليهِ من العمل المُثمر الصّالح. ومن هذا المنطلق بدأتُ في قضم سكاكر الوقت داخل محراب هذا الأديب والتّشكيليّ السُّوريّ صبري يوسف، والاستمتاع بقراءة حرفه، وتشفيرِ رمزه، وتقديمه لغيري من البحّاثة والدّارسين بلباسٍ جديد، خِطْتُهُ بإبرة الصّبر وخيطِ المحبّة، فجاء هذا الكتاب صلاةً،

كنتُ أقيمها في وقتِها، وأجيبُ من خلالها نداءَ السّماء، وأمسحُ بهَا عن الرّوح كلَّ عناء، وأكتشفُ بنورها أسرارَ البهاءِ والضّياءِ.

ولأنّ العملَ عبادة، كان من الواجب عليّ تحديدُ وقتُ القيام بهِ، حتّى أتمكّنَ والقارئ بعدي من امتلاك البوصلة، ذلكَ أنَّ السّفر بدون دليلٍ مهلكة كبرى، وهدر للطّاقة، وخسران للهمّة وروح اليقين. والوقتُ في مقامنا هذا لا يُمكن تحديدُه مالم يتمّ تعيينُ المكان، والمكانُ هنا مكانان؛ مكانُ انطلاقٍ ومكان وصولٍ. وأمّا المكانُ الأوّلُ فيتفرّعُ إلى أماكنَ عدّة؛ أوّلها السّويد، وثانيها سورية، وثالثها إيطاليا، في حين يبقى مكان الوصول واحداً؛ قلبُ كلٌّ متلقٍّ أينما كانَ وحيثما وُجدَ، ونحنُ جميعاً مَن نُكَوّنُه: باحثةً، وأديباً مدروساً وقارئاً، لأنَّنا كلُّنا ننتمي إلى روح عالم الحرف الَّذي نفخَ فيه اللّهُ إلى أنْ ظهرَ سرُّهُ، وتوهّجَ نورُه، وانتهتْ ظلمته. فنحنُ الخلفاء، وبنا تدورُ الأفلاك وتتحرّكُ الرّوحانيّات والأملاكُ، وعليه وجبَ النّظرُ في أيّام الظُّهور وفلكها، علّنا بذلك نستطيعُ معاً أن نحدِّدَ يوماً أو يوميْن ندخلُ فيهما مرّة أو مرّتيْن في كلّ أسبوع إلى محراب صبري يوسف الإبداعي، وليكونَا يومَي الثّلاثاء والأربعاء.

لماذا هذان اليومان بالضّبط دوناً عن غيرهما من أيّام الأسبوع؟ الجواب بسيط للغاية: في يوم الثّلاثاء وُلد صبري يوسف، وفي يوم الأربعاء وُلدْتُ أنا، هو في الثّامن من أيار، وأنا في الثّامن من آذار. والثّلاثاء يحكمُه كوكب المرّيخ، والأربعاء يحكمُه عطارد وكوكب الشّمس. وكلانا؛ أديباً مدروساً وباحثةً ناقدةً، يحكمُنَا كوكبُ السّلام والمحبّة المعروف باسم الزّهرة، أو فينوس آلهة الجمال.

ومن ضمنِ السّاعاتِ الَّتي تُكَوّنُ لنا يوم الثّلاثاء، هناك إحدى عشر ساعات ليليّة؛ ثمان منها مستمدّةٌ من يوم السّبت والاثنين، وثلاث من الأحد، وفي السّاعة السَّادسة من ليلة هذا اليوم، وأعني بهِ الثّلاثاء تكتملُ كلّ السّاعات في ليلةٍ من أيّام التَّكوير. وأمّا يوم الأربعاء، فتجتمعُ فيه ساعاتٌ من أيَّام الخميس والجمعة والسَّبت، وتكتملُ ختاماً بالشّأنِ الكُلِيّ، لذا فما بَقِي عِلمٌ إلّا وأظهرهُ اللهُ في هذا اليوم

الشَّريفِ، وبناءً على هذا الشَّأن الفلكيّ الرّوحي، فإنّه أصبحَ منَ المُهِمّ للغايةِ تفرُّغِي الكاملِ في هذين اليومين من كلّ أسبوع للكتابة عن صبري يوسف بحبر أهلِ بُرْج الثّور وبُرج الحوت، حيث تجتمعُ مَلَكَةُ الخيال الخصب بالحركة الاندفاعيّة، وتتحكَّمُ الصّورة الدّاخليّة في كلا البُرجين، وتتجدّدُ الطّاقة من أجل مواجهة صعوبات الحياة، ويعظُمُ الشّغَفُ بالعلوم والدّراسة والمطالعة، ويقوى العطاء في مجالَي الأدب والفنون.

من هذين اليومين كانت رحلتي الَّتي ركبتُ فيها منطادَ النّون السّريع لينقلني إلى ديريك، مسقط رأس صبري يوسف، هناك حيث تعرّفتُ عليه بفكري، واكتشفت عن قرب تلك الطّينة الخام الَّتي منها تكوّنت عجينتُهُ، وأعطتنا بمرور الزّمن هذا الإنسان الصّلصاليّ المعتّق الرّوح والفكر، فكان هذا الكتاب الَّذي هو دراسة نقديّة عرفانيّة خُطّت بمداد الدّعاء والمناجاة، وقدْ كتبَ عنه الأديبُ صبري نفسُه مقدّمة على قدرٍ عالٍ من الأهمّيّة تجدها أيُّها القارئ العزيز في الجزء الخاصّ بالملاحق.

٣٩. انكبَبْت على تحليل ونقد ملحمة الكوميديا الإلهية للمبدع أليغييري دانتي، في وقتٍ كنت تترجمين وتقدّمين دراسات نقديّة أخرى، كيف توفّقين بين عدّة مشاريع إبداعيّة في توقيت واحد، وفي وقتٍ قصير؟

المحبّة هي السّرّ؛ وكم هو رائعٌ أن أحبَّ نصوص من أكتبُ عنهم، لأنّ ذلك يعني أنّني لن أُصابَ في رفقتهم بالملل والضّجر أو الإحباط، ويعني أيضاً أنّ الكتابة عنهم ستصبح ممتعة للغاية، وستجلب لي السَّعادة الّتي يحقّقها الحرفُ للخُلّص من المبدعين والأدباء. ودانتي هو رفيقي في الغربة والسّفر: وقد سُكبَ الكثيرُ من الحِبْرِ للحديث عن هذا البحر والعالم الكبير، وأدلى العديد من الدّارسين والبحّاثة بِدُلِيِّهِم فيه، كلٌّ حسب تخصّصه ودرجة محبّته لدانتي ألغييري وإعجابه بأدبه وغزارة علومه، إلّا أنَّني وأنا أمام موقف الكوميديا الإلهيّة، كنت أجدني دائمة

حيرى ولا أعرفُ بأيّ حرف سأكتب عن هذا القطب الّذي نفخ الرّوح في الأبجديّة الإيطاليّة وجعل صيتها يجاوز الأرض والسَّماء، أبحرفِ العشق والإعجاب، أمْ بحرف النّقد والتَّمحيص، أم بهذا وذاك، لا سيّما وأنا أعرف جيّداً أنّ كلا الأمرين يستوجبان الصَّبر وإجادة الوقوف عند كلّ عمل خطّه هذا الأديب الجهبذ، لأنّه هكذا فقط يمكن أن نعرف حقيقةً مَن هو دانتي، أو بصيغة أخرى لماذا دانتي؟

منذ سنوات مراهقتي الأولى لم تكن اللُّغة العربيّة ولا الإيطاليّة هما اللَّتان قادتاني إليه، وإنّما الفرنسيّة، وأذكر أنّني آنذاك قرأتُ ترجمة الفيلسوف ورجل اللّاهوت الفرنسي فيليسِتي دو لامونيه Félicité de Lamennais، فازداد شغفي بالأدب الإيطالي، وأحببتُ كلّ يوم أكثر فأكثر الطَّريقة الَّتي كان يعبّرُ بها دانتي عن فكره العرفاني الشّاهق، ممَّا جعلَ إيماني بمدى أهمِّيّة التَّرجمة والمترجمين في تلاقح الحضارات وتزاوج العقول وتلاقح القلوب المتنوِّرة، ونشر الفكر القائم على المحبّة السّامية، يترسّخُ بداخلي بشكل أقوى وأعمق يوماً بعد يوم، لا سيّما بعد ما قرأته في مقدِّمة فيليسِتي دو لامونيه من شروحات وافية شملت حياة دانتي، والظّروف السّياسيّة السّائدة آنذاك، وما اعتور الكنيسة من فساد في الحكم والإدارة لدرجة جعلت من دانتي يموضع في الجحيم العديد من الأسماء البابويّة والكهنوتيّة الشَّهيرة، وهذا أمر كان فيه نوع من الإشراق والاستشراف المستقبلي لما كان يجب أن تكون عليه أمور الحياة والدِّين بشكلٍ عام، ولطريقة تعايش هذا الأخير مع الواقع السِّياسي السَّائد، وهذا في حدّ ذاته فيه طرح مبكّر لقضيّة فصل الدِّين عن السِّياسة على ضوء ما تناوله في كوميدياه من الصِّراع القائم بين الكنيسة والحكم الإمبراطوري. فدانتي كما قال عنه البابا الحالي فرانسيس بيرجوليو في عيد ميلاده السبعمائة والخمسين، هو "نبي" من أنبياء الأمل، وأقول عنه إنّه "مبشّر" بالخلاص وبالتَّغيير العميق لكلِّ إنسان على هذه الأرض، لأنّه يدعوه مرّة أخرى إلى إيجاد ذلك المعنى الّذي فُقِدَ خلال هذا السَّفر الإنساني العجيب الّذي هو الحياة، لذا فإنِّي أعتبر دانتي

من خلال كوميدياه الإلهيّة باباً من أبوابٍ عدّة قد تفيد الإنسان في العبور بالرُّوح من غياهب الظُّلمات والضّياع، والوصول بها إلى فراديس النُّور، حيث الحبّ وحده المخلّص، والمحبّةُ وحدها تُحرّكُ الشَّمسَ وباقي الكواكب.

٤٠. يقال إنّ مواقع التواصل الاجتماعي أصبحت جزءاً لا يتجزَّأ من حياة المبدعين والأدباء، ولها دور فعّال في انتشارهم إلي أيّ حدّ أنت مع هذا الرّأي ولماذا؟

هذا سؤال مهمٌّ للغاية، وسأتحدّث عن تجربتي من خلال موقع الفيسبوك فقط، لأنه ليست لدي حسابات أو صفحات مفتوحة على مواقع أخرى غيره من قبيل التويتر والانستقرام اللذان لا يختلفان عنه كثيرا.

فيسبوك قائم على مبدأ الانتشار، وهو ما يسمّى لدى الخيميائيين بمبدأ "الفَضْح"، أيْ تسليط الضّوء على كلّ ماهو في العتمة وإظهاره للغير بصفاتٍ قد تكون صفاته الحقّة، وبأخرى قد تكون مزيّفة تماماً، وهو المبدأ الذي يعملُ به إبليس نفسه. فإذا كانَ من أسماء الله السّتّار أو السّتير كما يُحِبُّ البعضُ القولَ، فإنّ إبليس، أيّها العارفُ الطيّبُ الكريمُ، اسمُه "الفضّاح"، لأنّه ما من شيء سترهُ وحفظه الله إلّا وأحبّ إظهاره، أو كشفه واكتشافه! ولا تنسَ أنّهُ ما أخرج آدمَ من نعيمه الأوّل سوى عينِ هذا الكائنِ الّذي خلقهُ ربُّ العزّة والجبروت ليُحَقِّقَ به معادلةَ الكمال الخَلقيّ القائم على قُطْبَي السَّالبيّة والموجبيّة، وكذا قطبي "الشَّرّ" والخير، ولو أنّي لا أرى في الوجود شرّاً بالمعنى المتعارف عليه، وإنّما الخَلقُ والخليقة كلاهما خير في خير!

ولا أحدَ أحبَّ ويُحِبُّ آدمَ كما فعلَ ويفعلُ إبليسُ، وإن بطريقته الخاصّة الّتي كلّفهُ بها الله. وإذ أقولُ آدم، فإنّني أعني الذّكَر والأنثى من البشريّة التّرابيّة، وذلك سيراً منّي على منهاج الحيّ القيّوم الّذي لم يذكر اسم حواء في القرآن سوى لأنّهُ

كان يوجِّهُ إليها خطابه بصفتها هي أيضا آدم، أيْ بشراً. ولربّما في قولي هذا دعوة أيضاً لإعادة النّظر في قصّة الخلق والأساطير الّتي حيكت حولها والّتي لا نعرفُ لها أصلاً ولا مبدأ ولا نهاية.

أجل، فحبُّ هذا الكائن "مصيبةُ" الإنسانيّةِ العُظمى. والسّببُ في ذلكَ واحدٌ: لأنّ أعلى درجات الحبّ عند إبليس هي التَّمَلُّكُ الَّذي انقلب حسداً وغيرةً.

وهذا الحبُّ بدأ بنظرةٍ ألقاها على آدم حينما أصبح مُكتملَ الشّكلِ والصّورة، فامتلأ بهِ وعَشِقَه، وأراد لو كانَ هُو وذرّيته على هيئتِه وصورته ولسانه وصوته، ولم يكتفِ بهذا فحسب فلقد طلبَ أن يسري منه مسرى الدّم في الجسد، فكان له ذلك، بإرادة آدميّة، ومشيئة إلهيّة، وذلك بموجب العلاقة الوصاليّة الآليّة الّتي عادةً ما تكونُ بين العاشق والمعشوق.

وهذه العلاقة هي أساس الكون، لأنّها علاقة طاقةٍ مُحرّكة للفعل والأفعال، تصادميّة المسار، وتعاشقيّة التّحوّل في الوقت ذاته. فحينما أحبّ إبليسُ آدمَ ملَكَهُ وتملّكَهُ، ومن التّملّك نشأتْ غيرته وحسده، لا من آدم، ولكن من الله عينُه، انطلاقاً من مبدأ الاستكبار الإبليسيّ الّذي يقومُ على أساس رغبة هذا الأخير في تبنّي فعلِ الخلق بأسرهِ، والادّعاء كذباً بأنّه هو اليد الّتي صنعتْ آدم بإناثه وذكوره، وبناء على هذا الأمر فإنّ سلطانه لن يكون سوى عليه.

وحدثَ أن رفض آدمُ عقد التّبنّي هذا من باب ولائه لوحدانيّة الله المطلقة، فكان أن جنّ جنون إبليس وتأجّجَ في صدره ما يسمّى بالحقد، وتفرزه عند البشر الغدّة الموجودة بين السرّة والمعدة، وهي الّتي بإكسيرها المُرَكّز يتكاثرُ إبليس فيصبح له الجُند والخيل في كلِّ مكان، وذلك لأنّه استغنى عن الحضور الجسديّ وطوّرَ قوةً جديدة في الفعل والحركة عبر الفكرة والإحساس، وأصبح كائناً فِكْرويّاً محسوساً أكثر منه ملموساً له القدرة على التّسرّب في النّفس والفكر والدّماغ، والنّفث بالتّالي في كلّ شيء.

والفيسبوك وغيره من الاختراعات المعلوماتيّة الجديدة وسيلة من وسائل إبليس، ولستُ هنا بصدد إصدار فتاوى دينيّة أو ما يشابهُها لأقول إنّ الفيسبوك حرام مثلا: لا، ليس بهذه الطّريقة أنظر إلى الأمور وأقيّمها، كلّ ما أريده في هذا الجواب الأربعين، هو محاصرة إبليس وجهاً لوجه، لأعايِنَ كيف يتحرّكُ حتّى من خلال مواقع التّواصل الاجتماعي الّتي الفيسبوك ماهو إلّا واحد منها. وهنا سأعود إلى اسمه "الفضّاح"، وأثير انتباه القارئ معي إلى شيء في غاية الأهمّيّة، وهو كون اسم الفيسبوك نفسه قائم على خاصّيتَي"الإعلان" و"الإشهار" اللّتانِ أشرتُ إليهما آنفاً، فهو يعني حرفياً (كتابُ الوجه)، وهو وجه آدم الّذي بهِ افتتنَ إبليس منذ البداية، وعليه فإنّكَ عزيزي القارئ، لا تجدُ أحداً إلّا ونشر لنفسه أو لغيره صوراً تُظهره في كلِّ الحالات. وبما أنّنا نتحدّث عن دور الفيسبوك في انتشار المبدعين رجالاً ونساء، فإنّك لن تجد حساباً إلّا وقد رُصَّت فيه الصّور من كلِّ شكلٍ ولون، بداعٍ وبدونه، بمناسبة وبدونها، وهذا أمر خطير للغاية، وسأتوقَّفُ بعض الشَّيء للحديث عن أوجه هذه الخطورة ليس من النّاحية الدّينيّة ولا الأخلاقيّة، لأنّني لن أسمح لنفسي أبداً بمحاكمة أحد خُلُقيّاً، فليست لدي مفاتيح الغيب أطّلعُ بها على ما تخفيه القلوب والصّدور، وما كلّ ما يبدو طالحاً هو كذلك حقّاً، وما كلّ ما يظهر للعين صالحاً هو بالفعل كذلك، وإنّما سأكتفي بالحديث من النّاحية النّفسيّة والكيميائيّة الخيميائيّة للأمر.

إنّ للوجه وللجسد بشكل عامّ قدسيّة كبرى، ضاعت مع جملة ما ضاع في تاريخ البشريّة، وأصبحت لا قيمة لها في علوم الرّوح العالية، لذا والحال هذه فإنّ أرخص ما أصبح يمتلكُ الإنسانُ جسده، يفعلُ به ما يشاء. لكن لماذا ركّز الفيسبوك على صورة الإنسان وجسده؟ السّرّ كامن في سرّ الخَلق ذاته، أيْ في الصّورة الّتي بها ركّبَ الخالقُ آدم وذرّيته، فهي لها مفعول السّحر والخدَر الَّذي يصلُ إلى النّفس مباشرةً، وعليه سيصبح اسم الفيسبوك وفقاً لتحليلي هذا، هو كتاب النّفس (Book

of the soul)، وهذا يعني أنّ كلّ ما فيه هُو مُوجَّهٌ وموجِّهٌ للنّفس، إنّه حوار من أنفسٍ متفرّقة في مناطق مختلفة من العالم إلى أنفس أخرى تدورُ في الفلكِ التّأثيريّ والانفعاليّ ذاته بداخل هذا الكوكب، والشّيء نفسه ينطبق على "الحسابات" أو "الصّفحات" الّتي يَنشرُ فيها أصحابُها صوراً قد لا تكون شخصيّة لهم، ولكنّها بشكل أو بآخر تُمثّلهم من النّاحية الفكريّة والنّفسيّة أيضاً.

وعليه يصبح الفيسبوك وسيلة إبليس والنّفس أيضاً، وإن كانت هذه الثّانية أشدّ خطورة من الأوّل، لأنّ بها قد يتحوّلُ الإنسان نفسه إلى كائن شيطانيّ، وهو ما أشار إليه جلّت قدرته بشياطين الإنس، لأنّ النّفس عندهُم لها صبغة الأمّارة بالسّوء، وهُم أشدّ "شرّاً" وكيداً من شياطين الجنّ أنفسهم، لذا قدّم الله ذكرَهُم وهو بصدد الحديث عنهم في الآية التّالية: ((وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا))(الأنعام: ١١٢).

إبليس والنّفس يتحرّكان معاً في الفيسبوك وغيره من وسائل الانترنيت ومواقعه، الثّانية تسندُ الأوّل، والأوّلُ ينفث في الثّانية، لذا فكلّ ما يُنْشَر على صفحات "المبدعين" هو معروض على ملايين النّفوس، وهو كما يثيرُ فيها الإعجابَ والانبهار فإنّهُ يثيرُ فيها الحسدَ والحسرة، فذاك مثلاً لا يستطيعُ أن يُقيمَ احتفاليّة لكتاب ما من إصداراته، وهذا لا قدرةَ لهُ على نشر كتاب، وذاك لا يعرفُ كتابة نصّ أدبيّ، وآخر ليست له خبرة في الإيقاع بالكاتبات الغافلات، وذاك لا يعرفُ كيفَ يبوح بحبّه لشاعرة ملكت عليه شغاف قلبه وروحه، ولا يهمّ إذا كانت متزوجة أم لا، وتلك لا تستطيع أن تنجب الأطفال وتبكي وتتحسّر في صمت لأنّها ترى صور أطفال زميلتها الكاتبة تملأ كلّ مكان في الفيسبوك، وأخرى لا تستطيع أن تضع صورها الجميلة في صفحتها لأنّ زوجها يمنعها من ذلك، ويهدّدها بالطّلاق إن هي فعلت هذا الأمر، فتتكمشُ على نفسها وفي قلبها غصّة وحرقة، وذاك يبكي جهاراً لأنّه لا يستطيع أن يُصبح شاعراً فذّاً مثل صديقه الّذي تركضُ خلفه

الحسناوات من كلّ صوب وحدب، والآخر يموت حسرة لأنّه لا يستطيع أن يشتري سيارة فارهة مثل الّتي يملكُها فلان أو علّان، وذاك يقضي وقته في مراسلة الصَّبايا وكتابة قصائد الغزل فيهن، وتلك لباسها جميل اشترته من باريس، والأخرى محابسها كبيرة، وأحجارها الكريمة باهظة الثّمن اقتنتها من أرقى الصّاغة بتركيا أو بأصفهان، وتلك موائدُها عامرة بكلّ ما لذّ وطاب من الأكل، وهلمَّ جرّاً من مثل هذه الأشياء الَّتي لا تعدّ ولا تحصى.

لكن من قال إنّ كلّ هذه الأشياء صحيحة أو حقيقيّة؟ الفيسبوك والانترنيت عامة ما هُما سوى وسيلتين تؤسّسَان لعالم الوهم والخيال، وهذه أحبولة أخرى يقعُ فيها النّاس ولا يجدون منها مفرّاً ونجاة، ومن يدقّقِ النّظَرَ سيجدُ أنّ معظم الأشخاص في هذا العالم الرّقميّ ليسوا هم حقيقة كما يظهرون عليه، فذاك "أستاذ" مساعد جامعيّ، ويظهر بجبّة عميد الكلّية ورئيسها، والآخر مُمرّض ويظهر في صورة الطّبيب البروفيسور الجرّاح، والأخرى طالبة تظهر في صورة عميدة الأدب العربيّ تسرقُ من كلّ مبدع قصيدة لتؤلّف ديوانا بل دواوين، وذاك ناشرٌ فاشلٌ يَدّعي المشاركة في المعارض الدَّوليّة، وتكالُبِ الكُتّابِ والأدباءِ على "داره" من كلّ صوبٍ وحدبٍ، وهكذا دواليك من مثل هذه المصائب.

كلّ هذا من أين يأتي؟ من تحالفِ إبليس والنّفس الأمّارة بالسّوء، بل هناك من يصبحُ في الفيسبوك يتحرّكُ مثل الشّيطان نفسهِ مصداقاً لقوله عزّت وجلّت قدرته: ((إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ)) (الأعراف: ٢٧)، أيْ أنّه وإن كانت لديه صفحة أو حساب على هذا الموقع، فإنه لا ينشرُ عليه سوى الجُمل المقتبسة من الفلاسفة والحكماء، ويضع له بعضاً من سور القرآن الكريم، وصور المزارات والمراقد الشَّريفة، ثمَّ يبقى قابعاً يُراقبُ النّاسَ عن بُعد.

ماذا بعد كلّ هذا الخراب؟ لا حلّ إلّا عبر مجاهدة النّفس والشَّيطان معاً، لا سيّما وأنّ المؤمنَ الحقّ يعرفُ جيّداً أنّ نفوذ هذا الأخيرِ ينحصرُ في حدود

التَّشـريع ولا يشـمل التَّكـوين، لأنّـه يـؤثّر فـي مجـال الأفعـال التَّشـريعيّة والتّكليفيّـة وسلطانه محدود بحدود الفكر ولا يشمل الجسدَ: (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (النّحل: ٩٩)، لذا فإنّ العدوّ الأكبر يبقى هو النّفس، وعليه فإذا كان إبليس قد ظهرَ بعِلْمِهِ في الفيسبوك كعارفٍ وساحرٍ كبيرٍ، (وهنا لا يعنيني مارك زوكربيرغ في شيء، لأنّه ما هو سوى وسيلة مثله مثل أيّ شخص آخر)، وألقَى بحباله وعصيّه في هذا المجال، وسَحَرَ أعينَ النّاس، حتّى ليُخيّل لهم أنّهم يستطيعون أن يخلقوا المعجزات فقط من خلال استخدام هذا الموقع وما شابهه، فإنّ علينا نحن أبناء آدم، أن نكون موسى وكذا العصا الّتي تتحوّلُ إلى ثعبان ضخم يبتلعُ كلّ حبال إبليس، لينتصرَ الحقُّ ويزهقَ الباطلُ فينقلبَ هو والنّفسُ صَاغِرَيْنِ.

أمّا عن كيفَ يمكن القيام بذلك، فأوّل خطوة هي شكر الله عزّ وجلّ الَّذي أوحى لإبليس بأن يخترع للإنسان هذه الوسائل المعلوماتيّة الجديدة، ثانياً التماس سبيل الرّشد في طريقة استخدامها عبر السّعي إلى كلّ ما هو حميد وطيّب ويدعو إلى المحبّة والوفاء والوفاق والسَّلام بين بني البشر. مع الحرص على أنَّ توافقَ سريرةُ الإنسانِ ظاهره، وألّا يكون له أكثر من قناع يلبسُه وفقاً لما تمليه عليه ضرورات النّفاق والرِّياء.

ثمّ السّير على نهج العلماء والأخيار من عباد الرّحمن في كلّ العالم، والابتعاد عن لوثة الطّائفيّة والأحقاد الدّينيّة والإيديولوجيّات التّكفيريّة، وما إلى ذلكَ. وبهذا نكون قد نجحنا في إثبات إنسانيتنا، واستطعنا أن نكون حقّا ذاك الإنسان الّذي كرّمه الخالقُ بجمال وبهاء الشّكل والصّورة، وكمال العقل وسموّ العبادة، وحرّيّة الاختيار، واللّجوء إلى الرّحمن في السّرّاء والضّرّاء، والدعاء والقنوت له وحده لا شريك له.

٤١. نلـتِ العديـد مـن الجـوائز، منهـا جـائزة الشِّـعر العـالمي بجزيـرة سـردينيا الإيطاليّـة عـن قصـيدتك "السَّـلطعون النَّاسـك" عـام ٢٠٠٩، مـا رأيـك بـالجوائز وشهادات التَّقدير الَّتي تكرّم المبدعين والمبدعات؟

حينما نلتُ جائزة الشّعر العالميّ بجزيرة سردينيا كنتُ العربيّة والمغربيّة الوحيدة التي كُرّمت مثل هذا التَّكريم، وكان الأمر يستحقُّ حقّاً عناء السّفر والمشاركة والانتقال بعد ذلك من أكثر من مدينة إلى أخرى. إلّا أنّني عموماً، لا تستهويني الجوائز كثيراً إذ أرى أنّها أحيانا قد تُؤذي الأديبَ الجادَّ والملتزمَ أكثر ممّا تنفعه، لأجل هذا أتفادى المشاركة في التّنافس عليها قدر الإمكان، حتّى أحافظ على شفافيّة إسمي الأدبيّ الّذي قضيتُ العمرَ كلّه أحفر في الصّخر من أجل إعلاء صرحه بكلّ صبرٍ وتؤدّة.

أمّا عن الشّهادات التّكريميّة أو التَّقديريّة، فإنّها أصبحتِ اليومَ أمراً يجلبُ العارَ والخِزْيَ لصاحبها، ولنْ أقبلَ أبداً من أيّة جهة ما لم تكن ذات ثقة رفيعة المستوى، كالمؤسّسات الأكاديميّة الحكوميّة المُعترف بها لدى كافّة الجهات الوطنيّة والدّوليّة وبموجب القوانين الرّسميّة، جائزةً أو شهادة تكريميّة ما، بما فيها شهادات الدّكتوراه الفخريّة الّتي أصبحت تُمنَحُ أو تباع كما الطّماطم في سوق الحمقى والمغفّلين.

لقد قضيتُ عمري أدرسُ وأضحّي، وأكافحُ وأصبرُ على عزلة وخلوة العلم والمعرفة، وسافرتُ من وطني الحبيب لأقيم في وطنٍ جديد من أجل أن أطوّر نفسي وأبنيها وأحافظ عليها من كلّ ما قد يسيء إليها، وليس عندي أيّ استعداد لتقبّل هذه المهازل الّتي تحصلُ في أوساط "الأدباء" الّذين يركضون وراء الوهم يُبَرْوِزُونهُ بكلّ صوره وأشكاله ويعلّقونهُ فوق جدران البيوت، يتباهون به بكلّ ما فيهم من جنون عظمة وخبل، ولكأنّهُم مغيّبون في عوالم أخرى ولا ينظرون إلى الأشياء كما هي

حقيقـة! وتناصـرهم وتـؤازرهم فـي هـذا الأمـرِ المؤسّسـاتُ الّتـي تقتـاتُ مـن جهلهـم وغفلتهم.

لقـد قلتُهـا أكثـر مـن مـرّة فـي هـذا الحـوار: إنّنَـا نعـيش فـي زمـن الـوهم والموهومين، فأهلاً وسهلاً بك أيُّها القارئ العزيز في جُزُرِ السّراب وبائعي الأوهام والأحلام.

٤٢. أعددت رسالة الدكتوراه: عن الحداثة في المغرب، من التَّاريخ إلى الأدب: محمَّد بنِّيس أنموذجاً للدراسة والتَّحليل، ما هي أهم تجلّيات الإبداع الَّتي يتميّز بها الشَّاعر المغربي محمَّد بنّيس؟

وهذه أنـتِ يـا جزيـرةَ الشّـمسِ، مازلـتِ كمـا عرفتُـكِ ذاتَ آب، حينمـا قدمتُ إليكِ من بلاد الأتقياء والأولياء، وفي اليد حقائبُ، وبالقلبِ أحلامٌ وأماني ورسائلُ. إنّـكِ أنـتِ أنـتِ، مُذْ رأيتُـكِ لأوّل وهلـةٍ تفتحـينَ لـي ذراعيْـكِ بكـلّ مـا فـي الأمّهـاتِ العاشقاتِ من دفءٍ وحنان. وكيف لا تكونين كذلكَ وبكِ جعلتُ من الفِكر محراباً لا تؤمُّه سوى كواكبُ الحرفِ المتلألئة بشموع العشق والمحبّة، والقادمة من سماوات الألقِ والزخّ النّاريّ؟! كواكب فيها مَنْ شربَ لبنَ النُّبْل والشّهامة من ضرع بلادي، وفيهـا مـن كحّـل عينيْـه بنـور سراجها الوهّـاج، وفيهـا أيضـاً مـن تعمّـد بمـاء دجلـة والفرات، ومن غطس في أردنّ الخير والعطاء، وفيها منْ يُجيدُ الحديثَ إلى البدر المستقرّ في عمق السّماء، ويعرفُ كيفَ يرحلُ بصحبته إلى شعراء العهود الغابرة والحقب الآتيـة، يُكلّمُهـم ويناجيهم، ويبثّهم بعضـاً مـن أحزانـه، وفـي القلبِ آهـاتٌ، وبالصّدر تعلو حسراتٌ، وذاك هو قطرسُ فاس، محمّداً بنيس. وإنّي لأعلمُ جيّداً يا جزيرة الشّمسِ، يا أمّي الرّؤوم أنّكِ تعرفينَهُ كما تعرفين كلّ حرف وُلدَ وترعرعَ بين أحضـانكِ؛ فكمـا عـانقْتِنِي عانقْتِيـهِ، وكمـا بُحْـتِ لـي بـالكثير مِنْ أسرارِكِ، بُحْـتِ لـهُ

ببعضِها، وكما دَلَلْتِني عليه، دللتِهِ عليّ، وكان لندائكِ لهُ، صدىً ردَّدَتْهُ الجبالُ بين بلرم وكتانيا وسيراكوزا، وبين المحمّديّة والرّباط ومراكش وفاس.

وكم مِنْ مرّةٍ جاءَكِ حاجّاً زائراً وبالفؤاد قصائدُ وشموع وأزهار، وكم مرّة قرأتُه من ديوانه (هناك تبقى) إلى (شطحات لمنتصف النّهار) ووصولاً عند (شيء عن الاضطهاد والفرح). لكنَّكِ قلتِ لي بصوتكِ الحنون إنّ كلّ ما قرأتُه في كهف حرفه الغزير غير كاف، وقلتِ أيضاً إنّهُ قد حانَ الوقتُ ليلتقيَ القُطْبان. وذهبتُ وبين يديّ (كتابُ الحبّ)؛ ديوانَه الشِّعْريُّ الّذي قال فيه: ((أنا لا أنا، أنا الأندلسيُّ المُقيم بين لذائذ الوصل، وحشرجات البين، أنا الظّاهريّ القرطبيّ، أنا الّذي رُبّيتُ بين حجور النّساء، بين أيديهن نشأتُ، وهنّ اللّواتي علّمنني الشّعرَ والخطَّ والقرآن، ومن أسرارهنّ علمتُ ما لا يكاد يعلمه غيري، أنا الّذي يقول: الموتُ أسهل من الفراق، هذه شريعتي)). نعم، تلكَ شريعتُه، ولقد خبرتُها جيّداً حينما حزمتُ وزوجيَ الحبيب حقائبَنا وذهبنا إلى مغربِنا نُجدّدُ معهُ العهدَ، كما يفعلُ الأبدالُ تحتَ شجرةِ الشِّعر، لأنّنا منْها دخلنا إلى بيت الدّكتور محمّد. وأذكرُ أنّ في تلك الفترة كان الزّمانُ ما بعد عيد الأضحى مباشرةً، وكان الجوُّ ماطراً بغزارة الحرف النّقيّ البهيّ. وحينما رأيناه ينتظرُنا بالقرب من محطّة القطار بالمحمّديّة، هتفتُ قائلةً: إنّنا سفراء جزيرة الشّمس إليكَ. وكنتُ أعني ذلكَ تماماً، لأنّني جئتُهُ في مهمّة أكاديميّة رسميّة كلّفتني بها كلّيّة الآداب والفلسفة بمدينة بلرم، على إثر الأبحاثِ الّتي كنتُ أقوم بها عن الشّعر والحداثة في المغرب، والّتي كانت في الوقت ذاتهِ مِحور أطروحتي لنيل شهادة الدّكتوراه بجامعة المعرفة فيما بعد بالعاصمة روما.

وحينما وصلنَا بيتَه المُزْهِر بالسّلام والأمان كان قد باركنَا المطرُ جميعاً بقطرات التّرحيب والصّفاء، وكان أوّل ما استلمتُ منهُ مُجلّد (الشّعراء) الصّادر سنة ٢٠٠٦ عن المركز الثّقافي الفلسطينيّ ((بيت الشّعر))، والمُخصّص لتجربته الأدبيّة

الّتي كتب عنها العديد من أعلام الأدب العربيّ والعالميّ أمثال قاسم حداد، وبرنار نويل، ومحمد لطفي اليوسفي، وعبد العزيز المقالح وفرنشيسكا كورّاو.

وفي تلك اللّحظة وبينما كنتُ أحيّي الكتابَ، وأحاولُ الوقوفَ عند عتبته، إذا بي أشعرُ أنّ بلدي الحبيبَ كلّه قدِ ابتسمَ لي، وقام واقفاً ليطبع فوقَ جبيني قُبْلةَ العيد. نعم، لقد كان مجلّدُ (الشّعراء)، هدية عيد الأضحى الّتي تنسّمتُ فيها عطر الوطن الغالي، وبها سمعتُ فاس وهي تحدّثني بأبجديّة الأنقياء، وتدلّني على الكُتّابِ الّذي كان يذهبُ إليه محمّد طفلاً ليتعلّم أسرار الحرف وآياته الكبرى، وكذا على أساتذتِه الأوائل بدءاً من محمّد أبو عسل، وخناتة بنونة، ثمّ وصولاً إلى أصحاب الدّرب الطّويل كمحمّد الخمّار الكنوني، وأدونيس الّذي نشرَ لهُ قصائده الأولى في مجلّة (مواقف) سنة ١٩٦٩.

وبينما كنتُ أصيخ السّمع إلى فاس بكلّ ما فيّ من خشوع وعبادة، إذا بي أراها وشقيقتها المحمّديّة، تتوقّفانِ عند أوّل مجلّة أسّسَها محمّد بنّيس، وهي ((الثّقافة الجديدة)) الّتي لعبتْ دوراً رياديّاً في الحياة الثّقافيّة المغربيّة، لأنّها كانت من أهمّ المجلّات الّتي عرفت كيف تبتعدُ بما هو ثقافيّ عن كلّ ماهو سياسيّ، وبدأتْ تنشرُ آنذاكَ أعمالاً جديدة على ذائقة القارئ المغربيّ، وخاصّة تلك الّتي كانت للعديد من الشّكلانيين الرّوس، وفلاسفة البنيويّة الفرنسيّة. إلّا أنّ المجلّة لم تدم طويلاً، وتمّ إيقافها في ٤ كانون الثّاني ١٩٨٤، على إثر الإضراب العامّ الّذي شنّته قطاعات واسعة من المجتمع المغربيّ وما تبع ذلك من أحداث دامية واعتقالات.

لمْ تنسَ فاسُ، والمحمّديّةُ وهُما تبوحانِ لي بتفاصيل حكاية ((الثّقافة الجديدة))، أن تُعطياني (المكان الوثنيّ)؛ ديواناً آخر لأقرأ به وجهَ محمّد كما يفعل النّاسكُ مع الصّحراء، وهو يحاولُ فكَّ طلاسم كهوفها وصخورها ونخيلها، وواحاتها الّتي انحسر عنها الماءُ تاركاً خلفه شقوق الوحشة والعطش. إذ لولاه لما رأيتُ ذاك الشّحوبَ الّذي يعلو محيّا الأديبِ محمّد، وما يصحبه من صفرةٍ مضيئةٍ كنتُ أعرف

جيّداً سببَها، لأنّها تشبهُ صفرة من يدخلُ كهف القلب لينحتَ فوق صخرته قبّتَه المقدّسة، ويجعلَ منه كعبته الّتي لا يطوفُ بها حاجّ سواه، ولا يشاركهُ في محبّة الحرف وكشوفاته بداخلها أحد.

وهذا كلّه وإن كان يجلبُ السّعادة لمحمَّد بنّيس، فإنّه كثيراً ما كان يثيرُ حسد الأغيار وكراهيّة مَن حوله ممّن أصبح لا همّ لهُ سوى الكيدِ، ومحاولة النَّيل منه ومن نقاء وبهاء يراعه، كما يبدو جليّاً هنا بهذا الجزء من نصّ لهُ أحفظه عن ظهر غيبٍ، يقولُ فيه: ((فجأةً حدث ما لم أكن أنتظره أو أظنّه. إنّه الرّمزُ الّذي يتحوّل إلى سيّد. ناطق بالحقيقة. كاملة. خالصة. آمرة. فاعلة. السَّيّد الرّمز. الشّابُّ السِّياسيّ أصبحَ مالكاً للحقيقة. حتّى أولئك الّذين لم يفلحوا في تكوين أنفسهم ثقافة عامّة. أوليّة. أصبحوا مالكين لحقيقة كلّ شيء. ومن عذابه يُقبِل علينا العذاب. هو الآمرُ به. المحرّض عليه.

أصبح السيّدُ الرّمزُ يُفتي في الشّعر والقصّة والرِّواية والنّقد والفنون والفكر والتَّاريخ والعلم والحبّ واللِّباس والصّداقات. في كلّ شيء. وعليكَ الطّاعة. أنا لا أحسنُ الطّاعة على الدَّوام. متشبّهاً بخياله المريض عن ماركس وإنجلز ولينين. يضعُ الخطاطات اللّازمة للمعرفة الكلِّية. الشَّاملة ويأمركَ. بل لا يسمح لكَ بالكلام. أمامه أو خارج الأمر. كلّما حرصتَ على مساندته، عظُمتْ عبوديتك.

لم أقبل عبوديّة لأكون عبداً. والتّساؤل يتّضح عن صناعة الرّمز في وطني. الرَّمز السّياسيّ. من الخالقُ للرّمز؟ عتبة الاعتقال أم غير المعتقَل؟ سؤال وسؤال. ولم يكن لي من القوّة ما أعلن به عن الاختلاف. والتّعامل معه كإنسان أولاً. أقاسمه العذاب. إنساناً لا سيّداً. وهو لا يعبأ بحرصي على حلمنا معاً. على ضحكاتنا الّتي كانت تتخلّل الكلمات. إنّه السَّيّد. وعليّ أن أفهم ذلك.

قول ((لا)) كان تأكيداً على حرّيتي. في الجحيم الثّالثة. حيث أصبحتُ محاكماً من طرف أقرب الأصدقاء. لمجرد أنّي ملازم لحرّيتي. وحرّية الكتابة. لمجرّد

أنّـي أتأمّل الثّقافة المغربيّـة والعربيّـة مـن مكـان آخـر. لا يدركـه حتمـاً. بينـي وبينك الزّمنُ. يا من كنتَ صديقاً وفضّلتَ استعبادي. إلى الجحيم الثّالثة ألقيتَ بـي. ليزداد السّعير. وأختبرَ مستحيل الشّعر، من مكان آخر)).

ومـا أشبه الماضـي بالحاضـر القريب، وكـأنّ شيئاً لـم يتغيّر، وظـلّ محمَّد بنّيس يعاني في صمتٍ صوفيّ مرير إلـى أن كتبَ وبعد مضـيّ أربعة عشر عاماً، رسالة وجّهها هذه المرّة إلى رئيس بيت الشّعر في المغرب –آنذاك– نجيب خداري وكانت بعنوان (الخوف من المعنى)، وفيها يسائلُهُ عن السّبب الّذي يدفعه وأصدقاءه إلـى الاستمرار فـي التّشطيب علـى اسمه وأعمالـه مـن أنشطة وخطابـات ومنشورات «بيـت الشّـعر فـي المغرب»؟ حتّـى لكـأنّ الأمـر كـان فيـه حكمـاً بالإعـدام المـدنيّ، أصدرهُ بحقّه حسن نجمي، بدون سند قانونيّ أو أخلاقـيّ، أو وثيقة رسميّة بخطّ يده أو بإمضائه تثبت أن محمّداً قد سحب عضويّته من «بيت الشّعر في المغرب»!

الشّـعر هـو هـذا المكـان الـوثنيّ الممتلـئ بالصُّـخور والأحجـار، الّتـي تتنظـر صـعود بحـر الكلمـة مـن مغارتهـا لتحشـر هـدأة الغنبـاز فـي رحـم الأبجديـة الأبديّـة، وكيف لا يكونُ كذلك ومحمّد نفسه يقول: ((رملٌ / هنالكَ يستوي تلّاً / أحدّدُ شكله بفراغـهِ / دِمليـجُ سيّدةٍ / يُواصـلُ حـدّة اللّمعـانِ/ بـين حجـارةٍ / وحجـارةٍ / صـرخاتُ أطفالٍ / تردّدُ / رقصة الموتى)).

قليلون هُم، أولئك الَّذين يحفرون في صخر الحرف بكلّ تؤدّة وصبر وحِلم، ومحمَّد بنّيس واحد منهم، وإلّا لمـا كانـت نادتـهُ مـن عمق أعمـاق محيطـات الشّـعر جزيرةُ الشّمس صقلّية، لتطلعه على فوّهة إتنـا المهيب؛ بركـانَ كتانيا وبوَّابـة الجحيم. هكذا يسمّونه عرفاء صقليّة، لأنهم يعلمون أنّ هذا الجبل الحيّ الغاضب باستمرار، ما هو سوى مدخلٍ من أشهر مداخل الأرض وبوَّاباتها إلى عالم الأموات، وكيف لا يكون كذلك وجزيرة صقليّة بأسرها، –كما قال عنها الأنتروبولوجي الصّقليّ دجوزيبه بيتري (١٨٤١–١٩١٦)–، هي المكان الّذي اختاره إبليسُ لتكون مقرّاً لمملكته، وهو

القول الّذي يجدُ ما يؤكّده في القصص الوسيطيّة الّتي تؤرّخ لما كان أهلُ مدينة البركان ينعتونه بشيطان الظّهيرة؛ الشّابّ الملِكُ السّاحر الجميلُ، الّذي كان لا يظهر إلّا كلّما انتصف النّهار، أيْ كلّما دقّت السّاعةُ معلنةً الثّانية عشر ظهراً بالتّمام والكمال، وذلك تلبية منه لرغبة بعض حسناوات مدينة كتانيا اللّائي على الرّغم من خوفهنّ الشّديد منه، إلّا أنّهنّ كنَّ يبحثن عنه لجماله الأخّاذ، وسلطانه الّذي كان يزيد من اشتعال الرّغبة والشّهوة المتأججة في صدورهنّ.

هو هذا عالم الأموات في صقليّة، وهو أكثر حياة من عالم الأحياء أنفسهم، ولا تجدُ ركناً من أركان هذه الجزيرة إلّا وفيه احتفال باذخ بالموت والموتى، بدءاً من المتاحفِ الّتي يُعَدُّ متحف مدينة بلرم أو باليرمو أشهرها، وصولاً إلى الكنائس الّتي تكادُ لا تخلو واحدة منها من رفات القدّيسين وكبار شيوخ اللّاهوت الكاثوليكيّ. أمّا المقابر فحدّث ولا حرج، إذا ما دخلتها انتابك شعور بأنّك في حدائق خضراء غنّاءة تُدْخِلُ البهجةَ والسُّرور على زائريها، لما فيها من مظاهر تدعو إلى الفرح بما في ذلك الورود المنتشرة في كلّ مكان، والمنحوتات الفنِّيّة الجميلة الَّتي غالباً ما تُجسِّد الحضور الملائكيّ لكلّ من جبريل وميكال وعزرائيل عليهم جميعاً أفضل السَّلام. فبالموت قهرَ أبناءُ جزيرة الشّمس الموتَ، وبه زرعوا بذور المحبّة وهُم يعلون صَرْحَيِ القدّيسيْن؛ روزاليا وبينيديتّو المورو، شفيعيْ مدينة باليرمو. روزاليا، السَّيّدة الَّتي كلّما تطلّعتُ إلى محيّاها البهيّ، تذكَّرتُ سيّدة أخرى بها دخل محمّد بنّيس إلى عالم الموت والموتى، وتعلّمَ كيف بالموت يلجُ إلى ملكوت الأبديّة، وقد قال فيها دون أن يذكر اسمها أبداً، وهو واقفاً يناديها من جبال المغرب الأطلسيّ، بالضّبط كما وقفَ بعد سنين طويلة على جبل إتنا الصّقلّيّ العجيب: ((غريبة أنت أيَّتها السَّيِّدة! من أوصاني بالصّمت في حضرتك؟ من ثبّت في صدري ألفةً لمْ يهجم عليّ فيها أيّ بكاء؟ من وجّه عينيّ إلى دم هو لي مسكن به أقاوم كلّ

دم؟ ولكن من أين تأتيني كلّ هذه الأسئلة على الأطلسيّ في منتصف النّهار؟ ألأنّ القربَ منك أصبح شفّافاً أم لأنّ النّداءَ هو النّداء، في اللّيل والنّهار؟)).

إنّها الأسئلةُ الّتي لا تأتي إلّا إذا ما دخل المسافرُ عوالمَ الموت، وبحثَ فيها عن رمسه كما يبحثُ عن الوردة والشّمعة والقلم، فالقبور لا تُفزِع، ولا الموتى، لأنّكَ فقط أيّها القارئ العزيز حينما ستجدُ قبركَ، سيصبحُ بصرُكَ حديداً، وسترى جيّداً أنّ النّاسَ، كلّ النّاس موتى وإن لم يدفنوا بعد، وستبتسمُ طويلاً لأنّك ستسمع كلّ واحد منهم وهو ينشد أغنيتَه الخاصّة والحميميّة جدّاً، في البرد كما في الدّفء، وفي تلك اللّحظة فقط، عليك أن تنتبه وتستيقظ لتضع جثّتكَ أمامكَ وتصلّي عليها صلاة المحبّة والوداعة والجمال، لتولد طفلاً بهيّاً ينظرُ إلى جبل النّور، هناك حيثُ تنبُتُ سدرة منتهاك، بالضّبط كما قال محمّد بنّيس وهو يُحدّق ذات موت في قبره جيّداً: ((بين استوائي ميّتاً وبين الدّفن تكمنُ الأسرارُ. أسراري. وأسرارُ موتي. وأنا في الحقيقة مهووس بهذه المسافة القصيرة الّتي أصبحتُ أمجّدها. إنّها المسافة الوحيدة الّتي يمكنني التَّعرّفُ عليها. كما تعرّفتُ ذات يوم على جثّتي مستلقيةً على سطحٍ مستوٍ تماماً. تنتفي عنه صفات اللّيونة والخشونة. مستوٍ. لأنّ جثّتي ملقاة على الظّهر. وعمودي الفقري مثبّت إلى الأرض... تلك الأسرار أسراري أنا. ولن يطّلع عليها أحد. في اللّمعة الأولى للغلس، أشرع في تنميقها على طريقتي الخاصّة، مستحضراً أجمل أبيات الشّعر الّتي كنتُ حفظتُها عن ظهر قلب لتكون زادي وعوني في وضع الخطابات المهيّجة لأسراري. إنّني ولا غرابة في ذلك، وضعتُ جغرافيّة للدّفن. تلك المسافة. الأسرارُ تعني أنّني أميلُ إلى طقوس كونيّة. سأكون مفترياً لو قلتُ كم من وقت سيستغرقُ تنفيذها. وهو ما شرعتُ فيه منذ أن لمستُ جلد جبهتي فوجدته بارداً. وتأكّدتُ عندئذ أنّني ميّتٌ. ولا سبيل إلى التّراجع عن الموتِ. فنحنُ في الموت. دائماً. هكذا. حتّى لو تخيّلنا أنّ الأمر مجرّد مزحة)).

٤٣. في عام ٢٠١٢ نقَلْتِ إلى اللّغة الإيطالية باقةً من النّصوص القصصيّة هي (العودة حقّ: من شباب فلسطين إلى شباب العالم)، هل يمكنكِ أن تُحدّثي قرّاءكِ الكرام عن هذه التّجربة الفريدة، لا سيّما وأنّ مُؤلّفي النّصوص هُم مجموعة من الأطفال الّذين بهروا الجمهور ببراعتهم السّرديّة وذكائهم الخلّاق بشكل منقطع النّظير؟!

هذا الكتاب هو ثمرة النُّصوص الفائزة بجوائز مسابقة القصّة القصيرة الّتي نظَّمَتْها سنة ٢٠١١ "جمعيّة القلم" الخيريّة تحت شعار "من شباب فلسطين إلى شباب العالم"، وذلك رغبة من رئيسها الدّكتور عبد السّلام خرما في تحفيز الأقلام الشَّابة الفلسطينيّة على التّواصل عبر الكلمة مع أصدقائهم وزملائهم في كلِّ أنحاء العالم بمن فيهم المقيمين والمتولِّدين بالدِّيار الإيطاليّة من أجل الكتابة لهم والحديث معهم عن "فلسطين" الأرض والوطن، وعن "فلسطين" الأمّ والحبيبة والجدّ والجدّة.

بعد الإعلان عن المسابقة توصَّلت الجمعيّة بما يناهز الثّلاثمائة وخمسين قصّة قرأتها اللّجنة المختصّة وانتقَت من بينها في المرحلة النّهائيّة أحد عشر نصّاً. ثمّ تلا ذلك، تكريم وتسليم الجوائز للبراعم الكتّاب الفائزين في حفل راق أقيم بدمشق في المركز الثّقافي العربي بمخيَّم اليرموك. تسعة من بين الفائزين هم أطفال، وأصغرهم لا يتجاوز الإحدى عشر سنة، الشَّيء الَّذي يعني أنَّنا أمام نصوص مختلفة ومتميّزة يستعصي إدراجها أو تصنيفها تحت أيّ مسمّى أدبيّ خاص بالأطفال وسبب الاستعصاء هذا بسيط: نحن لسنا أمام أطفال بل أمام أساتذة اختاروا أن يقدّموا أنفسهم للقارئ في هيئة تلامذة مبتدئين.

قديماً كان اللّاتينيّون يربطون مصطلح "الطّفولة" بعبارة "المتحدِّث الفصيح البليغ" أمّا الإغريقيّون فكانوا يربطون هذه العبارة بمصطلح "النَّبيّ" أو الشَّخص الّذي يتحدَّث باسم كينونة أخرى أكثر سموّاً وشفافيِّةً، وهما معاً على حقّ، خاصّة وأنّنا في مجموعتنا القصصيّة هذه نقف أمام أحد عشر تلميذاً، يتحدَّثون جميعهم بِاسم شعب

كامل، وبشكلٍ مدهش لا من حيث الفصاحة ولا من حيث البلاغة والبيان ممّا جعلهم قادرين على أن يفجّروا بين حروف وكلمات قصصهم سؤالاً تضرب مطارقه بإلحاح: "هل حقّا هُم من كتبوا قصصاً بهذه الرَّوعة والبيان كقصّة "كرم التِّين" و"سأظلُّ أنتظرك" و"ليمونة وأنا"؟".

صحيح أن كتّابنا صغار، إلّا أنّه صحيح أيضاً أن العُمر هنا ما هو إلّا صوريّ، لأنَّ الكُتّاب الفائزين أثبتوا لنا جميعا أنّهم أقلام توحّدها روح معلّم واحد قادم من أرض أسموها جميعاً بـ"جنّة عدن". فهُم لا يستطيعون أن يتحدّثوا للعالم بأسره إلّا عن الجنّة، لأنّ عيونهم لا ترى في هذه الحياة سواها حتّى وإن كان العالم من حولهم محاطاً بالقبح والشرّ، ولا شيء يريدون من الحياة سوى العودة إلى جنّتهم: إلى كروم التّين والعنب واللَّيمون والزَّيتون، لأنّهم وبالرّغم من عدم ولادتهم هناك فإنّهم سكنوا منذ القدم هذه الجنّة عبر أرواح الآباء والأجداد وذكرياتهم الّتي تركوها هناك. جنّة هؤلاء الأطفال هي فلسطين وهي القدس المُوحِّدة والمؤمنة بالله وهم في هذه النّصوص أصبحوا كمثل عود اجتُثَّ جذره من أعماق حقل القصب الكبير فأصبح بعد مرور سنين الهجر والحرمان ناياً حزيناً يغنّي لأرضه البعيدة، فهل تسمع أنت أيضاً أيُّها القارئ لحنه الحزين السَّعيد ونغمه الثَّمل اليقظ في الوقت ذاته؟ هل تقرأ بين سطور الإحدى عشر حكاية هذه المعزوفات الَّتي تروي قصّة نفي هذا النَّاي؟ فقط من اكتوى بنار العشق ونار الحرمان من حبيب الرّوح، يمكنه أن يفهم المعنى الحقيقيّ لألم الشَّوق لتوأم الرُّوح والقلب المغرق في البعد والاستحالة، لأجل هذا فإنَّ أنين هؤلاء الأطفال والشَّباب ليس مجرّد ريح تخرج من ثقوب ناي بسيط ولكنّها نار متوهِّجة داخل قلوب أطفال يتوشَّحون بالنّطق والصَّمت، أطفال كلمتهم من مصل ودم.

قد يبدو في الحديث عن المعلّم في ثوب تلميذ مبتدئ نوعاً من الاستفزاز لمشاعر البعض، لكن لا مفرّ لنا من حقيقة تاريخيّة كبرى حدَّثتنا عنها جميع الكتب

المقدّسة: الأطفال هم كبار معلّمي الإنسانيّة وشموعها المستنيرة، بل أنبياؤها مذ كانوا في المهد رضّعاً، ولا أحد من البالغين أو الرَّاشدين يمكنه أن ينازعهم في ذلك: الأطفال هم من أثبتوا عبر الزّمن والتَّاريخ أنَّ لهم القدرة على قول كلمة الحق في المكان والزّمان المناسب. مع فارق بسيط جدّاً، فأطفال هذه القصص ليسوا أنبياء يروون لنا حكايات من الكتب المقدّسة ولكنّهم أطفال بسطاء اختاروا بوعي عميق، وجدّيّة كبيرة أن يكتبوا لأصدقائهم في كلّ العالم عن فلسطين أرضهم الأمّ.

حتّى من النّاحية التّقنيّة الأدبيّة لم يتوانَ الكُتّاب الصِّغار منهم أو الشَّباب عن إدهاشنا ببراعتهم في نسج خيوط نصوصهم وفق ما سطّرته أصول النّقد العربيّ الخاصّة بالقصّة القصيرة، ولا أدلّ على هذا من قدرتهم على تحديد ميكانيزمات الكتابة الأدبيّة لنصٍّ قصصيّ ناجح معتمدين في هذا على تفادي ما قد يبدو نوعاً من الحشو أو الإطناب في طريقة السّرد، مدركين في الوقت ذاته بأنّ القصّة القصيرة بخلاف الرِّواية لا تتوفَّر على المساحة الكافية للتطرُّق بشكلٍ مسهب وطويل إلى كافّة المواضيع والتَّفاصيل والحيثيات.

في هذه المجموعة لم يركّز الكتّاب على مفهوم تزويد القارئ بأقصى كمّ من المعلومات، لأنّ هدفهم الأساس لم يكن الإخبار السَّرديّ ولكن التَّشويق والإمتاع مع الرّغبة في إدخال القارئ إلى عوالمهم الخضراء وحقولها وكرومها وطيورها ومفاتيحها وعبير ورودها وقهوتها وبخورها، بشكل يجعل من المتلقّي عند نهاية الرّحلة يتساءل في حيرة: "ترى ما الَّذي أراد أن يوصله إليّ كلّ كاتب من كتَّاب نصوص هذه المجموعة؟"

الجواب واحد: بغضّ النَّظر عن الوظيفة النَّفسيّة العلاجيّة لعمليّة الحكي والتَّنفيس عن الألم والتَّخلص من المشاعر السّلبيّة وعوارض الحزن والغضب فإنّ الكُتّاب البراعم من خلال نصوصهم هذه أرادوا أن يوصلوا لقرّائهم رسالة عالميّة قيمتها وأساسها السَّلام، هذا السَّلام الَّذي يتصوَّرون من خلاله شكلاً جديداً لعيش

النَّاس بأرض فلسطين، شكلاً يقوم على الانسجام والتَّصالح والتَّسامح بين كافّة أبناء الدِّيانات السَّماويّة الثَّلاثة يهوداً كانوا أو مسيحيين أو مسلمين كما توضّحه هذه الأجزاء المقتبسة من نصَيّ سلاف المصلح وميس الكبرا: "كان أبي أمِّيّاً و لكنّه كان فطيناً كأمِّه وجميلاً كأبيه، كان يحبُّ الحياة، كيف لا وقد ولد قرب النّهر. أبي لا يعرف أنّه ولد قرب نهر الأردن في الزّاوية الّتي تتجمَّع فيها مصائر ثلاث دول ولدت على عجل كالفطر. أبي لا يعرف سرّ المعموديّة. فهو ليس مسيحيّاً، ولكنّه يعرف بطبعه طعم نباتات الأرض. ويعرف أيضاً كيف يسوق الأغنام إلى المرعى، كما يعرف كيف يميِّز مشية الضَّبع قرب ظلال القصب، ويعرف كيف يهزمه. إنّه يعرف كيف يصل إلى مضارب البدو فهو واحد منهم، ويعرف بعض أسماء النُّجوم وبعضاً من حكاياتها. إنّه يعرف كيف يصنع القهوة وهذا أعظم ما فيه وأعظم ما في الحكاية. كان أبي أمِّيّاً ولكن لم يكُنْ غبيّاً. كان يعيش على الأرض ولم يكُنْ يسبح في الفضاء كما يدَّعون. كان يملك الأرض بقلب ثقيل كالجبال، ألمْ يعبر النّهر كما فعل السَّيِّد المسيح ولم يغرق، مع أنّه لم يكُنْ مسيحيّاً ولم يعرف ما هي المسيحيّة؟ ولم يكُنْ أيضاً يهوديّاً" (نصّ سلاف المصلح).

"ترجع وكما كنّا نعيش – كما قلت – مسلمين ومسيحيين، ممكن أن نعيش مسلمين ومسيحيِّين ويهود إذا قبلوا..... أتمنَّى يا جدَّتي أن يعمّ السَّلام العالم وأن تسود القوانين والدّساتير وأن تفرش الدِّيمقراطيّات والحرّيات أجنحتها وكأنَّ سكّان الأرض سكّان قرية واحدة، بعدها نتخلَّص من الحروب ومآسيها، نتخلّص من القتل الَّذي نشاهده على شاشات التّلفزيون الّذي يبدو أنّه أصبح عنوان حياتنا هذه. ننام على القتل ونستيقظ على القتل. حرام يا جدّتي أن تراق الدّماء ويسقط الضّحايا وتموت الأرواح البريئة" (نصّ ميس الكبرا).

كم يبدو أمراً صعباً ومستعصياً على البالغين الكبار الرّاشدين أن يتحدَّثوا عن السَّلام، وإذا ما حدث ووجدوا أنفسهم مضطرّين لمناقشة هذا السَّلام فإنَّ وجه

سلامهم يكون دائماً محفوراً بتجاعيد المصالح الماديّة لا أقلّ ولا أكثر، لكن حينما يكون المرء ممّن يتمتَّع بروح طفوليّة وبقلب لم ينَل منه صدأ تجارب الحياة القطرانيّة، فإنَّ أوّل ما سيكتشفه بأنَّ لا أحد سواه، ذاك المعلم الدَّاخلي الَّذي يهمس بقلوب الصِّغار ويوحي لهم بالكلمة الحق في المكان والزّمن الحق. علينا إذن أن نعمل جاهدين من أجل استرجاع طفولتنا الرُّوحية الأمّ، وأن نعي بأنّه كي نحقِّق هذا علينا أن نُعلّم عقولنا معنى التَّواضع وانكسار الأنا والغرور.

لن تتوقَّف معاناتك أيُّها الإنسان إلَّا إذا كنت طفلاً من الدَّاخل فوحدهم الأطفال المُعلّمون ينسون سريعاً آلامهم ومآسيهم ويعودون إلى ألعابهم وأفراحهم وضحكهم وضجيجهم، بل إلى شجاعتهم في الحلم بالمستحيل، الحلم بامتلاك القمر أو الشَّمس، مخرجين كما يفعل الرَّضيع الخنصر كي يدخلونه وسط قبضة أيادينا وكأنّهم الخالق بجلال قدسه الَّذي يتواضع بمحبّة عميقة ويمدّ إلينا يده كي نسمع كلمته ويملك بها قلوبنا إلى أبد الآبدين.

٤٤. صدرت عام ٢٠١٦ عن دار الفرات للثقافة والإعلام مجموعتُكِ القصصيّة (أنا رع)، تحدّثي عن هذا الإصدار القصصيّ؟

كلّما وقفتُ عند عتبة كتاب جديد لي، تبادرت إلى ذهني العديد من الأسئلة من قبيل، لماذا هذا العمل وكيف ولمن أوجّهه؟ وعليه فإن هذه المجموعة القصصيّة الجديدة تتطلَّب هي الأخرى الجواب عن هذه الأسئلة الَّتي قد تكون أسئلة المتلقّي أيضاً. أمّا وعن لماذا (أنا رع)؟ فالجواب يوجد في طيّات العنوان نفسه، فرَعْ هنا ليس فقطْ بطلاً من أبطال إحدى قصص المجموعة، وإنَّما هو حبل متين يجمع بين كلِّ جزء من أجزائها مهما تنوَّعت واختلفت شخصيَّاتها والأماكن الَّتي تتحرَّك فيها رفقة الأنا السَّرديّ الَّذي لا يفارقها ولو للحظة واحدة.

وبقدر ما يكون رَعْ إله الشَّمس العظيم، وفقاً لما ترويه الأساطير الفرعونيّة القديمة، فإنّه هنا مرادف لانبعاث الأنا السَّرْدي من ركام الذّكريات المحكيّة، ليصل

بشخصيّة الرَّاوي إلى مدارج السُّمو والرّقي، عبر عمليّة التَّحرر من كلّ تفاصيل الحياة اليوميّة سواء كانت مدوّنة في قالب سردي ذاتيّ واقعي، أو في آخرَ خياليّ، أو في ثالث يجمع بين العنصرين معاً، ليصبح السّرد مزيجاً بين ما هو ذاتيّ وما هو خياليّ غرائبيّ، وبين ما هو واقعيّ سحريّ.

تتكوَّن هذه المجموعة القصصيّة من نصوص سرديّة يفوق عددها الثَّلاثين موزّعة على خمسة فصول، كتبتها كاملة خلال عشر سنوات مضت، ومعظمها ذات طابع تعليمي بيداغوجي محض، انطلاقاً من كون رع السَّيِّد الكبير العارف، هو مربّي الإنسانيّة الأوّل والسّاهر على تكوين ملامح شخصيّتها في كافّة مجالات العلوم والمعرفة. وبما أنّ كل إنسان هو مُزوّد بحضور رمزيّ لشمس رع الحمراء بداخله، فإنّ كلاًّ منّا يناله نصيب من أنوارها وعطاياها كلّما نزلت بقاربها لتعبُر أنهارنا الدّاخليّة وتربّت على أكتافنا بيد من محبّة وعطف وحنان، يد هي قبل هذا وذاك بلسم فيه شفاء للناس من كلّ علّة وداء، وذلك لأنّها حينما تدخل مصْرَ البدن تطهرّه من كل درن أو رجس، وترفعه إلى قُدْس الرُّوح، وتفيض عليه بعد ذلك بأنهار وعيون من العلوم الصَّافية والنَّقيّة. وهذه العيون غالباً ما تكون مؤيّدة بقوّة وعِلْمٍ خاصّيْن.

لكنّ نفس الإنسان كالحيّة لا تثبتُ على مقام واحد، ولا على عطايا رعْ وإن كثرت، وغالباً ما تسعى إلى طلب المزيد ثمَّ المزيد، وقد يصلُ بها الأمر أن تؤثّر عبر قوّة الإلحاح الشَّديد حتّى على القلب، فيصبحُ كلامُها كلامهُ، ومطالبُها مطالبُه. وحينما يحدثُ هذا، يقع الهبوط مباشرة إلى أرض البدن، وبدل المنّ والسَّلوى يكتفي العقل والقلب معا بالبقل والقثاء والفوم والعدس، كناية عن العلوم الدّنيويّة. ولا يدري الإنسان كم من السِّنين تدوم حياته وهو على عتبة هذا النَّوع من العلوم وغيرها مما يشابهها، إلّا أنّه قد يحدث أن يحنّ القلب إلى زمن الصَّفاء والنّقاء الَّذي لا يشوبه شيء، لأنّه مجبول بالفطرة على قوّة الاتصال بصاحب العرش والشَّمس والسَّفينة،

وكذا بعقول الأجداد والأولياء الصَّالحين، وبدل أن يظلّ مع رفقة آمون وسحرة معبده وما إلى ذلك من أسماء اتَّخذها آباءُ الحضارة الأولى المصريّة الفرعونيّة كرمز لمختلف مراحل السَّالك في دروب الرّوح، فإنّ الَّذي يحدثُ هو ثورة القلب على النَّفس، فيبدأ بالنِّداء على حورس العقل، ورع العين ليهبّان معاً إلى نجدته من وادي الثَّعابين ووحوش نيل النَّفس، ويظهر رعْ أو إله الشَّمس في أبهى تجلياته، لكن قبل هذا الظهور تحدث بعض الارتضاضات والزلازل في أرض مصر القديمة وتكون النَّتيجة أن يعلن الجسدُ حالة من الإعياء الشَّديد والتَّعب والإرهاق والمرض، إيذانا بقرب مرحلة جديدة في حياة صاحبه، مرحلة تُظهرُ له مكانته الحقيقيّة، ودرجة معارفه وعلومه الحقّة، وتحدِّد له بشكل أكثر وضوحاً، عِلمه القلبيّ الحقيقيّ، في يوم الجمعة، الَّذي هو يوم النّبوّة الخاتمة والوحدة الجامعة.

ويظلّ الإنسان هو الهمّ الرَّئيس في هذه المجموعة، وبطلها الأوَّل والأخير، فَهُوَ هنّا حورسيّ الحضور، يسعى دائماً إلى التَّعلّم من أخطائه، والتَّحوُّل من حالة إلى أخرى أفضل منها طلباً للتقدّم والتَّطوُّر الرُّوحي المُستمرّ إلى أن يصل إلى مقام الطَّمأنينة والسّلام رفقة شمس رع الرّاعية لكلِّ خطوة من خطواته، ليس لأنَّه إنساناً مؤلّها، أو سوبرمانيّاً ولكن لأنّه أوّلاً وأخيراً، إنسانٌ من نورٍ وتراب، من ضعف وقوّة، من شيء ومن لا شيء. لذا، فإنّ هذه المجموعة تسعى ما أمكن إلى إظهار الإنسان في كلّ حالاته، القويّة والضَّعيفة، السَّليمة والعليلة، العارفة والأمّية، وذلكَ وعياً من الذَّات الرّاوية بضرورة تفادي كلّ إيديولوجية تسعى إلى تنصيب الإنسان إلهاً على غيره، لما عانته البشريّة عبر الحقب والعصور من عواقب وخيمة أتت على الأخضر واليابس، فقط لأنّ أحداً ما في فترة معيَّنة من التَّاريخ كان يحسب نفسه إلهاً دوناً عن بقيّة البشر. وعليه فإنّهُ في هذه المجموعة القصصيّة الجديدة لا تحدث المعجزات، وإنّما المعجزة الواحدة والوحيدة الَّتي قد تحدث هي كرامة الشَّفاء والانبعاث من بين الأنقاض الَّتي أمنحُها للقارئ من مخزون ذاكرتي الفعليّ

والتَّخيّلي، وهذه هي القدرة الَّتي أشرتُ إليها بعين حورس في لوحة الغلاف، وصواع رعْ الّذي يحتضنه، كرمز للمعرفة والعلوم، والَّذي نهل منه العديد من أبطال قصص هذه المجموعة كالصَّغيرة سلاف، وليلو الجميلة، وساحر الحجر، والشَّمعة كيارا إلى غير ذلك من الحروف المنغمسة في إكسير المحبّة والانسجام والسّلام.

٤٥. الولادة ثمَّ الحياة، ما رأيك بحقيقة الموت، كيف تنظرين إلى الموت وما أثره في نصِّكِ الإبداعي؟

لا أحدَ يُفكّرُ في الموتِ. نعمْ، هذه حقيقةٌ مُرَّةٌ، وما هيَ بالجريرةِ أبداً، ولا تعْنِي أنّ الإنسانَ لا يتّعظُ مِنْ لحظةِ الموتِ، أو أنّهُ لا يشغلُ بالَه بمَا سيؤولُ إليهِ جسمهُ بعدَ أنْ يُصبحَ جثّةً هامدةً. كلّ ما في الأمرِ أنّ الإنسانَ لا يستطيعُ أن يفعل للموتِ شيئاً، لأنَّ هذَا الأخير هُو الحياةُ عينُهَا. وعندي لكَ عزيزي القارئ العشرات منَ الأمثلةِ لأثْبتَ لكَ صحّة ما ذهبتُ إليهِ؛ فأنا مثلاً قبلَ أنْ أستيقظَ في صبيحةِ هذا اليوم، وأبدأَ في كتابةِ هذه المقالةِ كنتُ ميتةً، أيْ كنتُ في حالة نومٍ، والنَّومُ موتٌ لا يقومُ منه إنسانٌ إلّا بأمرٍ وتدخُّلٍ إلهييْن، ولو شاءَ الخالقُ لكَ ولِي ألّا نقُومَ مِنْ نَومِنَا، ما قامَ فينا ومِن النّاس أحد!

ماذا يعني هذا؟ لا شيءَ سوى أنّني بعدَ أنِ استيقظتُ ذهبتُ لتناولِ وجبةِ الإفطار، لأعوّضَ ما احترقَ فيّ منْ طاقةٍ خلالَ موتِيَ النّوميّ، إذْ بداخل جسدي كانتْ تموتُ وتحترقُ أشياء كثيرة، بما فيها الأفكارُ، وليسَ هذا فحسب، ذلك أنّ حتّى هذهِ اللّحظة الّتي أنا فيهَا أمام الحاسوب وأكتبُ ما أنتَ بصدد قراءته، هيَ موتٌ وحياةٌ في الوقت ذاتِه، فأنا الموتُ وأنا الحياةُ: موتٌ لأنَّني أحرقُ طاقةً فكريّة وأنا بصددِ العملِ، وحياةٌ لأنّهُ مِنْ أفكار ميتةٍ ثمّةَ أفكارٌ أخرى حيّةٌ في طريقِها للانبعاثِ لتُكَوِّنَ ما يُمْكِنُنِي أنْ أسَمّيَهُ بِخميرَةِ الكتَابَةِ والفِكْرِ. لكنْ دعكَ منّي هُنيْهةً يا عزيزي، وأنْصِتْ إلى سؤالي هذا: هلْ سبقَ لكَ أنْ حضرتَ حفلَ عزاءٍ ما؟ مِنَ

المُؤكّدِ نَعَم. تأمّلِ الآنَ معي المُصطلح ذاته: حفلٌ + عزاء، كيْفَ يَجْتمِعَانِ؟ ثُمّ الاحتفالُ بمَن؟ والبُكاءُ على مَن؟ والعزاء في مَنْ؟ اعلمْ يا أيدكَ اللهُ بمحبّتِهِ وَغوثِهِ، أنَّ الموتَ حفلٌ واحتفالٌ؛ حفلٌ لورثة الرّاحل، وحفلٌ لحفّار القبور، وحفلٌ للفقهاء الّذين يأتون لتلاوة القرآن على روح الميت، وحفلٌ لمنْ سيأتون لتقديم عبارات المُواساة والعزاء: حفل لورثة الرّاحل، لأنّ كل واحد فيهُم لا سيّما الأبناء وهُم وَسطَ بكائهِم ودموعِهم وصراخِهم لا يبكونَ الرّاحل حقّاً، وإنّما كمَّ الذّكرياتِ الّتي جمعتهُم وإيّاه، فإن كانتْ طيّبةً دعوا لهُ بالرّحمة وحسن المآب، وإذا كانتْ سيئةً دعوا لهُ بالغفران إذا كانوا أصحاب نفوسٍ صالحةٍ، لكن لا تنسَ يا عزيزي، أنَّ هذا الدّعاء بالغفرانِ قد ينقلبُ إلى دعاءٍ على الميت بالخسارة والثّبور إذا لمْ يتركْ لهُم شيئاً يجعلهم يترحّمون عليه منْ بعده، أيْ إذا لم يتركْ لهم ما يرثونه عنهُ منْ عقاراتٍ وشركات وسيارات وما إلى ذلك. أمّا إذا كانَ للميتِ زوجةٌ جميلة وصغيرةٌ في السّنّ فحدّثْ ولا حرج، هي أيضاً مهما كانَ حزنُها عميقاً، فإنّ حرارةَ الحياةِ ستُفيقُهَا مِنْ حُزنِها وتجعلُها تُفكّر في نفسها مرّة أخرى لأنّهَا تريدُ أنْ تعيشَ وتعيشَ، فالحياةُ فيهَا أقوى منَ الموت بغضّ النّظرِ عن الحالات الاستثنائيّة الَّتي تروي عن بعضِ الأرامل الوفيّات لذكرى زوجٍ راحل. ثمّ ماذا يا أحبّتي القرّاء والمتتبّعين؟ لقد نسينَا الجمهورَ الّذي يحضُر لتأدية واجب التَّعزية، النّاسُ وسط هؤلاء يا أعزّائي آخرُ منْ يُفكّرُ في الموتِ والميت، ففهُيم منْ يأتي لجَمْع بعضِ المعلومات، و"الشّمْشَمَةِ" على أخْرى، ومنْهُمْ مَنْ يأتِي بدافع الفُضول ليرى منْ هُو هذا الفقيدُ، ومن تكونُ عائلتُه؟ ومنهم منْ يحضرُ مراسيم الجنازةِ لأنّ الميت لهُ ديون عندهُ وهو قلقٌ عليها، ومنهُم من يأتي لأنّ الميتَ في حياته كانَ عدوَّهُ اللّدود ويريدُ أنْ يراهُ أخيراً وقدْ قَهَرَهُ الموتُ وحقّقَ لهُ ما لمْ يستطعْ أنْ يُحَقّقَهُ هُو فيهِ حينما كان على قيد الحياة، وهلمّ جرّاً منَ الأشياء الّتي تُثبتُ أنّ الحياةَ هي جُلّ ما يُفكّرُ فيها معظمُ النّاس لا الموت، فحتّى الميتُ نفسه لا يفكّرُ ولا يشْغلُ بالَه أبداً بموقفِ الموتِ، ولا تصدّق يا عزيزي تلكَ

الخرافات الّتي يحكونَها أثناء العزاء حينما يقولونَ لكَ لا تذرف الدّموع أمامَ الميت فإنّ روحَه تتألّمُ وتفزع منْ منظر بكاء الأبناء أو الأحبّة عليه، أيُّ هراء هذا؟ أوَلَمْ تسمعْ بقوله عزّ وجلّ في سورةِ عبس (٣٣/٣٧): ((فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ، يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ))، فالإنسانُ بمُجرّد أن يموتَ تقومُ قيامتُه وتأتي صاخَّتُهُ، لا يعودُ يفكّرُ في أيّ شيءٍ أبداً سوى في المصير الَّذي ينتظرهُ، أهوَ النَّعيم أمِ الجحيمُ؟ أيْ أنّه لا يقعدُ هناكَ بين المُعزّينَ ليُفَكّرَ في معنى الموت، أو سببهِ، أو في كيفَ أنّ ابنتَهُ أو ابنَهُ يتألمَان لفراقِهِ، لا شيء من هذا يحدثُ بتاتاً، فهو في عالمٍ والنّاسُ منْ حولِهِ في عالم آخر تماماً.

لماذا لا يُفكّر الكثيرُ مِنَ النَّاس إلّا في الحياة؟ لأنّ الإنسانَ هو الحياة والموتُ عينهُما، والموتُ سرٌّ منَ الأسرار العظيمة وكذلكَ الرّوحُ، ولا يمكن الحديثُ عن الأوَّل في غيابِ الثَّانية والعكس صحيح. الرّوح سرٌّ، والموتُ سرّ، والحياة سِرّ ثالث، والإنسانُ كلّهُ سرّ الأسرار، لأنّهُ تجلٍّ من تجلّياتِ عقلِ الله، ولأنّهُ الوحدةُ الّتي تُوحّدُ كلّ شيء وتجمعُ كلَّ المتناقضات، وهذا ما يُفسّرُ كونَ الإنسان هو الحياة والموتُ معاً، وكونه الظّلمة والنُّور، والمكان والعدم، وكونه أيضاً الزّمان واللّازمان. لذا، فإذا تأمّلَ الإنسانُ في نفسِه، عرفَ اللهَ ووصلَ إليه عبر بوّابة الموت العظيمة. ومعرفةُ النّفسِ لا تتمُّ إلّا بالتَّجرُّدِ والتّواضُعِ، إذ، فقط حينما يتمُّ ذلك ينبثقُ أمامَ الإنسانِ نظامُ الكون البديع، ويتجلّى النُّورُ الَّذي هو المانحُ الأوَّل والأخير للطّاقة الأبديّة والحياة الخالدة.

أنا الشَّجرةُ، وأنتَ كذلكَ أيُّها القارئ، شجرةٌ لها فصولها المتتالية ورحلتُها المعراجيّة لبلوغ الكمالِ، والموتُ هو الماء الَّذي يتغذّى منهُ كلّ غُصنٍ في هذه الشَّجرة إلى أنْ تبلُغَ درجةَ التَّعرّي ثُم التّغشّي بالنُّور القدسّي فتعودُ إلى حالتها الأصل، شجرةً منْ نور هي شجرةُ الحروف الأولى، أو سدرة المُنتهى المُتجدّدَةِ

باستمرارٍ والمُنْبعثَةِ منْ ذاتهَا أبداً، والرّجُل الصُّوفيّ العارفُ هو أكثر النَّاس معرفةً بأمر هذا الإنسانِ / الشَّجرةِ الَّذي لا يموتُ أبداً. وسعادة الصُّوفي تكمنُ في كونه يعيشُ ليموتَ، ويموتُ ليحيا، لذا، تجدُه أكثرَ النّاسِ جرأةً على الموت، فهو لا يهابُه وقد يحدثُ أنْ تُصبحَ لهُ عليهِ سلطة وسلطانٌ، فقدْ يموتُ العارف الصُّوفي متى شاءَ ذلك، والعارفةُ كذلكَ، وفي مرتبة أعلى يُلغَى الموتُ ويحدُثُ الرّفْعُ كمَا هو في حالة المسيح الَّذي يُعدُّ أقوى مثال على ما يمكنُ أنْ يحدُثَ منِ انتصارٍ على الموت، لأنَّ المسيحَ بلغَ درجةَ السّلام العليا، ولأنّهُ وحدهُ السّلامُ يقهَرُ الموتَ بالحياة الأبدية. وكلُّ ما يحكيه بعضُ المتصوِّفة عن الفناء والبقاء وما إلى ذلكَ من القصص ماهُو إلّا مُقدماتٍ لما قدْ يكونُ أشدَّ عُمقاً في حياةِ العارفينَ، فقدْ يصلُ بعضُهم إلى القُبّةِ الزّرقاءِ، وأعني بهَا أنْ يُحيِيَ الإنسانُ نفسَهُ بنفسِه، بعد أن يكونَ قد تجاوزَ كلّ مراحلِ الموتِ البدنيّ بدءاً منَ الموتِ الأحمرِ وصولاً إلى الموتِ الأسودِ الّذي يتمثَّلُ في مدى قدرة العارف على تحمّلِ الأذى منَ الخلقِ.

والحديثُ عنِ الموتِ والحياة لا بدّ يفضينَا إلى الحديث عن الزَّمانِ، فكلّ زمانٍ يُحيط بكَ أيُّها القارئ العزيز هو زمان وهميّ، وتلك السَّاعةُ الَّتي في معصمكَ تشير عقاربُها إلى زمنٍ مغلوط، فحياتك ليستْ بعددِ السّاعات أو الدّقائق الَّتي تمرُّ عليك، لأنّها تنفلتُ منكَ باستمرار، والحاضرُ بمُجرَّدِ أنْ تُفكّرَ فيهِ يُصبحُ ماضياً، لأنّ الزَّمانَ نفسه ينعدمُ أمامَ حقيقة الرّوح الكبرى، ولأنّ البعضَ يرونه إحساساً ذاتيّاً وداخليّاً لا علاقة له بالكونِ، ولا نستطيعُ حقّاً استحضارهُ خارجَ أنفسنا، والبعض الآخر يراهُ شيئاً واقعيّاً لهُ وجودٌ مستقلٌّ يمكنُ التَّحكّم فيه، لكن ثمّة من يرى أنّهُ فضاء يتمدَّدُ بالحركةِ، وفي هذا القول نفيٌ مطلق للزمان. وفي الحديثِ عنِ الزّمان حديثٌ عن المكان وعن القيّوميّة الإلهيّة، أمّا وكونهُ مرتبطٌ بالمكان فهذا ناتج عن تعلّقِ كلّ ما في الوجود بمركز الجاذبيّة، وهُو المفهوم الّذي عبّر عنهُ ربُّ العزّة حينما قال في سورة النّحل (١٦/١٥): ((وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ

وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ، أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ))، وأمّا عنِ ارتباط الزّمانِ والمكان معاً بالقيّوميّة الإلهيّة، فذلكَ لأنَّ اللهَ هو الحيّ القيّوم الّذي لا تأخذُه سِنة ولا نومٌ، وهذا يعني أنّ زمنَ اللهِ ومكانَهُ غير زمنِ ومكان الإنسان بتاتاً، فهو خالقُ الزّمان وليس لهُ مستقبل أو حاضر أو ماضٍ، ولذلكَ فإنّ الإنسانَ ما إن يموتُ فهُو يخرجُ مِنْ بُعد زمكاني مُعيّن ليدخُلَ إلى بُعدٍ آخرَ مُختلفٍ تماماً تُلغَى فيه كلُّ تلكَ الأرقام والسّاعات والشُّهور والأماكن الّتي اعتادَ عليهَا أثناء حياتهِ، وما منْ عبثٍ قال ربّ العزة في الآية ٣٥ من سورة الأحقاف: ((فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوّلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ)). فيَا حبّذا لوْ نموتُ عنْ أماكِنِنَا وأزماننا البالية كيْ ندخُلَ إلى المكانِ الحقّ، ونتذوّقَ الزّمانَ الحَقّ: زمنَ محمّد ومكانَ المَسيح، زمنَ إبراهيمَ وإسماعيلَ ومكانَ داوود وسليمان، بلْ زمنَ العشْقِ والسّلامِ، ومكانَ المَحبّة والهيامِ حيثُ الهجرةُ العظيمة إلى كعبةِ الجَسدِ حتّى نتمكّنَ جميعاً منْ تقديم كُلّ طقوسِ الحياةِ والخُصوبةِ والطّاقة والتّجدُّد المُستمرّ، ونستطيعَ بالتّالي الوُقوفَ بمُزدلفة القلبِ، ثمّ الصّعودَ إلى عَرفةِ الفُؤادِ لتصلَ النّفسُ والرّوحُ ذِروةَ المُنى، ويقذفَ كلٌّ منهُمَا مَنيَهُ لحظةَ الموتِ مِنْ أجْلِ بُلوغِ سِدرةِ المُنْتهَى أوْ شجرةِ السّلامِ والحياةِ الأبديّةِ.

٤٦. ماذا تعني لك الكتابة، هاجس الكتابة، لحظات الكتابة، ماذا يراودك بعد كتابة نصّ جديد؟

الكتابةُ هي إعادةُ ترتيبِ ما لا يُرَتَّبُ، هي دعوة إلى التّواصل مع الله الّذي يتحدّثُ في دواخلنا باستمرار. فنحنُ لا نُحدّثُ أنفسَنا كما يعتقدُ مُعظمُ النّاس، وإنّما نتحدّثُ إلى خالقنا؛ كلٌّ بطريقتهِ. والكتابةُ ليست حكراً على الكُتّاب والأدباء فقط، وإنّما الكلُّ في كتابة مستمرّة. فالفلّاحُ كاتبٌ، والنّجّار كذلك، والخيّاطة كاتبةٌ

والطّبّاخة كذلك، والطّبيبة، والممرّضة، والمهندسة، والمعلّم وكذا الأستاذ، والميكانيكيّ، والفيلسوف، والفقيه، والجنديُّ والمؤرّخُ وهلمّ جرّاً من عِباد الله وكُتّابهِ المخلصين. لذا، فإنّ الكتابةَ تعني أيضاً التّغييرَ الّذي يستطيعُ كلُّ إنسان أن يُحَقّقه في حياته اليوميّة.

وكلّ كتابة لا تبدأ بِاسم الله، فهي لهو وعبث ومتاع الغرور، وهي لهذا لوحُ الخَلقِ والخليقة، فوقه يُسجِّلُ الإنسانُ كلّ شيء، ويحملهُ معهُ ثمّ يمضي. ويا حبّذا لو يحرصُ كلّ واحد منّا على أن تكون كتابته نابعةً من القلب، مفعمةً بالمحبّة والعمل الطيّب الحسن، فمن يدري، لربّما يتحوّلُ لوحُنا هذا إلى فردوس تتراقصُ فيه حمائم السّلام، وأزهار المحبّة والوئام!

الكتابةُ صوت آتٍ منَ الأعماق، وكلّما كانتْ أعماقُنا صافية، كانَ الصّوتُ خلّاباً ساحراً وآسراً: والقلبُ هو مركزُ الحرفِ والمتحدّثُ الرّسميّ الخاصّ به، تُلقَى فيه العلومُ كلّ على مقدار عُلُوّ هِمّته، وصفاء نيّته وسريرته. وهُو في هذا (أيْ القلب) محطّ اختبار وامتحان دائميْن، لذا وجبَ أن يُحسِن الكاتبُ العارفُ اختيارَ نبعِهِ الّذي منهُ سينهلُ حرفَه، ولا داعي للعجلة، لأنّ قلبهُ قبل أن يصلَ إلى مرحلة الثّبات واليقين الكامل المُكتمل، سيكونُ في تحوّل مستمرٍّ، وستردُ عليه من الحروف ما وجَبَ التَّمييزُ بين الصّالح والطّالح منها، فلا يكونُ كمن سبقهُ من الكُتّابِ، أهلَ البطالة المحجوبين عن الحرف الحقّ، الّذين ما تركوا شيئا من "الخزعبلات" إلّا وكتبوا فيه، من قبيل التّفاسير المغلوطة لنصوص الوحي في مختلف الدّيانات. ولا يكونُ أيضاً كمن مضى منَ الشُّعراء والرّسامين والمصوّرينَ الّذين دخلوا إلى الكتابة من بابِ القصيدِ واللّون والضّوء الإباحيّ الّذي شوّه المرأةَ ونزعَ عنها رداء النّقاء والحياء والطّهر. وإذ أقول الشّعراءَ فإنّي لا أستثني منهم قدّيسِي الإيروس "الماجن"، الّذين ما تركوا شيئاً إلّا وألقَوا فيه بدُلِيّهم يُعَلّمون الإنسانَ ما هو ليس بحاجة إليه، فظهرت الكتابات عن الشّذوذ الجنسيّ وما إلى ذلك من الموبقات، ظنّاً منهم أنهم

يحسنون بذلكَ عملاً، دون أنْ يعلموا أنّهم قد وقعوا في أحابيل إبليس، يخدعهم ببديع الكلام، وحلاوة المنطق وسلاسته، حتّى لكأنَّ الحرفَ يبدو لهم من شدّه سحره وبيانهِ وحياً لا شيء فيه سوى الصّلاح والفلاح.

الكتابةُ باختصار شديد عملُ الإنسان، مصداقاً لقوله جلّ جلاله: ((وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ)) (التوبة:١٠٥). وكلُّ ما يكتبُه الإنسانُ لا يموت أبداً، لذا لا بدّ من الالتزام بتحسين عملنا وتطويره وتصحيحه، إلى أن يصبحَ من قبيل ما يستحقُّ الفوزَ بما وعدنا اللهُ بهِ مِنَ المغفرة والأجر العظيم.

٤٧. كثُر الحديثُ مؤخّراً عن الأُسْرةِ ودورها الفعّال في بناء مجتمعات سليمة ومتحضّرة، كيف ترى أسماء غريب هذه المؤسّسة بشكل عامّ، وما هي النّصائح الّتي يمكنكِ أن تقدّميها لمتتبّعيكِ الأعزّاء؟

مصيبةُ الإنسانِ الكبرى أنّه كائن انفعاليّ، يُصَدّقُ كلَّ شيء، ويستطيعُ أيُّ أحدٍ التّلاعبَ بعواطفه وعقله بسهولة، وإن كان هُو يُصِرُّ على ادّعاء العكس، وبأنّه أقوى الكائنات وأذكاها. وأنا بصراحة لا أراهُ كذلكَ؛ فهُوَ سمعَ أنّ سعادتهُ في الزّواج فتزوّج، وقالوا لهُ إنّ المالَ والبنينَ زينة الحياة، فبدأ يركضُ خلف الثّروة وإنجاب الأطفال إلى أن ملأ الدّنيا والبلاد بالكائنات المجنونة والسّاذجة، والمهووسة، والمتعطّشة للدّماء والحروب، ونسي أنّ اللهَ قال أيضاً: ((وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً)) (الكهف: ٤٦)!

ولم أرَ لليوم أحداً توقّفَ ولو للحظة ليتساءل: هل من الضّروري أن أتزوّج كما فعلَ غيري؟ وهل عَلَيّ أن ألِدَ ليتكاثرَ النّسلُ وتتطوّرَ المجتمعاتُ؟ أبونا آدم فعل الشّيء نفسه، وهذه سنّة الحياة، وعلينا نحن من بعدهِ أن نفعلَ الشّيْءَ ذاتهُ. هكذا يُفكّر الإنسانُ، فالزّواج وبناء الأسرة هو سنّة آبائنا الأوّلين، وعلى نهجها وجبَ المسير.

وإذا سألتَ شخصاً ما، لماذا هذا النّهجُ في التَّفكير؟ سيقول لك إنّ أكثر النّاس يقومون بهذا الأمر، لكنّه ينسى أن الله عزّ وجلّ ما ذكرَ عبارة (أكثرَ النّاس)، إلّا وقرنَها بنقصان العقل والسّفه، وعدم القدرة على تقييم الأمور بعين الحكمة وأتبعها قائلاً إنّ أكثرهم: (لا يعلمون – لا يشكرون – لا يؤمنون – فاسقون – يجهلون – معرضون – لا يعقلون – ولا يسمعون). فلماذا إذن هذا الموقف الإلهيّ من كثرة النّاس وعامّتهم؟ ولماذا ذكرتُه هُنا وأنا بصدد الحديث عن مفهوم الأُسرة؟!

أكثر النّاس يعتقدون أنّهم أتوا لعمار الأرض، أيْ أنّهم يجبُ أن يتوالدوا ويكوّنوا عائلات وأُسَر تصبحُ شعوباً ومجتمعات. ولكنّهم نسوا شيئاً مهمّاً في غمرة انهماكهم بهذه المهمّة الخياليّة والأسطوريّة "العظيمة"، نسوا أنّ مهمّة العمار الحقيقيّ صاحبها هو الحيّ القيّوم، لا الإنسان، فهو كما خلق آدم وحواء بدون أب ولا أمّ (ذكر وأنثى)، وعيسى من أمّ (أنثى) وبدون (ذكر)، أيْ بدون أب بمعناه المتعارف عليه لدى الجميع، فإنهُ قادر على خلق كلّ النّاس بالطّريقة الّتي يشاء ويريد بغضّ النّظر عن مسألة الإنجاب هذه، وكيف لا يكون ذلك ممكناً وهو الّذي إذا أراد شيئاً قال له كنْ فيكون!

الإنسان أيّها السّادة الكرام الأفاضل والطّبيعة كلاهما قوّتان صفتُهما الفقرُ والضّعف، يحتاجان دائماً إلى فاعل ومُدبّر ومُحرّك حقيقيّ هو الله الّذي أوجدهما معاً وجعل فيهما أسراره العجيبة، وسخّرهما لأمره تعالى، منقادين لمشيئته، وفي هذا دليل صنعته وأماراتُ خلقه، وكلّ ما هو مصنوع لا يَتحرّكُ ولا يخلُق ولا يَفعلُ ولا يتصرّفُ في ذاته ونفسه، هكذا لوحده، وإنّما لا بدّ من تدخّلِ وحركةِ الله الذّائبة فيه، مصداقاً لقوله: ((سُنَّةَ ٱللَّـهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّـهِ قَدَراً مَّقْدُوراً)) (الأحزاب:٣٨).

الإنسان في أخذه بظواهر الأمور، نسيَ أنّ أرضه الحقيقيّة هي جسدُه، وأن بيته الحقّ هو قلبُه، وأنّه خُلقَ أباً وزوجاً بالصّنعة الفطريّة الإلهيّة الأولى. كيف

ذلك؟ هذا ما سأجيب عنه متناولة باختصار شديد كلّ جزء من هذه المعادلة الصّعبة على حدة.

إنّ من يمعنُ النّظَرَ في جسده سيجدُه نسخة طبق الأصل عن كوكب الأرض؛ بسماواته، ونجومه وأراضيه وطرقاته وغاباته وأحراشه وبحاره العذبة والمالحة، بدءاً من المسام الّتي ينبتُ منها الزّغب والشَّعْرُ النّاعمُ والخشنُ، إلى العروق الدَّموية والشّعيرات، إلى المياه المالحة (الدّمع)، والحارّة المُرّة (صمغ الأذن، وسائل المرارة، والمعدة) إلى الزّئبق، والحديد، والذّهب، والملح والكهرباء، والكريّات الحُمر والبيضِ، والغازات والأملاح المعدنيّة، والزّيوت وما إلى ذلك من التّفاصيل الّتي لا يمكن لعالم الأحياء الدّقيقة أو للطبيب أن ينكر تطابقَها مع كلّ ما يوجد في كوكب الأرض، لذا فإنّ مهمّة الإنسانِ الأولى هي أن يعتني جيّداً بجسده هذا لأنّه كوكبه الأوّل، ويعرفَ كيف يتعاملُ معه ويقرأَ أسرارَه ويفُكَّ طلاسمهُ ورموزه. أمّا عن القلب فهو البيتُ والمحرّك الرّئيس لهذا الكوكب، وهو لأجل هذا مقرُّ الوجود الإلهيّ ومركز التَّواصل فيه بينه وبين الإنسان، وعليه فإنّه يستدعي من هذا الأخير عنايةً خاصّة، حتى يُصبحَ صالحاً لتنزّل العلوم الحقّة فيه، وهطول أمطار النّور عليه، ويصيرَ فردوساً حقيقيّاً جدرانه من بهاء ونور.

أمّا كيف أنّ الإنسانَ يأتي إلى الدّنيا أباً وأمّاً مذ يكونُ بذرة في رحم أمّه، فهذا أمر بسيط ومقدور على شرحه: لكلّ إنسانٍ ثلاثة أطفال: ذكر وأنثيان، وهُمُ العقلُ والنّفسُ والرّوح. والإنسانُ مُكلّفٌ بتربيتهم جميعاً التّربية الحسنة، حتّى يضمن الأمان والسّلام لكوكبه وبيته الصَّغيريْن الكبيريْن: جسدُه وقلبه.

والنّفسُ بين هؤلاء الأبناء الثّلاثة، هي الأكثر إرهاقاً لقوى الإنسان، والأكثر تمرّداً وعقوقاً وجحوداً، والويلُ لمن لا يستطيعُ ترويضها، فهي لها في كلّ حالٍ لون ولباس، وقادرة على خداع ومراوغة أبيها ذاته، فتتظاهر له بالتّقوى والوداعة والفلاح والصّلاح، وحينما تواتيها الفرصة تنقلب عليه من جديد، لتقوده إلى دوامات الهلاك

المُحقَّق. وطوبى لمن تصبح نفسه كما عصا موسى بين يديه: مطواعة تنقاد له بدون أدنى اعتراض، يوجّهها حيث الخيرُ والحبّ والسّلام، ومتى ما رأت شيئاً مُخلّاً بنظام الكون انقلبت إلى ثعبان عظيم لتلتهم كلّ ما يحيكُه المفسدون من فراعنة الإنس والجنّ والشّياطين وكيدهم ومكرهم الخبيث. ومن يُحقّقِ النّظرَ سوف يرى أنّ كلّ الفساد الّذي وصلت إليه البشريّة اليوم، سببه الرَّئيس هو عدم الاعتناء بهؤلاء الأبناء الثّلاثة، فكانت الغلبة للنّفس الأمّارة بالسُّوء الّتي أصبحتْ حليفة إبليس في كلّ شيء، وسيفَه الّذي يطعن ويذبحُ به القلوبَ والأرواح. لذا وجبَ التّساؤل: كيف سيربّي من لا يستطيع حُكم وتسيير روحِه ونفسه وعقله أبناءَهُ الّذين هُم من لحم ودمٍ وعظم؟ فاقد الشَّيء لا يعطيه أيُّها السّادة!

هناك نقص شديد في التَّربية الرّوحيّة نتجَ عنه بشكل آليّ، نقص إن لم أقُلْ غياباً كاملاً في التّربية المادّيّة لأجيال الحضارة البشريّة على مرّ العصور. والنّاسُ منشغلون ببناء القصور والبيوت الفارهة، والمدن والأبراج الشّاهقة وما إليها ونسوا تماماً أن يبنوا الجسدَ الصّغير ويعتنوا بأبنائهم فيه وتغذيتهم بالعلوم الطّيّبة والمعارف المثمرة، حتّى تتفجّر بداخله شلّالات الأنوار، ويسهل تواصله مع جسد الله الحيّ الّذي لا يموت، ويصبح بالتّالي ذاك الإنسان الّذي باهى اللهُ به الملائكة.

وكوني أقولُ هذا فإنّي لا أقصدُ إفراغَ التّجربة الإنسانيّة في التّكاثر البيولوجيّ من محتواها الحضاريّ والصّناعيّ والعلميّ، ولكنّي أعتبر هذه المسألةَ تحصيل حاصل، لأنّها عادةً ما تتمُّ بشكل طبيعي وعفويّ، لأنّ الطّبيعة هكذا، خُلقتْ لتتجدَّدَ وتتحوّل باستمرار، ولأنّ الإنسانَ جزءٌ من هذه الطّبيعة فإنّه يسري عليه ما يسري على مختلف عناصرها من قوانين، فهو مثلاً كالوردة حينما تكبرُ وتتفتّح أوراقها، ويفوح أريجها وتعلن عن رغبتها في الحياة، وكالزّهرة في بلوغها مرحلة التّلقيح والتّزاوج، وكالنّحلة في سعيها وعملها الدّؤوب بين الحقول، وكالنّملة في نظرياته الاقتصاديّة للاستثمار والادّخار، إلى غير ذلك من هذه الأمثلة الّتي لا تعدُّ

ولا تحصى: إنّها سلسلة الحياة، وحلقاتُ الأماكن والأزمنة المتداخلة، وحينما تفسدُ سلسلة أو حلقةٌ ما، يتدخّلُ الخالقُ، ثمّ يُجدّدُها مصداقاً لقوله: ((فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)) (المائدة: ٥٤). لذا، فإنّنا مطالبون اليوم وأكثر من أيّ وقت مضى أن نكونَ، لا من فئة (أكثر النّاس)، ولكن من تلك القلّة القليلة الّتي قال فيها عزّ وعلا شأنه: ((وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)) (الكهف:٢٨).

٤٨. كتب العديدُ من الأدباء والمفكّرين والفلاسفة عن الحبّ، واختلفت فيه آراؤهم وأفكارهم ومعتقداتُهم، كيف ترى الأديبة والدكتورة أسماء غريب الحبَّ وكيفَ تعيشُه؟

أولاً لقبُ الدكتورة والأديبة لا ينفعُ هنا وأنا بصدد الحديث عن الحبّ، إذ لا بدّ منْ خلع النّعليْن وإسقاط كلّ لقبٍ واسمٍ، لأنّني بالوادي المقدّس طوى.

نهر الحُبِّ لمْ يتدفّقْ بعدُ على وجه الدّنيا أيّها الأديب الفاضل الكريم صبري يوسف، وكلّ ما تعيشُه وعاشتهُ الإنسانيّة إلى اليوم هو وهْمُ الحبّ، لا الحبّ مصداقاً لقوله عزّ وجلّ: ((وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ، أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ)) (البقرة: ٨٧)، وهذا يعني أنّه كلّما ظهرَ نبيّ وأراد أن يُفَجِّرَ نهرَ الحبّ وعيونَه وشلّالاته على الأرض قُتِلَ، والسّبب في ذلك هُم العديد من رجال الدّين والفلاسفة والأدباء والرّسامين وكذا المتصوّفين والقدّيسين، الّذين ساهموا بشكل أو بآخر في ترسيخ نظريات عقيمة عن الحبّ والعشق. صحيح أنهم ألّفوا عنه الكثيرَ من الكتب والنّصوص الّتي أصبحت بعضها صلوات يُحتفى بها في أماكن العبادة بمناطق مختلفة من العالم، لكنّها على الرّغم من ذلك فهي

تبقى مجرّدَ كلام معسول، وساذج فارغ من المعنى الحقّ، ومن النّور الحقّ، ومن السّلام الحقّ.

وما أتعسَ الإنسانَ الّذي يُسلّم عنقَه لرجل الدّين ليفعل به ما يشاء، وما أشقاهُ وهو مثلاً قبلَ أن يتزوّج بحبيبة قلبه، يذهبُ إلى الفقيه أو القسّ أو الحِبر ليستشيرَه فيما عليه أنْ يفعله، أو كيف سيبدأ حياته، وما الدّروس والعظات الّتي عليه أن يتّبعها لينعم بحياة هنيّة سعيدة مع زوجته، رجل الدّين هذا الّذي لم يسبق له أن تزوّج أبداً، أو ذاك الذي له من الزَّوجات الثّانية والثّالثة والرّابعة، والخامسة في الطّريق!

لقد فسُدَ الإنسانُ، وعبثاً يدّعون غير ذلك عنه، وهو يعيش حالة عميقةً من التّعاسة الرُّوحية الّتي ليس لها أوّل ولا آخر، وكلّ هذا بسبب عطشه المستمرّ إلى الحبّ الحقيقيّ الّذي لم يستطِع أن يحقّقه أو يجده على مرّ آلاف السّنين من تاريخ حضارته، فما بالك بزمننا هذا الّذي مازالت فيه المرأةُ قبل أن توافقَ على عريسها تقضي سنة في السّؤال عنه وعن حساباته في الأبناك، وسنةً أخرى في التّفاوض معه ومع أهله على المهر، وسنة ثالثة في إعداداتِ الزّفاف، والعمرَ كلّه في سداد ديون ليلة العرس. أيُّ حبٍّ هذا؟ ثمّ يقولون إنّ زمنَ الجواري والإماء وما ملكتِ الإيمانُ قد انتهى، وإنّنا على أبواب الألفيّة الثّالثة والصّحونِ الطّائرة، وعلوم النّانو! إنّهم يكذّبون في كلّ شيءٍ، وسيبقون هكذا يوهِمون أنفسَهم بالخزعبلات إلى ما شاء الرّحمن: ((خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ)) (البقرة: ٧)، ماداموا عاكفينَ على تقبيل أيدي الكهنة وفقهاء معبد آمون، ويخوّلون لهم سلطةَ تملّكِ أرواحهم وقلوبهم وعقولهم إلى الأبد.

الزّهرةُ والوردةُ مثلاً والبلبلُ والقطّةُ كلّهم يعرفون المعنى الحقيقيّ للحبّ، أمّا الإنسانُ فلا. الزّهرةُ ليستْ بكائنٍ مُثقّفٍ ولا متديّنٍ ولا متحضّرٍ، لكنّها تعرف جيّداً كيف تحبُّ، أمّا الإنسانُ فعلى الرّغم من وعيه وتحضّره ودينه وثقافته فهو لا يعرفُ

شيئاً عن الحبّ، وذلك لأنّه سمحَ للغير بأن يسدّ عليه كلّ أبواب الحبّ والمحبّة والعشقِ الحقّ.

سأروي لكَ وللقرّاء الكرام قصّة ذات مغزى من الواقع الإيطاليّ عن سيّدٍ فنّان من كبار نحّاتي إيطاليا المُعاصرين: هذا السيّد كان يعتقدُ إلى وقتٍ قريبٍ أنّ قصّة الحبّ الّتي عاشها مع زوجته على مدى عشرين سنة من زواجهما، هي من أجمل وأعمق قصص الحبّ على الإطلاق، لكن حدثَ ما لم يكن في الحسبان: زوجتُه مدّتْ بصرها إلى رجلٍ آخرَ غيره، وزلّتْ قدمُها ووقعَ المحظور. واهتزّ قلبُ النحّات من الأعماق، وتزلزلَ كيانه، وأفاق على حقيقة مُرّة أيقظتهُ من سباته العميق: لقد كان هو السّبب في كلّ ما حدثَ، لأنه بانهماكه في منحوتاته لدرجة العبادة، أهملَ زوجته الّتي كان من المفترض أن تكون منحوتته الأولى، لكنّه تركَهَا إلى أن جفّ طينُ جسدها، فوقعت فريسة لأوّل رجل طرقَ بابها وبيده جرّة ماء عذبٍ روى به عطشها للكلمة الطَّيّبة، والمعاملة الحسنة، والاهتمام الجميل والعناية الّتي كانت هي بحاجة إليها. لقد أخطأ النّحّاتُ، لأنّه وهو منشغلٌ بصنع آلهات وحوريات من حَجر، نسي أن يعتكف بمحراب آلهته الأولى: زوجته الفاتنة الجمال، وحبيبة سنين المراهقة والشّباب والكهولة، نسي أنّها كبُرَت، وأنّها بحاجة إليه أكثر فأكثر، وإلى إزميله ليزيحَ به عن جسدها وقلبِها قشور الهمّ اليوميّ، وتعبَ الحياة والأبناء. لكن هيهات هيهات، حينما أفاق النّحاتُ من غفلته، كانت هي قد كفّت عن حبّها لهُ تماماً، عقاباً له على إهماله إيّاها، وتركتْ ذاك الرّجل الّذي تسلّلَ كالشيطانِ إلى حياتها لأنها كانت تعلم جيّداً، أنه لم يكن حبّاً ذاك الذي أوقعَها بين حباله، وإنّما لحظة ضعف وعطش.

ومشكلةُ الإنسان ليس في أنّه لا يعرف الحبَّ، وإنّما في كونهِ لا يعرف كيف يكشف عنه. إنّه ليس بشيء يأتي من الخارج، وإنّما هو شيء كامن فيه، لذا فنحّاتُنا كان عليه أن يكون أدرى النّاس بطينة جسده وجسد زوجته، ويا للمفارقة

العجيبة، لقد شاء اللهُ أن يبتليه وزوجتَه وهو النّحات، ليقول له؛ مازال عندك متّسع من الوقتِ لتستردَّ زوجتك، فأنا خلقتكَ نحّاتا لتبحثَ عن الحبّ وتكشف عنه في أجساد من طين لازب، لا من حجر صلد. فهل استوعب النحّاتُ الدّرسَ يا ترى؟ أرجو ذلك، وأدعو الله عزّ وعلا أن يؤيّده بجند من ملائكة المحبّة والعشق وينوّرَ بصيرتَهُ ليعيش ما بقي من حياته مكللاً بتاج المحبّة والعشق الحقيقِيَيْن.

الحبُّ فراتُ الدّنيا، ونيلُ الحياة، ودجلةُ الأيّام، وأقول هذا لأنّني أرى أن الحبَّ له علاقة وطيدة بالماء، مصداقاً لقوله عزّ وجلّ: ((وكان عرشه على الماء)) (هود: ٧)، وكونُ الأرض اليوم قد جفّت، وحروبُ الإنسانِ أصبحت حروباً على الماء ومنابعه، فهذا فيه أكبر دليل على أنّ مشكلة الإنسان الرّئيسَة هي جفاف جسده وقلبه من الحبّ.

ولمن يتساءل عن أسباب هذا الجفاف الرّهيب سأقول إنّها كثيرة، لكنّ الحرمان الجنسيّ يبقى أهمّها: لقد سمّم رجالُ الدّين في كلّ العالم وكذا التّقاليد والأعراف مفهومَ الجنس في عقول النّاس، ونسوا أنّ الجنسَ هو أصل الأشياء ونورها، وهم إذ يندِّدون ويحذِّرون الكلَّ منه، أصبحَ هاجسَ الجميع، بل تحوّلَ إلى مرضٍ ودعارة وتجارة وانحراف، وبشاعة خُلُقِيّة ما بعدها بشاعة، وهذا هو السَّبب الرئيس في فشل مؤسّسة الأسرة في العالم بأسره، فالأبناءُ لا يحبّون بعضهم بعضا، وتجدُهم في صراع وتنافس مستمرّيْنِ، ويحقدون على بعضهم بعضاً، وفي أقصى الحالات، يمكنكَ أن تجدَ أيضاً الأمَّ الّتي تغارُ من ابنتها وَتُضْمِرُ لها الحقدَ الشّديد، والابن الحانق على أبيه وهلمّ جرّاً من مظاهرِ الكراهيّة في كلّ جزء من حياة الإنسان. وملفّاتُ المحاكم تشهدُ على هذا الدّمار، والقضايا المتداولة في جلساتِها وبين قاعاتها عن الابن الّذي قتلَ أباه، وعن الأمّ الّتي تُتَاجِرُ بِعِرْض ابنتِها، والأخت الّتي تزني مع زوج أختِها، والمثليّين الّذين أصبحوا منتشرين في كلّ مكان، إلى غير ذلك ممّا يشيب له الرُّضَّعُ والوِلدان، حتّى أنّه أصبحَ في الدّين والدّنيا شيء اسمه

جهاد النّكاح، وأصبحتِ الجنّةُ في متخيّل الشّباب عبارة عن وكر لنكاح ومواقعة أبديَيْنِ، والنّاس لا يعرفون أنّ كلّ هذا يوقفُ نهر الحبّ عن التَّدفُّق، ويملأ عقل الإنسان وقلبه بمزيد من الكره والحقد، والأمراض النّفسيّة، ويُسَمِّمُ الطّبيعةَ ويُضاعفُ قوّة الثّاناتوس الّتي أصبحت هي الحاكمةُ الأولى في مشهديّات غويرنيكيّة سرياليّة لا يُصدّقها عقل بشر.

وماذا بعد هذا الخراب ونحن نعيش في زمن تُرَبّي فيه الأمُّ طفلتَها على طرُقٍ تتصيّدُ بها الرّجُلَ الثّريّ، صاحب المالِ والبيوت والأطيان وهي مازالت في سنواتها الأولى من التّعليم الابتدائيّ، وتوصيها أن تجلسَ في المدرسة بالقرب من ابن المحافظ وابن المهندس والطّبيب، وحينما تصبح في الجامعات تحرّضُها على أن تضع عينها على أستاذِها الجامعيّ أو على عميد الكلّيّة نفسه. ماذا بعدَ هذا الهوس والجنون، وقد باتَ الرّجلُ يخاف من النّساء وهنّ اللّائي أصبح يجدهُنّ في كلّ مكان، ولا شيء يبدو منهنّ سوى لحمهنّ المعروض سلعةً صباح مساء، والملطّخ بكلّ أنواع الأصباغ والمساحيق، ولو صادفَ –لا سمح اللهُ– أن أمطرت السّماء على حين غفلة لتحوّلت المسكيناتُ كلّهن إلى لوحات سرياليّة من إبداع الطّبيعة الفاضحة لغباء العديد من النّساء واستخفافهنّ بعقل الرّجل.

فالحبُّ بالنّسبة لها سيّارة فارهة، وشقّة كبيرة فخمة ورصيد ضخم في البنك، وإذا شذّت امرأة ما عن التّفكير بهذه الطّريقة اتّهِمَتْ بالجنون أو التَّصوّف.

وأمّا لمن يسألُ لماذا ضممتُ رجال الصّوفية إلى قائمة من ساهم في حبس نهر الحبّ عن التَّدفّق، فأقولُ: أشعارهم تشهد عليهم؛ إنهم يكتبون عن شيءٍ يجهلونه تماماً، فالحبُّ تجربة وحياة، ومعظم المتصوّفين خالية حياتُهم من المرأة ومن مظاهر الجمال والإبداع في الطّبيعة والخلق، ولو كانت أشعارهم وتجاربهم حقيقيّة لاستطاعت أن تُحْدِثَ التّغييرَ المطلوب، لكنّها تبقى مجرّد كلام على ورق. لذا فأنا لا أصدّقُ أشعارَهم، ولا أصدّقُ كلام العديدِ منَ القدّيسين، لأنَّ الواقع والتّاريخ

يشهد عليهم وضدّهم أيضاً، وحكاياتُ بعضِ الأديرة والرّاهبات المغتصَبَات من طرف رجال الدّين وأجنّتهم المدفونين تحت بلاط بعض الكنائس القديمة فيها ما يُوقِفُ من هول المشاهدِ المرعبة شعرَ الرّأس من جذوره.

ربّما لو توقّفنَا قليلاً عن الخوضِ في الحبّ والحديث عنه لكان هذا أفضل لنا جميعا. فلنصمُتْ بعضَ الشّيء، ولنعمل كثيراً، ولننصت للقلب البِكر العذريّ، ولنبتعدْ عن هذا التَّقدّم الّذي هلكَ الزّرع والضّرع في عقولنا وأجسادنا، فالحُبُّ من حولنا لكنّنا لا نجيد الاستماع إليه. الحبُّ نظرةٌ وصمتٌ وعمل، قبل أن يكون كلاماً وأشعاراً. الحبُّ هو مثلاً أبي رحمهُ اللهُ الّذي كانَ يقضي اللَّيلَ مستيقظاً ليساعدَ أختِي على حفظ الدّروس واستيعابها بشكل جيّد، لأنّ امتحان السّنة النّهائيّ على الأبواب، وهو كذلكَ أنا، حينما أستيقظُ في الصّباح الباكر لأعدَّ لزوجي ما لذّ وطاب من الأطباق في يوم عطلتنَا لأقول له فقط: إنّ الحياةَ بكَ أجمل. والحبّ أيضاً زوجِي وهو يمشي تحت شمس آب الحارقة ويعود مُحمّلا بكلّ ما يحتاجُ إليه بيتنا الصّغير، ليقول لي فقط: إنَّني أنا البيت وزهرتُه وشمعته المضيئة.

الحبّ هو أن تشعرَ بالانتعاش والدّنيا صيف حارق، فقطْ لأنّك سمعتَ صوت حبيبتكَ في الهاتف، والحبّ هو أن تستيقظ في كلّ صباح وتشعر بسعادة عارمة لأنّك رأيتَ إلى جانبك وجه حبيبتك، فتقعُ في حبّها كما لو أنّك رأيتها لأوّل مرّة، وهذا يحدثُ لأنّ الحبَّ هو الله، وهو حالة السّلام الّتي تجعلكَ ترى الخالقَ في وجه حبيبتِكَ. الحبّ قيامة، وانتصار على الموت، وهنا يكمنُ الفرق بين من يُحبّ وبين من لم يطرق الحبُّ بابَه أبداً، لأنّه بالحبّ فقط يطأ الإنسانُ أرضَ الملكوت، وبدونه يبقى مجرّد جسدٍ فارغ تقرعُ فيه الشَّياطينُ طبولَ الحسرة والهزيمة والخراب. وبهذا أيضاً يختلفُ الصّوفيّ الحقّ عن غيره ممّن يمضي حياتَه في الكتابة عن الحبّ من وحي الخيال والأوهام دون أن يعرفَ معناه الحقيقيّ، ودون أن يحملَ

صليب المحبّة ويتحمّلَ في سبيلها محنَ ومشاقّ واختبارات هذا السّفر الطَّويل القصير الَّذي هو الحياة.

٤٩. كيف ترى أسماء غريب الصّداقة في زمن الفيسبوك؟

حضورُ العارفِ الحقِّ على الفيسبوك أمرٌ صعبٌ للغاية، وأصعبُ منه أن يكونَ لديهِ فيه "أصدقاء"؛ فهو المنعزُل المُختلي اللّامنتمي، وهو الّذي لا يجدُ لذّة إلّا في مصاحبة خالقه، وما عدا ذلك لا يوجد شيء في الدّنيا يمكنهُ أن يجلبَ له أيَّ نوعٍ من السّعادة أو الانشراح، إلّا إذا أنعم عليه الرّحمن بصحبةِ عارف أو صوفيّ حقيقيّ مثله شعارُه السَّلام والمحبّة والصَّفاء في زمن كثر فيه الأدعياء والمتفيْقهون. وهذه حقيقة يصعبُ على منتسبي الفيسبوك من زملائِي الكُتّاب أو الأدباء تقبّلها أو استيعابها، فهُم يرون الحياةَ مخالطة ومشاركة، وأنا أراها عملاً وخدمة للآخرين في صمت وبطريقتي الخاصّة جدّاً، وبدون ضجيج أو إشهار أو إعلان، أو إعجابات، أو تعليقات، أو لائحة لا تنتهي من "صداقات" قد تتجاوزُ الأربعة ألف "صديق" أو ربّما أكثر.

لا يتعلّقُ فِكري بأحد، ولا قلبِي بمكان أو زمان، فأنا عابرة سبيل، وعابر السَّبيل عليه أن يكون خفيف الحمل: يخدمُ ثمَّ يمضي، ولا يطيلُ الوقوفَ في المحطّات. وقد تكون جمعتني فترةُ عملٍ إبداعيّ مع أحدهم أو إحداهنّ، لكنّ الفترةَ تنتهي، والعملَ كذلك، والحضورَ أيضاً، ليس هناك متسّعٌ من الوقتِ للتوقّف، فالعمرُ يجري، وسيفُه بتّار على الجميع.

في الفيسبوك كلّ شيء يُلْهي، كلّ شيء يأسِرُ العيْنَ؛ الأسماءُ والصّورُ والدّردشات، والتّعليقاتُ وتسجيلات الإعجاب وما إلى ذلك، ولأنّني منشغلةٌ جدّاً ببناءِ فكري، فلا وقت لديّ لكلّ هذا، ولا لربط صداقات إلكترونيّة مع أناس لا أعرفُهم حقيقة، وإن كانوا ينشرونَ الكثير من التّفاصيل عنهم من خلال الصّور الّتي توثّقُ

أنشطتهم وبعضاً من مظاهر وفعاليات حياتهم اليوميّة وما إلى ذلك، فهذا في عُرفي لا يعني شيئاً، وقد أرى فيه ما لا يراهُ غيري، فيزيد من قناعتي حول مفهوم الإنسان العابر السَّبيل الخفيف الحمل في كلّ شيء حتّى ليبدو كأنّه ريشة مُحَلِّقة في الفضاء؛ كما أتى في صمت يمضي ويعودُ في صمتٍ أيضاً.

الفيسبوك ضالّةُ العطاشى لكلِّ شيء، ضالّةُ من يبحثُ عن الأُنسِ والخروج من العزلة، وهو لهذا السّبب لا أعدُّهُ مكاني الأثير، ولا أنشرُ فيه كثيراً، وكلّما نشرتُ شيئا على صفحتي محوتُه، لأنّني فيه أدخلُ من مكان إلى آخر، وأخرجُ من زمان إلى آخر، وأظهر وأنْمَحي في الوقت ذاته، فأنا فانية، وأحبُّ أن أسجّل هذا الفناء في حركاتي، وأنا كذلك باقية، وأسجّل بقائي بطريقة خاصّة يعرفُها ويهتدي إليها من لا يعنيه وجودي على الفيسبوك في شيء، لأنّه يعرف جيّداً أين سيذهب إذا أراد أن يقرأ فكري، ففي الشّبكة توجد مواقعي الرّسميّة، وهي تغني عن كلّ "صداقات" تتلصّصُ على كلّ شيء، وعن تعليقات أو إعجابات لا تُغني ولا تسمن من جوع.

ولربما يقول قائل إنّ هذا الأمرَ سيُفْرِغُ نظريّة التَّواصل عبر مواقع الفيسبوك والتويتر وما إليها من معناها الحق الّذي نظّرَ لهُ العديد من علماء النّفس والاجتماع، وعليه أجيب: أبداً، إنّ من يعرفُ كيف ينتقي الأسماءَ، سيجدُ أنّ القليل من "الأصدقاء" ممّن سيعملُ معهم يكفي، وكثيراً ما يحدثُ أن يضطرّكَ التزامُكَ بالعمل مع أديب واحد مثلا إلى التفرّغ له لسنتين أو ربّما أكثر، فما بالك إذا كانت لك "صداقات" لا تستطيع أن تستوعب عددها. وبالمناسبة، فحتى مارك زوكربيرغ مخترع هذا الموقع، مركّز على نفسه وحياتِه أكثر مما يتوقّعه أحد، وليس عنده الوقت الكافي يقضيه على صفحات الفيسبوك ولا على غيره من هذه المواقع، فثمة موظفون غيره يقومون بهذا الأمر، فهوَ منشغل ببناء حياته، وبحُبِّ زوجته وبطفلتهمَا الثّانية الّتي لم يبقَ على ولادتها إلّا القليل، فهل مِن مُستوعِبٍ؟ وهل من مُعْتَبِر متّعظ؟!

إنّ مَن يفهمُ كيف يعملُ جسدُ الإنسان وعقله وقلبه، سيسهلُ عليهِ جدّاً أن يستوعبَ ما قلتُه: مواقع التّواصل والجلوس لوقت طويلٍ أمام الحاسوب أو الهواتف الذّكيّة أمرٌ يشتّتُ الذّهنَ تماماً ويزيد من شرود العقل، ويُخرّبُ الذّاكرة بمرور السِّنين، وقد لا ينتبهُ الإنسانُ إلى هذا الأمر إلّا بعدَ أن يجد نفسَهُ مرتبكاً في كلّ شيء. وهذا ليس بالأمر الجيّد بتاتاً لمن يعمل في مجال الكتابة والإبداع الأدبيّ والفكري بشكل عامّ.

ثمّة مشكلة أخرى أشدُّ خطورة ممّا أشرتُ إليه قبل لحظات: الفيسبوك وغيره من مثل هذه المواقع ينمّي لدى الآخرين بمَن فيهم الكتّابُ والأدباءُ الشّعورَ بالإحباط من كلّ شيء، ويدفعهم إلى تكوين قناعات وتأويلات خاطئة تماماً عن غيرهم من زملائهم، لأنّهم لا يفسّرون الأمورَ إلّا من خلال ما يظهر لهم، وكلّ ما يطفو على السّطحِ ليس دائماً حقيقة مطلقة. والنّتيجة هي أنّ العديدَ من الكتّاب أصبحوا يستلهمون موادّهم الإبداعيّة من هذه الأجواء والفضاءات، وهذا أمر فيه نوع من الاستمناء الفكريّ، لأنّهم يبنون مادّتهم الإبداعيّة على ما يعتقدونهُ صواباً وهو في الحقيقة ليس كذلك، فتكون النّتيجة إعلاء صرح نوع أدبيّ جديد مبني على ثقافة الوهم، والتّجارب المزيّفة، بل ثمّة من يقضي عمره يكتبُ روايات مستقاة من الواقع الرقميّ الممتلئ بنفايات الحروب الإعلاميّة مثلاً، والمعلومة الخاطئة والصّورة المفبركة والفيديوهات المُركّبة وما إلى ذلك، ظنّاً منه أنّه يوثّقُ للحظات من التّاريخ الحديث، في حين أنّ الحقيقة لا يدركها سوى الرّاسخين في المعرفة، وأعني بهم أولئك الّذين ينأون ما استطاعوا بأنفسِهم عن كلّ هذا الخراب الرّوحيّ والضّجيج الرّقميّ.

٥٠. الموتُ والغُربة، أيّة علاقة هذه في بلاد البُعد، وكيف ترينها وتقَيّمينَها؟

ليست مادِّيّةُ الأرض من تُحدّدُ غربة الإنسان وإن بَعُدَ عن مسقط رأسهِ، إنّما الغربة هي غربة الرُّوح وغربة القلب، ومن خلا قلبُه من الله فهو غريب وإن كان بين أحضان الأهل والخلّان. والإنسانُ في رحلات وأسفار مستمرّة لعلَّ أهمّها أسفار الرُّوح بين أرض الابتلاءِ وأرض الرّفعة ثمّ أرض الهدايةِ والنّجاة، وأرض الميقات الإلهيّ، وغيرها من محطّات ومقامات يحطّ بها المسافر رحالهُ كلٌّ على حسبِ استعداده الدّاخلي وزادِه ومِزودَته ومَرْكَبَتِهِ. وأمّا عن الموتِ، فحياةُ العارف موت في موت مستمرّ، لأنّ صحبة الله والرّجوع إليه في كل آن وحين تقتضي ذلك، أيِ الموتَ عن النّفس بكلّ درجاتها ودخولَ القبر بالحقيقة. وأحبّاء الله لا يموتون وإنّما ينتقلون من دار إلى أخرى، ومن حالة إلى أخرى. ولا بدّ للموت من المراقبة، وهي الحالة الّتي يشعر فيها الإنسان بأنّ كلَّ جسده أصبحَ عيوناً في عيون تراقبه وتحرسه في الآن ذاته، وأعني بالجسد هنا، كيانَه الدَّاخليّ، وقلبَه صاحب العين الحوراء الكبيرة الّتي تنظرُ إلى كلّ شيء مصداقاً لقوله جلّت قدرته: ((وهو معكُم أينما كُنتُم، واللهُ بما تعملونَ بصيرٌ)) (الحديد:٠٤). وهذا الموتُ الّذي أتحدّثُ عنه هو حياةٌ للعارف، جديدةٌ متجدّدةٌ إلى الأبد. وأمّا عن الموت العارض الّذي يُزيلُ حياةَ الإنسان ويُنهي أجلَهَا في أرض الغربة، فهذا لي فيه حديث ذو شجون، إذ بهِ عرفتُ أنّ الإنسانيّة مازالت عند نقطة الصّفر، لا هيَ عرفتِ اللهَ ولا هيَ وحّدتْهُ وإن كانت تدّعي ألّا إله إلّا هو، وأنّه الواحد المعبود لدى كلّ النّاس وفي كلّ الدّيانات. فالموتُ الجسديّ في كلّ بقاع الأرض فضحَ الجميع، وذلك بحرصهم المستمرّ على تعدّدِ المقابر والطّقوس وطرقِ الدّفن وما إليها. والمسلمُ الَّذي يموت في أرض غريبة غربيّة مثلاً يصبحُ موتُه مشكلةَ المشاكل، ومعضلةَ المعضلات، إذ كثيراً ما يحدثُ ألّا يجدَ هذا التّعيسُ حتّى من يُغَسِّلُه، ولا من يدفنه، فما بالكَ بالقبرِ الَّذي سيأويه! وإذا افترضنا جدلاً أنّ هناك بعض الإجراءات الّتي تقوم بها بعض الجهات الرَّسميّة

فإنّ ذلك لا يتعدّى نقل جثمانه إلى بلد الفقيد الأصليّ، وهذا بالطّبع يقتضي تكاليف باهظة غالباً ما لا تكونُ عندَ أهل الميت أو أصحابه القدرة على دفعها أو تحمّلها. ومن هنا يأتي تساؤلي: ما الّذي فعلتهُ إلى اليوم الجهاتُ المسؤولة لصالح موتى المغتربين؟ لا شيء، حتّى أنّه لا توجد مقابر لدفنهم وإكرامهم وسترِ أجسادهم. والواقع في إيطاليا لا يختلفُ كثيراً عن الواقع في العديد من البلدان الغربيّة، فبغضّ النّظر عن مقابر صغيرة أصبحت ممتلئة عن آخرها في العاصمة روما، وكذا في ميلانو وتورينو وبعض المناطق الأخرى المتفرّقة هنا وهناك، فإنّ موتى المسلمين بمن فيهم أولئك الّذين وُلِدوا هنا في إيطاليا ويحملون الجنسيّة الإيطاليّة، ليس لهم الحقّ في موت كريم. أليسوا بإيطاليِّين مثلهم مثل غيرهم، فلماذا لا يُدفنون في أرضهم الّتي رأَوا فيها النُّور؟ لماذا لا تسعى السّلطات إلى حلّ هذا المشكل الكبير؟ وإلى متى سيظلّون هكذا ينتظرون نظرةَ عطف من ذوي التَّبرّعات وأهل الإحسان الّتي لن تأتي أبداً؟

وإنّي بطرحي لهذه المعضلة فإنّي لا أريدُ أن أجعلَها محصورةً في دائرة المغتربين المسلمين فقط، لأنّ المشكل ذاته يعاني منه الآخرون أيضاً من أهل الدّيانات الثّانية في مناطق مختلفة من العالم، كالمسيحيِّين واليهود الّذين يعيشون ويعملون في أرض مسلمة منذ زمن بعيد. ما الّذي سيفعلونه هُم أيضاً، إذا ما طرق الموت بابهم؟

ومن سؤالي هذا ينبع تساؤلي اللّاهوتيّ المُحرجِ جدّاً عن التّوحيد: أوَليْسَ اللهُ واحداً أحداً، فلماذا الطّقوس؟ ولماذا الاختلافُ؟ ولماذا لكلّ باب ومكان للعبادة؟

طبعا الجميعُ يعلمُ أنّ المسألة اقتصاديّة أكثر منها دينيّة، فالاختلافُ في هذه القضيّة يجلبُ الرّبح الوفير وبالمليارات لشركات نقل الأموات ودفنهم في كلّ الدِّيانات، ولن يكونَ في صالح أحدٍ أبداً توحيدُ الموتى في أرضِ الغُربةِ وضمّهم جميعا في مقابر واحدة تكونُ شاسعةً جدّاً، وتحتوي على أماكنَ مخصّصةٍ لكلّ ديانةٍ

علـى حـدة؛ ويكـون فيهـا المسـلمُون بـالقرب مـن إخـوتهم فـي الله المسـيحيين واليهـود وغيرهم من أصحاب الدّيانات الأخرى. أين هي الحضارة إذن؟ أين هي الأخُوّةُ والمحبّة في الله؟ بل أين هو حوار الحضارات؟ وأين هي شعارات السّلام والوئام مع سائر البشر؟ إذا كان الموتُ يفرّقكُم، فكيف ستجمعكُم الحياةُ أيّها النّاس؟

وأمّا عن المسلمين الّذين يقولون إنّ جمع الموتى في مدافن واحدة أمر مستحيل لأنّ إله المسيحيِّين ليس هو نفسه إله المسلمين، فهذا ما لا يقبلُه عقلٌ ولا منطق! ومن يؤمن بهذه الفكرة معتمداً على قضيّة التّثليث لدى المسيحيين مثلاً كحجّة ضدّهم، فإنّي أظنُّ أنّه قد وجب رفعُ حجاب الغموض والخلط والتّشكيك. والبداية ستكون من قوله تعالى حينما سأل السَّيّدَ المسيح عيسى ابن مريم:((وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ، قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ، إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)) (المائدة: ١١٦-١١٨)، وهي الآية التي سأعقّبُ عليها كما يلي: إذا كان أوّل القرآن بسم الله الرّحمن الرّحيم، فإنّ أوّل الإنجيل باسم الأب والابن والرّوح القدس، وما وقعَ الخطأُ إلّا في طريقة التّأويلِ لكلتا البسملتيْن فأخذَ قوم عيسى في بداية العهد المسيحي الكلامَ على ظاهره فظنَّ البعضُ منهم أنَّ الأب والابن والروح القدس شيئاً واحداً، وقالوا إنّ الله ثالث ثلاثة، دون أن يعلموا آنذاك أنّ المُراد بإسم الأب هو الله، وباسم الابن هو ماهية الحقائق، وباسم الرّوح القدس هو الوجود المطلق لأنّهُ نتيجة عن ماهية الكينونة والجوهر مصداقا لقوله عزّ وعلا: (يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) (الرّعد:٣٩)، وعليه يصبحُ ردّ سيدنا المسيح على سؤال الله: (مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ)

دليلا على براءته مما توهّمَهُ قومه لأنّهُ زاد في بيان وإيضاح ما التبس على الناس. فليس عيسى هو الله، ولا أمُّه كذلك معتذراً في الوقت ذاته لقومه طالبا من الربّ ألّا يلومَهم على ما فعلوهُ من خلال ما علمُوه بالإخبار الإلهي في أنفسهم، لذلك قال عيسى: (وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)، وهو يعلمُ جيّداً أنّ قومَه لم يخرجوا عن الحقّ أبداً، وإلّا ماكان طلبَ لهُمُ المغفرةَ، واكتفى بفعل ما فعلهُ إبراهيم (ع) مع أهله: (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) (التوبة:١١٤). وهذا ما يفسّر كيف أنّ جواب الله كان بأحسن ما يكونُ الجواب الإلهيّ دائماً حينما قال: (هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (المائدة: ١١٩)، أيْ أنّهم لمّا كانوا صادقينَ في تأويلهم لكلام الله على ما ظهرَ لهُم منهُ، فإنّ صدقَهُم هذا نفعهم عندهُ حتّى آلوا إلى الرّحمة الإلهيّة فكانَ الإنجيلُ عبارة عن تجلّيات الذّات في الأسماء، والّتي يُعدُّ التّجلّي في الواحديّة إحداها، وأعني بهَا تلكَ الّتي ظهر بها على قوم عيسى في عيسى، ومريم وكذا في الرُّوح القدس، فشهِدوا الحقَّ في كلِّ مظهر من هذه المظاهر مصداقاً لقوله تعالى: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) (فصّلت: ٥٣).

نعم إنّ اللهَ على كلّ شيء شهيد، وإنّي في رحلة المئة سؤال وجواب هذه، أُشْهِدُه في جوابي الخمسين هذا على قضية الموتى في المهجر وأرض الغربة، وأرفعُ له يد الرّجاء وأدعوه بأن ينوّر قلوبَ النّاسِ والمسؤولين علّهم يفيقونَ من سباتهم العميق وينظرون إلى المسألة بعين الحكمة والتّبصّر، ويعملون على حلّها في كلّ منطقة من مناطق العالم، أيْ حيثما وُجِد الغريب المغتربُ المهاجر بغضّ النّظر عن ديانته ومعتقده.

الملاحق

(ا)

مقدّمة الأديب والتَّشكيلي صبري يوسف

والخاصّة بديوان (٩٩ قصيدة عنكَ)

الصّادر في العراق عن دار الفرات للثقافة والإعلام

بطبعتين (٢٠١٥-٢٠١٦)

***

الشَّاعرة أسماء غريب مشبَّعة بإشراقةِ وهجِ الرّوح

من خلالِ قراءتي لتجربة الشّاعرة أسماء غريب، تلمَّستُ وكأنَّ حرفها مندلقٌ من خاصرةِ نيزكٍ، مشبَّعٌ بإشراقةِ وهجِ الرُّوح. حرفٌ يستنهضُ أحلاماً غافية بين وهادِ النِّسيان، منتشِلاً إيَّاها نحو ظلالِ القصيدة البكر. تكتبُ نصَّها من وحي تراكمات مشارب ثقافيّة فكريّة أدبيّة حياتيّة غزيرة، كأنَّها في رحلةِ استكشافٍ حلميّة لاستشرافِ أنقى ما في تجاعيد الذَّاكرة، وتجسيدها في رحابِ خيالٍ فسيح متعانقٍ مع تهاطلاتِ إشراقة الحرف على مرامي أسرارِ اللَّيل. حرفُها من طينِ المحبَّة، من مذاقِ قبلةِ الشَّمسِ لنسيمِ الصَّباح، من وهجِ عشقٍ معرَّشٍ في أدغالِ البساتين، من هدوءِ اللَّيلِ الهائم في عناقِ بهجة اندهاشِ القصائد!

تتدفَّقُ بانسيابيّة شفيفة بأفكارٍ ورؤى مجنّحة بأجنحةٍ مماثلة لطيورِ الجنَّة، تتناثرُ رؤاها على مسارِ بهاءِ الشِّعرِ، كأنّ عوالمها محبوكة بنغماتِ موسيقى متماهية مع تراقصاتِ خيالٍ متدفِّقٍ على إيقاعِ شلالٍ منسابٍ مع شهقةِ الفرح. تداعبُ عرشَ الحروفِ، وتغوصُ في أعماقِ دهشةِ الاشتعالِ، ثمّ ترسمُ بانتعاشٍ عارم رغبات مكتنزة في ظلالِ الرُّوحِ منذُ أمدٍ بعيد، حرفُها ينبعثُ من أشجارِ الحنين، ينسابُ خيالها بين شغافِ الحروفِ كرذاذاتِ مطرٍ ناعم، فتولدُ انبعاثات وميض

البوح من أعماقِ أحلامٍ متوارية في متاهاتِ الزّمن، فتنسجُ ألقاً شعريّاً متجدِّداً فوقَ سموِّ الابتهال.

كيفَ تلملمُ هذه الدَّهشة فوقَ هلالاتِ الحروفِ؟ هل تشكَّلت مزاميرها من حليب السَّنابل أم تبرعمت من مساحاتِ الخيال عبر انبلاجِ خيوطِ الشَّوقِ إلى هالاتِ قداسةِ الكلمة منذ أن انبثقت من قبَّةِ السّماء فوقَ سديم البحار، وانسابت مسترخيةً فوقَ ينابيع منارةِ الرّوح؟! كيف تموسقُ منارة البوح مع تيجان القصيدة، في أتون انشراخات هذا الزَّمان؟! زمنٌ تائهٌ في مهبِّ الانحدار، تنجو القصيدة من شفير الانزلاقِ في شراهاتِ العبورِ في فخاخِ الشُّرور، وحدَها القصيدة تناغي أبهى ما في ثمارِ الرّوح!

أسمعُ هدهداتِ اليمامِ في حنايا حرفِها، تبتهلُ لحنينِ السّماءِ وتغدقُ أطيبَ الثِّمارِ فوقَ طراوةِ الأرضِ، تمتازُ بذاكرة مشبوبة بالصَّفاء كأنّها مصطفية من عذوبة البحر، فأرى شاعرة مشرئبّة برحيقِ حرفٍ مزدانٍ بأنوارِ شموعٍ حالمة بالضِّياء، شاعرة مفعمة بشذى بخورِ القناديل، تنثرُ بهاءَ القصيدِ على مساحاتِ حلمٍ مجدولٍ من ينابيعِ الرُّوحِ المبلَّلة بحبقِ الحياة. هل تستمدُّ بوحَها من إشراقةِ الشّمسِ، على إيقاعِ رفرفاتِ أجنحةِ العصافير في صباحٍ مندَّى بهبوبِ النَّسيمِ، أم من تراقصاتِ موجاتِ البحرِ، أو من بسمةِ الأطفالِ وهم يغفونَ فوقَ أبهى مآقي الزُّهورِ؟!

نصُّها يشبه طفلة مسكونة بعصافير النَّعيم، كأنّه متجذِّرٌ بأشجارٍ باسقة مخضَّلة بشهوةِ الاخضرار، وشامخة شموخَ جبالٍ مسروجة بحنينِ البحار، يبدو نصُّها في بعضِ تجلّياته كأنّه طنين نحلة تحومُ حول بهاء فراشاتٍ مسترخية فوقَ بتلاتِ زهرةٍ مكسوَّة بزغبِ القصيدِ، تلتقطُ صوراً هاربة من واحاتِ الخيال، مندهشة من قدرةِ الحرفِ على عبورِ أهازيجَ الرُّؤى المتناثرة فوق تيجانِ العمر. تموجُ حروفُها في ثنايا البوحِ فرحاً متماهياً معَ بهجةِ الطّبيعةِ، وتهمسُ لروحِها بكلِّ انتعاشٍ، نِعمةُ

النِّعَمِ أن نعانقَ روعةَ الغاباتِ، ونتمتّعَ بجمالِ الكونِ ونستوحي عبيرَ الحرفِ من خميرةِ الحياةِ.

عندما أقرؤها، أشعرُ وكأنَّ طاقة فرحٍ تغمر صباحي، تنعشُ ليلي الغافي على وشوشات البحر، شِعرها مصحوبٌ بتغريدِ الأملِ، مزدانٌ بتلاوين سموِّ الرّوحِ، حرفُها رسالةٌ ممهورةٌ بحفاوةِ العشقِ، هل تستلهمُ حرفَها من بخورِ الوفاء، من نورِ القداساتِ، من ابتهالاتِ شموخِ القلبِ؟! هل تكتبُ القصيدة من وحي تجلِّياتِ الرّوحِ وهي تحلِّقُ بين هلالاتِ زرقةِ السّماءِ، أم أنَّها تستلهمُ حرفَها من تلألؤاتِ النُّجوم الغافية بين منعرجاتِ أحلامِ الطُّفولةِ؟! طموحُها جانحٌ نحوَ الأعالي، مسربلٌ بهلالاتِ غيمةٍ تهطلُ بهاءً فوقَ قبابِ سديمِ الرّوحِ، بحثاً عن نورانيّة قداسةِ الحرفِ، كأنَّها شاعرة مجبولة بأسرارِ الطّينِ الأوَّل، جانحة نحوَ خصوبةِ الرّوحِ المخضّلة بيراعِ الاخضرارِ، تنقشُ هواجس الحنين فوقَ نضارةِ مويجات البحر، مستلهمةً من شهوةِ الغابات، مسارات العبور إلى مذاقِ الحروفِ ودهشةِ الانبهار، تسرجُ حفاوةَ الحرفِ من نكهةِ التّينِ المتدلّى فوقَ عناقيدِ العنب، بحثاً عن مساحاتِ بوحٍ شعري متآلف مع آفاقِ الخيال، ورغبةً في العبورِ في مرامي أحلامِها المجدولة بأريجِ أبهى الأزاهير.

تستنهضُ مخيّلتها طاقاتٍ دفينة، تستعيدُها من الأغوارِ السَّحيقة وتفرشها فوقَ أوجاعِ الأمّهاتِ الهاربات من ضجرِ اللَّيلِ الطَّويل، تبلسمُ حروفُها الجراحَ النّازفة من شراهةِ نيرانِ الحروبِ المندلقة من رؤى بليدة، غارقة في الانشراخ. تمتلكُ وئاماً بهيّاً معَ قلقِ الرُّوحِ، وتزرعُ حرفها فوقَ قلوبِ عطشى للمطر، يتهادى حرفها مثل نوارسِ البحرِ فوقَ رشقةِ الأمواجِ، راسماً فوقَ أجنحةِ النَّوارسِ صفاءَ البحرِ وشوقَ القصيدة إلى أشجارِ البيتِ العتيق، تطفحُ عيناها ألقاً إلى كتابة نصٍّ من خصوباتِ دهشةِ الانبهار!

حرفُها مكتنزٌ بثمارٍ شهيّة، تتهاطلُ رفرفاتُه من أجنحةِ قلبٍ معرَّشٍ بنسغِ المحبّة، فتنقشعُ خلال انبعاثات شهوة الحرفِ، كلُّ الأحزانِ والمراراتِ العالقة في سراديب الرُّوح، وتصفو الرُّوح من الشَّوائب العالقة في هلالاتها على مدى هبوب الغبارِ على وجه الدُّنيا، تسمو روحُها الشَّفيفة عاليةً، متطهّرة من أدرانِ الحياةِ، شوقاً إلى معانقة سموِّ السَّماءِ في ليلةٍ مكلَّلةٍ بأغصانِ الزَّيتونِ على خفقةِ رفرفاتِ حمائم السَّلام، محلِّقةً فوقَ مآقي المدائن، قاصدةً ملاذ الرّوح في عرشِ الأزل كي تنعمَ في مروجِ النَّعيمِ على مدى بهجاتِ الانبعاث، تهفو إلى عناقِ حرفٍ مصفّى كالماءِ الزُّلال! بهجةٌ غامرة تسربلني كلّما أتوغَّل في تجاويف الخيال المنساب من حبورِ بوحِها المنبلج من لجين الأفكار المنسوجة من شراعِ الأفراح المرفرفة فوقَ مآقي الحنين إلى شموخِ تيجانِ المدائن. تبدو أحياناً مكفهرّة الحرفِ من تصادمات بعض البشر وابتعادهم المخيف عن جوهر الحياة. حبرُها يناجي الحيارى، حاملاً بين ثغرِهِ مهاميز السُّؤال.

ألامسُ زغبَ الحرفِ، يبدو في الكثير من وهادِهِ، كأنّه مجبول من رعشة طيرٍ يلهو معَ نسائم الصَّباح، يمنحنُي حرفُها أجنحةً وارفة بألقِ السُّموِّ، فأشعرُ أنّي أحلِّقُ عالياً وأداعبُ ضياءَ القمر، تضيءُ القصيدة معالم الطَّريق، وتخفِّفُ من سماكاتِ السَّديمِ فوقَ أحداقِ العيون.

لا تكتبُ القصيدةَ كلمةً كلمةً، تغمرها الرُّؤى كشلَّالِ فرحٍ منبعثٍ من إشراقةِ الشّمسِ، وتسربلُها حتَّى الامتلاء خلال توهُّجات شهقة العبور في حنايا تجلِّيات خصوبة الإبداع؟!

***

أسماء غريب قامة أدبيّة باسقة، شاعرة مخضّلة بتوهّجاتِ حرفٍ مكوَّرٍ بألقِ الانبهار، مشبّعة بينابيع شعريّة صافية كنسيم اللَّيل العليل، تسعى منذ أن غاصت

في أسرار الحرف، أن تغدق ألقَ الانبعاث نحو أقصى مسارات وهجِ الاشتعال، كي تطهِّرَ الرّوح من شوائب الحياة، عبر ابتهالات بوحِ القصيدة.

كلَّما أعبر معالم حرفها، أراهُ مبلَّلاً بأعشابِ الطُّفولة، لما فيه من أصالة مترعرعة في أنساغِ حنينها إلى البيوت العتيقة، العالقة في أخاديدِ الذَّاكرة، متوجِّهةً نحو التِّلالِ البعيدة، بحثاً عن أسراب الحمام كي تنسجَ قصيدتها على أنغام هديلها الطَّافح بالوئام بين شهيقِ الكائنات.

شاعرة منشرحة القلب، تسمو عالياً على إيقاعِ خيالٍ جانحٍ نحو قِبابِ الوئام، تهفو أن تزرعَ هدهدات بهجة الرّوح في لجينِ السَّديمِ المتناثرِ فوقَ مآقي الغمام. تنسج أحلامها الوارفة فوق جبينِ الصَّباح، مسترسلة في حفاوةِ عناقٍ متدفِّقٍ مع حبّاتِ المطر، راسمةً بسمة الحرف بطراوةٍ منعشة فوقَ مسارِ تجلِّياتِ الخيال، مستلهمةً من وهجِ الشَّمسِ جموحَ شهوةِ الانبعاث!

الشّاعرة أسماء غريب، حالة شعريّة نقديّة ثقافيّة فريدة في تمايزها في بناءِ رحابةِ شعرها، وانفراجِ مسارات نقدها، ودقّة غوصها في معالم النُّصوص الَّتي تعكف على ترجماتها، حيث تتوغَّل في فضاءاتِ الشّاعر وتقرأ بشغفٍ عميق مسارات شاهقة من تجربته، وكأنّها إزاء بحثٍ تحليلي عميق عن أسرارِ بهاء الحرفِ، إلى أن تبني صورة عميقة عن إبداع الشّاعر الَّذي تنوي ترجمة نصوصه، ثمَّ تبدأ بترجمة قصائد الشّاعر، فيسهل عليها العبور عميقاً في الظِّلال الخفيّة للشاعر، ولهذا عندما أقرأُ نصوصها الَّتي ترجمَتْها، تبدو لي وكأنّني أقرأ نصَّاً أصيلاً وليس مترجماً، فهي تمتلكُ مهارات وتقنيات نقل الوهج الشِّعري، والألق الأدبي، عبر الصُّورة المماثلة للغة المنقولة إليها بهاءات النُّصوص المترجَمة، وكلّ هذه الرُّؤى السَّديدة، ساهمت في تعميق تجلِّيات آفاقها الشِّعريّة عندما تسبغ فوق حرفها خيوطَ الانبعاث!

***

توقفتُ مليّاً عند ديوان الشّاعرة أسماء غريب، "٩٩ قصيدةً عنكَ"، بعد أن تمعَّنتُ في لوحة الغلاف كمفتتح للولوج إلى فضاءات الدِّيوان، لوحة معبِّرة عن فحوى القصائد، يتسبَّحُ اِسم الله في قرص الشَّمس الوهّاج وفي ضياءِ القمر وتلألؤات النّجوم في قبّةِ السّماء القمراء. يتوسَّط اللَّوحة شموخ كائن له جناحان سامقان، اخضرار الزُّهور في قبّة السّماء. يبدو واضحاً أنّها كتبت أشعارها لتمجيد وتسبيح الله في الأعالي، ونصوصها هذه هي ترميزات قداسة الله كما جسّدتها الشَّاعرة في متون قصائدها الَّتي استلهمتها من جلالة مجد الله، فتراه ممجَّداً وساطعاً هذا الإله القدُّوس في الأرض والسَّماء، وفي كلِّ مكان، لأنّه نور الحياة، فترسم الفنّانة الشّاعرة لوحة غلافها من وحي فضاءات ديوانها المستلهم من تجلِّيات سموّ الله في فضاءات الأرض والسَّماء الرَّحبة. أسماء غريب شاعرة رهيفة عبر اللَّون، وفنّانة جامحة عبر الكلمة الممراحة. تنسج الشَّاعرة "قصيدة ذهبيّة" عبر تدفُّقات سامية في بحار قداسة الله وفضاءات الأنبياء والقدِّيسين الّذين أرسلهم للعالم لتمجيد اسمه في الأرض والسَّماء!

إنّها فردوسٌ من الشّمُوس والأقمَار والكواكبِ
إنّهَا محيطٌ أخضر ونوارسٌ بيضٌ
بلْ قلبٌ صبٌّ متيّم / وأشجارٌ مِنَ المنّ والسّلوى
إنّها أنتَ يا إلهي
قالتِ الطّفلة بلسانٍ ألثغ
ثم غاصَتْ في محيطِي الأخضَر
أنا القصيدة الذَّهبيّة.

تجنحُ الشّاعرة نحو ذاتها الصَّافية صفاء الرّوح المنبعثة من سموٍّ إله أزلي في بهاء السَّماء، كما تهفو عبر نصَّها إلى إله يصفِّي الرّوح من الجشاعةِ والشَّراهةِ، بحثاً عن حنوٍّ دَمعةٍ منسابةٍ من مآقي السَّماء.

حِينمَا فَتَحْتُهَا وَجَدْتُ فيهَا

دَمْعَتَكَ العَظِيمَة يَا إلهِي

فشَرِبْتُهَا وَجَلسْنَا مَعاً؛

أنْتَ وَأنَا نَبْكِي وَنَبْكِي

إلى أنْ سَمِعَنَا العِيدُ

فطرقَ بَابنَا وقال حِطّة

ثمّ جلس إلى مَائدَتِنا يبْكِي هُو الآخر

فوقفتُ وطَفِقْتُ أمسحُ بيدِي دَمْعَكَ ودَمْعَهُ

يا إلهِي.

تنسجُ عبر نصّها ليالٍ مخصَّبة بنِعَمِ السّماء المتهاطلة على الأرض، من خلال اِتّحاد اللّاهوت بالنّاسوت لإنقاذ العالم من تبعات الخطيئة الأولى، وهجٌ شعري ينبعثُ من أعماقِ تجلّياتِ بوحِ الرُّوح!

ثمَّ بعدَ الصَّحوِ بقيتَ

فصرْتَ الجمعَ وصرْتُ الكثرة

وظهرتَ لي وظهرتُ لكَ

وحبلتُ في الختام بكَ مِنكَ

فصرتَ ابني وصرتُ ابنتكَ

وقام فيكَ عيسايَ وقامتْ فيّ مريمُكَ

وعُدنا على بدء نبكِي بدل الدّمع دماً

لا أنت تعرف لبكائنا سبباً ولا أنا أدري لِمَ!

ترى الشّاعرة أنَّ الحبّ المقدّس طريقنا إلى أسمى حبورِ الفراديس، تستلهمُ مزار العشق من وحي رحاب الحبِّ الأزلي المنبعث من روح الإله.

أعرفُهُ جيّدا: / إنّهُ أبي الموشومُ بصُلبانِ المحبّة

تمتلكُ رؤية جانحة نحو أغصان المحبّة المبلَّلة بالسَّلام. وفي نصّ "حديث النّواعير العشر"، تزهو الشّاعرة بابتهالات النّواعير المزدانة بماء الحياة، عبر لغة متناغمة مع بهجةِ روحٍ مرفرفة فوقَ بهاء روعةِ الغسق!

عرُوسَتي صاحبة التّاجِ والهوْدَج الأزرق

.... أنا اليدُ الَّتي تمْسَحُ دموعكَ ساعة الحنينِ

وتغسلُ جراحَك عنْد الغسَق

تنسجُ حرفها بليونةٍ كأنّها تناجي السَّماء عن أسرارِ بوحِ القصائد، وتستوحي من أريجِ الحياة ألقَ القصيدة، فتزهرُ الأبديّة عبر حرفها من خلال مذاق الموت، فهو بوّابة العبور إلى معراج النّعيم في روضِ السّماء!

ألمْ أقُلْ لك يوما يا صديقي

دعك قريباً من باب الموت

فهو باب الحياة

وبابُ شجرة العسل الأزرق

تترجم تساؤلات عديدة، مفتوحة على شساعة خيالٍ مجنّح نحوَ مرامي الإيمان.

سُؤالكَ ألسنةٌ من نارٍ / وسِيَاطٌ منْ لهبٍ أزرق

وجوابِي بحارٌ ومحيطاتٌ / لا تطفئُ عطشَ ظمآنٍ أبداً

تطرحُ الشّاعرة أزليّة الحي الدَّائم الَّذي لا يموت، وفناء الإنسان الجسد. وكأنّها تنادي بسموٍّ ونقاء الرُّوح، للوصول إلى فراديس الأزل، المعدَّة للبشر الأنقياء من قبل الإله في نعيمِ السّماء.

أنتِ يا ذاتَ العَرْش البَالي المُبْتلى

والرَّأس الغَافلَةِ عن أبدِيّتي،

أنا الحيُّ القيّومُ

الدّائمُ الَّذي لا يفْنى ولا يمُوتُ.

تسعى الشّاعرة عشقياً عبر بنائها الشِّعري نحو مملكة العشق الأزلي، لأنّها ترى العشق الحقيقي في الملكوت السَّماوي وكل ما عداه عشقٌ مؤقّت وزائل لا محال!

أريدُ أن أقبّلكِ / أن أرقصَ معكِ
فوقَ حبْلِ الفرحِ والسّعادةِ
وأركضُ خلفكِ / إلى ما وراء سدرة المُنتهى

يجسُّ حرفها نبض ماديّات هذه الحياة، فتبدو النّار رغم أجيجها كتلة من رماد، وكل ما يدبُّ على الأرض، كائنات عابرة وآنيّة، فلا تصعد إلى أمجاد الأعالي إلّا الرّوح الصّافية! تكتب حرفها من وحي رحاب المبدعين، بحثاً عن تجديد روح القصيدة.

لا تنمْ يا شمسَ تبريز اللَّيلة
فبيكاسو مازال يبحثُ عن نقطة الجَّمال الحقيقيّ
عن تلكَ الأنثى الَّتي يتغنّى بِها الشُّعراءُ
ويقعُ في حبّها الرّسامون والنّحاتون
تلك العذراءُ الَّتي تُطهّر القلوبَ والأجسادَ
منْ عبثِ الزَّمَان وسطوةِ الأيّام

تغوصُ في نصوصٍ جذورها معرّشة في زرقة السّماء، نصُّها أغصانُ عشقٍ مبرعمة في بحارِ العناقِ. تبدو في حالةِ بحثٍ دائم عن جرار الطّين المشويّة بألقِ القصيدة، وتجلّيات الذَّات إلى أقاصي المحبّة. تتوّج حالة الانصهار في الحبِّ والعشق إلى درجة التّماهي في هذه الحالات. وترسم الشّاعرة شموخ سومر فوق قباب السَّلام، مجسِّدةً مرامي أولى الحضارات!

سومر يا هُو يا أنتَ يا أنا، / يا هديلَ الحمام فوق القباب

ترفع راية المسرّة عبر حروفها الَّتي تدفَّقت نوراً فوقَ مرامي الكائنات، فوقَ أحلامِ البشر. نصٌّ محبوك على مهجةِ العبور إلى تيجانِ المحبّة. تكتب بغزارة وتجنح رؤاها أحياناً عبر تدفُّقاتها الشِّعرية نحو عوالم سورياليّة حلميّة شفيفة، تتميّز برحابة آفاق الخيال المكتنز بصورٍ تصدحُ بالجّمال.

حينمَا أكلتُ الشَّمسَ / أنا طائرَ الحُلم الزّبرجدي

تحوّل وَجهي إلى عَيْن من اللُّؤلؤ / وقلبِي إلى قزحيّة مِن الزّمُردِ

وجِذعي إلى بُؤبؤ من اليَاقوت الأزرَقِ

تغوص الشَّاعرة في أعماق النَّفس، لتزرع الثّقة النَّاصعة في النّفس، مستفيدةً من كلِّ لحظة في الحياة، بحثاً عن جوهر الحياة عبر رحلة حواريّة بديعة حول الحبِّ وما يعترضه في الحياة من صعوبات ومشقَّات ولكن الوصول إلى الهدف ممكن عبر المحبّة. بناءٌ شعريٌّ متين في بساطته وآفاقه وتهويماته البديعة.

آلو، هلْ مَازلتَ مَعِي عَلى الخَطّ؟

لا تنسَ أنْ تُعَانقَ أهلكَ / وأنْ تحْمِلَ مَعكَ رفيقَ الطّريقِ:

كتابَكَ الذَّهبيّ وزهْرتكَ الحَمْراء / وامشِ إلى أنْ تصِل إلى جَبَلِ النّار

ستجدُني فِي انتظارِكَ هُناكَ / كيْ نمْشي مَعاً فوقَ أخْدودِ الجَّمْرِ

هناك تجسيد عميق في قصائدها لمساحات الوئام وأجنحة الحمام في ضياء الكون!

قصيدتي الخفيّة طائرٌ صغيرٌ جدّاً / لهُ خمسةُ عيون وعشرة أجنحة.

عند كلّ فجر حينما يعودُ إلى جسدي / يبدأ في اللّعب بالطّين والماء

كيْ يصنع لي في كلّ يوم / اثنتي عشرة حمامة

تحلِّق الشّاعرة في فضاءات الحكمة، مستلهمةً ألق القصائد من ألوانِ الحياة. تنسج نصَّها من كنهِ الميتافيزيق، كأنّها في حالة تحليق نحو نضارة الأعالي.

عجبي كيفَ أقيمُ بينَ جوانحكَ ولا ترانِي

وكيف أنّي بيْنَ بُطَيْنِ قلبكَ وأُذَيْنهِ ولا ترانِي

فمَتى تنزعُ عنكَ حِجابَ الزّرقة / كيْ يقع التّجلّي فترانِي؟!

تتواصل مع قوى البشر من خلال مناجاة الله وتجسيد رؤى حكيمة في غدنا الآتي. تترك الشَّاعرة تساؤلات مفتوحة على آفاق الخيال، عبر مهاميز بوح القصيدة.

إلهي،
لِمَ جعلتنِي حمامةً تطيرُ
وتغنّي أعذبَ الألحان
تطيرُ وتُغنّي فوقَ الأنهار والأشجار
فوق الصّحاري وفوق البحَار
وفَوقَ قمَم أحرام الجَّامعات
وساحاتِ المطارات؟

تتوقّف الشَّاعرة عند حالات ارتباك المرء من تنافرات وتناقضات الكثير من مواقف الحياة، وتكتب عن الأمل والبحث عن معاني الأمل عبر تراميز القصائد. تشبِّه الحبيب، الصَّديق، بكلِّ ما هو متألِّق وفتّان، ولديها اِنصهار عميق في الذَّات الإلهيّة والجّمال والسُّمو نحو الأعالي.

كلّ ما أريدُه،
نظرةَ عشقٍ حارقةٍ مِنكَ
كلّما سجدتُ لكَ عند السّحَر،

تتحدَّث عن عاشق من روعةِ بساتين الخميلة. وتطرح تساؤلات مفتوحة عن منائر العلوم، ومسار الحرف في منعرجات الحياة! تستخدم الشَّاعرة ترميزات عبر نصِّها حول علاقة الرُّوح بالجَّسد وعلاقة الأرض بالسَّماء بأسلوب يتماهى مع معراج العشق الإلهي. تتألَّقُ في مناجاة البحار والرُّوح الصَّافية، عشق في رحاب الزّمن. وترى أنَّ مرامي الحياة تنبع من لبِّ الحرف وجوهر رؤانا، إنّه طريقنا إلى أقاصى

التَّجلِّي. تبحث عن الحرّية، فلا تجد إلّا أصفاداً تحاصر ليلها الغارق في أوتادِ السُّؤال. وتنسج طموحات مزهوّة بألقِ النَّعيمِ من خلالِ مناجاةِ ينابيع صفوة الإيمان.

تجنح الشّاعرة نحو بناءِ نصٍّ شعريٍّ واضح، تهدف إيصال الصّورة الشِّعريّة بليونةٍ فريدة، بعيداً عن أيّةِ ترميزات ضبابيّة، مركّزةً على ثقافتها العميقة وموروثها الثَّقافي المنفتح على آفاق تطلُّعاتها الَّتي تصبُّ في رحابِ الينابيع الصّافية. ونجدُ لدى الشَّاعرة روحاً ثوريّة على كلِّ ما هو متحجِّر، فترى الشَّاعرة أنَّ للحرف للنقطة للشعر قوّة وتأثير على آفاق حياتنا على مدى تاريخ الحضارات، وصولاً إلى الوقت الرّاهن!

سأثور عليكَ كيْ أعِيدَ ترتيبَ حُرُوفِ الأبْجَدِيّة
وأعِيدَ إلى العُشّاق نُقْطَةَ رَبِيعِهِمُ المَفْقُود
ونُقْطَةَ شَمْسِهِم الدّامية وَسَط القُلوب
وأضَعَ نُقطَةَ نِظَامٍ جَديدَة وَسَط مُجَلّدِ التَّارِيخِ
المُطَرّز بالتّرّهَاتِ وَالأكَاذِيبِ.

وترى أنَّ تطهير كلّ شوائب الحياة، يتمُّ عبر نار المحبّة والصَّفاء والحكمة والنّزوع نحو سموِّ السَّماء! فتناجي المشاعر الدَّفينة، المعشَّشة في أعماق القلوب، ثمَّ تغوص عميقاً في مرامي العلوم عبر تساؤلات لأسرار السّماء! تتماهى مع روعة الحياة كأنّها جزء من روحانيّة الشّاعرة ومبرعمة في عوالمها الخاصّة. تصف الشَّاعرة صبيّة متوغِّلة في صفاء اللَّيل، كأنّها زهرة مبرعمة في جفون القصيدة. هناك حالة انصهار مع الحبيب، كما تتواصل مع أبجديّات الجُّذور، فترى رحاب الأجداد من منظورٍ شعريٍّ أخّاذ.

تفتح آفاق جديدة في لغتها الشِّعريّة، لما تقدّمه من التماعات شعريّة تفرشها على فرادة حضارات الشَّرق.

حيث نتلمّس في قصيدة "رأيتُ صليبي"، كيف تجسّد الحق والعدالة المشعّة إلى نورٍ عبر شعاعَين!

رأيتُ بالأمسِ صليبي

كان أمامي لا فوقَ ظهري

كان شمساً انشطرت إلى شعاعَين

ثمَّ تكتب عن البئر والبحر، كأنّها معادلتان متكاملتان، لتصفية شوائب الحياة. وفي قصيدة "الآن تذكَّرتُ"، تضع الشَّاعرة يدها على دروب النِّفاق المتفاقمة عند بعضهم، يبحثون عن الضّلال، مع أنّها تريدهم أن يسيروا في طريق الصَّواب ويكونوا أباطرة زمانهم وفي قمّة القمم، لهذا نراها تسلّط قلمها على المغرورين والمتعالين والتَّائهين خلف مجدٍ من سراب، وتنظر الشَّاعرة نظرة فسيحة في تحليل مبدعي الآداب الرَّفيعة، أمثال باخ وكانط وبودلير حيث تقول:

سألتُ الأوّلَ عن العَلاقةِ بين الموسِيقى والرّياضِيات

والثّاني عن العَلاقة بين الله والعقلِ المَحض والسّعادة

والثَّالثَ عن علاقة كُلّ هذا بالشّعر

فقَام "شارل" وسَقانِي مِن كأسِه حرْفاً

لا شيءَ فيه سِوى القلب

وقام "إيمانويل" وأعْطانِي صحْناً

لا شيءَ فيه سوى نسغ العقلِ

لكن حينما قَام "سيبستيان" عَزفَ لي مَقْطوعة

رقصَ لهَا قلْبي وعقْلي

وفي قصيدة "كافكَا تحتَ السّرير"، لا تتوانى الشَّاعرة عن التّشكُّك ونقد الآخر حتّى ولو كان كافكا، وتغوص في لبِّ الفلسفة ومتاهاتها وأعماقها وبديلها كما في قصيدة "صديقي فرويد".

أسماء غريب شاعرة حروفيّة رصينة، ففي قصيدة "مكتبةُ النّقْطَةِ الذّهبيّة"، تناجي الله على نعمة السّماء المتهاطلة علينا. وفي قصيدة "مُحَاكَمَة النُقْطَةِ"، نرى هجوماً على النّقطة، على الأشرار والطُّغاة والقساة. وفي قصيدة "السَّيف الذَهبي"، نجدُها تتواصلُ مع عرين المدائن المعتّقة بألق العطاء، حيث تقول:

إلهي، / مُنذ ذلك الحين ورَسُولتك الزّينبيّةُ النُّقطة والحرفِ

تزورني تارةً من دمشق / وتارة من بغداد وتارات أخرى من البتراء

كي تذيبَ كالحدّاد بالنّار تراب المَوْتِ الجَّسديّ

ثمَّ تجنحُ في قصيدة "غُصنٌ من اليُشب الأحمر"، نحوَ صورٍ عشقيّة متماهية مع المحبوب برهافةٍ شاعريّة. وفي "رسولُ العشق"، تنسابُ تدفُّقات عشقيّة بإيقاع رومانسي شفيف، .وفي "ساعي البريد"، تنسج الشَّاعرة تواصلاً رهيفاً بين الجَّماد والكائنات والأجرام السَّماويّة كالنّيازك وتلألؤاتِ النُّجوم.

ولا تتوانى الشَّاعرة عن انتقاد واقع الشَّرق المرير عبر نصوصها، وتضع يدها على الجِّراح المستولدة من شراهات الدّمار المتفاقم على شعوبٍ بريئة. وفي قصيدة "زَمْزَمْ"، نقرأ نصَّاً مستوحى من صفاء الرُّوح، وفي "صباحُ الخيرِ سَاكورا"، تبثُّ رسالة عتاب شعريّة، ونقرأ نصوصاً مفعمة بفضاءاتِ السُّؤال! ولا يفوتها الإحتفاء بشعراء لهم قاماتهم الإبداعيّة، وإستلهام العديد من القصائد من عوالم الأنبياء وسموِّ عشقهم وصفائهم الرّوحي، فتناجي بابتهالٍ عميق سموَّ الله والأنبياء والرُّسل والقدّيسين والقدِّيسات.

الشَّاعرة أسماء غريب تجسِّدُ عبر فضاءاتها الشِّعريّة وعبر هذا الدِّيوان، تجربةً شفيفة كنسمةِ الصَّباح، تحبُكُ شِعرها عبر تأمُّلات وتجلِّيات روحيّة مفعمة بالوئام ومتشرِّبة بكنوزِ المعرفة الإنسانيّة الخلَّاقة!

صبري يوسف

أديب وتشكيلي سوري مقيم في ستوكهولم

(II)

مقدّمة الأديب والتَّشكيليّ صبري يوسف
والخاصّة بالكتاب النّقدي العرفانيّ
((تمثّلات السّادة الملائكة الكروبيّين
في تجربة صبري يوسف الإبداعيّة،
من الأدب إلى الفنّ التّشكيليّ))

***

إنَّ كل مَنْ يقرأ هذه الدِّراسة العرفانيّة للناقدة أسماء غريب، المتميِّزة برهافةِ رؤاها وسعة آفاقها في سبر أعماق عوالم كتاباتي الَّتي أجْرَتْ عنها تحاليلها، سيلاحظُ أنَّ حرفَها في تجلِّياتِ النَّقد والتَّحليل، أشبه ما يكون مندلقاً من حنين السّماء، تستلهمُ حرفها من إشراقةِ وهجِ الرُّوح، وتغوصُ عميقاً عبر رؤاها فتسبرُ أغوار فضاءاتي المستلهمة من تجلِّياتٍ لا تخطر على بال، ونراها تتعمّقُ وتحلِّلُ عبر مسارات حرفها النّقدي كأنَّها في رحلةِ استكشافٍ في مخيالِ بوحي لاستشرافِ أسرار توهُّجاتِ انبعاثِ حرفي ولوني، منطلقةً من ثقافةٍ أدبيّةٍ ونقديّة وصوفيّة رحبة وعميقة للغاية، وشامخة شموخ الكلمة الخلّاقة! تداعبُ النّاقدة عبر رؤاها وتحاليلها عرشَ الحروفِ، وتغوصُ في أعماقِ دهشةِ الاشتعالِ، وتحلِّلُ بمهارةٍ عالية كيفيّة ولادة القصائد والنُّصوص والسَّرديات، حيث تضع مجسّ مبضعها فوقَ متاهات بوح الكاتب، وتُمْسِكُ الخيوط الَّتي تقودها إلى استنباط المسارات الّتي انبعثت منها فضاءات الكتابات الّتي تدرسها، فقد شعرتُ وأنا أقرأ دراستها أنّها غاصت عميقاً في لبِّ ما راودني أثناء لحظات انبعاث النّصوص.

تموجُ حروفُها أثناء غوصها في ثنايا البوحِ، فرحاً متماهياً معَ روحانيّة المبدع، وتقرأ كتاباتي بذهنٍ متوقِّد كلمةً كلمةً وجملةً جملةً، ثمَّ تربطُ أفكار عوالم نصوصي بما لديها من طاقاتٍ روحيّة في الإبحارِ في كيفيّة انبعاثِ فضاءات

الكتابة، وتشرحها وتحلِّلها بطريقةٍ مدهشة كأنّها كانت شاهدة عيان خلال لحظات ولادات القصائد والقصص والكتابات الّتي تسبُرُ أغوارها بطريقةٍ ناقدة حصيفة في المسارات الّتي غاصت عميقاً فيها!

أسماء غريب قامة نقديّة أدبيّة باسقة، مخضّلة بتوهّجاتِ حرفٍ مكوَّرٍ بألقِ الانبهار، مشبّعة بينابيع إبداعيّة صافية. تمتلك قدرات عميقة في الغوص في أسرار انبعاث الحرف، من خلال تأمُّلاتها ورشاقة تجلِّياتها العرفانيّة نحو أقصى مرامي الحرف المنبعث من خيال الكاتب. وهي حالة نقديّة أدبيّة فريدة في تمايزها في بناءِ آفاقها التّحليليّة الشّاهقة وانفراجِ فضاءات نقدها، تتوغَّل عميقاً في رحاب كتاباتي وتقرأ بشغفٍ عميق مسارات تشكيل تجربتي الإبداعيّة، من خلال رؤاها التّحليليّة العميقة في سبر أسرارِ الحرفِ واللَّون!

اندهشتُ عندما قرأتُ عنوان هذه الدّراسة النّقديّة الّتي قدّمتَها النّاقدة المبدعة أسماء غريب عن أدبي وفنّي: تمثُّلات السّادة الملائكة الكروبيّين في تجربة صبري يوسف الإبداعيّة (من الأدب إلى الفنّ التّشكيليّ)، فقفز إلى ذهني ماذا استخلصَتْ يا تُرى هذه النّاقدة من عوالم فضاءات أدبي وفنّي عبر هذه الدِّراسة العرفانيّة كي تعنونها بهذا الإيقاعِ الرَّهيف؟!

قرأتُ الدِّراسة مرّتين متتاليتين بشغفٍ كبير، ثمَّ أعدْتُ قراءتها من جديد بإمعانٍ عميق كي أكتبَ استهلالاً لهذه الدِّراسة، ولا أخفي على القرّاء والقارئات، أنَّني شعرتُ وأنا في أوجِ تركيزي، أنّها غاصت عميقاً في عوالمي الباطنيّة فيما يخصُّ إشراقات تدفُّق إبداعي ونصوصي وفنِّي، وقد وجدتُ أنَّها توغّلت إلى مساحاتٍ فسيحة ممّا كان يعتريني ويصاحبني لحظات انبعاث توهُّجات الإبداع، وقد تمكّنَتْ من وضع يدها على كيفيّة تهاطل فضاءات حرفي كأنّها كانت في أعماقي تشاهد ببصيرتها اللّمّاحة إشراقاتي الإبداعيّة، حيث كانت هذه الإشراقات الإبداعيّة غامضة عليّ، وإنّي أرى أنَّ هذه الدِّراسة الّتي بين أيدينا تتطلّب هي الأخرى

دراسات دقيقة وعميقة أيضاً لما فيها من قراءاتٍ وتحاليلٍ شاهقة، استخلصَتْها النّاقدة من خلال متابعتها لحرفي ولوني على مدى سنوات وتوقفَتْ مليّاً عند تجربتي كي تعتكفَ على دراسة فضاءات أدبي وفنّي من منظور رؤية عرفانيّة لإبداعي على مدى أكثر من ثلاث سنوات، قضتها هذه الدُّكتورة الأكاديميّة المبدعة الخلّاقة في البحث والتّمحيص والتّحليل والتّأمُّل بطريقةٍ عرفانيّةٍ عالية المستوى، معتمدةً على الكثير من المصادر الَّتي ساعدتها على التَّوغُّل عميقاً في كشف كيفيّة انبعاث تجلِّيات حرفي ولوني، وقد تبيّن لي من خلال الدّراسة والتَّحليلات الّتي قدّمتها أنّها تمتلك رؤية وآفاق عرفانيّة رهيفة ومدهشة للغاية، لما جاء في قراءتها من دقّةٍ عالية في التّحليل والاستنباط، منطلقةً من الكثير من شواهد نصوصي بما تحلِّله تحليلاً لا يمكن إلّا الرّكون إليه في الكثير ممّا جادت بها قريحتها العالية في تأكيد وتحليل هذه العوالم الّتي قلّما نجدُ نقّاداً يمكن أن يلجوا إلى أغوارِ متاهات هذه المنعطفات لما في هذه القراءة التّحليليّة من خصوصيّة ثقافيّة عرفانيّة روحيّة عالية، وقد فتحتْ أمامي الكثير من الآفاق الَّتي ما كنتُ أعرفها عن هذه الغزارة والتَّدفُّقات الَّتي كانت تصحبني أثناء الكتابة، ووضعتني أمام تساؤلات كبيرةٍ للغاية، حيث وجدتُ أنّ أدبي بكلِّ أجناسه الأدبيّة والفنِّيّة يحتاج إلى دراساتٍ تحليليّة نقديّة شاملة في هذه المسارات العرفانيّة من أكثر من ناقد ومحلّل لهم باع كبير في هذه المجالات الَّتي نادراً ما نجد من له ملكة الإبحار في هذه الآفاق لأنّها لا تتوفّر إلّا عند قلّة قليلة ممّن لهم أو لهنَّ اهتمامات في هذه التّخصُّصات النّادرة، وأرى أنّ المكتبة العربيّة والعالميّة بأمسّ الحاجة إلى هذا النّوع من التَّخصّصات والدِّراسات لأنّ أغلب المبدعين والمبدعات ربّما لا يعرفون شيئاً عن هذه الخفايا الباطنيّة الّتي تراودهم لحظات انبعاث الإبداع.

وقد بدت لي هذه الدّراسة الّتي بين أيدينا الآن، أنّها من أهمّ الدِّراسات الّتي يقوم بها الدّارس والنّاقد حول مبدع أو مبدعة، لأنّني ـ من جهتي ـ وجدت ضالّتي

الّتي كنتُ أبحثُ عنها فيما يخصُّ كيفية تدفُّقات حرفي ولوني، وغالباً ما كنتُ أشعرُ أنّني أتلقّى طاقات واستلهامات معيّنة أثناء ولادات النّصوص، لكنّها كانت تبدو لي غامضة وغير قادرة على الإمساك بأيِّ خيطٍ من خيوطِ انبعاث العمليّة الإبداعيّة، لكنّي دائماً وخاصّة في السّنوات العشرين الأخيرة، كنتُ أشعرُ أنَّ هناك طاقة ما تصاحبني وترافقني عندما أكتب بطريقة تهاطليّة غزيرة ومتواصلة إلى درجة أنّني كنت أكتبُ أحياناً ما يقارب ١٦ ـ ١٨ ساعة في اليوم، وأشعرُ كأنّني كنتُ مختطفاً إلى مكانٍ ما حتّى أنّني كنتُ أشعرُ أحياناً كأنّني خارج الزّمن أو بتعبير أدقّ ما كنت أشعر بالزّمن، وأكثر من عشرات المرّات ما كنتُ أعرف نهائيّاً ما هو اليوم الّذي أنا فيه وأحياناً كنتُ أتساءل هل السّاعة هي السّابعة ليلاً أم صباحاً، حيث كانت الحالة الإبداعيّة تغمرني وأشعر بمتعة عميقة تصاحبني لحظات الكتابة وكان خيالي مرهفاً واللُّغة تنبعثُ من عوالم غامضة وتنساب الصُّور الإبداعيّة متهاطلةً عليّ بطريقةٍ عجيبةٍ وكنتُ أشعر أنَّني أمام مشكلة حقيقيّة في موضوع الإمساك بخيوط الوهج الإبداعي، حيثُ كنتُ أشعرُ بالانزعاج ممّا كان يفلت منّي من صور إبداعيّة لغزارة تدفّقها، وأحياناً كثيرة كنت أتذكَّر في سياق لحظات التَّهاطل الإبداعي أسماء أمكنة وأسماء أشخاص وحالات وأحداث بدقّة متناهية، كأنّ هناك تصوير فيلم حقيقي وكان يختفي الزَّمن نهائيّاً ما بين لحظة الكتابة والأحداث الّتي أستعيدها، كأنّني أجسِّد اللّحظات الّتي تراودني كما ظهرت لي يوماً في الماضي وما كنتُ أستطيع أن أميِّز بين ما حصل وبين ما هو متخيّل، وكنت أجد نفسي أمتلك طاقة غير طبيعيّة، حتّى أنّه انتابني أكثر من مرّة وكأنَّ هناك شخص آخر في أعماقي هو الّذي يُملي عليّ هذه التَّهاطلات وأنا مجرّد ناقل لهذه الجموحات الإبداعيّة المنبعثة من فضاءات إشراقيّة مبهجة ولذيذة وغير قادر نهائيّاً على إيقافها وكأنّي في حالة انصهاريّة غريبة مع هذه العوالم، وكم مرّة راودني أنّه من المحتمل أن تكون روحي هي روحٌ لشخصٍ آخر، تقمّصتني فأكتبُ ما تحمله ذاكرة الرُّوح الّتي

تقمَّصتني، لأنّني أثناء تجلّيات الإبداع كنتُ محتاراً وغير قادر على الإمساك بخيوط الانبعاث ولا أعرف كيفية تجلّيات الإشراقات لهذا أحياناً كنت أؤوّلها تأويلات غريبة، كأن تكون روحاً لشخص آخر مقمّصة في جسدي وتساءلتُ مراراً هل للرّوح ذاكرة، أيْ فيما إذا كانت الرُّوح الّتي تقمَّصتني عائدة لشخص آخر، هل ممكن أن تحمل هذه الرُّوح جزءاً من ذاكرتها الأولى من الشَّخص الأوّل؟ وما كان يقلقني هذا الإحساس بل كان يفرحني لأنَّ الطّاقة الإبداعيّة كانت عندي هي الهدف الأهمّ، وما كان يقلقني من أين تأتيني هذه الاستلهامات والطّاقات التّخيُّليّة، والغزارة في الكتابة.

وعندما عُدتُ إلى تجربتي الإبداعيّة وما كان يرافقني من حالات إشراقيّة ومشاعر غامضة أثناء كتابتها على مدى كلّ مراحل إبداعي، وجدتُ أنَّ التَّحليلات الّتي قدّمتها النّاقدة المبدعة أسماء غريب، كانت مدهشة للغاية ولمستُ أنّها تمكّنتْ أن تتوغَّلَ في أعماقي الباطنيّة في تدقيق وتحليل تفاصيل حالات وتجلِّيات انبعاث نصوصي إلى درجة أنّها استطاعت أن تستعيدني وتضعني في الحالات الغامضة الّتي كانت تنتابني لحظات تدفُّقات إبداعي، وفتحت أمامي الكثير من الآفاق الّتي كانت غامضة ومجهولة لي، فقد كنتُ أحسُّ بما تؤكّدُهُ وتؤوّله وتحلِّله لكنّ إحساسي لحظات الكتابة كان غامضاً وما كنتُ أعرف أسباب تهاطلات إبداعي ودوافعه وكيفيّة انبعاثه بهذا الشَّكل أو ذاك، ولكنِّي كنتُ متيقّناً أثناء تجلّياتي الإبداعيّة خاصّة في السّنوات العشرين الأخيرة أنَّ هناك طاقة غريبة في داخلي، في بواطني، في خيالي، هذه الطّاقة تمنحني شغفاً عميقاً في الكتابة بغزارةٍ مدهشةٍ وبطريقةٍ ما كنتُ أفهمها ولا أجدُ لها تحليلاً دقيقاً ولا تفسيراً معيّناً، لكنّي كنتُ أنسبها إلى طاقةِ المخيّلة والذّاكرة والتّجربة والثّقافة والخبرة الإبداعيّة الّتي تشرّبتها على مدى سنوات عمري، وقد صرّحتُ أكثر من مرّة عبر الحوارات الّتي أُجْرِيَتْ معي أو عبر كتاباتي عمّا يخصُّ الحالة الإبداعيّة أنّني أشعر أنَّ هناك قوّة أو طاقة هي الَّتي تتحكَّم بتدفُّقاتي وتمنحني كلّ هذه الاستلهامات وأنا مجرّد مترجم ومدوِّن لما تملي عليّ هذه

الطّاقة أو الشّخص أو القوّة الغامضة، وربّما يعتبرُ متابع ما أو قارئ ما، أنّ ما حلّلته وقدَّمته النَّاقدة أسماء غريب عنّي وما أقوله أنا عمّا يراودني لحظات الكتابة، ربّما يعتبره ضرباً من الهواجس والتّخمينات وضرباً من التّخيُّل ووجهات نظر لا أكثر، لكنّي بعد قراءتي لكلِّ كلمة جاءت في هذه الدِّراسة العرفانيّة العميقة، وصلتُ إلى قناعة أنَّ رؤية النّاقدة وتحليلها كانت صائبة إلى حدٍّ بعيد، لأنّني أثناء لحظات الكتابة خاصّة في حالات التَّدفُّقات العجيبة، كنتُ أشعر وكأنّ هناك مَنْ يلهمني أثناء الكتابة، يفتح لي الآفاق ويضيء لي شهقات البوح خاصّة أنّني كنتُ في أوج تجلّياتي أستحضر أسماء الأمكنة والأشخاص والمفردات والحوارات والمواقف، وظهرت أمامي مراراً تفاصيل وجوه الأشخاص الّذين أكتب عنهم أو أستوحي منهم تدفُّقاتي وكنت أندهش جدّاً لحظات انبعاث الكتابة كيف تتراءى أمامي هذه السَّلاسة والسُّرعة في التَّذكُّر فهناك الكثير من الكتابات مستوحاة من عوالم طفولتي ويفاعتي ومرحلة الشّباب كتبتها وأنا في أعماق غربتي، في صومعتي المشلوحة في إحدى ضواحي ستوكهولم، فأتساءل أثناء الكتابة مندهشاً على كيفيّة التَّذكُّر والتَّدفُّق والانسيابيّة، مع أنّني كنت أكتبُ أغلب هذه النُّصوص مباشرة على شاشة حاسوبي، ثمَّ أعود وأصيغها مرّاتٍ ومرّات، حتّى أنّني أثناء الصّياغات النّهائيّة كنتُ أستلهمُ فضاءات جديدة وكأن الَّذي يلهمني حضر من جديد وتابع الغوص عميقاً فيما أترجمُه من مشاعر خلّاقة جديدة، وكلّ هذا يقودني إلى القول: هل نحن الكتّاب نكتبُ من فراغ، هل نستلهم نصوصنا من فراغ، أم تنبع من خيالنا وذاكرتنا عبر طاقات خفيّة غامضة لا نستدركها؟ وكيف تتشكَّلُ هذه الطّاقة الإبداعيّة المنهمرة بهذا الشّكل أو ذاك، ولماذا أراني كأنّني مختطف نحو الأعالي، وكأنّني خارج الزّمن وكلّ همّي هو كتابة هذه التّدفُّقات بكلِّ غزاراتها المتهاطلة علي مثل رذاذات المطر؟!

أترككَ عزيزي القارئ/ عزيزتي القارئة مع هذه الدِّراسة العرفانيّة العميقة، كي تقرأ بكلِّ هدوء وتكتشف وتستنبط بنفسكَ/ وتكتشفي وتستنبطي بنفسكِ إلى أيّ مدى استطاعت النّاقدة المبدعة الدّكتورة أسماء غريب أن تغوصَ عميقاً في فضاءات تجربتي الأدبيّة والفنّيَة، وتؤكّدَ بكلِّ دقّةٍ أنَّ تجلّيات فضاءاتي الإبداعيّة ناجمة ومستلهمة من خلال طاقاتٍ كانت غامضة عنِّي حتَّى قبل قراءتي هذه الدِّراسة، بطريقةٍ انبعاثيّة مستلهمة من رحابِ تجلِّياتِ مرامي السّماء؟!

صبري يوسف

أديب وتشكيلي سوري مقيم في ستوكهولم

الجـزء الثَّاني

كلمة صبري يوسف

رحلة المئة سؤال وجواب رحلة فسيحة عابقة بكلِّ مرامي صنوف الإبداع!

تكتبُ الأديبة المبدعة الشّاعرة والمترجمة والنّاقدة د. أسماء غريب حرفها كأنّه منبعث من وهج السّماء وحنين الأرض لهلالات حبق السَّلام والفرح وبهاء القلب، مبدعة مجبولة من طينِ المحبّة، مصهورة بأبجديات سموٍّ الرّوح وهي تتصاعد نحو أرقى تجلّيات صفاء الحرف وهي تنقشُه فوقَ وجنةِ الحياة، وهي أشبه ما تكون بهبوب نسيم الصّباح المندّى بالخيرات والبركات عندما تناغي عبر شموخ خيالها رحاب خميلة الإبداع، كأنّها كائنة مترهبنة لجمال الفكر الخلّاق، ونهرٌ يتدفّق فوق الأرض العطشى كي تسقي القلوب العطشى لما تتوق إليه الرُّوح من أهازيج المزامير الّتي تبلسم صباحنا ويومنا ومساءنا.

إنّ أكثر ما أدهشني في أدب وتحليل ونقد وشعر وترجمة وإبداع أسماء غريب هو هذا الغوص والشَّغف العميق فيما تشتغل عليه، حيث أراها كأنّها جزء لا يتجزّأ من المواضيع الّتي تطرقها وتعالجها وتدرسها وتترجمها وتكتبها، وتمتلك طاقات روحيّة فكريّة ومخيال شاهق، يجعلها أن تجسِّد رؤاها بطريقة شفيفة هادئة وعميقة وكأنّها في رحلة فرحيّة نحوَّ بوَّابات النَّعيم، أرى أسماء غريب وكأنّ لها جناحَين قويَّين يرفرفان عالياً كلّما تريد أن تبحث عمّا تحبكه في مسارات حرفها المغموس من أحلام الرّوح المنبلجة من ذهنٍ صافٍ متوقّدٍ ومتطهِّرٍ من شراهات الحياة، حيث تغرفُ من أشهى ما يموجُ في أعماقها من بذورِ الخير والحبِّ والوئام كي تزرعه فوقَ طينِ الحياة عبر مهاميز حرفها الّذي تغدقه علينا من مآقي السّماء!

تشتغل الأديبة الخلّاقة أسماء غريب عبر كل جنسٍ أدبي بطريقة رهيفة كأنّها في سياق بناء عمرانٍ شاهق ومتمركز على أسسٍ متينة بكلِّ ما في أصول السُّموّ والعلوّ من صنوف البنيان، فلا تترك شاردة وواردة إلّا وتتوقّف عندها برهافةٍ عميقة وتدرسها بحرفيّة عالية ثمَّ تصيغ حرفها كمن يشتغل على صياغة الذَّهب

والياقوت وأغلى ما في الحرف من بهاء وابتهال كأنّها في سباقٍ مع الجمال في جمال الحرف والكلمة والفكر لأنّها تعتبر الحرف معراج طريق الكلمة إلى أقاصي الأرض والسّماء!

تتميّز المبدعة أسماء غريب برقيّ آفاقها وتطلُّعاتها ومن خلال تواصلي مع إبداعها وتعاملي معها فيما يخصُّ ترجمة ديواني السَّلام أعمق البحار وتقديم دراسة عن أدبي وفنّي حول رحاب السَّلام، وجدتُ في شخصيّتها الإبداعيّة تجلِّيات شاهقة في البحث والتّقصِّي والدِّراسة والتَّحليل والتَّرجمة، وعندها باع مدهش في المتابعة بطريقة أشبه ما تكون مترهبنة للإبداع والكلمة الطَّيِّبة في الحياة، وقد انبثق من هذا العناق الإبداعي من كلا الطّرفين الكثير من المشاريع الإبداعيّة الّتي ولدت من وحي خصوبة ما تقدّمه وأقدّمه حيث كنّا ومانزال نستلهم من عوالم بعضنا بعضاً إبداعات غير مخطَّط لها فجاءت من وحي اللّحظات الرَّهيفة الّتي تحرِّضنا على البوح عميقاً فيما يخص تجلِّيات هواجسنا في تدفُّقات بهجة الحرف، فولد نص شعري من نصوص أنشودة الحياة من عوالم هذه الأديبة السّامقة، كما ولدَ هذا الحوار نفسه استكمالاً لما في كياني من شغفٍ عميق للولوج في أقاصي البوح، فيما يراودها من غوصٍ في آفاق الحرف من أسرار الكلام، وقد جاءت المشاريع المشتركة دون أي تحضير من جانبي، وولدت من وحي تجلِّياتي الرُّوحانيّة وشغفي في ترجمة ما ينتابني من قراءة ما تكبته وتدرسه وتترجمه وتحلِّله وما تحمل من آفاق روحيّة عرفانيّة متعانقة مع أجنحة السَّلام والمحبّة والفرح والوئام الإنساني، وكأنِّي أخاطب نفسي في بعض التَّساؤلات أو أخاطب طاقة منفتحة على جفون اللَّيل الحنون بحثاً عن أحلامنا المتصاعدة عالياً نحو زرقة السَّماء!

أسماء غريب مبدعة شاهقة في فضاءات تحليقاتها، تكتب حرفها من خلال تجربة صافية في بناء القصيدة والقصّة والنّص والتَّرجمة والتّحليل والحوار كأنّها في حالة تماهي عميقة مع خبز الحياة، حيث تولد إبداعاتها صافية ومقمّرة بخبز المحبّة

والأصالة والغوص في بواطن الحرف وفتح مغاليق ما يكتنفه من أسرار عبر كافة مسارات الانبعاث، فتأتي كتاباتها حصيلة عملٍ دؤوب فيه من المتعة والرّصانة والعمق والتجلِّيات ما يغمر القارئ والقارئة من أبجديات مفتوحة على شهقات الانبهار!

أبهجني للغاية هذا الحصاد المثمر مع الأديبة أسماء غريب، حوار عميق، غوص في لبِّ القصائد والأدب والفن والفكر والتَّأويل وبزوغ روعة التّرجمات بكلّ خصوباتها، وحنين الكلمة إلى تلألؤات نجيمات الصَّباح، رحلة المئة سؤال وجواب رحلة فسيحة عابقة بكلِّ مرامي صنوف الإبداع!

صبري يوسف

ستوكهولم

٥١. بمناسبة حديثكِ عن صقلّيةَ في أجوبتكِ السّابقة، لاحظتُ أنّكِ ناديتِها بالأمّ الرّؤوم المعطاءة، وأطلقتِ عليها كذلك لقب جزيرة الشَّمسِ، هل لكِ أن تحدّثي قرّاءك ومتتبّعيكِ عن هذه العلاقة الرّوحيّة الّتي تجمعكِ بها، وعن سرّ هذه المحبّة العارمة بينكما؟!

اعلمْ يا أيّدَكَ اللهُ بنورهِ ومحبّتهِ أنّكَ إذا دخلتَ صقلّيةَ فلا بدّ أنْ تُخْتَطَفَ كما اختُطِفَتْ ذات نزهةٍ بِرْسيفوني في مدينة إينّا بالقرب من بحيرة بيرغوزا، واعلمْ أنّ الإلهَ هايديس الخفيّ سيجذِبُكَ معهُ إلى عالم الموت والأموات، هناكَ حيثُ ستأكلُ من رمّانة المعرفة ستَّ حبّاتٍ تسمحُ لكَ بالصّعود مرّةً إلى الأرض لستّة أشهر، ومرّة أخرى بالغوص في العوالم الجوفيّة لستّة أشهرٍ ثانيةٍ ما دامتْ قدماكَ قد وطِأتَا أرضَ اللّقاء والعناق، وعيادة الشّفاء من كلّ علّة وداء.

واعلمْ أيّها العاشقُ المتعلّقُ بأهدابِ حانةِ الحاء ومحراب الباء، أنّه ليس لكَ أيّة طريقة للنّجاة ممّا أنتَ فيه سوى أن تعرفَ للعُمْقِ معنى أن تكون بصحبة برسيفوني وزوجِها هاديس، وإذ تطلبُ الإيضاحَ أكثرَ فأكثر فإنّي أقولُ: أيْ نعم، برسيفوني هي رفيقة الغرباء والمغتربين أينما كانوا وحلّوا، لكنّها تصبحُ أمَّهم الحنون المعطاءة الرّؤوم إذا كان هؤلاء الغرباء من أهل الخاصّة المقيمين مباشرةً على أرضها ومملكتها. وإذ تسألني كيف ذلك؟ أقُولُ لكَ: لأنّني أقيمُ بصقليّة عرفتُها ورأيتُ بعين قلبي هاديسَ الخفيَّ صاحبَ الجاه والسّلطان وحقول الذّهب والياقوت والرّمان. ستقول؛ وهل ثمّة من يقوى على الدّخول إلى عالم الموت والموتى وإلى قلب الجحيم؟ وسأجيبكَ؛ نعم، ما من أحدٍ إلّا وله عالمه السّفلي، وما من أحد إلّا ولهُ جحيمُه مصداقاً لقول صاحب المُلكِ والملكوت: ((وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا ونَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا)) (مريم: ٧١). وما عالمُ الموتى سوى ذاك المكانُ من لاوعيكَ الباطن الّذي تختزنُ فيه الذّكريات والآلام والآهات، والأحلام الصّغيرة والكبيرة، والدّموع والأمنيات، والرّغبات الدّفينة وغيرها

مـن الآمـال المكبوتــة أو المقهـورة، وأمّـا الجحـيمُ فهـي اللّاوعـي الجمعـيّ للإنسـانيّة بأسرها هناك حيث تختزن الآثام والنّقائص والجرائر والجرائم الّتي ارتكبها ومازال يرتكبها لليوم وسيرتكبها الإنسان على مرّ العصور والأزمان. ولا أعرف لليوم كيف ثمّة من يُفكّر أو يرغب في إلغائها مِنَ الفلاسفة ورجال اللّاهوت بدعوى أنّ الله محبّة، وأن وجود الجحيم يتنافى مع فكرة المحبّة والسَّلام نفسها.

اعلمْ أيّها المتبرقع بالبهاء وآياتِ السّناءِ، أنّ اللهَ من بابِ المحبّةِ جعلَ الجحيمَ من ضروريّات الوجود الإنسانيّ، ومن أهمِّ الرّكائز الّتي بها تتطوّرُ الإنسانيّة ويتقدّمُ الفكر البشريّ نحو الأفضل والأرقى. إنّها ليست بمكان للعذاب والعقاب، وإنّما هي مكان للتطهُّر والانصهار والتّحوّلِ من حال إلى آخر أفضل منه، ومن لا يعتقدُ في الجحيم، فإنّه يُفرغُ التّجربةَ الإنسانيّة على الأرض من معناها، هكذا علّمتني برسيفوني حينما التقتني بباب جزيرة الشّمس، صقليّة أرض الخيرات والبركات، وأرض اللِّقاء والحوار، وتثاقف الشُّعوب والحضارات.

وما اختطافُ هاديس لبرسيفوني إلّا إعلان عن لحظة الوعي الدّاخلي، واليقظة الرُّوحيّة الَّتي تدفع بالإنسان دفعاً إلى عوالمه الدّاخليّة ليغوص فيها ويتعرّفَ على صُورها وأحلامها، ويتعلّم كيفيّة قراءة رموزها ورسائلها، فإمّا يخرجُ منها سالماً معافى، وإمّا يبقى سجيناً بداخلها إلى الأبد، يتعثّرُ في الحياة ويفشل في كلّ شيء ويصبح غير قادر على التّفاعل والإنجاز والمشاركة في مسار التَّطوُّر التّاريخي والحضاري للإنسانيّة جمعاء. وأن تصبح مثل برسيفوني مَلِكاً متوّجاً في العوالم الباطنيّة، فهذا يعني أن تصبح عارفاً بنفسكَ وبكلِّ تفاصيلها وتلويناتها ودرجاتها المتأرجحة بين النّفس الأمّارة والنّفس اللّوّامة ثمَّ النفس المطمئنّة، حتّى تتمكّن من التَّحكُّم فيها وتصبح في الختام سيّدَ نفسكَ لا عبداً لها.

واعلمْ أيّها النّاظر إلى شجرة البوح أنّكَ ابنُ الوقتِ والمكانِ، وليس فيهما أحد غيركَ، وانّكَ إذا دخلتَ جزيرة الشَّمس ستنفتحُ عينُ قلبكَ بشكلٍ كامل ومكتمل

وستبدأ في رؤية هذه الجزيرة كما هي؛ بشموسها وأقمارها، ونجومها وكواكبها، لأنّ برسيفوني الرّوح هي من ستصبح دليلكَ في عوالم هذا المكان الآسر المفعم بالأسرار.

نعم، فصقليّة جزيرة الأسرار، وليس ثمّة من مكانٍ فيها إلّا وبهِ سرّ، لذا فهي مسرح عرفانيّ مفتوح على كلِّ الجهات وفي كلّ ساعة من ساعات اللّيل والنّهار، وكيف لا تكون كذلك وقد قصدها عرفاء العرب وعلماء المسلمين منذ زمن بعيد باحثين عن أسرارها قارئين سماءها ونجومها، ساعين إليها بالمحبّة والتّقدير والإجلال، كابن الفحّام شيخ القرّاء نزيل الإسكندرية ومؤلّف (التّجريد في بغية المريد) وكتاب (مفردات يعقوب)، وكذلك حجّة الدِّين وبرهان الإسلام أبو عبد الله بن أبي محمّد صاحب (سلوان المطاع في عدوان الطِّباع)، وهو من النَّوع الأدبيّ المعروف بمرايا الأمراء وهو شبيه بكتاب كليلة ودمنة، وكذا الشّيخ العارف الّذي قصد صقليّة في منتصف القرن التّاسع عشر، وسكن في بيت جعل منه مقاماً للذكر والصّلاة لم يكتشف الصّقلّيون وجوده إلّا سنة ٢٠٠٣، ولم يعلنوا عنه بشكل رسميّ إلّا سنة ٢٠١٤، وأطلقوا عليه اسم غرفة العجائب، الّتي بات يأتي لزيارتها البحّاثة والمؤرِّخون من كلّ جامعات العالم، ليعاينوا عن قربٍ ألوانها وزخارفها البديعة، والكتابات المنقوشة على الجدران الّتي يتكرَّر فيها اسمُ الجلالة إلى ما لانهاية جامعة بين اللُّغتين العربيّة والسِّريانيّة .

وكوني أعطيتُ صقليةَ صفة المسرح العرفانيّ، فذلك لأنّني ما كنت في مكان أو مدينة منها إلّا ورأيتهما يخاطباني بلغة أهل المحبّة والعرفان، فهذه حدائقها الغنّاءة تكلّمني، وتلك أسوارها العتيقة وأقواسها العجيبة تروي لي عن حضارات كانت هنا ومضت، وتلك كنائسها ذات الهندسة والمعمار العربيّ – النّورمانيّ البديع وكذا مساجدها الضَّخمة الّتي تشهد على تاريخ العرب بها منذ أن دخلها ثالث أمراء

الأغالبة زيادة الله الأوَّل وقاضي القيروان أسد بن الفرات، إلى أن سقطت بلرم عاصمة العرب في أيدي المغيرين النّورمان سنة ١٠٧٢م.

وبلرم هذه أو باليرمو هي حقّاً مدينة العجائب الّتي لا يوجد مثلها في البلاد وقد نشأت وترعرعت بين أحضان نهريْ كْريمُونيا وبابيريتُو. ولها من العيون والينابيع والآبار ما لا يعدُّ ولا يُحصى، وقد كان العربُ هُمْ أوّل مَن أوْلى اهتماماً متميّزاً وعناية خاصّة بثروات المدينة المائيّة فأنشأوا لها القنوات والأحواض والأبراج وحدّدوا خريطة كبرى لكيفيّة توزيع الماء على المدينة وعلى كل المناطق المجاورة لها.

وبعد الحرب العالميّة الأولى تمّ تدعيم استهلاك الماء عبر اللّجوء إلى الاحتياطي من الثّروة المائيّة والبدء في استخدام عيون أخرى كعين الملاك جبريل وعين القدِّيس (تشيرو . البحر العذب). ويبقى هناك نبع بعينه له مكانة خاصّة بالمدينة وقد ظلّ اسمه هكذا على صيغته العربيّة القديمة (نبع الغربال). ويتكوّنُ من أربع عيون: عين كوبا (أي عين القُبّة)، وعين الملاك جبريل، وعين كابوفْرانكو ثمَّ عين نيكْسيو.

وفي الحديث عن الماء حديث عن الحضارات الَّتي تنشأُ بالقرب من الأنهار، ويبني النّاسُ حولَها من المعالم ما يبقى شاهداً على وجودهم ورقيّهم، وفي باليرمو توجد آثار تشهد على ما عاشته صقليّة من رخاء وتحضّر وتمدُّن مثلاً الأديرة ذات القباب الحُمر، وأخصُّ بالذّكر منها دير القدِّيس سان جوفانّي دَيّي إيرميتي؛ الّذي بُنيَ بأمر من الملك النّورماني الصّقلِّي (رودجيرو) الثّاني (٢٢ كانون الأوَّل ١٠٩٥ – ٢٦ شباط ١١٥٤)، وهو في هندسته المعماريّة يجمعُ بين الأسلوب العربيّ الإسلاميّ والهندسة النُّورمانيّة المسيحيّة، ذلك أنّ الدّير بُنيَ على بقايا كنيسة قديمة حوّلها العرب إلى مسجد إبّان حكمهم بصقلية، وقد طلبَ (رودجيرو الثَّاني) من مهندسه أن يعيدها إلى أصلها الأوَّل ويجعلَ منها كنيسة جديدة مع الحفاظ على المعالم الإسلاميّة كاملةً ويبني إلى جانبها ديراً خاصّاً بمستشاره الأب (سانت

إيرميت) ويكون مُهدى للقديس يوحنّا المعمداني. وقد أعيد ترميم هذه الكنيسة ـ المسجد سنة ١٨٨٢.

وغير بعيد عن هذا الدّيرِ توجدُ مَعْلمة أخرى هي من أجمل معالم المدينة وتسمّى بثُماني الشَّمس وذلك نسبة لشكلها الهندسي الّذي يجمع أطراف أهمّ شارعيْن في المدينة وأعني بهما (شارع ماكْويدا، وشارع القصر أو روما). كما تسمّى المَعْلمة أيضا بمسرح الشّمس وذلك لأنَّ الشَّمس تتحرّكُ فوق كلّ ركن من أركان الثُماني وتستقرُّ عليه لفترة معيّنة من النّهار.

تمّ إنشاؤها ما بين ١٦٠٩ و ١٦٢٠ وقد زُيّنت بالعديد من المنحوتات الباذخة الجمال، إذ هناك نافورات تمثّلُ أنهار المدينة العتيقة وهي نهر أوريتُو، ونهر كيمُونيا، ثمَّ نهريْ بانّاريا وبابيريتو، وقد تمّ تجسيد هذه النّافورات عبر أوجه منحوته ترمزُ إلى آلهة إغريقيّة وأخرى رومانيّة هي كالآتي: إيولّو إله الرِّيح، فينوس إلهة الحبِّ والجمال والخصب، سيرس إله الزِّراعة، ثمَّ باخوس إله الخمر.

ولا شكّ أنّ حديثنا عن مسرح الشَّمس وتماثيله الرّائعة سيجرّنا إلى الحديث أيضاً عن المسرح بشكل عامّ في صقلية وخاصّة بالجزء الشَّرقيّ منها الّذي لمعتْ فيه نجوم من رواد المسرح الإيطاليّ وكتّابِه مثلاً لويدجي بيراندلّو الّذي بلغت شهرته عنان السّماء بعد أن حقّق نصُّه المسرحيّ (الرّاحل ماتيا باسكال) نجاحاً ساحقاً وكان قد عالج فيه إشكاليةَ التّناقض بين الظّاهرِ والحقيقة، والشَّكل والواقع. وماتيا باسكال هو الإنسان الّذي بفقدانه لهويّته يفقد أيضاً إمكانيّة العيش في هذا العالم.

بيراندلّو هو ابن الفوضى: كان والده رجل صناعة وثراء وبذخ، يملكُ منجماً سرعان ما دمّره الفيضان فأصبحت حياته وحياة أسرته محكومة بالضّياع والتّشتُّت والفقر.

وفي سنة ١٩٢٤ أصدر لويدجي رواية (واحد، لا أحد، ومئة ألف)، وقد اعتبرها النّقادُ آنذاك العملَ الأكثر مرارة وسوداويّة ضمن أعماله السَّابقة، بل الأكثر معالجة لإشكاليّة تفكُّك الحياة واضطرابها المستمر.

وقد راكم لويدجي في حياته العديد من الأعمال المسرحيّة والقصص العالميّة الّتي أضحت علامة فارقة في الأدب الإيطاليّ والعالمي برمّته ممّا جعله يحصل سنة ١٩٣٤ على جائزة نوبل للآداب.

كان لويدجي يشبه إلى حدٍّ ما ليو تولستوي، الأديب الثَّري الّذي كتب عن الفقراء والمعوزين، إلّا أن لويدجي كان رائد الواقعيّة في الحياة بدون منازع لما كان لنصوصه من عميق الأثر في حياة الجماهير عبر تبنّيهِ لتقنيّة المسرح داخل المسرح من خلال شخصيّاته الّتي تقتحمُ بشكل مفاجئ الخشبة وتتحرّكُ بطريقة هذيانيّة عجيبة، وكل واحدة منها منهمكة في تقديم نفسها، إمّا عبر الحديث المباشر، أو عبر تقنيّة الاسترجاع الفنّي (flashback)، أو عبر الارتجال الّذي أعني به هنا الارتجال الوهمي الّذي من خلاله كان بيراندلّو يقدّم واقعاً قد يبدو في نصوصه محدود المعالم ولكنّه في الحقيقة واقع تتغيّر معانيه باختلاف وجهات النّظر، وذلك لتأثّره بمسرح النّسبيّة والتّكعيبيّة على حدٍّ سواء، لأنّ فنّهُ يهتمُّ بعلاقة المسرح بحركة المجتمع، وعلاقة الوهم المسرحيّ بالجمهور، الشَّيء الّذي يخلق لدى هذا الأخير نوعاً من الحيرة فلا يعرف أين تبدأ الحقيقة وأين ينتهي الوهم المسرحيّ.

ويوجد في العاصمة باليرمو أكبر مسرح في أوروبا وهو مسرح (ماسّيمُو فيكتور إيمانويله) أمّا بالنّسبة للسينما فهناك أسماء لامعة في هذا المجال عديدة لكنّي أفضّلُ التَّركيزَ على اسم معين وأقصدُ به: (دجُوزيبّه تورناتوره) وهو مخرج إيطالي من صقلّية له أفلام ملتزمة، وخاصّة تلك الّتي تحكي عن الهجرة الصّقلية إلى أمريكا، اشتهر أيضاً بإخراجه للفيلم الرّائع: أسطورة ١٩٠٠: أو (La

Légende du pianiste sur l'océan)، وله أفلام أخرى كرجل النُّجوم، والمرأة المجهولة وباغيريّا، وسينما الجثّة

في صقلّية شدّني أيضاً هذا الاهتمام بالموت الّذي تجده في كلّ مكان كرمز للحياة نفسها، والعبور من مقام إلى مقام، وهذا يعني أنّني أينما وجّهتُ بصري كنتُ أجدها حاضرة؛ برسيفوني الفاتنة، الكاهنة والملكة الّتي تملك مفاتيح العلوم وتعرف خبايا الأرض وأقبيتها السّاحرة، فهي موجودة حول الطّاولات عند احتفال الصّقلّيين بأعياد الموتى، وهي حاضرة أيضاً في ذاك المتحف الكبير الّذي أنشأه سكّان مدينة باليرمو وخصّصوه فقط للموت وأهل القبور وقد سبق لي أن زرتُه أكثر من مرّة وفي كلّ مرّة كانت تصلني منه إشاراتٌ عن الحياة وأهلها، وفي أحايين أخرى لطائفٌ عن الموت ومعانيها.

يوجد هذا المتحف بالقرب من كنيسة الرُّهبان أصحاب الجلابيب والأقباب (I capuccini) أو كنيسة مريم سيّدة السَّلام وهذا اسمها الثَّاني. وقد تأسَّست هذه الكنيسة بمدينة باليرمو سنة ١٥٦٥ من طرف رهبان من نظام الرَّهبنة الكبوتشيّة الّذي كان في البداية ينتمي إلى حركة إصلاحيّة كان يقودها القدِّيس الإيطالي الشَّهير سان فرانتشيسكو ثمَّ استقلَّت عنها سنة ١٦١٩.

ويوجد بهذه الكنيسة فضاءات ودهاليز مختلفة كان يخصّصها الرُّهبانُ عادة لدفن موتاهم إلى أن طرأت ذات يوم واقعة غريبة: فأثناء عمليّة حفر داخل أحد الأقبية من أجل توسيع المكان حتّى يضمّ أكبر عدد ممكن من أجداث موتاهم، وجد أحدُ الرّهبان داخل هذا القبو أكثر من جثّة لم ينل منها الموت بديدانه شيئاً، وإن مرّت سنوات عدّة على دفنها، فخطرت لهم فكرة إنشاء مكان آخر يكون قريباً من الكنيسة يخصُّصونه لدفن الموتى سواء كانوا من الرّهبان أو من غيرهم من سكّان المدينة، على أن يكون حفظ الموتى به حسب تقنيات جديدة تعتمد على التَّحنيط بهدف صيانة الجثث كما هي. وهكذا ظهر إلى الوجود منذ بدايات القرن السَّادس

عشر ما يسمى اليوم بمتحف الموت والموتى. إذ أنَّ النّاس كانوا يحملون إليه موتاهم ويؤدّون مقابل التّحنيط أجراً معيَّناً وكلَّما كانت عمليّة صيانة الجثّة كاملة ومتكاملة ودقيقة وجيدة ارتفع السِّعر.

وتضمُّ هذه المقبرة إلى اليوم ما يقارب ثمانيةَ ألفِ جسد محنّط، بين أسياد ووجهاء ونبلاء، وموظّفي دولة من أصحاب الرّتب العليا سواء في الجيش الإيطالي أو جهاز العدالة والقضاء أو أسماء أخرى من رجال الطُّبّ والمال والأعمال والخدمات الدِّيبلوماسيّة والسّياسيّة وغيرِهُم من أناس آخرين من الطّبقات العاملة والمزارعين والنّاس البسطاء. ومن بين الأسماء الّتي بقيت عالقة بذاكرتي أذكر على سبيل المثال لا الحصر الكولونيل (راغونا) والكولونيل (دي جوليانو) وهما معاً من رجال الجيش الإيطالي البوربوني. ثمَّ نائب القنصل الأمريكي الَّذي كان يعمل هنا بباليرمو سنة ١٩١٠، والطّفلة الأعجوبة (روزاليا لومباردو) الّتي توفّيت سنة ١٩٢٠ وبقيت جثَّتُها إلى اليوم كما لو أنّها دفنت بالأمس. وهذه الطّفلة الّتي لم يتجاوز عمرها السّنتيْن، يعتبرها الإيطاليون من الكنوز الأركيولوجية النَّادرة لأنّها تحوي سرّ عمليّة التّحنيط الّتي قام بها الدّكتور (سالافيا) دون أن يكشفه لأحد. ولليوم لم يزل العلماء في بحث مستمر علّهم يتوصَّلون إلى هذا النَّوع من عمليَّات التَّحنيط ذات الجودة والدّقّة العالية.

أمّا عن أول من حُنّط بهذه المقبرة فكان الطِّفل (فرانشيسكو دافولو Francesco d’Avolo) سنة ١٥٧٠ وقد كان ابن نائب الملك ماركيز بيسكارا، ثمَّ السَّيِّد (Giacomo lo tignoso دجاكومو لوتينيوزو) وهذا الأخير لم يكُنْ من وجهاء القوم أو من نبلاء الطَّبقة الحاكمة بل إنساناً بسيطاً لكن لا يُعرف سبب تحنيطه ووجودِه داخل المدفن في الجزء المخصّص للنبلاء إلى اليوم.

سؤال آخر يلحُّ على الفكر وقد حان وقت طرحه: لماذا كان يصرُّ أهل مدينة باليرمو على تحنيط موتاهم؟

حينما كنتُ أتجوَّل بين أروقة هذه المقبرة أو المتحف كما تسمّى اليوم، بدت لي الجثث المحنّطة وكأنّها في صالة عرض أركيولوجي، وأضع خطّاً عريضاً هنا تحت مُصطلح أركيولوجي، إذ الأمر ليس فيه أبداً من عبثيّة ولا أي نوع من المبالغة، فبعيداً عن المشاعر المتناقضة الّتي من الممكن أن يصاب بها الزّائر وهو يجول بين الموتى وجماجمهم ومنظرهم المخيف، إلّا أنَّ هذا الظّاهر ثمّة شيء وراءه بل أشياء ومعلومات لا يمكن التَّغاضي أبداً عن قيمتها العلميّة والتّاريخيّة العالية والشّديدة الأهمِّيّة.

فأوّلُ شيء لاحظته هو رطوبة المكان وهذا مردّه إلى كونه يوجد في قبو تحت الأرض تصل إليه عبر نزول عدد معيَّن من الأدراج ثمَّ عبور زقاق طويل يأخذك مباشرة إلى بهو كبير جدّاً مقسّم إلى عدد من الصّالات المفتوح بعضها على بعض. أما داخل الجدران فقد فُتحت رفوف من الحجر صفّت فوقها أجساد الموتى المحنّطة إمّا بشكل أفقي أو عمودي. وثاني شيء شدّني ما إن وقفتُ أمام بعض الأجساد المحنّطة هو هذه الرّائحة القوية الّتي لا علاقة لها أبداً برائحة الموت أو التَّحلل، ولكن فيها إشارة على الموادّ الَّتي كانت تُستعمل آنذاك في التَّحنيط، هذا من النّاحية العلميّة الطِّبِّية، أمّا وإذ اقتربتُ أكثر فأكثر من الأجساد، فإنّني وجدتني أمام كتاب الموت الكبير الّذي كُتبَ فيه كلّ شيء يكفي فقط أن يعرف الزّائر كيفيّة قراءته: فشكل الجمجمة فيه تاريخ الانحدار وجنسه، وشكل الأسنان فيه نوعيّة المعيشة، وشكل عظام اليدين حرفة الميت، وملابسه أيضا فيها إشارة للحقبة الّتي كان يعيش فيها، من غطاء الرّأس إلى جوارب القدمين. وقد حرصَ المُحنِّطون على أن يحتفظوا لكلّ جسد بلباسه، لأنَّ أهل باليرمو آنذاك حينما كانوا يصرّون على تحنيط موتاهم ففي ذلك تمسُّكهم بموتاهم لأنّهم كانوا يأتون لزيارتهم وكأنّهم أحياء يرزقون، بل منهم من كان يأتي مع بقيّة أفراد الأسرة ويحمل الأكلَ معه وينصبون الموائد أمام الميت ويأكلون أمامه حتّى يشعرون به وكأنّه مازال بين ظهرانيهم،

وبعضهم الآخر كان يأتي لمجرَّد الحديث مع الميت أو طلب مشورة أو نصيحة، كلّ حسب اعتقاده واستعداده النّفسي والرُّوحي. هو نوع من الوهم الّذي كان يعيش عليه النّاس، وهم الانتصار على الموت والتّمسّك بالحياة. وعلى ذكر الانتصار على الموت يحضرني مشهد كان يحدث أمام عيني في زياراتي الثّلاث لهذا المكان في سنين مختلفة من عمري: ففي كلّ مرّة كنتُ أتجوَّل فيها بين أروقته الفسيحة كنت أصادف العديد من السُّيَّاح من مختلف مناطق العالم بعضهم كانت تظهر عليه ملامح الدَّهشة وبعضهم الآخر علامات الخوف والقلق وبعضهم الثَّالث كان يفرّ من المكان لا يلوي على شيء. لكن في كلّ زيارة كان يتكرَّر أمامي مشهد بعينه: وأعني به مشهد رجل شابّ وهو يحضن ويقبّل حبيبته أمام الأجساد الميتة: في زيارتي الأولى كان العاشقان من انكلترا وفي الزِّيارة الثَّانية كانا من أمريكا وفي الزّيارة الثّالثة كانا إيطاليَّيْن. وفي كل مرّة كنتُ أتساءل عن معنى هذا المشهد الَّذي كان يتكرَّر أمامي بشكل عفويّ من العاشقين ولا أثر فيه للتصنع: هل كان فيه رمزيّة لانتصار الحبِّ على الموت؟ كنتُ أحاول في جوابي أن أكون متفائلة وأوهم نفسي كغيري بأنَّ الأمر كذلك وبأنَّ الحياة والرّغبة في العيش بكل قوة وعنفوان وبهجة هي الرّمز والدَّرس الحقيقي لهذا المشهد، لكن هيهات هيهات فالحياة نفسها من علَّمتني أن أثبّتَ قدميّ على الأرض وأنظر إلى الأشياء بعين البصيرة الَّتي تحملك إلى أبعاد أخرى غير الّتي اِعتاد عليها الآخرون: إنّ منظر القُبلة والاحتضان كان فيه خطاب صريح من الموت نفسه؛ أو من برسيفوني وزوجها هاديس، سيّدا المواقف كلّها في هذا المكان: "الموت أقوى من الحياة" الموت هو الحقيقة الكبرى أو بوَّابة الإنسان إلى حقيقة الحقائق. وإذ هو كذلك فإنّه يخلق لدى الزّائر نوعاً من الارتباك، فتختلط في قلبه وعقله المواقف وتأسره الرّهبة والخوف، ولكي يضبط ويعيد التَّوازن إلى نفسه وما يحدث بداخلها وسط هذا الكمّ الهائل من الهياكل العظميّة، فإنّه يسارع إلى تقبيل حبيبته أو تسارع هي إلى تقبيل حبيبها لا

فرق، لكن هيهات هيهات، لو كان التَّقبيل فقط هو الّذي يعيد للإنسان توازنه لهان الأمر، لكن ما من مفرّ فقد خُلق الإنسان ضعيفاً أمام موقفين قويَّين في هذه الدُّنيا: موقف الموتِ وموقفُ الحُبّ، فكلاهما موقفان يبثَّان الخوف والرُّعب في الإنسان لأنّه لا يستطيع السَّيطرة عليهما ولا يقدر التَّحكم فيهما فالموت سرّ عظيم والحبُّ سرّ أعظم، لذا تجد الإنسان دائماً يركض وراء وهم الخلود، فهل يا ترى لو توصّل الإنسان على سبيل الافتراض إلى هذا السرّ، عرفَ المعنى الحقيقي للحبّ؟

وختاما عزيزي القارئ المتوّج بإكليلِ المحبّة أتركك مع (سوناتا الموت والحياة)

أو القصيدة التي نظمها الشاعرُ فيرديناندو ميرايّا تيرميني سنة ١٨٦٧ بمناسبة عيد الموت والموتى وألقاها في كنيسة السَّيّدة العذراء، سيّدة السّلام وهي اليوم محفوظة هنا في هذا المتحف وهذا نصُّها:

تَعَالَ يا أخِي لا تخْشَ المَوْتَ،
تَعَاَل وَتَعَلّمْ كَيْفَ تتأمّلِ الحَيَاةَ
الدّوقُ القائد العَسْكريّ، والأميرُ
وأصحابُ الرُّتبِ والألقابِ والأقويَاء الشّجْعان
كلّ ألقاب هؤلاء، تصبحُ هنا مجرّدَ كذبة لا غير
أنتَ أيضاً ستلقى يوماً ما نفسَ المصير.
تعال وتأمّل فحتّى جمالُ الشَّكل هنا يختفي
وعبثاً وسطَ هذه الأقبية المظلمة يطلبُ الميتُ
العفوَ من إله الموت آيْتا.
وإذ تُمعنِ النَّظرَ في المرمر الفريد الصَّافي
تقل: عبثٌ هو ثراء الإنسان الفاني
ذهبٌ لا قيمة له وترانيمٌ ومرثيات باذخة

تداركْ إذن يا أخي أخطاء الماضي
وتُبْ عن المعاصِي
وأمعنِ البصرَ في كلّ شيء ثُمّ عُد لتحكيَ لي
كم من الأشياءِ يتعلمُها الإنسان من هذه الأجداث الصّامتة.

*

٢ تشرين الثاني ١٨٦٧

فيرديناندو ميرايّا تيرميني.

هنا أضع رابط فيديو يوتيوب به مجموعة من الصُّور لمعظم المعالم الَّتي جاء ذكرها في هذا الجواب:

https://www.youtube.com/watch?v=BpZ8zHvKKnY

٥٢. مع مطلع هذا العام الجديد (٢٠١٨)، أصدرتِ الجزء الأول من كتابكِ الموسوعيّ (كواكب على درب التبّانة / مقاربات نقدية)، هل يمكنكِ أن تحدّثي السّادة القرّاء والمتتبّعين لتجربتكِ الإبداعية عن تفاصيل ولادة هذا الإصدار وكيف أصبح بهذا الحجم، لا سيما وأنه قد سبق لكِ أن أعلنت أيضاً عن عملك الحاليّ على دراسات ومقالات الجزء الثّانيّ منه؟

بداية أتقدّم بأجمل التّهاني والأمنيات الطيّبات لكلّ القراء والمتتبّعين لتجربتي الإبداعيّة في العالم قاطبة، راجية من المولى عزّ وجلّ أن يجعل عامهم هذا عام أمن وأمان، وسلم وسلام ومحبّة ورخاء وازدهار في كلّ مجالات الحياة الصّغيرة والكبيرة. أمّا فيما يتعلّق بـ (كواكب على درب التبّانة)، فقد صدر حديثاً في العراق عن دار الفرات للثقافة والإعلام، وهو عمل موسوعيّ حقّاً يتكون في جزئه الأول من ٦٣٤ صفحة من الحجم الوزيري، وقد انشغلت به لما يزيد عن سبع سنوات قضيتها وأنا منهمكة في حياكة مقالاته ودراساته ومراجعتها وتنقيحها وتدقيقها

الواحدة بعد الأخرى، ولم يكن بالأمر الهيّن بتاتاً الحرص على إصدار هذا الجزء منه مع مطلع هذه السّنة الجديدة كهديّة منّي إلى كلّ السّيّدات والسّادة المبدعين والأدباء الّذين تناولتْ تجربتهم الإبداعيّة بالقراءة والتّحليل .

ولقد كانت قراءاتي هذه سواء في مجال الشّعر أو الرّواية أو الفنّ التّشكيلي أو المسرح أو الكتابات التّراثيّة، نابعةً من درس علّمتني إياه في طفولتي سيّدةٌ كانت تعمل في بيتنا، تساعدُ والدتي رحمها الله في بعض الأعمال والشّؤون المنزليّة. أذكر أنّني آنذاك كنت أبلغ من العمر عشر سنوات، وكانت هذه السَّيِّدة قد اتفقت مع والدتي على العمل عندنا على أن تذهبَ مرّة في كلّ شهر أو شهرين لزيارة بيتها المتواجد بضواحي مدينة بني ملال من أجل الاطلاع على أحواله وتنظيفه وترتيبه، وكنت أرافقها في سفرها الشّهريّ ذاك تعبيراً منّي على محبّتي واحترامي لها، وأعتقدُ أنّ هذا الأمر كان يزيدُ من سعادتها هي أيضاً، فلقد كانت امرأة أرملة وحيدة ولم تنجب في حياتها ابناً أو ابنة قطّ يؤنسان وحدتها ووحشة أيامها. ومن زياراتنا تلك أذكرُ أنّها كانت تأخذني معها بعد صلاة العصر في جولة إلى غابة خضراء كبيرة مجاورة لبيتها كنتُ أقضيها في الرّكض خلف الفراشات واليمام البرّي، أمّا هي فكانت تمضيها في التقاط الكثير من ثمار الصّنوبر والبلّوط، نأخذها معا بعد انتهاء الفسحة في كيس كبير إلى بيتها الصّغير حيث تقوم بتنظيفها لتنتقي منها قبل الخلود إلى النّوم وبعناية شديدة حبّات خاصّة ومميّزة. وفي الصّباح الباكر جدّاً كنّا نخرج سوية ونقصد الغابة من جديد لتزرع هي ما انتقته من حبّات في الأرض بالقرب من بعض الأشجار وبطريقة عجيبة لا أحد يعرفها سواها. كان كلّ شيء تقوم به في الغابة عملاً مدهشاً بالنّسبة إليّ، وكنت أقف إلى جانبها منبهرةً بها وأنا أعطيها الحبّات من الكيس الواحدة تلو الأخرى دون أن يفوتني أن أسألها قائلة:

- "راحتي" (وكان هذا هو الاسم الذي كنت أحبّ أن أناديها به): ما دمتِ أنت سيّدة ثريّة وتملكين كلّ هذه الغابة الشّاسعة من الأشجار الخضراء بكلّ ما فيها من طيور من كلّ شكل ولون، فلماذا تتعبين نفسكِ وتأتين للعمل عندنا؟

- ابنتي العزيزة، أنا لست بسيّدة ثريّة ولا أيّ شيء ممّا قد يدور بخلدك، وهذه الغابة ليست ملكي، وإن كنت أنا من زرعت معظم أشجارها منذ شبابي إلى بدايات شيخوختي، كلّ ما في الأمر أنّ هذه القطعة الأرضيّة الكبيرة كانت فارغة فيما مضى وأحببت أن أجعلها خضراء هديّة منّي إلى النّاس لتنظّف الهواء الّذي يستنشقونه، وتدفأ ليالي شتاءاتهم القارسة بما سيحطبونه فيها من الخشب، ولتصبح فضاءً مريحاً ومؤنساً يلعب فيه الأطفال مثلك، ويستريح فيه الكبار من عناء العمل في أيّام الصَّيف الحارقة، ولتبني فوقه الطُّيور أعشاشها، وتتفجّر فيه الحياة على مدار فصول السَّنة.

- على هذا فالكلّ هنا يحبّك كثيراً، لأنّك أنت من زرعت لهم كلّ هذه الأشجار الباسقة؟!

- لا يعلم النّاسُ هنا من الأمر شيئاً، بل لا يعنيهم في شيء لمن تكون الغابة، وليس مهمّاً بالنّسبة لي أن يعرفوا بعملي هذا أبداً، كلّ ما يهمُّني أنَّ هذه الأشجار ستعيش بعدي لسنوات عدّة، ونفعها سيمتدُّ ويدوم إلى ما شاء الرّحمن.

ظلّت كلماتها تلك ترنُّ في قلبي كالجرس بشدّة، وعدنا إلى بيتنا في المدينة، ولم أخبر أحداً من أهلي بشأن غابة "راحتي" أو سيّدتي السَّوداء، نعم، فلقد كانت "راحتي" امرأة ذات بشرة سوداء. وأذكر أنّه حينما كبرتُ فيما بعد بسنوات قليلة، كنت أجيب مُدَرّساتي في المدرسة حينما كنّ يسألنني "ماذا تريدين أن تصبحين في المستقبل يا أسماء؟": "زارعة أشجار وصانعة غابات!". كنت أقول وبين عينيّ تتلألأ صورة "راحتي."

وكبـرتُ بالفعـل، ونفّـذتُ كلمتـي ووعـدي وأصـبحتُ زارعـةَ بـذور الحـرف والكلمـة والعمـل الطّيّـب الحسـن بـين النّـاس، وبظهـور شـبكة الإنترنيـت فـي حيـاتي العمليّـة والعلميّـة الأكاديميّـة والأدبيّـة، أحببـتُ أن أطبّـق نظريّتـي عـن العمـل وخدمـة النّاس بأن أجعل هذه الأرض الرّقمية غابة الزّرع المثمر الصّالح، فبدأتُ بنثر أولى البذور، وأسستُ سنة ٢٠٠٦ مجلّة نوستالجيا، والّتي كان يكتب فيها آنذاك العديد من الأدباء والكتّاب من العراق وسوريا والمغرب وغيرها من المناطق الأخرى، وهُمُ الّذين بهمُ شكّلتُ الخميرة الأمَّ الأولى لـ (كواكب على درب التّبّانة)، ثمّ بعد نوستالجيا أسّستُ مجلّة أخرى في سنة ٢٠١٤ وأسميتها بتمّوز كرمز للخصب والعطاء والخير، وعملت فيها بمعول التّرجمة ومنها ظهرتْ في هذه المرحلة أسماء أخرى لأدباء وشعراء وكتّاب آخرين، وبدأتْ رقعة الغابة تتّسع شيئاً فشيئاً إلى أن أصبحت هذا الكتاب بكلّ ما قدّمتُ فيه من قراءات لتجارب إبداعيّة، كنت أنتقيها بعناية شديدة وفقاً لمبدأ الزّراعة الرُّوحيّة الحقّة عبر فصول سنوات عشر شذّبتُ فيها الكثير، وحينما اكتمل الجزءُ الأوَّل بدا لي أن أتحوَّل من مفهوم الغابة إلى مفهوم طريق اللبّانة، لأنّه يعني العمل بشكل أعمق على دواخل الحرف الإبداعي وجوّانيّاته الخاصّة بكلِّ اسم اخترته، ولم يكن يعنيني في الاختيار أن يكون الأديب أو المبدع ذا شهرة طنّانة، أو ذا كرسي أكاديميّ برّاق، لأنّ من يعمل في درب التّبانة يعرف جيّداً أن ما كلّ ما يبرق كوكباً أو نجماً حقيقيّاً، فلربّما يكون مجرّد شظيّة متنقلة في فضاء الفكر وسماواته وليس لها من البريق سوى لهب الاحتراق ورائحة الشّواظ والنّحاس، ويعرفُ أيضاً أنّه لا يُشترطُ في نجاح العمل النّقديّ أن يهتمّ النّاقدُ بالنّصوص الجماهيريّة طمعاً منه هو الآخر في بلوغ أعلى مراتب الشّهرة والجماهيريّة أيضاً، إذ لا ينتهج هذا الأسلوب إلّا أصحاب العقول الوصوليّة، أمّا أصحاب النّفوس السّامية العالية فيعلمون جيّداً أنه ليس بالضّروري أن يكون النّصّ المدروس قد حظي بعناية أعلى نسبة من القرّاء في شتّى أنحاء المعمورة ليكون النّقد

هو الآخر جماهيريّا، وبالتَّالي يخضع لميكانيزمات القراءات الثّقافيّة، لأنّ الجماهيريّة تعني قبل كلّ شيء انفتاح النّصّ المدروس على الهمّ الجماهيريّ وابتعاده عن خطاب النّخبة والجهات الرّسميّة الّذي عادة ما يكون خطابا للاستهلاك الثّقافي والظّهور التّلفزيونيّ وما إلى ذلك، وهذا ما يفسّرُ اهتمامي أيضاً في الجزء الثّاني من هذا الإصدار بأسماء منها من لم يسبق لها أن طبعت أو نشرت ورقيّاً أيّ ديوان أو رواية، وذلك لما لمست في خطابها من ولوج في عمق الألم الإنساني عبر تجارب شعريّة خاصّة.

لم يفتني أيضاً أن أنجز لوحة خاصّة بغلاف هذا الإصدار وقد أسميتها بدرب التَّبَّانة، وحرصت فيها على أن أشير إلى مفهوم البذور والزِّراعة بأن جعلت من طريق اللبّانة منعرجاً كرأس المحراث، وكذا إلى مفهوم الزّمن الذَّائب الَّذي قضيته في العمل بين صلوات كلّ يوم عبر ساعات ورديّة اللّون لتذكّرني بسكاكر الطّفولة الَّتي كان يهديني إيّاها شيخ الحيّ وعطّاره الأنيق المغربيّ ليعلّمني معنى المتعة واللّذّة في الانشغال بالحرف وأهله، وهو المفهوم الذي سبق وأشرتُ إليه في كتابي ((تمثُّلاتُ السّادة الملائكة الكروبيّين في تجربة صبري يوسف الإبداعيّة (من الأدب إلى الفنّ التّشكيليّ): دراسة عرفانيّة)).

٥٣. في حديثك عن سيدة الطُّفولة زارعة أشجار الصّنوبر والبلّوط إشارة إلى مدى عمق إيمانك بالعطاء والتّراحم والتّعاون بين البشر، فهلّا أفضتِ في الحديث عن هذا الجانب ومدى أهمّيَّته في حياة أسماء غريب الإنسانة وكذا الأديبة؟!

بقدر ما أثّرتْ فيّ السيّدةُ زارعةُ الأشجار، بقدر ما فتحتْ عينيّ على حقيقة في غاية الأهمّية؛ مفادها أنّ غابة الطّفولة البعيدة لم تكنْ فيها إشارات تدلُّ فقط على ضرورة العملِ الصّالح والإخلاص فيه ونكران الذَّات وما إلى ذلك، وإنّما كانتْ فيها أولاً وقبل كلّ شيء إشارات تقول، إنّه كما الغابة مكانٌ للفيء الجميل

والهواء النّقيّ والطّيور المزقزقة من كلّ لون وصنف، فإنّها أيضاً مكان تجتمع فيه الوحوشُ والغيلان، فالغابة هي النّفس وأدغالها بحاجة إلى التّوغّل فيها كلّ يوم أكثر فأكثر للتعرُّف على وحوشها وبالتّالي ترويضِها حتّى تصبح مطواعة هادئة قادرة على الإهتداء والاستماع إلى القول واتّباع أحسنه، إذ معرفة الله تبدأ بمعرفةِ النّفس، ورفعِ الحجاب عنها ومخاطبتِها وجهاً لوجه. والغابة تعني أيضاً مكان البذار، بل أماكن البذار تلكَ الّتي يجبُ معرفةُ اختيارها بشكل جيّد، فقد يكون المكان مجرّد مساحة جرداء من التّراب العقيم، فيسقطُ البذارُ عليه وتأتي الطّيور لتأكله كما ذكر لوقا العزيز في إنجيله (الإصحاح الثّامن)، وقد يكون مجرّد حقول صخريّة، يسقط فوقها البذار ولا يُنبتُ إلّا العشب الخاويّ ما إن تُشرقُ عليه الشّمس حتّى يحترق. وقد تكون الأرضُ شوكيّة، ما إن تسقط فيها البذور حتّى تختنق ولا تعطي أيّ ثمر! وفي حديثي عن البذور والغابة والأراضي المختلفة الطّبيعة والنّوع، إشارة إلى كلمة الفكر، وكلمة الرّوح لأنّني كما سيدة الطّفولة لا أملكُ سواها، وعليّ أنْ أعتني جيّداً باختيار المكان الّذي سأزرعها فيه، وإن كنتُ على يقين بأنّني سأصادفُ طريقَ الصّخر وكذا طريقَ الشّوك الّتي لا ينبت فيهَا سوى أذى النّاس وكلماتهم الّتي يهتزُّ لها عرشُ الرّحمن من شدّة الألم الّذي تسبّبه. وعلى ذكر أرض الصّخر والشّوك فإنّني أحبُّ أن أنَوّه إلى أنَّ النَّاسَ اليوم أصبحتْ قلوبهم كأرض الشّوك والصّخر هذه، كلّما سقطتْ عليها كلمة الله بذرةً فيها جاء إبليس وانتزعَها منها انتزاعاً، وتركها صفواناً صلداً لا شيء ينبت فوقه أبداً. وليسَ السُّؤال لماذا أصبحتِ القلوبُ حجارةً صلدة، وإنّما كيف أصبحت كذلك؟ وهنا تحضرني صُورٌ عدّة تنزع النّوم من العين وتُدمي القلب عن عالم مُغرق في مادّياته وفي ترفه المعلوماتيّ وخوائه الإيديولوجيّ والمذهبيّ والعقائديّ العظيم، دونَ أن ينتبه إليها أحدٌ وسطَ كلّ ما هو فيه من وهْمٍ وأمراض روحيّة مزمنة ليس لها مثيل. صُوَرٌ صادفَتْهَا عيْني في عواصمَ مختلفة من العالم، وأعني بها على وجه التَّحديد، روما وباليرمو: في روما رأيتُ النّاسَ يأكلون

من الحاويات وبكيْتُ. وفي باليرمو رأيتُ نساءً وشبابا بعُمْر الزهور يرقدون في الشَّوارع وبكيتُ كثيراً، واحترقَ قلبي من شدّة الألم، ورأيتُ النّاس يحدّثون أنفسَهُم في الطّرقات لا هم بالمجانين ولا هم بالمهووسين، وإنّما هم ممّنْ صرعتهم الحياةُ بكلِّ مصائبها، فانفجرتْ لكلِّ ما رأيتُ ومازلت أرى أسئلةٌ حارقة في قلبي هاتفةً: لماذا هذا يا إلهي؟ ما الّذي يحدثُ هنا؟ ما الّذي يجعلُ امرأة في عزّ شبابها تغادرُ بيتَها مجنونةً لتجلس على الرَّصيف تستجدي الأكلَ، والمال الَّذي لا يجودُ به عليها أحد. ما الّذي يحدث هنا والكلّ يمرّ دونَ أن يلتفتَ إلى النّاس المعلّقة أجسادُهم في الحاويات، ولا إلى المدمنين للكحول المرميِّين في الشَّوارع، ولا إلى المرضى ولا إلى ... ولا إلى... ولا إلى ... ممّا لا يستطيع أن يحيط بهِ حرف ولا قلم؟! وإذ أتساءل بكلّ ألمٍ وحرقة يأتيني الجواب من جهات أخرى:

حينما أركبُ الحافلةَ مثلاً، أجدها مكتظّة بالنّاس الأنيقين جدّاً، والمتوسّطي الحال أيضاً، لكن لا أحد منهم يؤدّي ثمنَ التّذكرة: كلّهم، - إلّا من رحم ربّي - يركبونَ مجّاناً، أيْ بمعنى آخر، يسرقون من مال الدّولة وبالتّالي من مال المواطنين الآخرين أكثر من مرّة واحدة في اليوم.

وحينما تصبحُ المرأةُ أرملةً مثلاً، ويحدثُ أن تتعرّفَ على رجل آخر فإنّها لا تتزوّجُ بهِ، وإنّما تفضّلُ العيشَ معه في "الزّنا" وبمال تسرقُه من خزينة الدّولة ومن الضّرائب التي يؤدّيها غيرُها من المواطنين في قطاعات مختلفة دون أن تعلنَ عن الأمر حتّى لا تحرمَها الدّولة من "معاش" أو راتب تقاعد الزّوج الأوّل الرّاحل.

وحينما... وحينما... وحينما... إلى غير ذلك من أمثلة السّرقات الّتي يمارسُها النّاسُ في أوروبا وخاصّة في الدّول المتوسّطيّة دون أن يرفّ لهم جفن، وهُم لا يستوعبون تماماً أنّ كثرةَ هذه السّرقات هي الّتي تتسبّبُ في فراغِ خزينة الدّولة، وفي كثرة الضّرائب الّتي تُفْرضُ على الجميع فيما بعد وبدون مبرّرات ظاهرة، وفي حدوث ضيق العيشِ، والفقر، وانتشار ظاهرة أطفال الشّوارع، ونساء الأرصفة،

والمجانين، والمرضى النّفسيين وما إلى ذلك من الهموم والمصائب الّتي يشيبُ لها الولدان، والّتي يغفلُ أو يتغافل عنها الجميع. فأن يرقُدَ متسوّل بالقرب من جدار أكبر البنوك في العاصمة مثلاً، أو أن يجلس متشرّدٌ وكلبُه بالقرب من أكبر متجر لبيع الملابس الفاخرة أمرٌ فيه ما فيه، لأنّه مفارقة كبيرة جدّا، تعني اسألوا أهلَ البنوك ما فعلوا، واسألوا أهل المتاجر ما صنعوا وما قدّموا لهؤلاء الشَّريحة من النّاس، ومَنْ لَهُ أُذْنَانِ للسَّمْعِ فَلْيَسمَع!

هذا هو العطاء بالنسبة لي أيّها القارئ العزيز، بذرة هي كلمةٌ أزرعها في الرّوح، وأشياء أخرى أفضّلُ أن تبقى بيني وبين خالقي.

٥٤. في حديثكِ عن بعض السلوكيّات غير الحضاريّة لبعضِ العيّنات من المجتمع الأوروبيّ، حديث أيضاً عن عدم الوعي العميق لدى العديد من النّاس بمفهوم المواطنة، وبما عليهم من الواجبات ولهم من الحقوق، أنت أسماء غريب باعتباركِ أديبة "مهجريّة" كيف تعرّفين المواطنة والعيش في بلد غير الّذي رأيتِ فيه النّور؟

الأمثلة الّتي سقتُها في إطار جوابي الآنف حمّالة أوجه وقابلة للتأويلات، إذ ثمّة من سيرى مثلاً أنّه من حقّ المواطن أن ينعمَ أيضاً بالنَّقْل المجّانيّ داخل المدينة الَّتي يسكنُها وخارجها، وسيرى أنّه لو كان الأمر كذلك لما اضطرّ هذا الأخير إلى عدم أداء ثمن التّذكرة أو اختلاس المال العامّ بهذه الطّريقة. وثمّة من سيرى أيضاً أنّ الأرملة من حقّها أن تعيش من مال زوجها الرّاحل الّذي قضى عمره وهو يعملُ في مؤسّسات الدَّولة، ولا تضطرّ فيما بعد إلى العيش مع رجل آخر دون إعلام الجهات المعنيّة بالأمر فتُوسَمَ هي الأخرى باختلاس المال العامّ، وهكذا دواليك من الأمثلة الّتي لا تعدُّ ولا تحصى بما فيها حالةُ المُبصر الّذي يدّعي أنّه كفيف ليحصل على راتب العجز أو الإعانة الاجتماعيّة الشّهريّة، وحالةُ المُطلَّقَةِ

الّتي تحكُمُ لها المحكمة بالنّفقة وتذهبُ لتعيش بها مع عشيقها، بعد أن تكون قد جرّدت الزّوجَ الأوّل من كلّ شيء ودمّرت حياته دون أن يرفّ لها رمش، إلى غير ذلك من الحالات الّتي لو أنصتْنا لكلّ واحدة منها فإنّنا سنسمعُ من المسوّغات ما ليس له بداية ونهاية، وهذا لا يدخلُ فقط في إطار الفساد الرّوحيّ والأخلاقيّ الّذي يعيشه العديد من النّاس في كافّة المجتمعات لا الأوروبّيّة فقط، وإنّما يدخل أيضاً في غياب الحسّ بالمواطنة تماماً، أيْ لا أحدَ يعنيه من البلد الّذي يعيشُ فيه شيءٌ، كذاك الّذي يحرصُ على نظافة منزله، ويرمي بالنّفايات في الشّارع ناسياً أنّ البلد أو الوطن بمفهومه العامّ هو البيت الكبير الّذي ينعكسُ عليه وفيه وبه خُلق المواطن، والّذي منه يمكن التّطلّع أيضاً إلى مفهوم المواطنة الكونيّة، أيْ أنْ يشعُرَ الإنسان بأنّه معنيّ بالأرض والنّاس كافّة، فتكونُ بالتّالي الأرضُ بيتَه الأكبر، والنّاس جميعاً إخوانه في الإنسانيّة.

أمّا فيما يتعلّق بالشّقّ الّذي أشرت فيه إلى مفهوم المواطنة بالنّسبة لي باعتباري أديبة "مهجريّة"، فأعتقد أنّ الّذي تجتمعُ فيه صفات المواطنة الحقّة وهو في بلده الأمّ، لا شكّ سيكون مواطناً جيّداً حتّى في البلدان الأخرى، وأذكرُ أنّه حينما كنتُ أعيش في بلدي الحبيب المغرب، كانت وزارة التّعليم المغربيّة حريصة جدّاً على إقرار تدريس مادّة في غاية الأهمّيّة هي (التّربيّة الوطنيّة) منذ الصُّفوف الأولى، وذلك حتّى يتعلّم الطّفلُ منذ نعومة أظافره كيفَ يكونُ مواطناً صالحاً، ويتعرّفَ على مفاهيم جديدة تفتح عينيه على مستقبلٍ أكثر إشراقاً ونضجاً ووعياً وتخلّقاً بصفات الإنسان الطّيب الصّالح، وإنّي لأظنّ أنّ هذا قد ساهم بشكل كبير في كوني وجدتُ نفسي مواطنةً بكلّ ما تحمل الكلمة من معنى حتّى في بلدي الثّاني إيطاليا، أيْ حتّى قبل أن يمنحنِي هذا البلد الجنسيّة الإيطاليّة بعد أقلّ من ثلاث سنوات على تواجدي فيه، وإنّي لأذكُر جيّداً اليومَ الّذي أصبحتُ فيه مواطنة إيطاليّة؛ لقد كان ذلك منذ ١٦ عاماً تقريباً، وأذكر أنه بعد انتهاء مراسيم أداء القسَم الوطنيّ

(كما هو ظاهر في الصُّور المرفقة)، طلبتُ من زوجي أن يأخذَني في نزهة بأرجاء المدينة الّتي أعطتني اسمها وتاريخها، وبينما أنا وسط أماكنها العريقة شعرتُ وكأنّ المدينةَ اصطبغتْ بي، وانصهرت فيّ، فأصبحتُها وأصبحتنِي، ولبستُها ولبستني. كان ذلك ولم يزّل من أعمق التَّجارب في حياتي، وبناءً على هذا أقول إنّ المواطنة خُلُق وثقافة، فأن تكون في بلد آخر غير بلدكَ، فهذا يعني أنّه عليك أن تكون ملّماً بكلّ شيء: اللُّغة، الدّستور، والقوانين وكلُّ ما له علاقة بالحياة اليوميّة الإداريّة والسِّياسيّة وما إليها دون أن تفرّط في هويّتك وأصلكَ، لأنّ الإنسان بأصلهِ أثرى وأعمق وأقوى، ولأنّه يكون ثروة فكريّة لا يمكن التَّفريط بها أبداً.

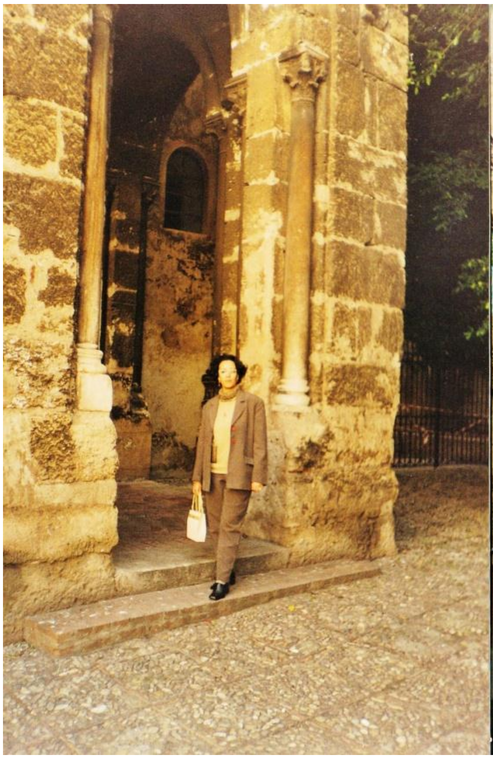

٥٥. انطلاقاً من تجربتك بشأن المواطنة والجنسيّة المكتسبة، كيف يمكنك أن تقيّمي المشهد الإيطالي في هذا المجال؟

يقودني هذا السُّؤال إلى الأديب والفيلسوف الفرنسي مونتسكيو وبالضّبط إلى رسائله الفارسيّة (Lettres persanes) الّتي انتقدَ فيها وهو في الثّلاثينيّات من عمره المجتمعَ الفرنسي من خلال أوزبك وريكا، فقدّمَ المجتمعَ الفرنسيّ كما هُو وبدون رتوشات، متحدّثاً بحرفِ النّقد عن مظاهر عدّة من حياة النُّخبة، السِّياسيّة منها والثّقافيّة، والدِّينيّة والاقتصاديّة، وكذا التَّعليميّة والاجتماعيّة. وأجدني وأنا هنا بصدد الحديث عن التَّجربة الإيطاليّة بالنّسبة لقضيّة المواطنة وما يدور في فلكها من قضايا الهجرة والأجانب المقيمين على التّراب الإيطاليّ، في موقفِ السّيد الفارسيّ أوزبك، الَّذي يرى بعيْنِ الآخر ويسجّلُ ملاحظاته التّاريخيّة عن فترة قضاها من عمره في بلد غير بلده الأمّ، وبالتّالي فهو يحكي عن أشياء وتجارب عاينَها

وعاشَـها بشـكل مباشـر، وعليـهِ وبالمثـلِ أرى أنّـهُ إذا كانـت الدّولـةُ الإيطاليّـةُ تمـنحُ بموجب القانون الجنسيّةَ الإيطاليّةَ للأجانب الّذين ترى فيهم الأهليّة لذلك، فإنّ العديدَ من عامّـة الشّعبِ لا يعنيهُم فـي شـيء أن تكونَ إيطاليّاً مـثلهم مـن حيث الحقوق والواجبات وما إلـى ذلك، لأنّ معظم النّاس سيظلّون ينظرون إليكَ ويتعاملون معك على أنّك أجنبيّ وغريب عنهم لا أقلّ ولا أكثر، وإنْ قضيتَ معهُم عمرك كلّه، وهذا يحدثُ لأنّهم يرونـكَ من الخـارج فقط؛ يـرون شـكل الملامـح، ولـون البشـرة، وطريقـة الكـلام، واللّبـاس والأكل، ومـا إلـى ذلـك مـن خصوصـيّات انتمائك وجذورك الأولـى، ويحاولون قدر الإمكان أن يتظاهرون بالقبول والتّقبّل متى استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وأرى أيضـاً أنَّ الأمـر يـزدادُ حـدّةً لأنّ الانتمـاء الـوطنيّ فـي إيطاليـا هـو بحـدّ ذاتـه "مشكلة" بسبب تعدّد المناطق والجهات الّتي مازالت ترنو لليوم بشكل أو بآخر إلى الاستقلال عن الحكم المركزيّ بما في ذلك جزيرتَي صقليّة وسردينيا. هذا من جهة، أمّا من جهة أخرى فإنّي أعتقدُ أنّـهُ مهما حاولتِ الجهاتُ العليا الحاكمـة بما فيها السّلطات الدّينيّة وعلى رأسها قداسة البابا فرنسيس برغوليو التّخفيفَ من حدّة هذه النّظرة "العنصريّة" نوعاً ما لدى بعض النّاس عبر العديد من النّصوص والخطابات الدّينيّة الملقاة في كلِّ عظات قدّاسات الآحاد وما إليها من المناسبات الدّينيّة، فإنّ هذا لمْ يؤتِ أكله وثماره بعد، اللّهمّ على المستويات النّخبويّة فقط وتأثيرها لدى أهلها يبقى ضعيفاً، بالمقارنة مع عامّة الشّعب الّتي تظلُّ بعيدة كلّ البعد عن التّأثُّر بما يجري ويحدثُ في الأوساط الدّينيّة والثّقافيّة والسّياسيّة العليا من تغيير. وهذا أمرٌ فيه نوع من الشّيزوفرينيا الفكريّة والّتي أعني بها تشظّي المواطن الإيطاليّ بينَ ما تنتجُه السّلطة الدّينيّة والسّياسيّة من فكر، وبين ما يعيشه ويراه في حياته اليوميّة، إذ مثلاً كيف يمكن تفسير ازدواجيّة الخطاب السّياسيّ بين نداءات السّلام والحوار والمثاقفة والسّعي نحو استقبال الآخر واحتضانه، وبين ما تبثّه القنوات الإعلاميّة المرئيّة والسّمعيّة من برامج تُرسِّخُ فكرة التّرهيب والتّخويف من الآخر "الأجنبي" في ظلّ ما

يسمّى اليوم بسياسة محاربة الإرهاب؟! صعبٌ جدّا فهم هذه المعادلة من الدّاخل، لأنّها تدخل في إطار ما يسمّى بسياسة الكيل بمكيالين!

وفي الوقت الّذي تستمرُّ أفواج المهاجرين في التَّدفّق من كلِّ صوب وحدب على التُّراب الإيطالي، نجدُ البابا فرنسيس يعاني ويعاتبُ بشدّة الشّعبَ الإيطاليّ على ما يبديه من تبلّدٍ في المشاعر والأحاسيس تجاه هذه المآسي الإنسانيّة الَّتي تفاقمت مع ما حدثَ من تغيير في خريطة الشَّرق الأوسط وتفتيت لشعوبه، وقد عبّر عن ألمه الشَّديد في أكثر من رسالة من رسائله الَّتي يقدّمها سنويّاً بمناسبة اليوم العالمي للمهاجر، لا سيَّما في رسالة العام المنصرم (٢٠١٧) التي تطرّق فيها إلى مأساة الأطفال المهاجرين، طالباً من الجميع الاعتناء بهم لأنّهم لا حول لهم ولا قوّة، ولأنّهم ولأسباب عديدة، يُجْبَرون على العيش بعيدين عن أرضهم ومحرومين من الحبّ والدّفء والحنان الأسَريّ.

المواطنُ الإيطاليّ يجدُ نفسه ليس جاهلاً فقط بثقافة الآخر، وكينونته وفكره وموروثه الرّوحيّ والدّيني والسِّياسيّ، وإنّما يجدُ نفسه أيضاً أمام أناسَ آخرين يرى فيهم المُنافِسَ الجديد له في سوق العمل كما على مقاعد الدّراسة، إضافةً إلى هذا فإنّه لا يستوعبُ اهتمامَ الدّولة بهم في حين كان الأولى بها (دائما من وجهة نظره) أن تهتمَّ بالطَّبقات الكادحة مِنَ الشّعب الإيطاليّ نفسه، وإذا نزلتَ إلى الشّارع وحاولتَ أن تفهم نفسيّة هذه الطَّبقة المسحوقة من النّاس، فإنّك ستجدُ من يقول لكَ: ((لقد تعبتُ ويئستُ من حياتي، إنّني أفكّرُ في أنْ أصبغَ بشرتي باللَّون الأسودِ علّ الدَّولة ترأف بحالي، وتعطيني ما تعطيه للمهاجرين من امتيازات، وإعانات اجتماعيّة))!

وفي الوقت الّذي يتفوّه به مواطن بسيط بهذه الكلمات تجده ينسى أنّ علاقةَ المهاجرِ الكادحِ بالعمل والعطاء مختلفة تماماً عن علاقتهِ هو بالكدح في الحياة؛ ثمّة من المهاجرين وأعني بهم الطَّبقة العاملة، من يعملونَ في الحقول والمصانع

والبيوت وما إلى ذلك، وهي أعمال يرفضُها تماماً الشَّابُّ الإيطاليّ لأنّه ينظر إليها نظرة استعلائيّة، ولأنّها ليست من مستواه لا الفكريّ ولا الاجتماعيّ، في حين تجدُ عنده الاستعداد الكامل للهجرة هو أيضاً إلى الدُّول الأكثر تقدُّماً وبمجرّد أن يصل هناك يبدأ في القيام بالأعمال الَّتي كان يرفضُ ممارستَها وهو في بلده.

هناك فقر حادٌّ وجهلٌ وعدمُ وعيٍ ليس في ثيّمة الهجرة وما إليها من قضايا، وإنّما في أخلاقيّات الحياة بشكل عامّ: العديد من المواطنين الإيطاليِّين وغيرهم من الأوروبِّيِّين يعانون من نقصٍ كبير في الوعي الأخلاقيّ الإنسانيّ لظاهرة الإنسان نفسه، ولا أعتقدُ أنَّ مشكلةً مثل التَّمييز العنصري أو العرقي هي السَّبب، بل الجهل ثمَّ الجهل ثمَّ الجهل هو أساس المصائب كلّها. وهو نفسه هذا الجهل الّذي يمنع العديدَ من النّاس هنا مِنْ أن يفقهوا مثلاً، أنَّ المهاجرين هُمْ ضرورة حيويّة اقتصاديّة وسياسيّة كبيرة على قدر عالٍ من الأهمّيّة بالنّسبة للمجتمع الإيطالي، لأنّ هذا يعني: تحريك سوق اليد العاملة، تجديد الكثافة السُّكّانيّة وإنعاشها، ضخّ المجتمع بدماء جديدة وسواعد قويّة تساعده على ضمان التَّقاعد الاجتماعيّ للساكنة الإيطالية العجوز وعلى مدى سنوات عديدة، ثمّ تنويع النَّسيج الفكري الثّقافي الإيطاليّ، وكذا السِّياسي. ولمَ لا يصبح المجمتع الإيطاليّ كالفرنسيّ الّذي قطع شوطاً كبيراً في هذا المجال وأصبح رجالُ الدَّولة فيه من أصول أجنبيّة، ورجالُ الأمن والشّرطة من المغاربة مثلاً ومن الأفارقة السُّود وغيرهم؟!

مازالت إيطاليا في حاجةٍ إلى العديد من عشرات السّنوات لتصل إلى مستوى التَّجربة الفرنسيّة وقد تفوقها أيضاً، ونعوّل كثيراً في هذا الأمر على دَوْر الجامعات أيضاً والّتي تسير بخطوات ثابثة في طريق المثاقفة والانفتاح على الآخر عبر مؤسّسات تهتمُّ بالثّقافات الفارسيّة والعربيّة والصِّينيّة والهنديّة وما إليها من ثقافات الأمم والشُّعوب، على أمل التَّغيير والتَّخفيف من طابع الاستشراق القديم، والدَّعوات التَّبشيريّة وما إليها، ما دامت المجتمعات العالميّة وحاجاتها نفسها قد

تغيَّرت في ظلِّ عالم تحكمه المعلومة والمعلوماتيّة. لا أنسى أيضاً أن أشير إلى دور وسائل الإعلام والسِّينما ودُور النَّشر وما إليها الّتي بإمكانها أن تقدّم للمواطن الإيطاليّ المزيد من النّتاجات الثّقافيّة الّتي تساعده على إنضاج تجربته في تعايشه وانفتاحه على الآخر قلباً وفكراً!

وفي الختام أرجو ألّا ينسى إخوتُنا في الغرب كافّةً أنّ سيّد المهاجرين كان يسوع الطّفل وأمّه سيّدة العالمين مريم (عليها السّلام) وكفيله القدّيس يوسف البارّ، وياحبّذا لو نتذكّر كيف عانت هذه العائلة المقدّسة من أجل حياة كريمة يسودها الأمن والأمان والسَّلام، وليكنْ عِندَنا النَّزيلُ المُقيمُ فيما بيننا كابنِ بَلَدِنا، نُحِبُّهُ كحبّنا لأنفسنا أو أكثر، وإذا حَصَدنا حَصيدَ أَرضِنَا، فلنترك منه للمسكين واللّاجئ وابن السَّبيل الَّذي قد يطرق أبوابنا، ولنحمد الرّبَّ أنَّ مازال في الوجود شيء اسمه المهاجرون، لأنّهُم يدُ الله الممدودة إلينا، فإذا شاء رفعَها، وجفّفَ البحار وأغلقَ الطّرقات وأمسكَ كلّاً في بلده، وحرمنا جميعاً من هبة العطاء والرّفق والمحبّة والشّفقة على إخواننا في الإنسانيّة، إذ ما اللّاجئ أو المهاجر يا أحبّائي سوى صورةٍ من صُورِ تجلّي الخالق الّذي يطرقُ أبوابكُمُ بلباس ووجهٍ آخر!

في الصّورة: أسماء غريب داخل كاتدرائيّة سان نيكولو، بمدينة نوتو الإيطاليّة، أمام عمل فنّي صُنِعَ من بقايا ألواح سفن الغرقى من المهاجرين والمغموسة بدموعهم وهُم يصارعون أمواج البحر الأبيض المتوسِّط الّذي ابتلع الملايين والملايين من أجسادهم.

أمّا العبارة المكتوبة أمامه باللّغة الإيطاليّة فهي لقداسة البابا فرنسيس، ويقول فيها متسائلاً: ((من سيذرف الدّمع من أجل هؤلاء الموتى؟!)).

٥٦. الحديثُ عن علاقة الدّول المُستَقبِلة أو المضيفة بالمهاجرين يجرُّ ولا شك إلى التّساؤل عن الهجرة العكسيّة، ماذا عنها؟

إيطاليا كانت ولمْ تزَلْ بلدَ الهجرات الثَّلاث: هجرة الإيطاليّين خارجَهَا، وهجرة "الأجانب" إليهَا، وهجرة هؤلاء "الأجانب" منها عائدين إلى بلدانهم الأصليّة أو قاصدين دُولاً أخرى غيرها.

أمّا عن النّوع الأوَّل من الهجرة فأسمّيه بـ "إيطاليا خارج إيطاليا"، وقد سَجّلتِ الإحصائياتُ بصدده هجرةَ أزيد من ٢٧ مليون إيطاليّ في مئة عام فقط، أيْ ما بين ١٨٧٠ و ١٩٧٠. وهذا عددٌ كبير جدّاً لدرجة أنّ هناك العديد من المدن في دول غير إيطاليّة أصبح نصف ساكنتها مع بدايات القرن العشرين من أصول إيطاليّة، مثلاً مدينتَيْ بوينوس آيريس وساو باولو، وكذا نيويورك وتورونتو، هذا بغضّ النّظر عن تدفّق الإيطاليِّين على دول أخرى كالسّويد وفرنسا وألمانيا سواء كان ذلك قبل الحرب العالميّة الثانية أو بعدها.

أمّا عن عدد الإيطاليين الّذين يعيشون في دول غير أوروبيّة فأصبحَ اليوم يتجاوز ٦٠ مليون مهاجر، وهُمْ هكذا يفوقون بتواجُدهم في هذه الدُّول عدد ساكني إيطاليا نفسها. وهذا هو ما يسمّى اليوم بالهجرة العكسيّة، إذ أنّ العديد من الدُّول بما فيها العربيّة أصبحت مستضيفةً للمهاجرين الإيطاليّين بعدما كانت شعوبُها هي الَّتي تهاجرُ قاصدةً إيطاليا، وقد حدث هذا التَّغيير العكسيّ بسبب النّكسة الاقتصاديّة الكبيرة الَّتي أصبحتْ تعاني منها الدُّول الأوروبيّة عموماً لا إيطاليا فحسب.

ولي من هذه البلدان العربيّة الّتي أصبحتْ تستضيفُ المهاجرَ الإيطاليّ أمثلة عدّة، أذكر منها المغربَ الّذي أصبحَ يُقيمُ فيه أزيد من مليونين وستمائة وثمانين ألف إيطاليّ (٢.٦٨٠.٠٠٠) حسبَ ما صرّحتْ به وزارة الدَّاخليّة الإيطاليّة في السَّنوات الأخيرة. ولقد كان الصّقلّيّون أوّل من وصلَ إلى المغرب قادمين إليه من تونس في منتصف القرن الثّامن عشر. وفي سنة ١٩١٣ وصل عددهم إلى

٣.٥٠٠ إيطـاليّ، وكانـت العاصـمة الاقتصـاديّة الـدَّار البيضـاء مركـزَهم الـرّئيس وخاصّة في حيّ المعاريف. كما سُجِّلَ بعضُ الحضور الإيطاليّ في شمال المغرب ومدن الرّيف. وقد حرصَ الإيطاليون عموماً على إنشاء بعض المؤسّسات الثّقافيّة الخاصّـة بهم فـي المغرب مثلاً المدرسـة الإيطاليّـة في الدّار البيضـاء، وكذا مركز دانتـي أليغييـري، ونـادي الإيطـاليِّين. ويلاحـظ نشـاط العديـد مـن رجـال الأعمـال والاقتصاد الإيطاليّ بشكل أكبر في المجال الفلاحيّ، وقطاع الصَّيد البحري، وكذا الصِّناعات التَّقليديّة، والميدان السِّياحيّ.

أمّا بالنسبة للنوع الثَّاني من الهجرة، أيْ هجرة الأجانب أو المغتربين إلى التُّراب الإيطـاليّ والَّذي تحدثتُ عنه وإن بإيجاز في الجواب رقم ٥٥، فإنّ السَّؤال الَّذي يجب طرحهُ ونحن بصدده، هو الآتي: لماذا لم يستفِد الإيطاليون من تجربتهم كمهاجرين من أجل الوصول إلى حلّ العديد منَ المشاكل الّتي تواجهُهم وهُم في احتكاكهم اليوميّ بالجموع الغفيرة المتدفِّقة عليهم من مناطق مختلفة من العالم؟!

هل هذا يعود إلى عدم تسليط المهتمّين بالتّاريخ الإيطاليّ الوطنيّ الضَّوءَ على إيطاليا المهاجرة؟ ربّما تكمنُ الإشكالية هنا، لأنَّ هذا يعني بشكلٍ مباشر مدى معانـاة المواطن الإيطـاليّ البسيط من التّعتيم الحاصـل فـي هذا الشّـقّ من تاريخـه الـوطنيّ، إذ قليلـة هـي الكتبُ الَّتـي تتحـدّثُ عن هذه القضـيّة، وقليلـة هـي الأعمـال السّـينمائيّة الّتـي تناولتْهـا بالتّحليـل، ولا توجـد مراجـع أكاديميّـة وتعليميّـة تـؤرّخ لهـذه الحقبة من تـاريخ إيطاليا المهاجرة في العـالم أجمـع بمـا فيـه الدُّول العربيّة، كمصـر وتونس، وكافّة دول الخليج.

فـي هذا المجـال لا يلاحـظُ فقط التّقصير من جانـب أهل التّأريخ، ولكـن هناك أيضا تقصير من جانب رجال الدّين المسيحيِّين، الّذين مازالت تنقصُ العديدَ منهم الإحاطـةُ الشّـاملة بالشّـأن العربـيّ الإسـلاميّ علـى وجـه التَّحديد، وهـي المشكلة نفسُها الّتي يعاني منها بالمقابل رجال الدّين المسلمين، فثقافتهم عن الدِّين المسيحيّ

وعن الآخر المختلف التَّفكير بشكل عام مازالت ضعيفة جدّاً، إذ ما الَّذي ننتظرُه مثلاً من إمام مسجد يقيمُ في دولة أوروبيّة يعتقد أنَّ المسيحيِّين كفّاراً وتجبُ محاربتهم وقتلهم إذا استدعى الأمر ذلك؟ بل ما الَّذي ننتظرهُ مثلاً من رجل دينيّ مسيحيّ يعتقدُ ألّا خلاص سوى في المسيحيّة وأنّ قرآن المسلمين مثلاً هو مجرّد قصص قام بتأليفها محمّد!

بقي الشّقّ الآخر المتعلّق بالنّوع الثّالث من الهجرة، وأعني به هجرة العودة إلى البلد الأمّ بعد أن يكون قد قضى "المغترب" سنين عدّة على التُّراب الإيطاليّ، وهذه تعدُّ أصعب الهجرات على الإطلاق، لأنّها هجرة مركّبة، وتجمع بين أرضيْن ووطنيْن: أرض المنشأ وأرض الكدّ والعمل والكدح، أرضٌ تُتْرَكُ في بداية الشَّباب وأخرى تُهْجَرُ حينما يتقدّمُ العمرُ بالإنسان ويصبحُ يفكّرُ في ماضيه البعيد، وأهلِه وناسه والتُّراب الَّذي يحبُّ أن يُرْمَسَ جسدُه فيه ويُضَمَّخَ بعطره، إنّها تحوّلات الإنسانيّة من زمان إلى زمان، ومن مكان إلى مكان، تحوّلات تتناساها كتب التَّاريخ والسِّياسة ولا تكتبُ عنها شيئاً، وإن كانت هيَ هذه التَّحوّلات الّتي تصنعُ تاريخَ الأمم والأجيال والشُّعوب.

(صور تؤرّخ لفترة إيطاليا المُهاجِرة قبل وبعد الحرب العالميّة الثّانية: (في دول الأرجنتين، البرازيل، الولايات المتَّحدة (جزيرة إيليس)، ثمّ ألمانيا).

٥٧. بالعودة إلى ظاهرة الخوف والحذر من "المهاجرين" المقيمين في الدُّول الغربيّة على وجه التَّحديد، والَّتي عادةً ما تكرّسُها وسائل الإعلام الدَّوليّة بما تعرضه من برامج تضرب على وتر غسيل الدِّماغ، وتأليب الشُّعوب ضدَّ بعضها بعضاً، ألا ترين أنّ للمهاجر نفسه نصيب من المسؤوليّة في تكريس هذه الصُّورة النَّمطيّة؟

المواطن الغربيّ لا يخافُ من المهاجر ولا يتعاملُ معه بمنطق الحذر والشَّكّ والرّيبة، بقدر ما يخافُ من نفسه وعدم قدرتها على مواجهة ما تراه مختلفاً عنها: إنَّ الاختلاف (La diversité) هو السّبب، وهو الَّذي يُحرّك هذا الكمّ من المشاعر المتناقضة داخل النّفس البشريّة بغضّ النّظر عن جنسيّة من يكون أمامها. وقد تناول هذا النَّوع من الخوف تجاه من هو مختلف أو غريب عنّا العديدُ من الأدباء بالتَّحليل والدِّراسة، وليس مشروطاً أن يكون هذا الغريبُ مهاجراً قادماً من بلد آخر. لنتذكّر مثلاً الأديبَ الصِّقليّ جوفاني فيرغا ونصوصَه العديدة الّتي عالجتْ هذا المشكل تجاه الأشخاص المنتمين للطبقات المهمَّشة من المجتمع الإيطاليّ نفسه، كنصّه الشَّهير (روسّو مالبيلو / الولد الأحمر المنحوس) والّذي نشره لأوَّل مرّة سنة ١٨٧٨ ثمَّ أدرجه فيما بعد ضمن مجموعته القصصيّة (حياة الحقول)، ويحكي قصّة صبيّ ذو شعر أحمر، يعملُ بأحد مناجم القرية وينظرُ إليه الجميعُ على أنّه سبب النّحس والغمّ الّذي يعيشون فيه، فهو مختلف عنهم تماماً سواء من حيث لون البشرة أو الشَّعر الأحمر الفاقع الَّذي يعتقد الكثير من النَّاس أنّه مجلبة للشّؤم والأذى. ثمّ هناك رواية "الغريب" لألبير كامو، والَّتي يعالجُ فيها كيفَ حاكمَ المجتمعُ (مورسو) لغرابة طباعِهِ وعدم مبالاته بأيّ شيء في الحياة، فاستحقّ بذلك أن ينظرَ إليه الجميع على أنّه غريب عنهم لأنّه لا يتشاركُ معهم في أيّ شيء على الرّغم من كونه رجل صادق، ولا يخشى أحدا حتّى حينما كان يتحدَّثُ عن جريمة القتل الّتي لم تكُن لديه أدنى نيّة في ارتكابها. ثمّ هناك طبعاً رواية الطَّاهر بن جلُّون

(العنصريّة كما شرحتُها لابنتي) والَّتي جاءت بصيغة حوار بيْن الكاتب وابنته الَّتي تطرح عليه مجموعة من الأسئلة بشأن العنصريّة ويجيبُها هو محاولاً الإحاطة بشتّى جوانب هذه الإشكاليّة الشَّائكة. وإنِّي لأعتقدُ أنّ الخوفَ من الأجنبيّ هو أمر طبيعي إذا كان في حدود المعقول أمّا إذا أصبحَ خوفاً غيرَ مبرَّر ومبالغاً فيه فهو بعد ذلك يتحوّلُ منَ الخوف الغريزيّ الَّذي يشعرُ به أيُّ كائن حيّ إلى الفوبيا العنصريّة الَّتي يحملُها العديدُ من الأشخاص فيرفضُون ويحاكِمون بدون سببٍ ظاهر كلَّ ما يعتقدون أنّه يُهدّدُ سلامتَهُم وحياتهم اليوميّة، بالضّبط كما قال الطّاهر بن جلّون لابنته في أحد مقاطع روايته والّذي أدْرِجُه كما هو:

- هل العنصريّة هي الحرب؟

- يمكن أن تكون للحروب أسباب مختلفة وغالباً ما تكون اقتصاديّة، لكن علاوة على ذلك تُشَنُّ بعض الحروب باِسْم ادّعاء التَّفوّق لمجموعة على مجموعة أخرى. يمكننا تجاوز هذا الجانب الغريزي أو الفطري بالتَّفكير والتَّربية والتَّعليم، وبغية تحقيق ذلك، ينبغي أن نقرِّر بأنَّ لا نخاف من الجار، ومن الأجنبي، ومن الغريب.

- إذن ماذا يمكننا أن نفعل؟

- أن نتعلَّم، وأن نُعلِّم أنفسنا ونربِّيها، أن نتأمَّل ونفكِّر، أن نحاول إدراك وفهم كل شيء، وأن نظهر فضولاً بكلِّ ما يتعلّق ويمسُّ الإنسانَ والسَّيطرة على الغرائز الأوليّة والبدائيّة والغرائز الجنسيّة والانفعالات والاندفاع الغريزي.

- ماذا تعني بالاندفاع الغريزيّ؟

- هو فعل الدّفع، النّزوع إلى تحقيق هدف بلا رويّة ولا تفكير. وهذه المفردة أعطت مفردة أخرى (repulsion) وتعني عدّة معانٍ مثل التّنافر والنُّفور والاشمئزاز والتَّقزُّز والدِّفاع، إلى جانب معناها الأوَّلي أيْ «الفعل الملموس لدفع وردّ العدو، وطرد شخص من مكان باتجاه مكان آخر»، فهي إذن تعبِّر عن شعور سلبي جداً.

– العنصريّ هو الَّذي يدفع الأجنبي إلى خارج البلد أو يطرده لأنّه يتقزّز منه ويشمئزُّ؟

– نعم يطرده حتّى لو لم يكُنْ مهدّداً من قبله، وذلك ببساطة لأنّه لا يعجبه. ولتبرير هذا الفعل العنيف، يختلق حججاً وأعذاراً ومبرّرات تناسبه. أحياناً يتسلّح بالعلم ويستند إليه، لكنَّ العلم لم يبرِّر أبداً العنصريّة. إلَّا أنّ العنصريّ يجعلُ العلمَ يقول أيّ كلام بلا معنى، لأنّه يعتقد أنَّ العلمَ يوفِّر له الدَّلائل الصّلدة والبراهين الرّاسخة والمتينة والقاطعة الّتي يتعذّر الطّعن بها أو معارضتها. ولكن ليس لدى العنصريّة أيّة قاعدة علميّة، حتّى لو حاول بعض النَّاس استغلال العلم وتطويعه لتبرير أفكارهم في التَّمييز والتّفرقة العنصريّة.

– ماذا تعني هذه الكلمة «التَّفرقة العنصريّة»؟

– إنّها تعبّر عن فصل مجموعة اجتماعيّة أو إثنيّة–عرقيّة عن الباقي ومعاملتها معاملة سيّئة، كما لو قرَّرت الإدارة في إحدى المدارس، على سبيل المثال، أن تجمع في صفٍّ واحد كلَّ التَّلاميذ السّود لأنّها تعتبر أنَّ هؤلاء التَّلاميذ أقلَّ ذكاءً من الآخرين. لحسن الحظ لا توجد مثل هذه التَّفرقة العنصريّة ولا يوجد مثل هذا التَّمييز العرقي والعنصري في المدارس الفرنسيّة. وقد كانت هذه الممارسة موجودة في أمريكا وجنوب إفريقيا. عندما نرغم أو نجبر مجموعة عرقيّة أو دينيّة أن تتجمَّع لتعيش منعزلة عن بقيّة السّكّان، فإنّنا نخلق ما يسمى بالجيتّوهات، أيْ الأماكن والمواقع العازلة، أيْ المعازل أو المحاجر والمنابذ.

– إنّه السّجن؟

– كلمة «جيتو» هي اسم لجزيرة صغيرة تقع مقابل فينيسيا (البندقيّة) في إيطاليا، وفي عام ١٥١٦، أُرْسِلَ يهود فينيسيا إلى تلك الجزيرة، لفصلهم أو عزلهم عن باقي الجماعات الإنسانيّة، فالجيتّو هو شكل من أشكال السّجن وفي كلِّ الأحوال إنّه عمل شائن وتمييز عنصري مقيت وتفرقة عنصريّة.

أعتقدُ أنّ هذا المقطع من الحوار بيْن الأب وابنته على قدرٍ عالٍ من الأهمّيّة، لأنّه يسلّطُ الضَّوءَ على بعض المفاهيم الَّتي يمكنُ أن يستوعبها الطّفلُ أكثر من الإنسانِ البالغِ، وذلك لأنّ الطّفلَ يكونُ في سنّ تسمح له بالتَّعامل بليونة وبساطة مع الآخر وتقبّله بفطرته السَّليمة، في حين يصعب ذلك جدّاً لدى الكبار لأنَّهم متشرّبون إلى آخر ذرّة في عقولهم وأجسادهم بأفكارهم وأحكامهم المُسبقة عن الآخر الأجنبيّ الَّذي يرون فيه تهديداً لوجودهم على الأرض الّتي يقيمون فيها معاً، فكيف يمكنُنا أنْ نشطبَ مثلاً عشرات السّنوات منَ الوجود العربيّ الإسلاميّ من الذَّاكرة الصّقليّة، وكلّ بقعة في هذه الجزيرة تشهدُ على طابعها العربيّ الّذي يعتبرُه العديدُ من أبنائها أثراً يذكّرهم بمن كان هنا من "المحتلّين" الّذين أذاقوهُم من العذاب أصنافاً وألواناً. صحيح أنّهُ قد تجدُ البعضَ مِن سكّان هذه الجزيرة مَنْ يعترِفُ بفضل العرب وما أقاموه من حضارة غنيّة وباذخة في شتّى مجالات الإبداع الإنسانيّ سواءً من حيث العمارة الإسلاميّة والفكر والأدب والعلوم، لكن هذا الكلام مِنَ الممكن جدّاً أن يفهَمَهُ رجلٌ مثقَّفٌ أو طالب جامعيّ، أو أستاذ متمرّس في تاريخ الشّعوب وما إليها، لكن لا يمكنُ أبداً أن يفهمَهُ المواطنُ البسيطُ من عامّة النّاس، لأن الوجود العربيّ الإسلاميّ بالنّسبة له يعني احتلالاً وغزواً لا أقلّ ولا أكثر، وكلّ عربيّ أتى من بعد هذه المرحلة وإنْ بعْدَ قرون فإنّه يُذكّره بذاك الَّذي كان فيما مضى، وقد زادتِ الأحداثُ السّياسيّة والحروب "الدَّاعشيّة" الجديدةُ الطّينَ بلّة، وقلّبتِ المواجعَ في قلوب النَّاس، واختلطَ الحابلُ بالنّابل وازدادتِ الصُّورةُ ضبابيّةً وتشويشاً، وأصبح أقلّ ما على الأجنبيّ أن يقوم به وخاصّةً إذا كان من أصول عربيّة إسلاميّة، أن يعملَ على تلطيف الأجواء وعدم اتباع سياسة الشّدّ والجذب حتَّى لا تنقطعَ أواصر المحبّة الإنسانيّة بين الطَّرفين بشكلٍ لا رجعة فيه، وأنْ يُحاوِلَ قدر الإمكان أن يقدِّمَ الصّورة الصَّحيحةَ عنهُ كإنسان متحضّر بغضّ النَّظر عن دينه وانتمائه، إذ المُهِمُّ الآن في هذه الفترة العصيبة من الزّمن التَّركيز على الجانب الإنسانيّ من شخصيّة كلّ فرد

في المجتمع والابتعاد ما أمكن عن الحزازات الدِّينيّة والطَّائفيّة الّتي ما ثبتَ يوماً أنّها جلبت المنفعة لأحد. وقد قطعتْ مدنٌ إيطاليّة عدّة في هذا الصّدد شوطاً كبيراً بما في ذلك روما وأيضاً باليرمو الصّقليّة الّتي تشهدُ العديدُ من أحيائها العتيقة على مدى التَّلاحم والتَّآلف بين إثنياتها المختلفة فاستحقّت بحقّ أن تكونَ المدينة الأكثر تثاقفاً بيْن العديد من المدن الأوروبِّيّة الكبيرة وإن كانت من حين لآخر تظهرُ فيها بعضُ المحاولات من معارضي الحوار والمثاقفة لإحباط جهود السّاكنة الباليرميتانيّة في هذا الصَّدد، كتلك التي وقعت في السَّنة الماضية (نيسان ٢٠١٧) حينما قامَ بعضُ المشاغبين بشطب الكلمات العربيّة والعبريّة من على لافتة في أحد أزقّة باليرمو القديمة من أجل الطّعن في هويّة المدينة وطابعها المتعدّد الجذور والثّقافات والانتماءات، لكنّها تبقى دائماً محاولات فاشلة تكونُ لها السّلطاتُ المحلّيّة بالمرصاد حرصاً منها على الدّفع بالمدينة نحو طريق التَّعايش والسّلام والحوار بين النَّاس. وشوراع المدينة وساحاتها بمقاهيها ودكاكينها الإثنيّة المتعدّدة والمختلفة أكبر دليل على ذلك، كما هو حال ساحة البحر الأبيض المتوسّط الّتي ظهرت فوق جدرانها شمسٌ ذهبيّة كبيرة بأعين ثلاثٍ كعمل فنيّ يباركُ النّاسَ وتآلفَهم وأُخُوّتهم وجنوحهم إلى السّلم والسَّلام.

٥٨. لماذا لا يقتربُ الإنسانُ من أخيه الإنسان، بل تزداد الهوّة بين بني البشر، عبر الدُّول والقارّات؟!

وأنا بصدد الجواب عن هذا السُّؤالِ القيِّم تحضرُ أمامي صورتان لقدّيسيْن إيطاليَيْنِ لهُما في قلبي مكانة خاصّة وأعني بهما؛ القدّيسة ماريا دجيمّا غالغاني، والأبَ بِيُو دا بيترِلْتْشينا، وذلكَ لأنّهما يشكّلان معاً شهادةً حيّة من عصرنا الحديث عن حروب إبليس المستمرّة ضدّ الإنسانيّة، وطالما مثقّفُو هذا العصر مصرّون على

إنكار الجانب الغيبيّ من حياتنا فإنّهُم لن يفقهوا ولن يتوصّلوا أبداً إلى لبِّ وجوهر مِحَن الإنسان وآلامه وتطاحناته بل حروبه الدّامية والأبديّة.

ولربّما يتساءلُ القارئُ قائلاً: وما دخل ماريا غالغاني والأب بيو في قضيّة العداوة البشريّة والتّقاتل بين النّاس واستعار نيران الحقد والكراهيّة في القلوب؟ وعليه أردّ: إذا فهمنا كيف كان يُصارعُ هذان القدّيسان إبليسَ، فإنّنا سنستطيع أن نقتربَ ولو بشكل نسبيّ إلى حلّ إشكاليّة الحروبِ العظمى الّتي حيّرت ومازالت تؤرّقُ العديدَ من الفلاسفة ودعاة السّلام.

ماريا غالغاني والأب بيو هما تجربة روحيّة عميقة تشهدُ على أن جسدَ الإنسان هو بحقّ معجزة الله الكبرى، والّتي منها ستكونُ نقطة انطلاقي:

الجسدُ البشريّ، ليس مجرّد هيكلٍ عظميّ يكسوانهِ اللّحمُ والجِلد، ولا مجرّد أجهزةٍ داخليّة وعروق تجري فيها الدّماء، إنّهُ أكبر وأعمقُ من ذلك بكثير، وما اطّلعَ عليهِ علماء وأطبّاءُ التّشريح لليوم ما هو إلّا الجانب البصريّ الّذي يُرى تارة بالعين المجرّدة وتارات بالآلات المخبريّة وغيرها، أمّا الجزءُ الأهمُّ منْ هذا الجسد أو ما أسمّيه بلوح الخالق المحفوظ فهو ذاك الّذي لم يطّلع عليه سوى خاصّة الخاصّة من عباد الرّحمن غير المحجوبين بالنّظريات العلميّة المحدودة الّتي قصَّرتْ كلَّ معارفها وجهودها على دراسة الجسد الظّاهر وتركتِ الجانبَ الّذي مازال مُغَيَّباً عن الكثير من النّاس، هذا الجانب هو كونُ الأكوان، والّذي فيه وبه يعرفُ الإنسانُ نفسَه ليتذكّرَ أنّ كلمة سقراط الشّهيرة (اعرف نفسك بنفسك) مازالَ لم يطبّقها حقيقةً بعدُ أحد، ولا حتّى انتبهوا كما يجبُ إلى كلمةِ عليّ بن أبي طالب الّتي قال فيها: (عجبتُ لمن يجهلُ نفسَه، كيف يعرفُ ربّهُ!).

وإذ أسمّي الجسدَ المُغَيَّبَ بكون الأكوان فإنّي أعني بهِ كلَّ ما في الكون من أسرار وملكوت، لأنّه يدلُّ الإنسانَ على حقائق الغيب ويجعلُه يراهَا متجسّدةً عياناً أمام عينيه بدءاً من النّفس إلى إبليس والملائكة الكرام البررة وغيرهم من مخلوقات

العوالم الأخرى، فيعقِلُ بالتّالي الشُّرورَ الّتي تحيطُ بالبشريّة ويفهَمُ أنّ حياتَهُ بأسرها معركة كبرى، هيَ فصل من فصول عدّة في حروب الإنسان ضدّ قوى الشَّرّ في هذا العالم.

وأمَّا بالنّسبة لرؤية النّفس المتجسّدة، فهذه مرحلة أولى تختِمُ فصولَ النّجوى والأحاديث المتواصلة لتدخُلَ إلى مرحلة أخرى هي المواجهة وجهاً لوجه بين الإنسان ونفسه وبينه وبين إبليس - الَّذي سأتوقّف هو الآخر عنده بقلم الشَّرح والتَّفسير والتَّحليل في مواطن أخرى من حوارات قادمة بإذن الحيّ القيّوم-. وعلى حسب طبيعة النّفسِ تتجسّدُ صورتُها فتكونُ إمّا بهيّة جميلة وإمّا قبيحة المنظر أو متلوّنةً لعوبةً، وهذا النَّوعُ الأخيرُ منها هو الأشدُّ كيداً والأكثرُ خطراً حتّى من إبليس نفسه، فهيَ تتملّكُ القلبَ وتسدُّ عليه كلّ المنافذ وتُصْبِحُ صوتَه ويدَ العقلِ المتحكّمَةِ فيه، وهي الّتي بموجبها يرتكبُ النّاسُ الكثيرَ مِن المعاصي ويتسبّبونَ في أذى الرّوح وإيذاء من حولهم.

ولقد تحدّثَ الخالقُ عن النّفس بكلّ درجاتها في شتّى كتبه السّماويّة، وأساءَ بعدَهُ تأويلَها معظمُ رجال الدِّين، إذ لم يُدركُوا أنّها هيَ هذه النّفس الّتي أنزلتْ "آدم" من حالة السّلام الأولى الّتي كان يعيشُ فيها بفطرته السّليمة، وما حدثَ من خلطٍ ولبسٍ بيْنَها وبين حوّاء كان من أشدّ وأفظع الأخطاءِ التَّأويليّة الّتي ارتُكِبَتْ في كلّ الدّيانات والاعتقادات، وذلك لما تلاهُ من ظُلم في حقّ الأنثى على الأرضِ قاطبةً. وعدمُ ورود اسمِ أمّ البشريّة الأولى (حوّاء) في أيّة آية من آيات القرآن الكريم أكبرُ دليل على ما أقولُ! لقد كنّا دائماً ومازلنا أمامَ آدم الذّكَر، وآدم الأنثى، ولا يوجدُ في الوجود بأسره شيء اسمه (حوّاء)، وإبليسُ في كلّ الكتاباتِ السَّماويّة لمْ يَغَرْ مِنَ الطّين أبداً، وإنّما اشتعلتْ نيرانُ الحقد والحسد فيه حينما خلقَ اللهُ لا الجسدَ الآدميّ وإنّما القلبَ الكاملَ فيهِ الَّذي بهِ دخلَ إلى الملكوت وبه كُرِّمَ على الخلقِ أجمعين، وبهِ تمَّ الجمعُ فيهِ بيْنَ الطيّن والنّار والنّور، وهي الصّفةُ الجامعَةُ الَّتي لمْ تَتَأَتَّ

لأحدٍ، فلا الملائكة حظُوا بهَا، ولا الجنُّ ولا الشّياطينُ، ولا بقيّةُ المخلوقاتِ من العالمين مصداقاً لقوله عزّ وجلّ: ((وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)) (سورة الإسراء: ٧٠)، وهو الأمرُ الّذي حدا بإبليس ألّا يسجُدَ لهُ كما أوضح ربّ العزّة في محكم كتابه قائلاً: ((مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ، أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ، قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ، وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ، قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ، إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ، قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)) (سورة ص: ٧٥-٨٣)

حينما قال جلّ شأنه لإبليس (اخرج منها فإنكَ رجيم)، كان يقصدُ بـ "منها" الجنّةَ مصداقاً لقوله في آية أخرى: ((وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ، فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ، وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ، فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)) (سورة البقرة: ٣٥-٣٧). ومن هنا ينبلجُ سؤال جديد عن حوّاء الّتي نفيتُ وجودَ اسمِها قبل لحظاتٍ ونسَفْتُ بها ما حُكِيَ إلى الآن عن كونِها حسبَ قصص الخلق الأولى ضلع آدم الأعوج، لأنّ لا شيءَ في الواقع اللّاهوتي الحقّ يدلّ عليها اللّهمّ في بضعة نصوص من العهديْنِ القديم والجديد، وحتّى هناكَ إنّما وردَ اسمُها مشتقّاً من جذر الحياة، أو الكينونة الّتي تزرعُ الحياةَ في كلّ شيءٍ، ولها لونُ الاختمار والتّحوّل والتّطوّر الّذي غالباً ما يُرْمَزُ إليه بالغراب الأسودِ، وهذا يعني أنّ الزّوجَةَ الّتي يعنيها اللهُ في القرآن وبقيّة كتبه إنّما هي شيءٌ آخر غير "حوّاء / المرأة" بمفهومها المتعارفِ عليه لدى النّاس إلى اليوم، وأنّ الخطابَ الوارد في الآية أعلاه إنّما هو موجّهٌ لآدم باعتباره ذكراً / رجلاً، وأنثى / امرأةً، وعليه يصبح

مصطلحُ (آدم) المنحدرةِ صفتُه من الأدمة الضّارية إلى السّمرة مرادفاً للقلب الّذي يحملهُ آدم الذّكر، وآدم الأنثى، أي كلّ إنسان بغض النّظَرِ عن جنسه، وبهذا يصبحُ نصُّ الخطاب بعد التّفكيك والتّأويل: وقُلْنَا يا قلبُ، اسكنْ أنت وزوجُك النّفسُ جنّةَ الجسدِ، وكُلا من علوم الرّوح وفواكه المعاني والمعارف ما شئتمَا وما لذّ لكما لأنّني لم أحجبْها عنكُما، ولا تقربا هذه الشّجرة الّتي يقصدُ بها شجرةَ الحياة واللّذّة والشّهوة النّابتة في طين وتراب الجسد، لكنّهما لم يلتزما بالأمر، فأزلّهُما الشَّيطان الّذي ماهو سوى قوى الوهْمِ المحجوبة عن إدراك المعاني، فكانتِ النّتيجة أن فاضَ هذا الجسدُ بالحياةِ الدّنيويّة والرّغبة والشّبق والاشتياق فكُشِفَ عنهما غطاءُ السّترِ والتصقَ القلبُ بزوجتهِ النّفس وأصبحَ ملازماً مُضاجعاً لهَا في كلّ وقتٍ وحينٍ، تتلبّسُهُ ويتلبّسُها، فطارتِ العلومُ النُّورانيّة وانمحقَ الرّغدُ الرّوحيّ وحلّت محلّهُ علومُ الدُّنيا، ونزلَا معاً إلى العالم الجسمانيّ، هيَ عدوٌّ لهُ وهو عدوٌّ لهَا، لأنّهُمَا أصبحَا يقيمان في ضيق جسدٍ ماديّ لا يسعهُمَا معاً ولا يحتملُ شراكتهُمَا في كلّ شيءٍ، وهي العداوةُ التي لا تنقضي إلّا بالموت.

نعمْ بنزول النّفس والقلب إلى أرض الجسدِ حدث الشّرخُ الكبير، والحالُ أنّ تاريخَ الإنسانيّة جمعاء هو تاريخ انحدار، فإنّما الجحيمُ لا تتجلّى إلّا من خلال أفعال النّاس وما آلت إليه قلوبهم من أحوال ظلمانيّة كثيفة انحجبت معها الفراديسُ واختفتْ إلّا من قلوب المخلَصين وهُم قلّة قليلة: ((ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)) (سورة الرّوم: ٤١).

جسدُنا إذن هو جنّتنا الّتي كانت لنا، لكنّها اليوم أصبحتْ بما كسبت أيدي النّاس خراباً تسكنُه الأفاعي وعناكب الحسرة، وما الحروب والعداوات المتفاقمة بين البشر سوى انعكاس لهذا الخراب الرّوحيّ، الّذي تحالفت فيه النّفسُ مع إبليس فكان ما كان من دمار.

٥٩. كيف يتصالح الإنسان مع ذاته ويتسامى رويداً رويداً مع الآخر ويحقِّق وئاماً مشتركاً مع بني جنسه؟

صعبٌ جدّاً أن يتصالحَ الإنسانُ مع ذاته، لأنّ ما ارتُكِبَ إلى اليوم في حقّ الإنسانيّة جمعاء من مجازر وجرائم بيد الإنسان نفسه، يجعلُ مسألة المصالحة هذه أمراً شبه مستحيلٍ! أيْ نعم، قَدْ يَتَفَيْقَهُ بعضُ رجال العرفان والدّين ويقولُ إنّ بابَ العودة مفتوح دائماً للجميع، وإنّ من حقّ كلّ إنسانٍ أن يعود عن غيّه، ويهتدي إلى طريق الصّلاح والفلاح ويلتزم بالخويْصة، ويبقى مرابضاً على عتبة الطّريقة المثلى، لكنّي أقول إنّ هذا الأمرَ واردٌ حقّاً لكنّه ليس بالسّهولة الّتي قد يتصوّرُهَا البعضُ، إنّما الأعمالُ تُحْصى ويُحاسَبُ عليها النَّاسُ جيلاً بعد جيل في الدّنيا قبل الآخرة، وكلّ ما نراه اليوم من ألمٍ وعذابٍ إنّما هو من سوء العمل الّذي يُرَدُّ إلى الخَلْقِ كما هُوَ، ليسَ لأنّ خالقَهم هو من يردُّهُ عقاباً وتجبُّراً منه، وإنّما هي مسألة فيزيائيّة كونيّة قديمة قدم الإنسانِ مفادُها أنّ لكلّ فعل ردّة فعل مساوية له في المقدار ومعاكسة في الاتّجاه، والفعلُ هنا يشملُ القولَ أيضاً، ولننظُر ماذا وكم فعلَ وقالَ الإنسانُ إلى اليوم، ولنَقِس بهِ ردّة الفعل المُساوية والموازية له، ولنكتشفْ على الأقلّ شيئاً واحداً: رحمةَ الخالق وعدله، لأنّه لو كان حقّاً يؤاخِذُ كلّ مخلوق بجرائره لما بقي على ظهرها أحد.

ويبقى الشّاهدُ على جرائم الإنسان جسدُهُ الغيبيّ الأثيريّ الّذي أشرتُ إليه في الجواب السّابق، إذ حينما يحينُ "الأجلُ" تضطربُ الرّوحُ وهي ترى الجسدَ التّرابيَّ يتهاوى ويتشقّقُ فتخرجُ قواه وأرواحه وصورُ الأعمال والأقوال والاعتقادات متجسّدةً أمام عينيه بكلِّ أثقالها وأوزارها، وهناك يصبح كلّ شيء يتحدّثُ بلسان الحقِّ والعدل والحساب مصداقاً لقوله عزّ وجلّ في سورة الزّلزلة: (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا، وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا، وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا، يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا، بِأَنَّ رَبَّكَ

أَوْحَى لَهَا، يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ، فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ).

على الإنسانِ أن يُزَلْزِلَ أرضَ بدنهِ، هذا هو الحلّ الوحيد من أجل تحقيق المصالحة مع نفسه ومع الغير، عليه أن يَرى أعمالَهُ وجهاً لوجه، أن يُقارعَ نفسَه ويُسَايِفَ إبليسَ الرّابض فيه. وإذ أتحدّثُ عن الزّلزلة هنا فإنّي لا أعني بها الموتَ الأكبر ولا القيامةَ الكبرى، وإنّما الموتَ الأصغر الَّذي هو صلبُ الرّوح على خشبة الحساب، وإلّا فكيف سنسعى إلى خلاصنا ما لم نحملْ صلباننا ونذهبْ باحثينَ عن سيّدِنا، أليسَ هو من قالَ: اترك نفسكَ وتعالَ؟! إذن هو ترْكُ النّفس الَّذي يجبُ القيام به، إنّه موتٌ من نوع آخر، وهو لا يتحقّقُ للجميع وعبثاً يدّعي الكثيرُ من النّاس سهولة وبساطةَ الأمر، فهُم لا يعرفون حقيقةً من تكونُ النّفسُ، ولا كيف هيَ ولا مدى قوّتها وكيْدها وجبروتها، وما الخرابُ الَّذي يعيشه العالم سوى أكبر دليل على ذلك.

وكلّ من يتركُ نفسَه فهو غريبُ الدّاريْن؛ هنا وهناكَ، لأنّهُ يغتربُ من أجلِ خالقِهِ ويحاولُ أن يقطعَ في سبيلِهِ كلّ المسافات والعوائق الحائلة بينهُما فيحدثُ أن يستهجنَهُ النّاسُ ويعتبرونه شاذّاً عنهُم وعن حياتهم، فينعتونه تارة بالجنون، وتارة بالزّندقة وتارات أخرى بأشياء ما أنزل اللهُ بها من سلطان.

وغربة الإنسانِ من أجل تصالحه مع ذاته واسترجاع جسده الملكوتيّ تقتضي الكثيرَ من الصّبر والجَلَدِ، وأعني بهذا، الصّبرَ باللهِ وفيه، أيْ في تجلّياتِ صفاته والاتّصاف والتّحلّي بها، فهل فينا من يستطيعُ ذلك؟ إذا حدثَ هذا فقد نجا الإنسانُ الَّذي ليس لي سوى أن أهمس في أذنه قبل ختم هذا الجواب: احذر أخي الإنسان المعلّمينَ المزيّفين فما أكثرهم في هذا الزّمن، ولتجعل معلّمكَ وملجأكَ الوحيد، سيّدُك وخالقُكَ الّذي ما خابَ أبداً من طرق بابَه والتجأ إليه، لأنّه هو وحده نِعْمَ الأب والمُعَلّمِ والرّكنِ والسّند، وما عداه فغثاء أحوى يا هذا! واسمع معي

التَّوحيديّ وهو يقولُ لكَ: ((أنت الغريبُ في معناك. أيُّها السَّائل عن الغريب! اعملْ واحدة ولا أقلَّ منها، وإذا أردتَ ذِكرَ الحقّ فانسَ ما سواه، وإذا أردتَ قُرْبَه فابعدْ عن كل ما عداه، وإذا أردتَ المكانةَ عنده فدَعْ ما تهواه لما تراه، وإذا أردتَ الدّعاء إليه فمَيِّزْ مالكَ ممّا عليك في دعواه. طاعاتُك كُلّها مدخولة، فلذلك ما هي ليست مقبولة. همِمُكَ كُلّها فاسدة، فلذلك ما ليست هي صاعدة. أعمالك كلها زائفة، فلذلك ما ليست نافعة. أحوالك كلها مكروهة، فلذلك ما ليست هي مرفوعة. ويلَك! إلى متى تتخدع، وعندك أنّك خادع؟ وإلى متى تظنّ أنك رابح، وأنت خاسر؟ وإلى متى تدّعي، وأنت منفيّ؟ وإلى متى تحتاج، وأنت مكفيّ؟ وإلى متى تُبدي القلق، وأنت غنيّ؟ وإلى متى تهبط وأنت عَلِيّ؟ ما أعجبَ أمراً تراه بعينِكَ، ألهاكَ عن أمرٍ لا تراه بعقلك)).

٦٠. يشعر المبدع مغترباً وغريباً عن هذا العالم، ما سبب شعور الكثير من المبدعين بالاغتراب؟

هذا ما يُقالُ وما تداولهُ النّاسُ على مرّ الأزمان والعصور إلى أن أصبحَ حقيقةً ومسلّمة كبرى بينهُم، وإنّي لأعتَقِدُ أنّهُ لو عرفنا معنى أنْ يكونَ الإنسانُ مُبْدِعاً، فإنّنا سنعرفُ أنّ غربتَه الّتي يدَّعيها الجميعُ شيءٌ وهميّ، وقد يكونُ الفعلُ الإبداعيّ في بدايتهِ لدى العديد منَ المبدعين- وأتحدّثُ هنا بصيغة الشُّموليّة ولا أعيّنُ فئةً بعينها من قبيل الأدباء والرّسّامين والفنّانين المسرحيّين ومن إليهم- محتاجاً إلى نوعٍ من العزلة التّامّة من أجل الخلق والابتكار لكنّه لا يمكنهُ أبداً أنْ يُسَاهِمَ في تأسيس الفكر والحضارة إلّا مِن خلال المشاركة، أيْ عبر طرح إبداعه على أرضِ الواقع وإخراجه من شرنقته. وإنّني لأعتقدُ أنّ سنوات العزلة الّتي عادة ما يعيشُها المبدعون ليست لها أيّة علاقة بالغربة بمفهومها الحقّ بقدر ما لها علاقة بالآفات الاجتماعيّة والفساد المستشري بين النّاس الّذي بهِ وبعرّابيه يتمُّ تحديدُ ما يسمّى بالجيراركيّة الثّقافيّة والفنيّة الّتي بموجبِها تتمُّ الهيمنةُ على الحركة الإبداعيّة

وتفصيلها وفقاً لمقاسات وشروط معيّنة، فيحدثُ بالتَّالي التَّهميش والإقصاء القصريّ للمبدعين الفاعلين حقّاً من أهل الفكر النيّر والمتنوّر. ولأنّ الدّنيا ليست دار ثبات واستقرار وكلٌّ فيها متحوِّل ومتغيّر، فإنّ هيمنةَ الجيراركيّات أيضاً تخضعُ لقانون التَّحوّل هذا، وقد يحدثُ أن ينالَ بعض المبدعين من ذوي "الغربة" نصيبَهم من الصّيت والشّهرة لفاعليَة فكرهم وفعّاليّة نتاجاتهم وقدرتها على التّغيير، وليسَ لتنازلهم ومشاركتهم في الفساد الفكري والثّقافي.

وإلى جانب هذا، علينا أن نعلم أيضاً، أنّ المبدعَ الحقّ ليس ذاك الّذي يسعى إلى الشّهرة، بقدر ما يكونُ همّه الرّئيس أنْ يُحَقّقَ فعلَ البناء والتّغيير، ويعنيه كثيراً أن يتمّ ذلكَ في صمت مطبق، أيْ ذاك الصّمت الضّاجّ بالفعل والخَلق والخدمة والعمل، تماماً كصمت الإله الّذي هو كلٌّ يوم في شأن، وكلّ يوم في خَلْق، دون أن يُحْدث ذاك الضّجيجَ الّذي عادة ما تحدثه الطّبول الفارغة. وعليه فإنّ "غُربةَ" المبدع إذا ما أجدْنَا مُقارَبَتَها هي غربة خلّاقة، وإنّي لأظنُّ أنّه قد آن الأوان لنخرُجَ من بكائياتنا ومناحاتنا بشأنِ العزلة وما إليها، ولنعلم أنّ "الغربة" هي لمن يقدرُ ويصبر عليها وبها، لأنّها تَثّورُ الخلق، وبدونها لا يمكنُ للإبداع أن يكون إبداعاً، لأنّها مرتبطة بشكل كبير بكبرياء المبدع وعزّة نفسه وشموخه وأنَفَته، ولا شأن لها بالخضوع والتّنازل والمساومات، وهي لهذا كله تستحقُّ أن تسمّى بالغربة العزيزة الأبيّة.

والغربة لها أيضاً علاقة بالاختلاف الّذي أعني به التَّميّزَ والخصوصيّة، إذ على كلّ مبدع أن يكونَ مختلفاً عن الآخر، حتّى يتحقّق الإبداع الفسيفسائيّ، والخلق الحضاريّ المُوزاييْكيّ، الَّذي كلّما أمعنتَ النّظرَ فيه، وجدتَ لكلّ إصبع بصمة خاصّة، إذ باختلافنا تتأسّس الحضارات القويّة.

لكن ماذا لو تساءلنا عن حال المبدع العربيّ، ومكانته بين غيره من مبدعي العالم؟ سوف نجد بدون أدنى شكّ أنّ ثمّة من يعتقدُ للآنِ ألّا أحدَ يضاهي

المبدعَ العربيّ في تميّزه وعبقريّتهِ الفذّة، أو ثمّة من يزال يعيشُ على أوهام الماضي السَّحيق، أيْ غاطّاً في ذاك الزَّمن الّذي كان فيه المبدع العربيّ متميّزاً في شتّى العلوم. ذاك عهد ولّى، ولم نفعل شيئاً لنطوّر ما تركهُ لنا الأجداد، وإذا ثمّة شيءٌ يمكنُ الحديثُ فيه عن إبداع العقل العربيّ في العهد الحديث فإنّهُ يمكنُ أنْ نقولَ إنّ هذا العقلَ أبدع في تدمير نفسه بشكل لا يمكن أن ينافسهُ فيه أحد: أبدع في خلق الحروب والفتن الطّائفيّة والعقائديّة، وأبدع أيضاً في تدمير المرأة وكفاءاتها، وأبدع في التَّحوّل إلى كائن استهلاكيّ شرهٍ يقتني كلّ ما ينتجه الغرب والصّين دون أن يفكّرَ ولو ليوم واحد كيفَ يُحقّقُ لنفسه الاكتفاء الذّاتيّ من كلّ شيء، وكيف لا، وهو لا يستطيعُ أن يصنع حتَّى الإبرة الّتي بها يخيطُ لباسَهُ، ولا السّيّارة الّتي بها يتوجّهُ إلى عمله، ولا حتّى الهاتف الذّكيّ الّذي بهِ يتواصل مع أهله وأحبّته! وإذا كان لا بدّ من الحديث عن الغربة، فإنّني لا أرى غربةً أشدّ من غربة الإنسان العربيّ، لأنّه اختار أن يبقى خارجَ الحضارة وخارجَ الكون وخارج الحياة بأسرها، وتركَ عقلَهُ يقتاتُ على الخزعبلات والأفكار الرّجعيّة والأوهام الّتي لا أوّل لها ولا آخر.

٦١. ما أسباب التّخلُّف المزمن في العالم العربي، وكيف يمكن أن ننتشله من هذا التَّخلُّف المرير؟

هذا سؤال ضخم وتصعبُ الإحاطةُ به في حوار من مئة سؤال، لأنّ إشكالية تخلّف العالم العربيّ هي من الإشكاليات العويصة والمركّبة الّتي تحتاجُ إلى كتب ومجلّدات موسوعيّة من أجل الإفاضة فيها والتّطرّق إلى جميع جوانبها بدءاً بما هو ديني، واجتماعي وعلميّ ونفسيّ، ثمّ وصولاً إلى ماهو سياسيّ واقتصاديّ وهلمّ جرّاً، لكن هذا لا يمنع من الخوضِ فيها بحرف الإيجاز، والحديث بالتّالي عن بعض من النّقاط الرّئيسة، وعليه فإنّي أقول إنّ أسباب التّخلّف العربيّ عديدة أهمّها السّبب "الدّينيّ"، باعتباره المحور الّذي تتشابكُ وتدور حوله بقيّة الأسباب والعوامل الأخرى،

فحياة الإنسان العربيّ لا تنطلقُ إلّا ممّا هو دينيّ، ولا تعود إلّا إليه، وكأنّ هذا الأخيرَ حَكَم على نفسه بالدَّوران وسطَ حلقةٍ مفرغةٍ يركضُ فيها ولا يستطيع منها خروجاً ولا خلاصاً، وذلك لأنّ الوجودَ عندهُ ما هو سوى طريقٍ للآخرة واستعدادٍ للموت، والكلّ بالنّسبة له عليه أن ينتظر مثلهُ قيامَ السّاعة ويتلهّفَ لمعرفةِ مصيره، هل سيكون في الجنّة أم في النّار، وهل مع الحور العين أو مع الغلمان، وهل في الغُرفة العليا من الفردوس أو في الدّرك الأسفلِ من الجحيم! والكثير من النّاس في العالم العربيّ إمّا دعاة وإمّا خطباء؛ الفقية في المسجد، والأبُ في البيت، والمديرُ في العمل، والرّئيس على منصّات الخطابات الرّسميّة، وقلّة هم أولئك الّذين يفكّرون في أنّ الخطاب عليه أن يكونَ مسبوقاً بالإنجاز، وأنّ الدُّنيا دار عمل وعقل وإنتاج وسعي وتدبّر لا دار خطب ووعظ وإرشاد فحسب، مصداقاً لقوله عزّ وجلّ: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)) (الصفّ: ٠٢ /٠٣).

نعم، العربيُّ لا يستوعبُ أنّه ثمّة فرقٌ كبير بينَ ماهو حياتيّ دينيّ يوميّ، وبين ما هو حياتهُ الفكريّة الحقّة بوصفها وسيلةً للتّنمية والرّفاه والازدهار والسّعادة الرُّوحيّة، لأنّ الحياة عنده تقاسُ فقط بالحلال والحرام، وبما يجبُ وما لا يجبُ، فتراه يعيش في وسواس قهريّ دائم يعذّبُ ويجلدُ به نفسَه باستمرار، وحينما حاول الفلاسفة الأوائل من المعتزلة اعتماد العقل كمنهج في التّفكير وفي تفسير القرآن قوبِلُوا بالرّفض والتّعنّت، ولمْ يسلم من الفلاسفة عامّة لا ابن رشد ولا ابن سينا ولا حتّى ابن الهيثم ولا غيرهم، ففكرهُم كانَ كُفراً ونشازاً بالنّسبة للثقافة السَّائدة آنذاك، والّتي كانت ترفضُ النّقدَ وكُلَّ فكرٍ إبداعيّ خلّاق يزحزحُ ما تكلّسَ وتَحَجّرَ في العقول من معتقدات ومسلّمات. والعربيُّ هكذا ليس لأنّهُ مُسْلم، ولكن لأنّهُ اعتادَ أنْ ينسِبَ كُلَّ أهوائه وعُقَدِه ونواقصه إلى الإسلام، فإذا قهَرَ وكبَتَ المرأة وسلبها حريّتها مثلاً، فلأنّ الإسلامَ – من وجهة نظره – أمرَهُ بذلك، ولكيْ يبرِّرَ هذا تجدُه يلجأ إلى

النّصوص يُؤَوّلُها وفقاً لمصالحه السّياسيّة والاقتصاديّة والنّفسيّة وما إليها، وإذا كَفَّر أحداً أو أمرَ بقتل وسفك دماء من يراهُ عدوّاً لـهُ في الدّين فلأنّ النّصّ الدّيني يُخوِّلُ لـه ذلك، ولأنّ كُتُبَ التّفسير تؤيّدُهُ وتدعمُه في ذلك، والأدهى والأمرّ من هذا، يَجِدُ حتّى المؤسّسات الدّينيّة الرّسميّة تساندُه بمَراجِعها وكُتبها الفقهيّة الّتي مازالت تُتَداوَلُ لليوم في المدارس بكلّ ما فيها من نصوص دمويّة قتاليّة غسلت بمرور العقود أدمغةَ وعقول العديد من النّاشئة والمراهقين إلى أن أصبح في العالم العربيّ شيء اسمه (داعش) وما إليه من الحركات الجهاديّة والّتي ليست من الإسلام الحقّ في شيء.

وبناء على ما سبق ذكره تصبحُ الثّقافة العربيّة ثقافة تهتمُّ بما هو دينيّ قبل ما هو واجب فرديّ، وتضربُ بعرضِ الحائطِ تعاليم الإسلام الحقّة في الشّأن العامّ والمعاملات، أيْ في السّياسة والعدالة والاقتصاد وبناء الحضارة. وهذا يحدثُ لأنّ العربيّ يعتبرُ النّصّ القرآنيّ نصّ عبادة ودين فقط، ولم ينظرْ إليه أبداً ككتاب عقلٍ وعلم وتدبّر وفِكر، وإذ أقول هذا فإنّه لا يعنيني ما توصّل إليه بعض المهتمّين بدراسات الإعجاز العلميّ في القرآن، لأنّني أعتبرُها هيَ الأخرى من الفذلكات والخيالات الَّتي مازلنا لمْ نُغَرْبِلْها وندقّقها بالشّكل المطلوب، لما فيها من أخطاء علميّة منهجيّة مهولة همّها الأوحد إثبات الصّفة العلميّة على النّصّ القرآني بشكل تعسّفي وقسريّ، في حين أنَّ الأمر ليس في حاجة إلى كلّ هذه الحركات الأكروباتيّة، ولا إلى ليّ عنق النُّصوص مادام ظاهرُها وباطنها يشهدان بأنّهُ كتاب علم منذ البداية، وأنّ الله في كلّ كتبه المقدّسة لا القرآن فحسب كان منذ الأزل يخاطبُ العلماءَ والعرفاءَ من النّاس، ويعرفُ جيّداً أنّهم سيفهمون كلامه بكلّ ما فيه من آيات وحروف نورانيّة وما إليهما، ولمْ يتحدّث في يوم إلى الفقهاء فقط، ولا أراد أن يكون الكونُ مكتظّاً بألف فقيه وفقيه، لمْ تفلح خُطَبُهُم جميعاً على الأرض قاطبة وفي كلّ "الدِّيانات" في الدّفع بالإنسانِ إلى أن يكونَ إنسانَ فكرٍ متوهّجٍ وروحٍ نقيّةٍ

تقيّة، وإلّا فما معنى كلّ هذه الحروب وهذه المآسي والتّفجيرات والدِّماء المسفوكة حتّى في أماكن العبادة، ويا للمفارقة العجيبة؟!

معظم نصوص الكتب المقدّسة تدعو إلى الثّورة على الفكر القديم المتحجّر، وتدعو إلى القطيعة الإبستيمولوجيّة وتحطيم كل أوثان الماضي النّخر، وما جاء نبيّ أو إمام إلا ليجدّدَ ويبني على الأنقاض فكراً آخر تتطوّرُ به الإنسانيّة، لكنّنا اليوم وأكثر من أيّ وقت مضى فقدنا هذا الدّور التَّجديديّ، وأصبحنا نعيش حالة من النّكوص والتّقهقر، وأصبح همُّ الإنسان اليوميّ لقمة عيشه، وهو الخائفُ أبداً؛ خائفٌ من الطّاغية، خائف من الحروب المشتعلة، خائف من الأمراض والأوبئة، خائف من أبيه القاسي وأمه اليائسة، خائف من الخوف نفسه. لقد دمّرَ الإنسانُ العربيّ نفسه بنفسه، فلا هو يستطيع أن يقرأ ويتثقّف كما يجبُ، ولا هو قادر على تخليص نفسه من هوس الاستهلاك لكلّ ما تصدِّرُه له التّكنولوجيا الغربيّة. هناك خلل وجوديّ وثقافيّ وسياسيّ واقتصاديّ رهيب في منظومة العقل العربيّ، خلل بحاجة إلى قراءة الجهل المركّب الّذي يعاني منه الإنسان العربيّ وذلك بهدف تفكيكه وغربلته من الأوهام، وتحريره من سيطرة ما هو سياسيّ وإيديولوجيّ بالدّرجة الأولى.

٦٢. لماذا لا يهتمُّ الشَّرق والعالم العربي بالإبداع والرُّؤية التَّنويريّة، لهذا تنتشر الحروب والويلات؟

لا أعتقد أنَّ المسألة هي حكر على الشّرق أو على العالم العربيّ على وجه التَّحديد بقدر ما يرفضُ التَّنويرَ كلُّ صاحبِ فكْر متحجّر ومتعصّب في كلّ بقعة من العالم بغضِّ النَّظرِ عن الدّين والانتماء والاعتقاد، لأنّ التَّعصّبَ هو مسألة فكريّة أكثرَ منها دينيّة، وهذا ما يفسّر ظهور الأحداث الدّمويّة في العالم بأسره وليس في منطقة دوناً عن غيرها، وإن كان الأمرُ يأخذُ في الكثير من الأحيان مظاهر وأشكال

متنوّعة ومختلفة. وعلى عكس ما قد يعتقده البعض، فالتَّنوير لا يوجد في كلّ مكان، وإنّما هو شيء نادر جدّاً، وإن كانت العديدُ من الشّعوب بما فيها الغربيّة تدّعي ملكيتَه وحدوثه فوق أراضيها.

وإذا كان الإنسانُ لا يصلُ على المستوى الشّخصيّ إلى التَّنوير كحالة فكريّة وروحيّة عميقة من الصَّفاء ووضوح الرُّؤية إلّا بعد حدوث الزّلازل الدَّاخليّة، والتَّجارب الجذريّة والخسارات الحياتيّة، فإنّ الشّعوبَ لا يمكنها هي الأخرى أن تصلَ إلى هذه المراحل من الوعي إلّا بعد توافر شروط الزّلزال المعرفيّ والكارثة الفكريّة الّتي عادة ما يكون ثمنها باهظاً، لأنّ التَّنوير الحقّ فكرٌ ينبثقُ من جرح كبير، هو في الواقع حفرٌ ونبشٌ بمشرط الطبّ والأركيولوجيا في عمق أعماق النّفس البشريّة والرّوح من أجل إزاحة طبقات الظّلام والعتمة، وإفساح المجال لفكر جديد يُعرّي ويُزحزح، ويغسلُ ويحرقُ ويُعَقّم.

أمّا لماذا فشل التَّنوير في العالم بأسره لا العربيّ فقط، فالأسباب عديدة أولها: رفضُ التّغيير والتَّعنّت الَّذي لا مبرّر له، والتَّمسّك بأسمال الماضي، مع الحرص على إيهام الجماهير بأنَّ تقدّم الشُّعوب لا يمكنه أن يتحقّق إلّا داخل المنظومة الدّينيّة الّتي لا تتنازلُ عن قدسيّة النّصّ التَّقليدي وتُطبّقُه كما هو دون محاولة استيعاب أنَّ المعرفة البشريّة في تطوّر مستمرّ، وألّا شيء ثابت في الوجود بما في ذلك الواقع المعيش والإنسان الّذي هو مُتلقٍّ يتغيّرُ أبداً لنصّ "مقدّس" سِمَتُه الثّباتُ في وجوده الحرفيّ فقط لا الدّلاليّ.

ثانيا الإيمانُ بنظريّة المؤامرة والتّواطؤ، إذ كلّ شعب يتخيّلُ أنَّ ثمّة مَنْ يحيكُ ضدّهُ الدَّسائس في الخفاء، وأن التّنويرَ إحدى أخطر هذه الدّسائس الّتي هدفُها الرَّئيس -حسب اعتقاد عامّة النَّاس- زعزعة الثَّوابت القديمة وخلق البلبلة والفوضى في المجتمعات، في حين أنّ التَّنوير الحقّ لم يكُنْ أبداً كذلك بقدر ما هو مشروع منافس ومناهض للمشروع الدّيني، وهو ليس بحالة تَرَفِيّة ولا ترفيهيّة مادام هدفه

انتشال الشُّعوب من براثن التَّخلُّف المدنيّ، الَّذي باِسمه مازالتْ تُرتَكبُ أفظع الحماقات بما فيها الحروب العرقيّة والدِّينيّة وما إليها من جرائم في حقّ الإنسان والإنسانيّة، ستعودُ للظهور مرّة أخرى حتّى في أوروبّا بسبب خطر المدّ "النّازيّ" الجديد الَّذي لم ينتبه اليوم إلى بوادره الأولى إلّا القلّة القليلة من أهل الفكر والحصافة.

ثالثاً استغباء أعداء التَّنوير للجماهير محاولين ممارسة الإقناع الانفعاليّ بمدى شرعيّة الخطاب التَّقليدي وتقديمه بالتَّالي كبديل وحيد للفكر الإنسانيّ عامّة مع إلغاء كل ما هو علميّ، أو فلسفي أو تنويريّ عموماً متّهمين هذا الأخير بأنّه خطابٌ يتجاوزُ النّصَّ التَّقليدي أو يحاول إلغاءَه والقفزَ عليه، وقد يصل هذا النّوع من الاستغباء أقصى درجات الهوس والعدوانيّة حينما يظهرُ من بين هؤلاء من يُفسِّرُ الكوارثَ الطَّبيعيّة -على سبيل المثال لا الحصر- كعقابٍ ضدّ من لا يؤمنُ بالله، دون أن يدركوا تماما أنّ الله ليسَ في حاجة لمن يؤمنُ به أو لمن يُطيعه حتّى يكتملَ مُلكه، ولا لمَن يخافهُ ويخشاه حتّى تتجلّى قوّتُه وجبروته وهيمنته. وإنّي لحقّاً أستغربُ كيف يدّعي الإيمانَ إنسانٌ يبتَهِجُ بإعصار يضربُ منطقةً معيّنةً في العالم، لا لشيءٍ سوى لأنّهُ يرى في هذا الإعصار نقمة وغضباً إلهيَيْن على من هو من وجهة نظره المحدودة عدوّ له في الدّين وفي الفكر. فأيّ دين هذا الّذي يجعلُ بعضَ النّاس يتمنّون للعالم الدّمار؟! وحشيّة ما بعدها وحشيّة، وساديّة ما بعدها ساديّة هما للأسف السّمة الغالبة على الكثير من أعداء الفكر والتَّنوير.

٦٣. لا أرى غرابةً في غربة الرّوح لأنّها ليست أصلاً من هذا العالم، أم أنَّ لديك وجهة نظر أخرى؟

هذا سؤال كنتُ أتشوّق للإجابة عنه منذ زمن، وقد حان أوانه لكي أرفع فيه السّتار عن بعض الأمور بشأن الرّوح وغربتها.

الرّوح من هذا العالم، ولا يمكنها أن تكون سوى كذلك، وما يتداوله النّاس منذ أجيال عديدة عن عدم انتمائها إليه، وغربتها الّتي أفاض في الحديث عنها الكثيرُ من العرفاء ما هو ناتج سوى عن جهل بالعالم والكون وبطبيعة الرّوح أيضاً.

العالمُ هو الإنسان نفسه، والكونُ كامنٌ فيه، لا يمكن فصلهما عن بعضهما بعضاً أبداً. وهذه حقيقة راسخةٌ نتجَ عن الجهل بها التَّأسيسُ لحضارة تسبّبت في هلاك الإنسان ومرضِه، دون أن يستطيع بعد ذلكَ أحد أن يجد العلاجَ النَّاجع له، ولا أن تكون لهُ القدرة على إعادة الإنسان إلى سلامتهِ وعافيّته الأولى.

يقول العرفاءُ إنّ غربة الرُّوح نتجتْ بسبب انفصالها عن خالقها وعالمها الأوّل، وأقول إنّ هذا صحيح إذا ما اعتبرنَا أنّ الخالقَ هو مركز الطَّاقة الَّتي بها يتحرّكُ الإنسانُ. وهو ما يعني أنّ الإنسانَ اليوم كما الأمس يعاني من نقص في هذه الطّاقة الّتي بها يحيا ويعيش. لكن السُّؤال الرَّئيس الّذي ينبغي طرحه، هو كيف يقعُ هذا النّقصُ؟ وما هي النّتائج الّتي يمكن أن تترتّبَ عنه؟ وكيف يمكن للإنسان أن يستعيدَ طاقته، أو الخالقَ الكائن فيه؟

دعني أسمّي نقص الطّاقة هذا، فقداناً للروح، وغيابا وانفصالاً عن الجسد. نعم، الغربةُ الّتي أشرتَ إليها في سؤالكَ ما هي في الحقيقة سوى هروبِ الرّوح من جسدها وغيابها عنه، ولو تلقي نظرةً على النّاس من حولك وفي كلّ مكان، ستجدُ أن الأرضَ هي في الحقيقة مقبرة كبرى بأجسادٍ تتحرّكُ لا روحَ فيها.

الطبُّ مهمّته علاج الأمراض العضوية، وقد ينجح فيها وقد يفشل أيضاً، هذه حقيقة لا جدال فيها، لكن إذا مرضت الرّوح أو فرّت من جسدها، من سيعالجُها، من سيعيدها إلى بيتها؟ لا أحد. عندنا نقصٌ كبير في هذا المجال، وإن كان الطبُّ بشكل عامّ قد تبنّى "الطّبّ النَّفسيّ" كفرع لدراسة وعلاج هذا النّوع من الأمراض، لكنّه فشل في ذلك فشلاً ذريعاً، ومازال إلى اليوم يتعثَّر في حلّ مشاكل الرّوح البشريّة العويصة.

لا أحد مثلاً بإمكانه أن يشرح لنا كيف يستمرُّ الإنسانُ في إشعال فتيل الحروب بعد كلّ ما مرّ به من تجارب قاسية، بما فيها تجربتَيِ الحربيْن العالميَّتين الأولى والثّانية، والّتي اتّفق بعدها الغربُ والشَّرق على أنّهما سيلتزمان معاً وإلى الأبد بعدم العودة للحرب، والالتزام باتفاقيّات السَّلام، لكنّ الّذي نراه اليوم هو العكس تماماً.

لا أحد أبداً يمكنه أن يشرحَ لنا ما سببُ استمرار بؤس الإنسانيّة، ومعاناتها من الفقر والجوع والمرض، والظّلم والعدوان، وظهور الفساد والجرائم الّتي لا يمكنُ أن يتقبّلها عقل بشريّ سليم بين اغتصابات، وقتل جماعي، وارتفاع نسبة الانتحارات في العالم بأسره، وهلمّ جرّاً.

لماذا كلّ هذا؟ الجواب بسيط للغاية: الأرواح مُخْتَطَفة، ضائعة وتعاني من غربة شديدة.

الجنديّ الَّذي يذهب للقتال في أرض ما، سواء كانت الفيتنام، أو العراق أو سوريا أو السُّودان أو فلسطين أو ...أو...أو... لن يعودَ أبدا كما كان إلى بلده الأمّ. لأنّه يعود جسداً فقط، أمّا روحه فإنّها تبقى معلّقة هناك في الأرض الّتي حارب فيها من أجل قضية تُعتَبَرُ عادلةً من وجهة نظر بلده.

الرّجلُ الّذي يعيش قصّة حبّ فاشلة، أو يُجْرَحُ قلبُه بسبب خيانة من الخيانات، لن يعود كما كان من ذي قبل، لأنّ روحه ستبقى معلّقة هناك، عند تلك المرأة التي تسبّبت في جرحه، وإن اعتقد هو نفسه أنّه شفي منها تماماً، لأنّ ما سيأتي بعد ذلك من أحداث سيشهدُ على أن الجرح مازال نازفاً، وإن كان غير مرئيٍّ لأحد، ولا حتّى للشخص الّذي يحملُه.

الطّفل الّذي يتعرّضُ لجريمة اغتصاب في بيت الطّفولة، يمرض إلى الأبد، ولا أحد يستطيع أن يداويه وتضيع روحُه وتتغرّب، وتبقى قابعة هناك في ركن من أركان ذاك البيت أو ذاك الزّقاق الّذي كان شاهداً على ما حدث له. إلى غير ذلك

من المآسي البشريّة الّتي لا أوّل لها ولا آخر، والّتي تفَسِّرُ لليوم كيفَ أنّ معظم النّاس مرضى، وكيف أنّ كلّ واحد منهم يهرب إلى شيء ما يعتقد أنّه بإمكانه أنْ يخفّف عنه آلامه، وكثيراً ما قد يكون هذا الشَّيء، مُخدّراً، أو كحولاً، أو إدمانا للأفلام الإباحيّة، أو للعب القمار، أو للإنترنيت، أو للهواتف الذّكيّة، وما إليها من المصائب الّتي يشيب لها الولدان.

الكلّ في غربة، الكلّ في ضياع، كلّ على طريقته، وكلّ حسب الكأس الّتي يشربُ منها. ولربّما يحاول البعضُ العودةَ من هذا الانخطاف والغيبوبة فيلجأ إلى الدّين ورجاله مثلاً، لكنّه في كثير من الأحيان يحدثُ لهُ ما لم يكن في الحسبان، فيصبحُ كمن فرّ من خطر ليقع في آخر أشدّ منه بشاعة وقتامة، وأعني به في هذا الصّدد خطرَ التّعصّب والإرهاب، أو خطر الفِرَقِ الدّينية والطّوائف الّتي تتبنّى إيديولوجيّات غَسْلِ الدّماغ وتغييب العقل، وسرقةِ الرّوح البشريّة.

غربة الرّوح، هو مرضُ العصر وكلّ الأزمان، وعنه تنتجُ اضطرابات نفسيّة وجسديّة متشابكة ومعقّدة جدّاً. ولمواجهة هذا الدّاء الخطير، لا بدّ من يقظةٍ وزلزال عميق في البنية الفكريّة للحضارة البشريّة. لقد جرّب الإنسانُ على مدى قرون عديدة أطبّاء الجسد، ونجح في ذلك أيّما نجاح من خلال التَّقدّم والتَّطور العلمي الّذي حقَّقته الإنسانيَّةُ في شتّى المجالات، لكنّه أهمل بشكلٍ كبير أطبّاء الرّوح، الَّذين هم بالنّسبة لي كرجال الفضاء المسافرين في مركباتهم ليكتشفوا الكونَ بكواكبه وأقماره ونجومه. وأقولُ هذا لأنّ طبيب الرّوح مهمّته هو الآخر السّفر في العالم الدَّاخليّ للإنسان، وهو يحتاج في ذلك إلى وسائل وتقنيات عدّة تُمَكّنُه من الولوج إلى أعماق الكينونة البشريّة، الّتي هي كينونة العالم الأثيريّ، الّذي غالباً ما تهربُ إليه الرّوح أو تبقى عالقة فيه. ويا حبّذا بدلَ أن تُخَصّصَ الدّول ميزانيّات خياليّة تصرفها على روّاد الفضاء فقط، فلتَهْتمّ ولو قليلا بإعلاء صرح علمٍ جديد يكونُ رجاله هم روّاد الرّوح المسافرين للبحثِ عن الأرواح الضّائعة المغتربة في كلّ ركن من أركان العالم

الدّاخلي للإنسان، وليبتعد رجال الدّين عن هذا الأمر، لأنّهم سيخرّبون بفكرهم المحدود المسألة برمّتها، بتقسيماتهم الإيديولوجيّة وعنصريتهم الطّائفيّة، لأنّ الإنسان اليوم هو بحاجة إلى من يؤمن بإنسانيّته ولا شيء غيرها، دون أن يتاجر به، ودون أن يقحمه في أمور لن تزيده سوى غربةً ومرضاً على مرض.

رائد الرّوح لهُ هو الآخر كما رائد الفضاء مركبتهُ الخاصّة، وهي جسدهُ العرفانيّ، وروحه هي القائدة فيه. وله فريق كامل يتعاون معه في إنجاز عمله، تجتمع فيه كلّ مخلوقات الطّبيعة من حيوانات ونبات وشجر وبحار ورياح وشموس وأقمار وما إليها. وفي سفره تنقلب كلّ الموازين الّتي ألفها البشرُ، فيتحدَّثُ معه النَّمل والطَّير، ولنا في سيدنا سليمان الَّذي كان يكلّم النَّمل والطَّير إسوة، وتطير الأحصنة وينطق الماء والحجر والشّجر.

نعم كلّ هذا يحدث، وقد أشارت إليه الكثير من النّصوص السّماويّة، وبعض الأعمال الأدبيّة والعرفانيّة الشّاهقة كالكوميديا الإلهيّة والفتوحات المكّيّة، وكتابات ابن سينا وموسى بن ميمون، وقصائد جاكومو ليوباردي، وآرثر رامبو، والقدّيس فرانسيس الأسيزي، الّتي اعتبرها البعض مجرّد نصوص وقصص وأساطير، في حين أنّها كلّها تتحدّث عن عالمنا الدّاخلي، ذاك الّذي يخافُ الكلُّ من ولوجه.

رائدُ الرّوح أو طبيبها عليه أن يجيد كلّ اللُّغات، وأن يعرف جيّداً كيف يسافر في الزّمان والمكان والأجساد، بل عليه قبل كلّ شيء أن يعرف لغة الأحلام كما النَّبي يوسف وأبيه يعقوب (عليهما السَّلام)، لغة الأحلام الّتي دمّرها فرويد بكلّ نظرياته الّتي ربطتْ كلّ شيء بالجنس والكبت والقهر الجنسيّ، وهو الرّجل الّذي ما كان يمارس الحبّ مع زوجته أبداً، ولا كان يعترف أصلا بالرّوح ولا بالفيض الإلهيّ ونفخه فينا، وينكر تماماً أنَّ كلّ إنسان توجد بأعماقه الدَّفينة منطقة سرِّيّة جدّاً أسمّيها بمنطقة الأمان والسَّلام، الّتي إذا وصل إليها رائد الرّوح الحقّ استطاعَ أن يعيد الإنسانَ المريض إلى بيته الأوّل مهما كانت تجاربه وآلامه وخطاياه.

لا يمكن للإنسان أبداً أن يكونَ كما يراه فرويد؛ مجرّد أعماقٍ حيوانيّة سوداء، لا تسكنها سوى وحوش الشّهوة وغيلانها. ولا يمكنُ لأحلام الإنسان كلّها أن تكون دالّة فقط على حرمانه أو شبقه الجنسيّ. ولا يجوز للطبِّ النّفسي أن يستمرّ في بناء نظريّاته على ركام الفكر الفرويدي الّذي لم يعُدْ صالحاً لزمننا، وذلكَ لما حدث في الفكر الإنسانيّ نفسه من تغيّر عبر ظهور أمراض ومشاكل روحيّة أشدّ تعقيداً من سابقاتها، وتحتاج بالتّالي إلى منظار ووسائل أخرى أكثر جدّة وتقدُّماً ووعياً. ولا يمكن أبداً الاستمرار في جعل الاعترافات الّتي جمعها فرويد من مريضات الهستيريا وضحايا الهوس والشّيزوفرينيا منهجاً وطريقة تُطبّقُ على الإنسانيّة بأسرها، لأنّ هذا لا يعدّ أسلوباً علميّاً بتاتاً.

أمّا لمن يسأل عن كيف نعيد الرّوحَ المغتربة إلى بيتها، فإنّي أقول إنّ ذلك يقتضي أوّلاً النُّزول إلى الجحيم عبر فوهة الذّاكرة، وهذا يقتضي بالطّبع المعرفة الجيدة بخرائط الرّوح والجسد والعالم الأثيري. مع الأخذ بعين الاعتبار أنَّ كلّ روح متعَبة أو مريضة هي في الحقيقة طفل منتكس حزينٌ خائف ينتظر أحداً يزوره في قبوه المظلم لينتشله ممّا هو فيه. ولنتذكّر أنّنا كلّنا جميعاً خُلقنا لنكون روّاداً لأرواحنا، إلّا أنّ كبْتَ المجتمع لهذا الجانب من شخصيّتنا عرّضنا للضّياع والدّمار. وإنّي لا أشكّ أبداً في أن كلّ واحد منّا مرّ في طفولته بفترة كان لهُ فيها صديقه الرُّوحيّ الخفيّ، وأحاديثه السّرّيّة مع الأشياء والحيوانات والشّجر، وكذا أحلام اليقظة الّتي ما كان يرويها لأبيه أو أمّه حتّى يجدهما له بالمرصاد مُردّدَيْنِ عبارتهما الشّهيرة في كلِّ الأجيال والأماكن والأزمان: ((كفّ عن الكذب، عليك أن تكبرَ وتصبح طفلاً رزينا، هذا لا يليق بكَ، لا يوجد شيء اسمه صديقك السّرّي!)).

لا بدّ من استرجاعِ هذا الطّفل وصديقهِ الرُّوحيّ القديم، وإنّي لأغبط الشّعراء والأدباء عامّة، فهُم بشكل أو بآخر فلتوا من قضبان هذا الكبت، وهُمْ في تواصل مستمرّ مع عوالمهم الدّاخليّة، ولأجل هذا تُعَدّ الكتابة نوعاً من أنواع العلاج

الرُّوحي بامتياز، ولأجل هذا أقول أيضاً: اكتبوا ما استطعتم، اكتبوا ما ترويه الرّوح لكم، انزلوا إلى الجحيم، أو اذهبوا إلى الفردوس، تحدَّثوا مع الغيوم والأشجار والطُّيور، وادخلوا بالحرف في الكون، واستمدّوا طاقتَكم منه. اكتبوا ففي الكتابة يرقدُ ذلك الطّفل الصّغير، وحيداً حزيناً ينتظرُ منكم أن تغسلوه بماء الشّعر والرِّواية والقصّة والرّسم وكل أنواع الإبداع. اكتبوا أحلامَكم، ولا يهمّ إن كنتم ممّنْ يتقن اللّغة الّتي تكتبون بها، لا يهمُّ أن تكتبوا بالفصحى أو العاميّة، ولا تهمُّ في محراب الشّفاء الأخطاء اللغويّة وما إليها، ولا يهمُّ أن تكونوا شعراءَ الشّاشات أو الصّحفِ والقنوات الفضائيّة، أو الكتب المنشورة ورقيّاً، ولا يهمّ أبداً أن يكون بينكم الرّوائيّ أو الأديب الشَّهير الّذي تتسابق عليه الحسناوات! اكتبوا فقط، جميعكم، نساء ورجالاً، كيفما كنتم وأينما كنتم، فالكلمة هي الخلاصُ، وهي البداية والمأوى وسدرة المنتهى، اكتبوا فقط لتُحَرِّروا الطّفل من سجنه وتعيدوه إلى بيته، حتّى تُمسكوا فيما بعد زمام الحياة بأيديكم، وتكونوا أنتم بأنفسكم روّاداً وأطبّاء للرّوح، بل للكون وللفضاء الواسع الفسيح.

٦٤. لماذا هناك ضمور وتقلُّص في الجوانب الأخلاقيّة والقيم الإنسانيّة في توجُّه سياسات هذا الزَّمان؟

الفسادُ هو السّببُ الرّئيس في هذه المأساة. الفسادُ المُستشري في قمّة الهرَمِ الاجتماعيّ قبل قاعدته. أبوهُ الجَهْلُ، وأمُّهُ الاستبدادُ. وكلُّ جاهلٍ فاسدٌ، وكلُّ فاسدٍ مستبدٌّ. وإنّني لأعيشُ في زمان رأيتُ فيه ما يُدمي القلوبَ ويحرقُ العقولَ. نعم، لقد رأيتُ في العالم بلداناً وزراءُ الثّقافةِ فيها ليس لديهم أيّة شهادةٍ جامعيّة عليا، ولا يعرفونَ عن الثّقافةِ شيئاً، ولا حتّى عن السّياسة والعمل الدّيبلوماسيّ. ورأيتُ طالباتٍ يتخرّجْنَ في الجامعات بتنّوراتهنّ القصيرة جدّاً جدّاً، وأحمر شفاههنّ الفاقع جدّاً جدّاً، ليُصْبحْنَ في آخر المطاف "أستاذات" جامعيّات يتقاضين أرفعَ الأجور مثلهنّ في

فسادهنّ مثل فساد البرلمانيّات اللّائي لا يكففنَ عن الكذب والتّزوير وخلط الأوراق، لا هنّ ولا غيرهنّ من نساءٍ كثيرات يُساندُهُنّ في فسادهنَّ رجال أكثر فساداً منهنَّ.

الكـلّ فاسـد، مؤسّســاتُ الـدّين والسّياســة، مؤسّســات التّعلـيم والصّـحة، مؤسّسات العدل والاقتصاد، ثمّ مؤسّساتُ الإعلام والفكر والثّقافة وأهلها، وهنا مربطُ الفرس لكمونِ الطّامّة الكبرى فيه.

إنّ من يعاينُ حالةَ المثّقفين اليوم في العالم قاطبةً سيجدها بائسة إلى حدٍّ يثيرُ الشّفقة والاشمئزاز. لقد بات "المثقّفُ" مُغَيَّباً تماماً عن الثّقافة الحقّة، ثقافةَ البناء والتّشييد والتّغيير والتّنوير. هذه المفاهيم بالنّسبة لهُ لمْ تعُدْ صالحة لشيء، وتراه في كلّ يوم يُغَيّرُ دفّة شراعه حسبَ حركة الرّياح السِّياسيّة والأمواج النّفعيّة. الثّقافةُ اليوم وأكثر من أيّ زمن مضى تابعةٌ للسياسي، والسّياسيُّ فاسدٌ، والمثقَّفُ مُهرّجٌ تابعٌ لا أقلّ ولا أكثر. ومواقع التّواصل الاجتماعي فضحتِ الجميع، شكلاً وخُلُقاً.

وكلُّ صاحبِ قلم نزيه يجدُ نفسَهُ خارج المنظومة بأكملها، يعاديه الجميعُ مادام لم يلوِّثْ نفسَه بالانضمام إليهم. والشّبابُ ممّن يدّعونَ الثّقافةَ اليوم ليس عندهُم أيّ احترام للأجيال السّابقة من آباء المعرفة والأدب والفكر، حتّى أنّه يمكنكَ أنْ تجدَ (على سبيل المثال لا الحصر) شاعراً شابّاً لمْ يمْضِ على خروجه من البيضة سوى بضعة أعوام يتطاولُ على شاعرٍ أكبر منه سنّاً وأكثر منه وعياً وثقافة، ويفعلُ المستحيلَ من أجل عرقلة مساره، فقط لأنّه من وجهة نظره لم يعُدْ صالحاً لشيء، أو لأنّه لم يكتبِ الشّعرَ إلّا بعد أن كَبُرَ وتقاعد عن عمله. هناك نقصٌ في التّربية والأخلاق والذّوق والإيتيكيت. ومنذ متى كانت الثّقافةُ مرتبطةً بقلّة الأدب والبلطجة؟ هذا هو أسلوبُ العديد من الشّباب "المثقّف" اليوم: قضاءُ اللّيل في الحانات وبيوت الدّعارة، وتدخين كلّ شيء والصّعلكة الخِلقيّة والخُلقية، ثمّ التّملّق والوصوليّة الّتي لا أوّل لها ولا آخر. وبهذا الضّياعِ يريدونَ أن يفرضوا علينا نموذجَهُم الجديد، وعلينا نحن أن نستسيغه!

هذا هو حالُ الثّقافة في العالم بأسره، ولا أؤمن أبداً في هذا المجال بتفوّق وتقدّم الغرب على الشَّرق ثقافيّاً، لأنّ من يعيشُ في دول الغرب من العرب مثلاً يعلمُ جيّداً أنَّ الكلّ يتساوى في هذا الانحطاط، وذلك لأنَّ فرصة عيشه هذه في دول المهجر تتيح لهُ معاينةَ الأمور من الدّاخل، وفي الأوساط الثّقافيّة نفسها. يكفي فقط أن نطّلعَ على أعمال حاولتْ بشكلٍ أو بآخر أن تكتبَ بالمبضع بدل القلم، كي نعلم حقيقةَ ما أشرتُ إليه، إذ هناك مثلاً في إيطاليا الرّوائي إيطالو زفيفو وروايته الشّهيرة (ضمير السّيّد زينو)، وكذلك الكاتب السّياسيّ ورجل القانون آلدو مورو الّذي عالج العديدَ من القضايا عبرَ كُتُبٍ ونتاجاتٍ كان همّها الأساس الإصلاح السِّياسي والقانوني للمجتمع الإيطاليّ، أذكر من بينها: (أيّام العذاب)، و(سلطة الكلمة)، و(دمي سيسقط فوقهم)، ثمّ (٥٥ يوماً من الرّصاص / رسائل من المعتقل)، وغيره من أدباء آخرين ندّدوا بالفساد الثّقافي والسِّياسي كليوناردو شاشا، وآندريَه كاميلّيريه.

ومظاهر الفساد الثّقافيّ عديدة، أركزُّ فيها على وضعيّة المرأة المثقّفة ومكانتها ومدى صمودها أمام هذا السّيّل الجارف من الوحَل الفكريّ والظّلام المعرفيّ، وهي القضيّة الّتي سأتطرّق لها بإسهاب في جوابي عن سؤالك المقبل.

٦٥. أينَ ترى المرأةُ المثقّفة والأديبة الكاتبةُ نفسَها أمام هذا الفساد الثّقافيّ المستفحلِ في مجتمعات الشّرق قبل الغرب، وكيف تواجِهُهُ؟

المرأةُ المثقّفةُ حالة فكريّة مركّبة ومعقّدة جدّاً، وذلك لأنّها تجمعُ في تكوينها بين قطب الكينونة الأنثويّةِ النّسويّة، وقطبِ الكينونة الفكريّة الثّقافيّة. وهُما قطبان كانا معاً ومايزالان في حالة تنافر دائمٍ سلباً وإيجاباً. وأقولُ في تنافر لأنّ الظّروفَ الاجتماعيّة للمرأة نفسها هي من تفرضُ عليها هذا الصّراع المستمرّ معَ الطّرفِ الآخر في شخصيّتها، أيْ الأنثى المثقّفة، وهو الطّرف الَّذي يقودني إلى لحظة أعُدُّهَا حاسمةً في حياتي وعلى قدر عالٍ من الأهمّيّة: وأعني بها اللّحظة أو لأقُلِ اللّحظاتِ الّتي كان يأتي فيها والدي ليزورَنِي في غرفة مكتبي وبين يديه في كلّ مرّة

كتابٌ يُحفّزني على قراءتِه. أذكرُ أنّني كنت آنذاك فتاة على عتبة الحياة بعمرٍ تتراوح سنواتهُ بين الثّلاثة عشر وما فوق، أيْ حتّى العشرين سنة من عمري.

في هذه الفترة، أذكر أنّ من ضمن ما قرأتُه من الكتب كان (مذكّرات فتاة رصينة) للأديبة والفيلسوفة الفرنسيّة سيمون دي بوفوار، وأذكر أنّ سيمون نفسها كامرأة، بل كإنسانة أثّرتْ فيّ جدّاً أكثرَ من كتاباتها نفسها، حتّى أنّها كانت تزورني في أحلامي. وكنتُ أراها في بيت الطّفولة مع والدها الّذي يشبه كثيراً والدي، ووسط الحقول الشّاسعة منهمكة دائماً في قراءة الكتب، كما كنت أفعل أنا أيضاً ومازلتُ لليوم أينما تواجدتُ، سواء في غرفة مكتبي أو في الحافلة أو في الطَّائرة أو في أيّ مكان آخر، لا تفارقني الكتب أبداً.

والآن وأنا بصدد كتابة هذه الأحرف، يتراءى لي والدي وبين يديه كلّ تلك الكتبِ الّتي كان يحملها إليّ: كتب قاسم أمين ونجيب محفوظ، وكتبَ محمّد عبد الحليم عبد الله وعبّاس محمود العقّاد، وكتب فيكتور هيجو وطه حسين وغيرهما كثيرون من أدباء عربا وفرنسيِّين وروسيِّين ووو.... كتباً قرأتها بالأمس البعيد وأشعلتْ فيَّ ذكراها الآن فتيلَ هذا السُّؤال: هل كان والدي يقصدُ أن أصبح فتاة مثقَّفة، أو كاتبة عميقة رصينة؟ هل كان هذا حقّاً ما يريده؟ إذا كان الأمرُ كذلك، فهذا يعني أنّه كان يقدّمُ لي المفاتيح الأولى من أجل بناء شخصيّتي وثقافتي وحرّيتي الفكريّة، وكيف لا يكون الأمرُ كذلكَ، وهو رجل التّغييرات والتّجديد. نعم، كان أبي رجل التّغيير بالنّسبة لي، وأعني بهذا؛ الرّجلَ الّذي ترك حياة الإقطاع والأراضي الشّاسعة الّتي كان يملكها جدّي، وقطعان الغنم والأحصنة وما إليها، وخرجَ من البادية وهو لمْ يتجاوز الثّالثة عشر من عمره، ليكملَ دراسته في المدرسة الحضريّة ويتخرّج فيما بعد، ويستقرّ في المدينة بشكلٍ نهائيّ، ويعملَ في وزارة العدل وهو لم يتجاوز بعد السَّابعة عشر من عمره. كان والدي يعرفُ ما الَّذي يريده: تركَ الجاهَ والمال وحياة الإقطاع، وركض وراء حُلمه في أن يصبح مستقلّاً بنفسه وحياته، هذا

الحلمُ الَّذي ما إنْ حقّقَهُ على أرض الواقع حتّى عاد إلى بيتِ والده من جديد، وقام بتهريبِ أخيه الأصغر وسهَرَ على تربيّته وتعليمه إلى أن أصبح فيما بعدُ من كبار رجال الفكر التّربويّ في المغرب وكُتّابه ومنظّريه. وأقولُ إنّه هرّبَ أخاه الأصغر، لأنّ جدّي كان رجلاً حادّ الطّبع، شديد البأس، ويؤمنُ بأنَّ أبناءه ما ولدوا إلّا ليكونوا رجالَ الأرض، يزرعونها ويؤسِّسون من خيراتها ثروات كبرى.

كان أبي نقيضَ جدّي، بل كان الحلقةَ الّتي غيّرت وقلبتِ الموازين، وبهِ تأثَّرتُ وكذا بكتُبه الّتي كانت تأتينِي هديةً منه كلّما لمسَ حاجتي إلى إثراء زادي المعرفيّ في كلّ مجالات العلوم. بوالدي تعلّمتُ كيفَ أخرجُ من شرنقتي كأنثى وامرأة إلى كينونتي الوجوديّة والفكريّة، وبوالدي تعلّمتُ أيضاً كيف أحبلُ وألدُ منذ سنوات قراءاتي الأولى: لقد كنتُ أحبلُ بالأفكار وألدُ القصائد والنُّصوص باستمرار. علّمنِي والدي كيف أكون حرّة، ولا أعني بالحرِّيّة هنا تلك الّتي جَنَوا بها على النِّساء منذ الثَّورة الصِّناعيّة إلى اليوم، وإنّما أعني بها السِّيادة والعزّة والشُّموخ، وفرقٌ كبير أن تكون المرأةُ حرّةً وسيّدة بشموخ، وحرّة في انحلال وتهتّك واستهتار.

مضتِ السّنون وبعد والدي جاء دور المدارس والجامعات في المغرب وخارجه، وتعمّقتْ علاقتي بالثّقافة البنّاءة كلّ يوم أكثر فأكثر، وطوّرتُ قراءاتي وأصبحتُ أنا من أختار ما يحتاج إليه فكري، وحينما وقعتُ في الحبِّ وتزوّجتُ (بعد أن كنتُ عازفة عن الزَّواج)، فعلتُ كما فعلَ أبِي: كنتُ أنا امرأةَ التّغيير والتّجديد في أسرتي، لأنَّني اخترتُ وزوجي ألّا ننجبَ الأطفال أبداً. ومن هذا القرار يأتيني السُّؤال الفصل بشأنِ المرأة المثقَّفة: هل على المرأة المثقَّفة والأديبة الكاتبة أن تتجاهلَ رحِمَهَا مقابل عقلها وتكتفي فقط بإنجاب الكتب والأفكار؟ وهو سؤال يقودني إلى سؤال آخر: هل المرأة المفكّرة أكثر خصوبة من المرأة الّتي تلد الأطفال فقط؟ وأقول نعم: المرأة المفكّرة تلدُ العالم، الّذي هو الابن الشَّرعيّ للحرف، والحرف هو القوة الخالقة للكون والوجود، والقدرة الّتي تنشرُ الحياة في كلّ شيء تلمسه. وقوْلي هذا

يذكّرني بشاعرة لها في قلبي مكانة خاصّة وهي سيلفيا بلاث، الشّاعرة الّتي كانت تدعو قصائدها بالأجنّة الّتي تبتسمُ لها وهي مازالت بعد في المشيمة، جباهُها صغيرة وأصابعها مكتنزة. لكنّ سيلفيا لم تكنْ مثلي أُمّاً لكتب النّقد والشّعر والرّواية والتَّرجمة، ولكن كانتْ أيضاً أمّا لأطفالٍ من لحم ودم، وتجدّدتْ وتألّقت بعد انفصالها عن زوجها تيد هيوز، وقرّرتْ أن تكون هي كما تريدُ بكلّ قوّة وإصرار، وأصبحتْ تكتبُ بشراهة وغزارة لا مثيل لهما محاولة أن تكون كلّ شيء وبأقصى سرعة ممكنة. نعم، لقد كانت تريد سيلفيا أن تكون كلّ شيء: الأمّ والشّاعرة والكاتبة ونجحت في ذلك في وقت كان الجميع يفرضُ على المرأة أن تختار البيت والأطفال. لكن ثمن النَّجاح كان باهظاً جدّاً: لم تستطع سيلفيا أن تصمدَ إلى النّهاية، فانتحرت، لأنَّها اكتشفت أنّ الكمال شيء فظيع، إذ كلّما ظنّ الإنسانُ أنّه وصل إليه، اكتشف أنّ هناك أماكن فارغة تحتاج إلى سدّها وبنائها، إنّه كالوحش الّذي لا يشبع أبداً.

لقد انطفأت شعلة سيلفيا بشكل مفجع، وهو الأمر الَّذي يجعلني أتساءل قائلة: هل يمكنُ لرجلٍ أديب أن ينتحر لأنّه لم يستطِعْ أن يوفّق بين الأدب والأعمال المنزليّة وتربية الأولاد والعمل خارج البيت؟

هو سؤال مجازي فقط، لأنّني أعرف جيّداً أن هذا لم يحدث أبداً في أوساط الأدباء الرِّجال، وإذا حدث فإنّه يكون لأسباب أخرى لا علاقة لها بإنجاب الأولاد ولا بأشغال البيت، الَّتي اعتاد أن تقوم بها المرأة ولا أحد غيرها.

مأساة المرأة المثقّفة لا تكمنُ فقط في كونها تجدُ نفسَها مجزّأة إلى أكثر من دور وشخصيّة، ومطالبة في الوقت نفسه بأن تنجح في أدائها بشكل جيّد وفي كلّ الأحوال. مأساة المرأة المثقّفة تكمنُ أيضاً في كونها إلى اليوم مازالت تعاني من ذكوريّة الرّجل المثقّف وفسادِه وانحلاله أيضاً، وهو الَّذي لا يقبلُ بها في المجال الإبداعيّ إلّا تابعة له لا مستقلّة، وخاضعة لهُ جسداً وفكراً. أضف إلى هذا أنّه لا يعترفُ لليوم بكونها زيادة على إنجابها للأطفال، فإنّها تجيدُ جيّداً إنجابَ الأفكارِ

والكتُب، وفي كثير منَ الأحيان يكونُ أبناؤها الحُروفيّون أشدَّ بهاءً وجمالاً وعُمقاً وتأثيراً من أبنائِه، لقدرتهم على التَّوغّل عميقاً في المنظومة الفكريّة المتكلّسة وتغييرها من الجذور، وذلك لسبب واحد فقط: المرأةُ الكاتبة، الشّاعرة والأديبة المثقَّفة جنّية صغيرة مشاكسَة لها خيال أشدّ عمقاً من المحيط وأكثر زرقة من السَّماء، وأكثر تلألؤاً من النّجوم، إنّها تحبُّ أن تركب الفيَلة الطّائرة، وتدخُلَ إلى الفردوس تشرب من أحواضه، وتلبس من سندسه ومرجانه وياقوته، وتريد أن ترحلَ إلى قصور الجان والحديثِ مع الحوريات والهداهد والغزلان والنّمور والنُّسور. المرأة المثقّفة الحقّة ملاك خلّاق ورديّ الشَّفتين، يحلّقُ في الأعالي ويحوّلُ الحُلم إلى حقيقة يرنو إليها الجميع، ولأجل هذا هيَ في حاجة لأن تفتحوا لها الأبواب، وتُفسحوا لها الكتابة في كافّة المجالات، ولا داعيَ إذا كتَبَتْ في العشق مثلاً أن يلاحقَها زميلُها في الإبداع بعين الشّهوة والفساد الفكري والخُلقيّ، كما لا داعي إذا كتبتْ في السّياسة مثلاً أن تقزّمُوا فكرَها وتقصّوا أجنحَتَها، ولا داعي أبداً أن تحاكموها بفكرِ العشيرة والقبيلة والخيْمة، ولا تنسوا أبداً أنّ المرأة ستظلُّ وستبقى إلهة الخصب والعطاء، الّتي تبرعمتْ منها الأمُّ، والأختُ والابنةُ والحفيدة والزّوجة الحبيبة القادرة على التّغيير والبناء بكلّ وفاء وإخلاص، وتذكّروا أنّه لولا بياتريشه ما كان دانتي إليغييري، ولولا نظام ما كان ابن عربي، ولولا آنّا كارنينا ما تألّق نجم تولستوي، واللّائحة طويلة ومفتوحة إلى ما لا نهاية.

٦٦. وأنت تختمين جوابك بالحديث عن تأثّر كبار رموز الأدب العالميّ بالمرأة والأنثى الخلّاقة، كيف تقيِّمُ أسماء غريب قدرةَ الأديب الرّجل على خلق الشَّخصيَّات النِّسائيّة في الأعمال الإبداعيّة الضّخمة، وإلى أيّ حدّ ينجحُ في ذلكَ؟

كيف يكتبُ الرَّجلُ الأديب عن المرأة؟ بل كيف يخترعُ الرِّوائيُّ شخصيَّاته النِّسائيّة وهل لديه القدرة الكاملة والواعية على الإبداع والتَّفوّق في هذا الأمر؟ وهل

هو حقّاً مطالب بهذا التَّفوق، أم أنّه عليه أن يكتب ويبدع بغض النَّظر عن هذه التَّصنيفات الّتي قد تبدو في ظاهرها متحيّزة للمرأة؟ إنّها كلّها أسئلة مشروعة لمن يهتمُّ بمجال الإبداع الإنسانيّ، وكما يجوز طرحُها بصدد الأدب والأدباء، يمكن طرحها أيضاً في إطار الحديث عن النّحّت والفنّ التّشكيلي من خلال التَّساؤل عن كيف يخلُقُ الفنّانُ نساءَه، ومنحوتاته الأنثويّة، وأؤكّد هنّا على استخدامي لفعْل (الخلق)، لأنّ الأمرَ برمّته له علاقة وشيجة بهذا الفعل الّذي هو المحرّك لكلّ شيءٍ في الكون. والحديث عن الخَلق لا بدّ يجرّنا إلى التَّوقّف عند الخالق كماهيّة عليا، لا سيما أنّه غالباً ما شدّتني كتبه الَّتي يتحدّثُ فيها عن العديد من الشَّخصيّات النِّسائيّة الّتي غيّرت تاريخ الإنسانيّة برمّتها.

لقد كنتُ دائماً أتساءلُ عند كل قراءتي لكتاب ما من كتبهِ السَّماويّة قائلة: كيف يا ترى يختار اللهُ شخصيّاته النِّسائيّة ليخبرنا عن حياتِهنّ عبر قصص في غاية من الرُّوعة والتَّشويق؟ وكنت غالباً ما ألاحظُ أنّه يصرّ على أن تكونَ نساؤُه منَ اللّائي يقلبْنَ الموازين! وكما يحدثُ أنْ يختارها فاضلة طاهرة عفيفة، فإنّه يختارُ أيضاً الخطّاءة الغاوية اللّعوبة. وفي كلا الحالتيْن تجدُهُ يضبطُ بشكل بديع البناء المعماري لكلِّ الأحداث والتَّفاصيل بما فيها الوعاء الزّمني وكذا الحاضن المكانيّ، والشَّخصيّات الثّانويّة مع إدخال العنصر الرّمزي والأسطوريّ، والغيبيّ والرُّوحاني، ولا مانعَ إذا ما تحدّثتِ الأشجارُ والأحجار في قصصه، ولا مانع أيضاً من أن تأتي الطّيورُ بالأنباء والأخبار، أو من أن تنطق الأمواجُ، وتُعلى الصُّروح، ويطيرَ الجنُّ والمردة من مكان وبلد إلى آخر. لأنّه بكلّ هذا وأكثر يشدّ انتباه ونفَس القارئ إلى آخر حرفٍ في الكون الَّذي هُو لوحه المحفوظ.

نعم، أنا مسحورة ومندهشة بل منخطفة بطريقة الله في كتابته عن شخصيّاته النِّسائيّة: فهذه مريم العذراء الّتي حيّرتِ العالمين، وتلك زليخة الّتي دوّخت كبار العارفين، وفاطمة المُعَلَّمة الّتي على الرُّغم ممّا كُتب عنها من كُتب، فإنّه لم

يُكشف لليوم عن مكنونات كنوزها العجيبة. وإنّي لأعتقد أنّ سِحْر الشَّخصيَّاتِ النّسائيّة في الكتابات الإلهيّة نابع من حرِّيّة الله المطلقة في الإبداع الحروفيّ: إنّه يعتني بكلّ التَّفاصيل الصّغيرة قبل الكبيرة، ويهتمُّ بكلّ الشَّرائح الإنسانيّة، وينتصرُ للمرأة المغلوبة على أمرها، ويقف أيضاً إلى جانب المرأة الشَّاردة أو المنحرفة إلى أن يعيدها إلى فطرتها الأولى. وعلى ذكر المرأة الشَّاردة، فإنّني أقول ألّا أحد أنصفَ هذا النّوع من النِّساء أكثرَ من خالقهن، لأنّه بهنّ يغيّرُ العديد من الحدود ويمسحُ الخطوط ويعيدُ تركيبَ البنية، ويدخل إلى عمق الأقبية والدَّهاليز النَّفسيّة البشريّة. وإنّي أظنّ أنّ الكاتبَ أو الرِّوائيّ النَّاجح هو ذاك الَّذي يستطيعُ أن يفعل الشَّيءَ ذاته. أن يبدأ حيثُ تتشاكل الأمورُ وتتعقّدُ. الأشياءُ البسيطة تسيرُ دائماً كما يجبُ لها أن تسير، لكنّ الأشياء المعقّدة، المظلمة، المختمرة، هي تلك الَّتي يجبُ الخوضُ فيها سواء عبر الصُّعود نحو الطَّبقات العلّيّة من النُّور، أو عبر الهبوط إلى الدَّرك الأسفل من الجحيم: المرأةُ المنحرفة أو القدّيسة وجهان لشيء واحد؛ المرأة القمريّة: في صفائها حينما تتقدّسُ، وفي ظلامها حينما يطالها الخسوف الرُّوحيّ.

أقولُ هذا لأنَّني أعلمُ جيّداً أنّ الأشياء تولدُ من أقصى الحدّين دائماً: الوهج الباهر وكذا الظَّلام الدَّامس. وعلى ذكر الظَّلام الدّامس أذكر أنّه حينما كنتُ طفلة، دخلتُ إلى غرفة مكتب والدي لأضعَ بعض الأوراق على الطّاولة، وإذا بعيني تقعُ على ملفّات مفتوحة فيها صور توثّقُ لبعض الجرائم الَّتي كان يحقّقُ فيها بحكم عمله، إحداها كانت لامرأة في مقتبل العمر قتلتْ طفلتها. تجمّدَ الدّمُ في عروقي، ومددتُ يدي المرتعشة إلى الصّور الملتقطة بالأبيض والأسود، وبدأتُ أطّلعُ على تفاصيل أكثر عن إعادة تمثيل الواقعة، كان الأمرُ صادماً بالنِّسبة لطفلة مثلي تكتشفُ لتوّها أنّ المجتمعَ فيه شيء من هذا القبيل، وأنّ المرأة ليست دائماً هي الأمّ الطيّبة الحنونة، أو الجدّة الرّؤوم، وخرجتُ وقد انقلبتْ معدتي من الخوف وذهبتُ إلى والدي مباشرة، أسألهُ عن سبب حدوث مثل هذه الأشياء. وحينما كبرتُ

ونضجت أكثر فأكثر، أصبحَ السّؤال الّذي يؤرّقني هو الآتي: كيف يمكنُ للرّجُل القاضي، أو الوكيل العام المُحقّق أن ينظرَ إلى المرأة وهو لا يرى منها بحكم عمله إلّا النَّموذج ((الفاسد)): القاتلة، السَّارقة، الزَّانية، العاهرة، المحتالة إلخ إلخ إلخ؟

الرّوائي كالرّجُل المُحقّقِ تماماً: الحياةُ تعرضُ عليه العديدَ منَ النّماذج النِّسائيّة، لكنّهُ عليه أن يختار تلكَ الّتي تُحدث التّغيير، أو تلكَ الّتي تكونُ المؤشّرَ على وجود الأزمة والاحتقان الاجتماعيّ والسِّياسي والاقتصادي والأخلاقي في مجتمع ما.

إحسان عبد القدّوس مثلاً، أبدعَ بشكل كبير في هذا المجال، شخصيّاتُه النّسائيّة الشّديدة التّعقيد هي مفتاح رئيس لمن يريدُ أن يقرأ المجتمع المصري والعربي قراءة واعية. أمّا نجيب محفوظ فعلى الرُّغم من أن هناك من ينتقدُ طريقته في انتقائه لنساء رواياته باعتبار أنّ معظمهنَّ إمّا فتيات ليل أو أمّهات مقهورات لا حول ولا قوة لهنّ، فإنِّي أرى أنّ نجيباً كان يقدّمُ المرأةَ من وجهة نظر المجتمع الذّكوريّ لها، وليس من وجهة نظره هو.

المرأةُ الّتي يرسمها نجيب محفوظ في كتاباته، هي نتاجُ مجتمع ينتشرُ فيه الفساد السِّياسيّ والظّلم الاجتماعي، وهي مجبَرة على أن تجد طريقة ما لتعيش بها وسط ما يحيط بها من انحطاط أخلاقيّ على كلّ المستويات، مع العلم أنّ هذا لا ينفي أبداً أن نجيب محفوظ قد اهتمّ أيضاً بنموذج المرأة الفاضلة، يكفي مثلاً أن أذكر شخصيّة زهرة في رواية (ميرامار)، وهي الرِّيفيّة الشَّجاعة الخلوقة الّتي قاومت كلّ شيء من أجل أن تحافظ على نفسها رغم الوسط المتعفِّن الّذي كانت تعيش فيه.

يجبُ ألّا ننسى أنّ نجيب محفوظ هو ابن الثّورات والانكسارات العربيّة، أثّرت فيه ثورة ١٩١٩، وكذا ثورة ١٩٥٢، ونخرته في العمق وكسرتهُ هزيمة ١٩٦٧.

وكـان لا بدّ لكتاباتـه أن تُعَبّر عن كلّ هذا البـؤس العربـيّ مـن خـلال نقل مشـاكل الطَّبقة المتوسّطة والتَّغيرات الّتي كانت تطرأ عليها إلى القارئ.

لذا فـإنّ نسـاءه بشكل أو بـآخر يجسّدن الأزمـةَ الاقتصـاديّة الطَّاحنـة الَّتـي عاشها العالمُ العربي ما بين الحربين العالميَّتين الأولى والثَّانية.

هنـاك شخصيّات نسـائيّة لا يمكنُ نسيانها فـي عـالم الإبـداع الأدبـيّ، مثلاً بياتريشـه المُعلّمـة الرُّوحيـة لـدانتي أليغييري، وكـذا لاورا المـرأة الّتـي بهـا خلُدَ إبـداع فرانتشيسـكو بيترارکـا، إلّا أنّنـي أعتقدُ أن كـلّاً مـن بياتريشـه ولاورا همـا أقـرب إلـى الأيقونة من الشَّخصيّة، ممّا يفقدهُما الكثير من الدِّفء والدّفق الإنسانيّ.

لا ننسى طبعاً آنّا كارنينا، للروائي تولستوي وهي الشَّخصيّة الّتي تدفعني إلى طرح التّساؤلات التَّالية: إلى أيّ حدٍّ استطاعَ تولستوي أن يُبقيَ حياته الخاصّة بعيدة عن أحداث الرّواية؟ وهل كان يريد بروايته هذه أن يُحذّر زوجتَه صوفيا من العواقب الوخيمة الّتي يمكنُ أن تتعرّض لها امرأة من الطَّبقة الرَّاقية إذا ما فكّرت في خيانة زوجها؟ وهل هذا ما يفسّرُ النّهاية المفجعة الَّتي اختارها تولستوي لآنّا كارنينا؟ وإلى أيّ حدّ تتشابهُ آنّا مع زوجته صوفيا؟ هل قتلَ تولستوي صوفيا كما قتل آنّا؟ وإذ أقول هنا القتلَ فإنّي أعني به هجره لصوفيا. يا له من درس قاسٍ في الأخلاق!

كثيرات هنّ الشّخصيَّات النّسـائيّة الَّتـي نجـح بعضُ الأدبـاء الرِّوائيِّين فـي خلقها بشكل يـدعو إلـى الإعجـاب والانبهـار، هنـاك علـى سـبيل المثـال لا الحصـر نساء الرّوائي الأمريكيّ المعاصر جيمس إلروي.

هذا الرِّوائـي اختصّ فـي أدب الجريمـة، وقـد كـان لحـادثِ مقتـل والدتـه فـي طفولته أكبرَ الأثر على حياته الإبداعيّة: روح والدته القتيلة هي المحرّك الأوّل الَّذي يمدّه بالطَّاقة ويدفعه إلى خلق شخصيَّات نسائيّة مركّبة وشديدة التَّعقيد، يداوي عبْرَها جراحَ الجزء المظلم والنَّازف من المجتمع الأمريكي. في روايته (داليا السَّوداء) الَّتي صدرت عام ١٩٨٧ واستند فيها على جريمة القتل البشعة الَّتي تعرّضت لها الممثَّلة

وفتاة اللَّيل الأمريكيّة إليزابيث شورت، حرصَ جيمس على أن يوجه إصبع الاتِّهام إلى فساد الجهاز الأمنيّ والسِّياسي الأمريكي واعتبره المسؤول الأوَّل عن مقتل هذه المرأة وعن التَّعتيم الَّذي ظلَّ يلاحقُ الجريمة منذ حدوثها إلى اليوم.

جرح كبير في طفولة كاتب، جعلَ منه روائيّاً بامتياز، يعيدُ تركيب قصّة والدته يوماً بعد يوم، يقتربُ من النِّساء الشَّاردات، الفاتنات، السّاقطات، القاتلات، المجرمات ليعيد لهنَّ الحياة بطريقته الخاصّة ومن خلالهن يفكّكُ المجتمعَ الأمريكي ويحلّله منظومة منظومة. والأمرُ بالنّسبة له لا يتطلّب سوى التَّشبُّثَ بخلوته الفكريّة والإبداعيّة ثمَّ الاستلقاء في غرفة مظلمةٍ على أريكته المفضَّلة ليطلقَ العنان إلى فكره وخياله، ليرى بعين قلبه في العتمة الصّورَ تتوهّجُ والشَّخصيّات تتخلّقُ واحدة بعد أخرى، وما عليه هو بعد ذلك سوى أن يكتبَ مسودته في ٦٠٠ صفحة أو ربّما أكثر، ثمَّ يدفعُها للنّاشر.

الكتابةُ عن المرأة في الأدب الرِّوائيّ، تقتضي الإحاطة بكلّ النَّماذج، البسيطة منها والمعقّدة، ولا فرق في هذا بين امرأة ورجل، الفرقُ يكون فقط في طريقة الخلق والأرضيّة الّتي تنطلق منها هذه العمليّة، لأنّنا بشكلٍ أو بآخر مطالبون جميعاً نحن معشرَ الأدباء بالحفاظ على تلك البذرة الَّتي زرعها الخالقُ فينا، والَّتي من خلالها يُجدّدُ خلقَه لنا ولأعمالنا ويحفظُ كلّ ما نكتبُه: إنّه هو من يتشكّلُ في كلّ لحظة وحين، وما علينا سوى أن نفعل مثلَ تلك العذراء الصَّغيرة الَّتي أنجبت طفلاً اسمه يسوع؛ أيْ أنْ نحافظ على بذرة الإله فينا لنُنْجِبَ بعد كلّ مخاضٍ عيسى جديداً، قادرا على التَّخلّقِ من عتمة كهف المحبّة ورطوبة رحم الوجود: القلب؛ الحاضن الأوّل للحرف والقلم والحبر.

٦٧. الأديبة المبدعة د. أسماء غريب، راودني مراراً وأنا أقرأ إجاباتكِ، كيف تستيطعي أن تحيطي بكلِّ هذه الأجناس الأدبيّة وتمسكي بخيوط هذا الحوار وتنسابين في العطاء وكأنّك في حالة استعداد دائم للتدفّق؟!

إذا نطقَ الحرفُ وجبَ الإنصاتُ له: هذا سرٌّ من أسرار الكتابة الأصيلة الشّامخة. والإنصات يقتضي الدّخولَ إلى كهف الرّوح والتَّحلّي بالخشوع والتّواضُع؛ ذلك لأنّ الكتابة هي صلاة ودعاء يغسلان القلبَ من أدرانه، ويشفيان الرّوح من آلامها، ويخفّفان عنها ثقلَ ووجعَ الغُربة: غربة الزّمان والمكان.

وأماكنُ الإنصات عندي ثلاثة: المطبخ والمائدة ثمَّ السّرير. ولا خير في كاتبٍ لا يدخلُ تنّور النّار، ولا يعرفُ معنى المائدة ولا السّرير وأسرارهما. وإذ أقولُ المطبخَ فإنِّي أقصد به كلا المعنيين: الحرفيّ الظَّاهرَ منه، والمجازي الكامن فيه.

المطبخ هو المكان الَّذي ألجُه كلَّ يوم بكلّ ما فيّ من عشقٍ ووفاءٍ، وفيه يأتي للقائي الحرفُ بكلِّ ما فيه من حرارةٍ ودفء ومحبّة. والكاتبةُ الَّتي لا تعرف أصول طهو الطَّعام، لا يمكنُها أن تكتبَ بصدقٍ وعُمْقٍ أبداً. لأنّ كلّ شيء يبدأ من هناك: من مخْبَر الطّهو وأفرانه، الَّتي فيها وبها تكتشفُ المرأةُ الكاتبةُ معانيَ الأشياء، وتكوينَها، ورائحتَها، وعطرَها، ودرجة حرارتها وبرودتها، وطعمَها ومذاقَها المرّ والحلو، والمالح والحارّ. إنّها كالخيميائيّ الّذي يراقبُ تكوُّن الأشياء: كيف تَخْضَرُّ وكيف تَحْمَرُّ وتَصْفرّ وتسْوَدُّ، بل كيف تكون ترابيّة وهوائيّة، أو ناريّة ومائيّة، ثمّ كيف تتحوّلُ من حالة إلى الأخرى، وكيف تنمو وتحيا، وكيف تموتُ وتقوم.

الكاتبة الَّتي لا تعرف المطبخ وتوابِلَهُ وخضرواته، ونيرانه وخبزه ومناخله وخميرته ونبيذه وزيوته، لا يمكنُها أبداً أن تعرف الحرفَ كيف يتكوّنُ، ولا الكلمةَ كيف تولد، مهما كتبتْ ومهما تسابقتْ دورُ النَّشر على كتاباتها والمحافل على تكريمها. ذلك أنّ الحرفَ الحقّ لا يقيم وزناً لهذه المحافل وأهلها، ولا يعتبرُها أبداً المعيار لتكريم الكلمة الأصيلة.

والمطبخُ هو مكان الإيروس بامتياز، فيه تتخلّقُ الأشياءُ بالمحبّة، وفيه تتجلّى الكلمةُ، وبه تعرفُ الكاتبة الحقّة كيف تُقِيمُ علاقةً عشقيّة مع الكتابة. وقد يحدثُ أن يكلّمَها الحرفُ وهي منهمكة في دعك عجينة الخبز أو الحلوى، أو وهي غائصة في خلق تركيبةِ خلّ العنب الأسود، أو التُّوت البرِّيّ. نعم، الحرفُ يُكلّمُ المرأةَ الكاتبةَ، ويقول لها: أحِبُّكِ، لأنّكِ تزدادين كلّ يومٍ جمالاً، وأنت تكتشفينَ سرّي الّذي به تدخلينَ ملكوت البوح، والشّعر والقصيد والنّثر والتَّرجمة والنّقد.

ومِنَ المطبخ يقودُ الحرفُ المرأةَ المبدعة الكاتبة إلى المائدة، ليعلّمَها أنواع الطّعام الّتي عليها أن تتناولَها، والّتي ستفيدها ولا شكّ في إبقاء شُعلة الإبداع متّقدةً، بعد أن يوصيها بألّا تقربَ الأبيضان أبداً: الملحَ والسّكَّرَ. نعم، فأنا لا آكل الأطعمة المحلّاة ولا المالحة بتاتاً. ولكي يكتمل المرادُ يوصيها وصية أخرى لا تقلّ أهمِّيَّة عن الأولى قائلاً لها: لا تفتحي تلفازاً أبداً. وحينما تسألهُ السّببَ، يردّ باسماً: لأنَّ شاشةَ الأرضِ تحجبُ عن الكاتب والمبدع الواعي الأصيل شاشةَ السّماء. وحينما تطلبُ منه المزيدَ من الإيضاح يقول: العقلُ يُخزّن ما يَرى ويسمعُ، والذّاكرة لا تنسى أبداً ما يُعرضُ عليها باللّيل والنّهار من صور، والحرفُ يتنزّلُ على القلوب ويطرقُ الأبوابَ باستمرارٍ، إلّا أنّه يجدُهَا مُغلقة في وجهه بسُتْرٍ من دخان الوهْمِ الكثيف، فيحدثُ أنْ يعود من حيثُ أتى، أو يضيعَ ويندثر. وقد يتألّقُ ويُزْهِرُ ويتوهّجُ إذا ما صادف قلباً خالياً من صور الأوهام، وأصواتِ الخواء والغباء الدّنيويِّيْنِ المنتشريْنِ في كلّ مكان، قلباً يكونُ صقيل المرآة وله القدرة على أن يحتضنَهُ بعمقٍ ومحبّة نادريْن. وحينما تسألُ المرأةُ الكاتبةُ الحرفَ، أين يكون الاحتضان ومتى؟ يجيبُ قائلاً: في السّرير. حينما يخلو كلُّ خِلّ بخليله، يأتي الحرفُ باحثاً عن خلّانه الأوفياء، ليغمرهم بالفيض والعطاء الغزير، ويُطلِعَهُم على الكتابِ الصّوتي المسموع، واللّوْحي البصري المقروء. وما على كلّ عاشق سوى أن يَغْرفَ من كلا الكتابين ما يلائم روحَه ويوائم عُلوّ الهمّة عنده.

وللسرير أوقاتٌ معيّنة، على المبدع الأصيل أن يعرفَها جيّداً، ممّا قد يعني أنّ أوقاتَ نومه واستيقاظه قد تختلفُ عن أوقات الآخرين. والنَّومُ سرّ، والاستيقاظُ منهُ سرّ آخر لا بدّ للمرأة الكاتبة أن تحيط بهما، وإلّا فإنّها قد تفوتُها أوقات البوح دون أن تغْرِفَ من معين الحرف ما هي بحاجة إليه لتطوّرِها الرّوحي وبلوغِها مدارج الرقيّ والصّفاء والسّكينة.

٦٨. عندك تجلِّيات عرفانيّة في عالم التَّصوّف والعرفان، ما رأيك بتصوُّف ابن عربي والحلّاج؟!

هذا سؤال بحجم الوجع الَّذي يحمله كلّ "عارف" حقٍّ بداخله، بل سؤال يحتاج للجواب عنه إلى أسئلة أخرى طُرحت قبلي وظلّتْ لليوم بدون جواب.

لماذا يُعاني العرفاء؟ لماذا صُلب الحلّاج بذلك الشّكل المُفجع والشّنيع، وقُطّعت رأسه وأطرافه وأُحْرِقَ جثمانه ونُثر رماده في نهر دجلة؟ ولماذا سُمِّمَ آخرون من قبله وبعده، ولماذا يُمزّقُونَ لليوم كلّ ممزّقٍ ويُشَتّتُون في كلّ الأرض والبلاد: هل لأنّ السرَّ يظهرُ عليهم، أو لأنّهم باحوا بهِ كما فعلَ الحلّاج من قبلهم؟

لا أعتقدُ أنّ هذا هو السّبب الحقيقيّ، لأنّه لا يوجدُ فعلاً أيُّ سرٍّ يمكنُ البوحُ به أو التَّكتّم عليه. واللهُ شمسٌ ساطعة ظاهرة بادية لكلّ العيان شاء من شاء وأبى من أبى، وما هو بسرٍّ حتَّى يستحقَّ من يعشقُه أو يعتنقُه، أو يذوبُ فيه كلَّ هذا العذاب أو العناء والشّقاء.

مأساة الحلّاج أنّه جاء في زمن الفتن والقلاقل، وسَيَّسَ طريقتَه الصّوفيّة، وكلّ ما يُسَيَّسُ يكونُ مصيرهُ الهلاك، ويفرُغُ في الختامِ من محتواه. وقد يُسيَّسُ كلّ شيءٍ في الحياة، لكنّ قلبَ العارفِ الحقِّ لا يقبلُ أبداً أنْ يُسيَّسَ اسمُ الله وحضوره فيه. وهذه الحقيقة ستقودني إلى أسئلةٍ أخرى: لماذا لمْ يتَّعظْ بعدُ العديدُ من العرفاء؟ لماذا مازالَ بعضُهُم يُشْرِكُ بالله؟ لماذا الحُلم بالمشيْخَة والكرسيّ والأتباع والمريدين

فـي كـلّ قطـر مـنْ أقطـار العـالم؟ أوَلـمْ يعـرفِ العـارفُ بعـدُ أنَّ الشّـيخَ لا يقتلُـه إلّا مريدوه؟ وأنّه لا يظهر الخائنُ إلّا في الأتباع والمحبّين؟ وهل مازال لليوم من العرفاء من يحلمُ بتغيير الكون؟!

الكونُ الإلهيّ بمفهومه العلميّ والفيزيائيّ أيّها السّادة صالحٌ وكامل كما هُو، وكما أراد لهُ خالقُه أن يكون وليسَ في حاجة إلى من يُصلحُه، إنّما الكونُ الّذي في حاجة إلى الإصلاح الحقيقيّ هو الكونُ الدّاخليّ لكلّ إنسان، وهذا الكونُ لا يحتاج لا إلى شيوخ، ولا إلى أتباع ومريدين، ولا إلى أيّ شيء آخر من هذا القبيل، وإن مـازالَ فـي كثير من الأحيـان العديدُ مـن عرفـاء اليوم يجنحـونَ إلـى تغييـر مفهـوم المَشْيَخَة القديم وتعويضه بمسمّيات أخرى غالباً ما تتخذُ من الشّعر والأدبِ غطاءً، فيفسدُ بذلك الاثنان: شعرهُم وكذا تصوّفُهم، لأنّه بدلَ أن يكونَ هدفهُم الرّقيّ بالذّائقة الأدبيَّة، والوجدانيّة لدى المتلقّي، يصبحُ هدفهم الرّئيس، جذبُ المتلقِّي إليهم ليكونَ من أتباعهم بطريقة أو بأخرى. إنّه شيء يشبه لعبةَ السِّياسيّ مع أصوات المواطنين في فترة الانتخابات.

الكـونُ الـدّاخليّ للإنسـان بحاجـة اليـوم وأكثـر مـن أيّ وقـتٍ مضـى، إلـى الاهتمام بالإنسانِ نفسه، وبمتطلّبات حياته اليوميّة: كرامتُه، صحّتهُ، سلامتُهُ، أمنُهُ، ثمّ حقّهُ في التّعليم، وفي السّكن وفي السّفر طلباً للعلم، أو للمتعة الرُّوحيّة، إلى غير ذلك من الحقوق الّتي لا تعدُّ ولا تُحصى. باختصار شديدٍ؛ الكونُ الدّاخليّ للإنسان بحاجـة إلـى المحبّـة والعشـق والحـبّ، حتّـى يتحـررَ مـن أوزاره، وأثقالـه، وهمومـه، ويصعدَ بطِينه إلى شجرة النّار والنّور.

مرحلـةُ الحـلّاج والحلّاجيين كـان لا بـدّ منهـا، وقـد تعلّـم منهـا العديـدُ مـنَ العرفاء درسَ العشق الأهمّ: لا تُثِرْ حسدَ النَّاسِ وغلّهم وحقدَهم. لأنّ النَّاسَ عبر كلّ هذه العصور، ما حاربوا وليّاً، ولا نبيّاً إلّا بدافع من الحقد والحسد والغلّ، وهُم في

هذا معذورون. لأنّ مَنْ يطّلعُ على نفسيّة الحاقد والحاسد، سيرى الكثيرَ من الحنق والغضب والألم، لا لشيء سوى لأنّه يرى نفسَه مُهمّشاً ومعزولاً عن النّور.

لا أحدَ يغارُ منَ الله، إنمّا يغارُ الإنسانُ من أخيه الإنسان ويحقدُ عليهِ إذا ما سمعَه يقولُ إنّهُ هو الله، وهو بهذا يشبهُ في ألمهِ ألمَ إبليس؛ لأنّ إبليس كانَ أوّل من عرفَ أنّ اللهَ كمُنَ وسكنَ في آدم وذرِّيّته!

علينا أنْ نتعلّم إذن مِنْ محَن العرفاء القدماء، علينا أن ننتبهَ جيّداً لمَنْ حولنا، وأن نستوعبَ أنّنا لسنا أفضل من أحد، ولا أقلّ من أحد، وكلّ إنسانٍ يمكنه أن يصبح إنساناً صالحاً، ولا داعيَ لإقصاء أحدٍ مهما كان عمره، ولونه وجنسه ومعتقده.

كلّ عارف يُفصحُ عن عرفانه وتصوّفه، يُقصي الآخرَ بشكل آليٍّ، وكأنّهُ يقولُ بشكل غير مباشر؛ إنّني أفضل من غيري، وهذا ليس بالشّيء الجيّد أبداً. نعم، ليس بالشّيء الجيّد أن ترى نفسكَ أفضلَ من غيرك، وتنعتَ الآخرين بالجهل وبالاحتجاب عن الحرف. لأنّ اللهَ كما خلقكَ وركّبكَ في أحسن صورةٍ ظاهرة وباطنة، خلقَ غيركَ على نفس الصّفة والشّكل، وما الفرق إلّا في الهمّة، والجهد المبذول في الطّريق إلى الخالق.

علينا اليوم أن نقرّ جميعاً بأحقّية النّاس كلّهم في خالقهم، لقد تجاوزْنا زمن الأنبياء والأولياء والقدِّيسين، وأصبح اليوم من حقّ أيّ إنسان أن يرقى ويسمو، لأنّه خُلِقَ لهذا الشّأن، وبدل أن ينشغلَ بالمريدين والأتباع، عليه أن ينشغلَ بنفسه ليعرفَها، حتّى يستطيعَ أن يعرفَ بعد ذلك خالقَه، وهذا أمر يتطلّب كلّ العمر وما بعدُه أيضاً، لأنّ الرّحلة لا تنتهي أبداً، ولا حتّى بعد الموت.

ثمّة دائماً شيءٌ جديد تكتشفه في مدينة الجسد: عقلكَ، قلبُك، نفسكَ، بل كلّ خليّة وذرّة فيكَ: هذا هو كتابكَ أيُّها الإنسانُ الّذي يجبُ أن تنهل من خزائنه. وبهذا اختلفَ ابن عربي عن الحلّاج، لقد دخل هذا العارفُ الأندلسيّ مدينة جسده،

ولمْ يخرج منها إلّا وقد أحاط ببعضٍ من كنوزها، فكتبَها وتركها إرثاً ينتفع بهِ غيره، وقد ساعده في هذا طبعاً أنّه أفاد من خبرةٍ من سبقوه بمن فيهم الحلّاج، ومن تجاربهم، ودروسِ حيواتهم، وهذه هي سنّة تطوُّر الحياة والفكر عبر الأجيال.

والرّحلة لم تنتهِ بعدُ، ومازالت مدينة الجسد حبلى بالعديد من الخزائن، ومازال اللهُ ينادي خلقَه ليأتوا للقائه فيها، ولقراءة وسماع ما تحويهِ من كتب بصريّة ومسموعة، بل للسّفر بين مفاوزها، وجبالها وبحارها، وسماواتها، لأنّ الجسدَ هو ملكوت الله، والقلبُ فيه هو عرشُه، والعقل والرُّوح والنّفس من جنوده، فاخترْ أيّها الإنسانُ أيّ جنديٍّ تريدهُ أن يكونَ رفيقك في رحلة الحياة، واعلم أنّكَ أنتَ أيضاً، يمكنكَ أن تكون ملاكاً، قدّيساً، وليّاً أو نبيّاً، إذا شئت ذلك واستوعبت أنَّ كلّ ما حكاه الله في كتبه السّماويّة عن أنبيائه وأحبّته السَّابقين، إنّما جاء لتحتذي بهم، وتتعلّم منهم لتكون مثلهم، أو أفضل منهم. اشحذ همّتكَ إذن، وتوكّل على الحيّ الّذي لا يموت، ولا تنسَ أنّ طريق الألف ميل يبدأ بخطوة واحدة.

٦٩. لماذا فشل الإنسانُ في قيادة نفسه وقيادة الدُّول من حيث ترويج الرُّؤى الإنسانيّة الخلّاقة في العالم؟

فشلُ الإنسان في درس المحبّة هو السّبب، إذ لا أحد استوعب حقيقة معنى الحبّ أو العشق، والدّليل على ذلك، ألّا أحدَ يستطيع لليوم أن يحبّ عدوّه. أعلم أنّني أقول شيئاً محيّراً للفكر ومزعزعاً للثوابت، لكنّي أعود وأقول: أحبّوا أعداءكم، أحسنوا إليهم، أطعموهم إذا جاعوا، واسقوهم إذا عطشوا. لأنّه ما من طريق للسلام الحقّ سوى أن يغلبَ الإنسانُ الشَّرَّ بالخير. ولأنّ السّلام لا يعني أن تقفَ أمام بحر الحياة متردِّداً، وتقول: لن أبحر أبداً، والأمواج صاخبة تتكسّر على الصّخر وتبثُّ الخوف في القلوب! الحياة ليست موجاً صاخباً فقط، ليست أفكاراً تتكسّر على أرضيّة الواقع، وكلمات تُقعْقع في النّفوس. الحياة أكبر من هذا بكثير: لا بدّ من

الغرق، ولا بدّ من الارتماء في البحر الهائج. لا تخشَ شيئاً أيّها الإنسان، لأنّ سفينتك هي جسدكَ الّذي يجبُ عليك أن تبنيه طابوقة طابوقة بالمحبّة فقط، وأنت فيها نوحُ الخلاص، وتأكّدْ أنّ ما تحت الموج الصّاخب والفِكر الهادر، هناك مساحة في الأعماق اسمها (واحة السّلام)، إذا ما وصلتَ إليها، تساوى كلّ شيء لديك، وتوحّدتِ المفاهيم، وانمحقت الكراهيّة والأحقاد. في تلك الواحة يمكنكَ أن تلتقي بالله، وتصبحَ مثله بعد أن تعود من رحلتكَ: قادراً على أن تضُمّ وتحتضن الجميع، وتسطع عليهم بشمسكَ دون أن يعنيك في شيء مَنِ العاصي فيهم، ومن الكافر أو الملحد، لأنّ النّاسَ وحدهم مَنْ يحبُّون تسميّة الأشياء وتمييزها بالنُّعوت والصِّفات.

ثلاثة يمكنهم أن يفهموا كلماتي هذه بدون أدنى جهد، وبدون أن يستغربوا قولي في محبّة العدوّ، وبلوغ واحة السَّلام: الرّاعي، والفارس الخيّال، والنّجّار.

وأقول الرّاعي، لأنّه يعرف كيف يروّضُ القطيعَ، ويقوده حيث المراعي الخصبة، ويحميه من غدر الذّئاب والوحوش. أمّا الفارسُ الخيّال فلأنه يعرف كيف يروّض فرسه، ويجعلها مطواعة تمتثل له بالمحبّة والإحسان. والنّجّارُ لأنّه يعرف كيف يطوّعُ الشّجرة ويصنع منها ما فيه فائدة للناس والخليقة.

وهي كلّها أمثلة سقتها لما فيها من تكامل في الفعل والهويّة والقصد: أيْ ترويض النّفس الّتي رمزتُ لها بالقطيع، والفرس ثمّ الشّجرة. وقلّة هم أولئك الّذين استطاعوا أن يروّضوا النّفسَ ويتحكّموا فيها من أجل خير النّاس كافّة، كما هو الشّأن بالنّسبة لموسى وصالح وعيسى ومحمّد (عليهم السَّلام). وأقول موسى، لأذكّرَ بعصاه المقتطعة من الشَّجرة، وهو بهذا يكون الرّاعيَ والنّجار في الوقت ذاته. وأقول صالحاً، لأنّه صاحب النّاقة وبالتّالي فهو الرّاعي وكذا النّجار مادام لا بدَّ للراعي من عصا، وأقول عيسى لأنّه هو أيضاً راع من درجة رفيعة جدّاً، وأقول محمَّداً، لأنّه الرّاعي والفارس الخيّال صاحبَ البراق.

النّفسُ إذن هي العصا والقطيع، والنّاقة والبراق، من عرفها وعرفَ كيف يطوّعها دخل واحة السّلام، ومن لم يعرفها ظلّ يتخبّطُ في حياته ولا يقوم إلّا كَما يَقُومُ الّذي يَتَخَبَّطُهُ الشّيطانُ مِنَ المسّ. ولن يتوقّف إبليس عند مرحلة المسّ والتّخبّط، إذ لا بدّ له من غزو العقل البشريّ ونفسِه بعلومه الباهرة، وقريباً سيصبح الإنسانُ قادراً على أن يُبحر في الإنترنيت والحاسوب من خلال ميكروشيب في جبهته، وآخرَ في نظاراته، لأنّ هدف إبليس هو ألّا يترك للإنسان مجالاً أبداً ليكتشف نفسه وقدراتها الّتي زرعها فيها خالقها. سيصبحُ كلّ شيء مبرمجاً: سيعوّض الجنسُ الرّوبوتيّ المرأةَ والرّجلَ، وهكذا سيصبحُ بإمكان الرّجُل أن يستغني في حياته العاطفيّة والجنسيّة عن المرأة، والعكس صحيح. أضف إلى هذا، ستطردُ التّكنولوجيا الروبوتيّة البشريّةَ جمعاء من أماكن العمل وكسب القوت، أيْ من الشّركات والمصانع والمعامل والأبناك ومكاتب البريد، ومن الصَّيدليات والحقول والمزارع، وما إليها. ستتغيّرُ شيفرة كلّ الأشياء والأسماء. وأهلاً بكم جميعاً في أرض إبليس! سنكلِّمُ السِّيّارةَ والقطارَ والأبواب، والطَّائرة. سنكلّمُ؟ لا، إنّنا فعلاً أصبحنا نكلّم كلّ شيء من حولنا، وما كان كان.

لن تصبح لدينا القدرة على أن نقود سيّارة، لأنَّ السِّيَّارة هي الَّتي ستقود نفسها بنفسها، يكفي أن تقول لها بصوتكَ إلى أين تريد الذِّهاب، وهي تتكفّل بالباقي. كلّ هذا أمرٌ مخيف للغاية، لأنّه يعني أنّنا سوف لن نصبح قادرين على فعل أيّ شيء، لأنّ الآلة ستفعله في مكاننا، فما بالك بقيادة الدّول نحو الفكر الخلّاق!

الفكر الخلّاق من وجهة نظر الفكر التّكنولوجيّ اليوم أصبح هدفه التّخلص من قدرات الإنسان الإبداعيّة والفكريّة، لتحلّ محلّها قدرات الآلة فقط، وهذا يعني تمركز الطّاقة الإبداعيّة التَّصنيعيّة في أيد عدد قليل ومحدود جدّاً من رجال السّلطة والمال في الكرة الأرضيّة قاطبة، ممّا يعني مباشرةً البعدَ الكامل عن بلوغ واحة السّلام.

جميل جدّاً أن نرقى، ونستخدمَ التّكنولوجيا من أجل رفاهيّة الإنسان، لكن علينا ألّا ننسى أنّ الإنسان سيصبحُ وحيداً أكثر من أيّ زمن مضى؛ وحيداً مع آلاته، تُكلِّمُه ويكلّمها، يحبّها ويتفاعلُ معها، وتتفاعلُ معهُ، وسينسى أنّه كان ذات يومٍ إنساناً: هذا هو المشروع التّدميري لكينونةٍ سجدتْ لها ملائكة الرّحمن. فهل سنستيقظ؟!

٧٠. ما هو دورك مبدعةً ومثقَّفةً في إرساء ثقافة السَّلام والتّنوير في المجتمع الشَّرقي والعربي والغربي؟

الاهتمام بثقافة السّلام واجب كلّ إنسان أينما حلّ وكان، ليس شرطاً أن ينتمي إلى بلد عانى أو يعاني لليوم من أوار الحروب. على السَّلام أن يكون الشّأن الدّاخلي للجميع. وعلى الجميع أن يسعوا لتحقيقه من أجل حياة كريمة خالية من المنغّصات والآلام. السّلام هو خبز الرُّوح والجسد، وبه يمكن للإنسان أن يحقّق إنسانيّته، وينعمَ بها مع الآخرين.

كُثْرٌ هُم الَّذين أظهروا اهتمامهم بفكر السّلام اليوم عبر إنشاء الجمعيَّات وتأسيس المجلّات وما إلى ذلك، وهذا أمر جيّدٌ للغاية، لكنّه غير كافٍ. على منْ يهتمُّ بالسَّلام أن يعيَ جيّداً أنّه يضربُ في أرضٍ من حجر، وأنّ الأمرَ يحتاجُ إلى أعوام وأعوام لكي يتفتّتَ الصّخرُ، فقلوب النّاس تحجّرت من كثرة المآسي والحروب والأحزان، ولا يعنيها في شيء أن تسمع أحداً يحدّثها عن السَّلام. ثمّة من تغلي مراجلُ قلبه تعطّشاً للانتقام، ولتحقيق العدالة البشريّة على الأرض قبل أن يفوت الأوان، بمنطق العين بالعين والسّنّ بالسِّن والبادئ أظلم.

نعم، من الصّعب جدّاً الحديث عن السّلام مع أمٍّ فقدتْ أبناءها في ساحة الوغى، أو بسبب سيارة مفخَّخة، أو مع أبٍ غُيِّبت فلذة كبده في غياهب السُّجون. هؤلاء النّاس كثيرون اليوم وفي كلّ بقاع العالم، ولا يمكن تجاهل مشاعر الأسى

والمرارة والغضب الّتي يحملون. والحديث بالنّسبة لهم عن السّلام سيظلُّ مجرّد كلام يُلقى في قداسات الآحاد أو في خُطب المساجد.

أضف إلى هذا، ثمّة منِ السّلام بالنّسبة له أن تضمن لهُ الحقّ في العمل، وفي الدِّراسة وفي التَّطبيب والسّكن والعيش الكريم. لا يمكن لشابٍّ عاطل عن العمل مثلاً ويحمل من الشّهادات العليا الكثير، أن يقف ليستمع إليكَ وأنت تحدّثه عن السَّلام: لأنّ هذا الكلام يعني له ضرباً من الجنون، سينظرُ إليك وكأنّكَ إنسانٌ منفصل عن الواقع وتعيش في زمن الأحلام. أن تعطيَه عملاً يليق به، سيكون هو السَّلام بالنّسبة له، لأنّه سيحميه من غدر الشَّوارع وفاقة الزّمان، وسيشعِرُه بالأمان وبالقدرة على المشاركة والتّفاعل مع المجتمع.

الحديثُ عن السَّلام مع فتاة ليل مثلاً، تبيع جسدها لتعيش يعني ضربا من الجنون، لأنّ عالمها المليء بالشَّرّ والعبوديّة والاستغلال لا يسمح لها أبداً بالتفكير في السَّلام بجسدٍ موشوم بالنُّدوب وقلب مثقل بالأحزان والجراح.

لا أحد يعنيه ما نقول، أو ما نكتب. النّاس غارقون في آلامهم حدّ الثّمالة والتّخمة، والحروب في كلّ مكان: في البيت، في الشّارع، في العمل، في الأسواق والبورصات. لا يوجدُ مكان إلّا ومشتعل بحروب الإنسان اليوميّة. لكنّ هذا لا يعني ألّا يحاولَ المثقّف، أو ألّا يكرّسَ وقتَه لإعلاء صروح السّلام. صحيح أنّ صوته سيبدو كالهمس في قاعة غاصّة بالصّمّ والبُكم، أو كمن يغنّي أغنيةً بصوت نشاز في حفل عامّ، لكن لا بدّ من المحاولة. وعلى ذكر المحاولة سأحكي قصّة وقعتْ لي في السّنة الماضية (٢٠١٧)، وأنا بصدد فعل شيءٍ من أجل إرساء ثقافة السَّلام:

على إثر صدور كتابيْنِ كنتُ قد ترجمتُهما إلى اللُّغة الإيطاليّة عن السّلام في زمن الحروب، هما (السّلام أعمق من البحار) للأديب السوري المغترب صبري يوسف، و(من مذكّرات طفل الحرب) للشاعرة العراقية المغتربة وفاء عبد الرزاق، فكّرتْ صاحبةُ دار النّشر في أن تقيم احتفالية لتقديمِهما في إحدى الجامعات

الإيطالية وأن تدعو بذلك كلّا من صبري ووفاء وكذا الشاعر العراقي سعد الشّلاه باعتباره ساهم هو الآخر معي في كتابة ديوان شعريّ يتحدَّثُ عن السّلام الرُّوحي العرفانيّ، هو (تانغو ولا غير). عرضتِ النّاشرةُ الأمرَ عليّ واستحسنتُ الفكرة، ثمّ حدّدنا موعداً وذهبنا إلى إحدى الجامعات الإيطاليّة للقاء الأستاذة والنّاقدة الجامعيّة الّتي ستهتمُّ بالأمر، وهي ذات المنصب المهمّ، والباع الطَّويل في النَّقد الأدبيّ وما إلى ذلك. وصلنا في يوم ماطرٍ جدّاً والدَّواوين الثّلاثة بين أيدينا، ونسخٌ أخرى منها كانتْ قد أرسلتها النّاشرة إليها أيّاما قبل موعدنا المحدّد.

فتحتْ باب غرفة مكتبِها الشّاسع المهيب، وما إن رأيتُها وتبادلنا النَّظّرات قبل طقوس التَّحيّة وما إليها، حتّى عرفتُ بقلبي الجوابَ مسبقاً، وبالرغم من ذلك تظاهرتُ بعدم معرفة شيء مطلقاً، وقلتُ في نفسي ما من مشكل سأحاول أنْ أمدّ يد المساعدة للنّاشرة، فمن المؤكّد أنّها تعوّل على هذه السَّيّدة وتأمل في أن تصل معها إلى اتّفاق.

جلسنا وتبادلنا أطراف الحديث في أمور شتّى عن الأدب العربيّ وعن الثّقافة والمثقّفين العرب، وهالني جهلُها بالعديد من الأمور وهي الَّتي كانتْ تصرُّ أمامي على أنّ نجيب محفوظ شاعراً وليس روائيّاً، وأن الأدباء العرب لا يلمعون إلَّا حينما يعيشون في العالم الغربيّ، لأنّ بلدانهم المستعرة بالحروب والفقر والجوع لا تسمح لهم بذلك. وكانت كلّما مضت قدماً في أحاديثها هذه، توغلتُ في الكرسيّ وازددتُ صمتاً مكتفية بمراقبتها وتأمّل حروب هذه المرأة الدّاخليّة، الفكرية والهويّاتيّة، والّتي بها كنتُ أغوص في عمق أعماق المنظومة التَّعليميّة في العالم الغربي كافّة، إذ أنّه ليستْ هذه هي المرّة الأولى الّتي يصادفني أكاديميون بهذا الشّكل.

شعَرَ والدُ النّاشرة بالحرج ممّا كانت تتفوّهُ به هذه الأستاذة من كوارث فكريّة، وهي تقزّم أمامنا ثقافة السَّلام، وتتحدّثُ عن عدم حاجة الجامعات الإيطاليّة

ولا الطّلبة لهذا النَّوع من الكتابات وما إلى ذلك، وحينما بلغ السَّيلُ زباه، قال لي: لماذا لا تقولي شيئاً سيِّدتي أسماء؟

عندئذ قلتُ باقتضابٍ شديد: يبدو أنَّ الأستاذة لمْ تفتحِ الدَّواوين الَّتي أرسلتْها لها ابنتُك ولا تعرفُ عن ماذا تتحدَّثُ، إنّها في وادٍ، ونحن في وادٍ آخر تماماً. أمّا عن كون الجامعات الإيطاليّة لا يعنيها في شيء أن تقيم ندوات عن السَّلام وقضاياه في البحر الأبيض المتوسط، فهذا أمر حقيقيّ، والسُّؤال الَّذي أطرحه الآن: لماذا نحن هنا؟

ثمّ وقفتُ لأنهيَ مهزلةَ هذه الأستاذة الّتي لا تعرفُ شيئاً عن العالم، والّتي شاختْ في كرسيها الأكاديميّ قبل الأوان، والّتي هي في حاجة ماسّة إلى السّلام الدَّاخلي أكثر من أيّ شخص آخر.

ودّعنا الأستاذة الأكاديميّة "العظيمة الشَّأن"، وقلتُ لهَا: لا عليكِ ربّما تكون هناك فرصة أخرى للقيام بندوات قيّمة مع "جنابك المحترم".

عدتُ للبيت، وقد قمتُ بما كان عليّ القيام به تجاهَ النَّاشرةِ ووالدها: لقد كنتُ أريدُ للنّاشرة الشَّابّة أن تفتح عينها على حقيقة ربّما كانت غائبة عنها: لا أحد يعني لهُ السَّلامُ شيئاً! الجامعات تريد مواضيع أخرى عن الضّفّة الثّانية: الهجرةُ وقضاياها مثلاً، المرأة العربيّة وقضايا الإسلام السِّياسي والإرهاب الدَّولي، قضايا الجندر الإسلاميّ ومعاناة الأقلِّيات بمن فيهم الشَّواذ جنسيا والسُّحاقيّات وما إلى ذلك. ربّما لو كانت النّاشرةُ أرسلتْ إلى أستاذتها كُتباً تحملُ عناوين من قبيل: ((ضربني وحرقني زوجي))، ((مذكّرات سحاقيّة عربيّة))، ((لا أريد الحجاب))، ((سأقود السّيَّارة لوحدي))، إلى غير ذلك من هذه الكتابات لكانتْ عانقَتْها بالأحضان، وأقامت الدُّنيا وأقعدتها من أجلها.

لقد كانت زيارتي لتلك الأستاذة فرصةً أيضاً لتَفْهَمَ ناشرتِي الإيطاليّة لماذا لا أقيمُ احتفاليات لتقديم الكتب الَّتي أصْدِرُها عموماً، ولماذا أرفض في كلّ مرة دعواتها لي بالحضور إلى النَّدوات وما إليها.

حروب الإنسان كثيرة، والسّلام الّذي هو في حاجة إليه لهُ عدّة أوجه، وعدّة لغات وطرق، لا تنحصرُ فقط في السَّلام الرّوحي، وإنّما يتعلّق الأمر بالعديد من المنظومات الفكريّة والسياسيّة والاقتصاديّة الّتي يجبُ إعادة النّظر فيها. لا تكفي الجمعيّات، ولا المجلّات، ولا الدَّواوين، إنّما الأمر يحتاج إلى عمل جذري يزعزع الأعماق والجذور.

٧١. إلى أي مدى ترين أنَّ الثَّقافة التّنويريّة والأدب الخلّاق لهما دور كبير في القضاء على الحروب المجنونة المتفشّية في الكثير من دول العالم، تمهيداً لإرساء سبل السَّلام والوئام بين البشر في العالم؟

أين هي الثّقافة التّنويريّة في العالم، لا سيّما العربيّ منه؟ أنا لا أراها. والمنشغلون بالتّنوير منقسمون بين التّنوير الأصوليّ، والتَّنوير الإباحيّ.

وأمّا التَّنويريّ الأصوليّ، فهو ذاك الَّذي يريدُ أن ينتقد الفكر العربيّ دون المساس أبداً بهالة التَّقديس الّتي تحمي كلّ التّراث الدّيني، إذ لا أحدَ لهُ الحقّ – بالنّسبة له – في مناقشة الثَّوابت المتوارثة جيلاً بعد جيل، وهذا ما يفسّر كيف أنّ العديد من أهل الحداثة بما فيهم العرفاء المسلمين الجدُد، يجدّدون في بنية النَّصّ الشِّعريّ مثلاً، دون التَّفريط أبداً في الحمولة التُّراثيّة الدّينيّة الّتي يجبُ أنْ تبقى كما هيَ، أيْ كما تداولها النَّاسُ منذ العهد النَّبويّ. وعليه فإنَّ التّجديد يكونُ في الشّكل فقط، ولا أحد يجرؤ على الخوض في مضمون التُّراث الإسلامي. وبناء على هذا تجدُ العرفاء المعاصرين على قلّتهم ونُدرتهم، يتمسّكون بطقوس السّرّ العرفانيّ والتَّكتّمِ عليه على الرّغم منْ أنّنا تجاوزنا هذه المرحلة بكثير، وأصبحَ من دواعي

التّجديد الإفصاح عن المعنى، والخروج من دائرة الطّلسم، والتّحرّر من الدَّوران في مجرّة التّبانة. وهُم في هذا الأمرِ يُشبهون حتّى روّاد التَّنوير العرب الأوائل بمن فيهم طه حسين، الَّذي حينما فكّر في التَّجديد نكصَ على عقبيه ورجعَ إلى الشّعر الجاهليّ.

هذا النّكوص سببُه ما يعانيه الفكر العربيّ ومعظم المفكِّرين العرب من مشكلة في الهويّة الثّقافيّة، فهم يحاولون دائماً أن يؤكِّدوا انتماءهم إلى مجتمع له تاريخ أصيل وعريق، فتجدُهم تارة يعودون إلى فكر المعتزلة مثلاً وتارةً إلى الفكر الأشعريّ دون التَّسلّح أبداً بنظرة مستقبليّة تكون بالعمق القادر على التَّوغّل في الأحداث وتغييرها، وذلك لأنّ المستقبل بالنّسبة لهم يوجد في الماضي. لا أحدَ يفكّر في المغامرة، أو الهدم من أجل بناء صروح فكريّة جديدة تماماً.

أمّا بالنّسبة للتنويريّ الإباحيّ، فأعني به ذاك الّذي عانقَ من الفكر الغربيّ ما يعرّي الجسدَ، ويشبِقُ الرُّوحَ، فأصبح كلّ همّه الدُّخول إلى المنظومة الأنثويّة العربيّة من أجل زعزعتها من الدّاخل عبر الفكر الإباحيّ، الّذي لا يهتمُّ بتعليم المرأة وتثقيفها والعناية بحقوقها وما إلى ذلك، بقدر ما تعنيه جدّاً استباحة جسدِها قبل كلّ شيء. وهذا ما يفسّر فشل مشروع التَّنوير في العالم العربيّ بشكل عامّ، لأنّه تجاهلَ مطالب الجماهير الشَّعبيّة واحتياجاتها، وركّز فقط على نخبة قليلة ممّن يدّعون الثَّقافة والعلم، فكانت النّتيجة أن ظلّ معزولاً عن الشّعب وقضاياه الحقيقيّة، إلى أن ظهر شيءٌ اسمه داعش كدليل على سيطرة العنف في التَّفكير العربيّ، وعلى غياب العقلانيّة، هذا الغياب الّذي يكرِّسه النّظامُ التَّعليمي في كافّة المؤسّسات بدءاً من المدارس الأولى وصولاً إلى التَّعليم الجامعيّ، الّذي أصبحت مهمّته قهقرةُ الطّالب عبر مناهج تقتلُ فكرهُ الخلّاق والإبداعيّ، لترمي به في الختام هو وشهاداته إلى الشَّوارع ليعانيَ البطالة والفقر والتَّهميش.

لأجلِ هذا لا أرى سلاماً في الأفق، وإنّما حروباً قادمةً أكثر شراسة وضراوة من الحروب السّابقة، لا سيما وأنّ الفكرَ الإنسانيّ اليوم أصبح موجّهاً نحو العلوم الحربيّـة أكثـر مـن أيّ شـيء آخـر، وكيـف لا، وحتّـى الجيـوشُ ستصـبح جيوشـاً إلكترونيّـة، والغزوات القادمـة ستكون فـي الفضـاء، لأنّ الأرض لـن تصـبح صـالحة للعيش لفترة طويلـة مـن الزَّمن، وسيضـطرُ مـن سيتبقّى مـن النّـاس إلـى المغـادرة؟! ولمـن يشـكُّ فـي هـذا الأمـر، أقـولُ لـه: ابحـث عـن أختنـا النّحلـة، واسـألْها، فـلا شـك ستخبركَ عـن موتهـا القريـب، وعـنْ كيـفَ سيعوّضُـها الإنسـانُ بسـبب غبائـه الشّـديد بالنّحل الإلكترونيّ، الّذي سيكونُ المؤشّرَ الأخير على حلول النّهاية.

٧٢. بمناسبة حديثك عن نهاية العالم وربطك لها بانقراض النّحل، هل يمكنكِ أن توضّحي أكثر للقارئ العزيز تفاصيل هذه الرُّؤية؟

الحديث هُنا عن نهاية العالم ليس من منظور ديني أو لاهوتي بقدر ما هو من منظور علميّ، فمنذ القدم كانت النّحلـة هي أمّ الكون، لأنّها مُلقّحتُـه، والمسؤولة عن ظهور مملكـة النّبـات والحيوان وكذا الإنسـان. لذا فـإذا انقرضـت هـيَ انقرض وانتهى كلّ هذا الملكوت. لن يبقى هناك نبات تتغذّى عليه الحيوانات العاشبة، ولا خضـر ولا بقـول ولا قطـانيّ ولا فواكـه يتغـذّى عليهـا الإنسـان، وبهـذا سـيختفي الكـلّ مادامت سائر المنظومات الغذائيّة في الكون مرتبط بعضها ببعض.

النّحلة كائنٌ مخلوقٌ وخالِق: مخلوق بنفخ قدسيّ من الرّحمن ومرتبط بـالنُّور والشَّمس، وخـالق لأنّـه هو من يخلُق الطّبيعة بـالتّلقيح، ويساعده في ذلك عدد آخر من الحشرات الملقّحة. الأشجار هي ابنة النّحلة، والأزهار كذلك، والطّيور وما إليها. وهـي لأجـل أهمّيتهـا هـذه ذُكـرتْ فـي العديـد مـن الكتـب المقدسـة، والقـرآن الكـريم خصّـص لهـا سـورة بكاملهـا تحمـل عنـوان (سـورة النّحـل). وهنـاك مـن الفلاسـفة والقدّيسين مـن لهم علاقـة خاصّـة بالنّحل، كـأفلاطون الّـذي كـان النّحـلُ يأتيـه فـي

طفولته ويضع له العسل في فمه. وكان يدعو الله قائلاً: ((يا روحانيّتي المتّصلة بالرُّوح الأعلى، تضرعي إلى العلّة الّتي أنت معلولة من جهتها لتتضرّع عنّي إلى العقل الفعَّال في صحّة مزاجي ما دمت في عالم التّركيب)). وكذلك القدّيس أمبروز أسقف ميلانو الّذي أتته أسراب من النّحل حينما كان طفلاً صغيراً فدخلت إلى فمه وخرجت منه وطارت إلى الأعالي دون أن تلحق به أيّ أذى، وما كان من والده سوى أن قال حينما رأى هذا المنظر العجيب: ((سيكون لهذا الطّفل شأن عظيم)). ولا يفوتني طبعا أن أذكر القدّيسة ريتّا دي كاسيا وحكايتها مع النّحل الأبيض وهي طفلة رضيعة، إذ ذهبت والدتها ذات يوم لتعمل كعادتها فى الحقول فوضعتها تحت ظلِّ شجرة ثمَّ مضت، ولدى عودتها تجمّدت الأمّ في مكانها من الخوف حينما رأت مجموعة من النّحل الأبيض تدخل فى فم طفلتها ثمّ تخرج منه بصورة مستمرة فخشيت إن هي أتت بحركة ما أن يشتدّ هيجان النّحل، فوقفت صامدة صابرة، وهي تنظر بإعجاب شديد كيف أنَّ هذا النَّحل لم يأتِ لإيذاء صغيرتها، وإنّما كان يدخل فى هدوء شديد ليدهن حلق الطِّفلة بالعسل ويخرج منه كما دخل، وكانت الطِّفلة تتذوَّق ذلك العسل فى طمأنينة وفرح.

وعسل النّحل فيه شفاء للناس، مصداقاً لقوله عزّ وجلّ في محكم كتابه ((ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا، يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)) (سورة النحل، آية ٦٩). وهو لهذا يحبُّه العرفاء والمتصوّفون، إذ يعتبرونه شراب الحكمة والعلوم اللّدنيّة. لكنّ الإنسان في غمرة انسلاخه عن خالقه، نسي النّحلة أمّه، وألحق بها الأذى، وكما قتل الخالقَ بداخله، فإنّه مُقْدمٌ على قتل كلّ النّحل بسبب ما يدّعيه من تقدّم علميّ وتكنولوجيّ. النّحلة أصبحت اليوم تموتُ بسبب المبيدات الحشريّة الّتي يستخدمها الإنسان في الحقول، وبسبب الإشعاعات القاتلة الصّادرة عن كلِّ الأجهزة الإلكترونيّة الّتي أصبح لا يستغني عنها في حياته اليوميّة بما فيها الهاتف الجوال، وبسبب

تلوُّث الطَّبيعة ومرضها جرّاء الغازات الكيماويّة السَّامّة المستخدمة في مجالات الصّناعة وتكرير البترول والفوسفات وما إليهما، وكذا الغازات المدمّرة الَّتي تخلّفُها الحروب وتطلِّقها الطّائرات والمدفعيّات، كلّ هذا قضى على النَّحلة، وأربك نظامها الدَّاخليّ في الخليّة وخارجها، هي وكلُّ من معها من بقيّة الحشرات والحيوانات بين أسماك وطيور.

هكذا أصبح الإنسان: قاتلاً سفّاكاً من الدَّرجة الأولى. بل كائناً مريضاً في الرّوح والعقل، ولا أحد له القدرة على أن يضع حدّاً لهذا الهوس والجنون الّذي لن يقوده سوى إلى الهاوية. فهل سندقُّ أجراس الخطر؟ هل من مُدّكِر؟!

٧٣. متى سيتمُّ التَّركيز في العالم العربي على بناء طفل طبيعي، بعيداً عن لغة العنف والعنف المضادّ؟

لا يوجد طفل طبيعيّ في العالم العربيّ، وذلك بسبب غياب الآباء الطبيعيّين، أيْ الخالين من الأمراض النّفسيّة والعقليّة. كم يثيرُ استغرابي كيف أنّه قبل عقد القران، يطلبُ الكاتبُ العدلُ شهادات عدّة كشهادتَيْ العذريّة والعزوبيّة، وشهادة عدم الإصابة بمرض الإيدز مثلاً، لكنّي لم يسبق لي أن سمعتُ أو رأيتُ ولا حتَّى في العالم الغربيّ أحداً يطلبُ من العروسَين شهادة السَّلامة النَّفسيّة والعقليّة.

يتزوَّجُ الرَّجل والمرأة في العالم العربيّ وكلّ منهما يحملُ بداخله عالماً من العُقد والمشاكل وغسيل الدّماغ الإيديولوجي الّذي لا أوّل له ولا آخر، ويعتقدُ الجميع بمن فيهم الأهلُ أنّ الحياة تمشي هكذا كما ينبغي لها أن تمشي وكما سار على دربها من سبقهُم من الأجداد، ودون أن يعيَ أحدٌ منهم بالخطر النَّائم في العقول والقلوب، إلى أن يولدَ طفلٌ مَا ويهلّ ضيفاً جديداً يفرح لمقدمه الجميع، وما إن يكبر شيئاً فشيئاً حتَّى يبدأ والداه يشكّلانهِ وفقاً لما يحملان بداخلهما من عُقد واضطرابات نفسيّة، فتجدُ الأبَ يضربُ طفله بقسوة وهو يعتقدُ أنّه هكذا يربّيه، وتجدُ الأمَّ ليست

لديها أدنى فكرة عن الحياة ولا التَّدبير المنزليّ، ولا عن كيفيّة تغذية طفلها أو توعيته سوى أنّه يجبُ من وجهة نظرها أن يصبح رجل البيت القائم على أمر أخواته البنات بعد أبيهم. وتمرّ الأيّامُ والسُّنون ثمَّ يذهبُ الطّفلُ إلى المدرسة وهناك يجدُ في استقباله مجموعة منَ المعلّمين والأساتذة المجانين الَّذين يصرخون طوال الوقت، ويعاقبون الأطفالَ على كلِّ صغيرة وكبيرة، ويضربونهم تارةً بالعصا الطَّويلة وتارةً بالعصا المطّاطيّة، ويتفنّنون في تعذيبهم جسديّاً ونفسيّاً أمام زملائهم الآخرين، ولمن يُنكرُ هذا أذكّره بمدارس التَّعليم العمومي في السَّبعينيّات والثّمانينيّات، لأنّهُ في السّنوات الَّتي أتت بعدها بدأتِ المدارسُ في العالم بأسره تعرفُ نوعاً آخر من المشاكل بما فيها التّحرّش الجنسيّ واغتصاب الأطفال، وتنمُّر التّلاميذ وانتشار العنف فيما بينهم، حتّى أنّه في بعض المدارس الأمريكيّة يطلقون الرّصاصَ على بعضهم بعضاً، ويصفّون بعضهم بعضاً.

الطّفلُ يتنفَّسُ العنفَ في كلّ مكان: في البيت، في المدرسة، في الشَّارع، في وسائل التَّرفيه كالتِّلفزيون والإنترنيت وألعاب الفيديو، وقد يحدث أن يكبرَ هذا الطّفل ويصبحَ رجلاً سياسيّاً أو حاكما، فتصابُ بنتائج أمراضه وعُقده الشُّعوب. وإلّا من يشرحُ لنا من أين أتى الطُّغاة في العالم العربيّ وغيره؟ ألمْ يكونوا أطفالاً هم أيضاً في زمن من الأزمنة؟ بل من أين نبعت كلّ هذه الحروب الَّتي يشعلونها في كلّ مكان من الأرض؟

ثمّة مشاكل أخرى يتفادى الحديثُ عنها معظم النّاس، لا أحد يعرف كيف يمكنُ لطفلة أن تعاني من غيرة أمّها وحقدها عليها حينما تكبر وتصبح شابّة! سيقول أحدكم، مستحيل، هذا لا يمكن أن يحدث. لكنّ الحياة مليئة بهذا النّوع من الأمّهات الحقودات. ولا أحد يمكن أن يشرح كيف أنّ هناك من الآباء من يرى في الأبناء مشروعاً لتحقيق أحلامه الّتي فشل هُو في تحقيقها، فتجده بالتَّالي يوجّه طموحاتهم وفقاً لرغباته الدَّفينة لا وفقاً لرغباتهم وميولاتهم. ثمّ ماذا عن معاناة

الأطفال من الفقر، والحروب، وسوء التَّغذية، وتشغيلهم على الرُّغم من صغر سنِّهم؟ وماذا عن الأطفال الّذين يُتاجرُ الكبارُ بأعضائهم، وعن أطفال الشَّوارع؟ من يعتني بهؤلاء؟

هناك مشاكل عدّة تعاني منها الطُّفولة في العالم، ولا يمكننا أن نتجاهل كلّ هذا الألم، ونتحدّث فقط عن الجوانب الإيجابيّة في الحياة.

أتساءل دائماً، كيف وصل الإنسان إلى هذا النَّفق المسدود؟ ولماذا هذا الصَّمت القاتل؟ بل كيف أقدمَ النّاسُ على قتل الطُّفولة وإيذائها بهذا الشّكل المريع؟ عبثاً يدّعي البعضُ الكتابةَ للطفل وعن الطّفل وقلوبهم متكلّسة من شدة القسوة والجبروت، ففي العالم العربي لا يوجد شيء اسمه أدب الطّفولة مثلاً، ولا فنٌّ سينمائي يؤنس وحشة الطّفل، وقلّة هم أولئك الّذين يفكِّرون حقّاً في الطّفل والطُّفولة.

الأطفال يموتون كلّ يوم، ولا أحد يعتني بأحد إلَّا من أجل جمع الأموال في حفلات خيريّة تقام بهدف تمويل الحروب تحت غطاء العمل من أجل الطّفل والسّهر على سلامته وصحّته.

مَن سيدخلُ ملكوت الله، ووجوه الأطفال مضرّجة بالدِّماء؟ لا أحد! ليس بسبب غضب الخالق، وإنّما بسبب موت الطّفل الّذي يحمله كلّ إنسان بداخله، قبل الطّفل بالأبوّة والأمومة والولادة.

شاخ النّاسُ وقست القلوب، ولم يعد فيهم أحد يتذكّر طفله الدّاخليّ، لذا فإنّ كلّ طفل يولد لا يرى فيه أحد تجلّياً إلَهيّاً. ولا أحد يستوعب أنّ أكثر النّاس قرباً من الخالق هو الطّفل، لأنّه يأتي من هناك، من الملكوت نقيّاً طاهراً وبريئاً، ولا يعرف شيئاً عن عالم الكبار، إلى أن يخرجَ من عدَنِ والدته حيث كان يتغذى وينام بدون كدّ ولا عمل ولا تعب، ليكتشف أنّ كلّ ما عليه أن يقوم به في هذه الحياة حقيقة: هو السّعي ما أمكن للحفاظ على طفولته الدَّاخليّة وعلاقته بوطنه الأوَّل مهما كانت تجاربه قاسية ومريرة.

وحدهُم الأطفالُ الكبارُ يستطيعون فهم ما أقوله، ووحدهم أولئك الَّذين تمكّنوا من حماية طفلهم الدّاخليّ من الضّياع يستطيعون أن يعرفوا معنى الطّفولة حقّاً، لأنهم مثلي سيحاولون أن يحتفظوا ببارقة أملٍ، تُذكّرهم بأنهُ لمْ يفتِ الأوان بعدُ من أجل بناء إنسان جديد بقلب طفلٍ وعقل قدّيس حكيم!

٧٤. قراءاتُكِ بدون أدنى شكّ غزيرة في مجال الأدبِ المُعاصر، ولقدْ تناولتِ بالنّقدِ والتَّحليل العديدَ منَ الأسماء الأدبيّة منْ كِلا الضفّتين العربيّة والغربيّة في كتابك النّقديّ الجديد (كواكب على درب التبّانة)، ما رأيكِ في كتاباتِ الرّوائية التركيّة "ألف شفق"، ولا سيَّمَا منها تلكَ ذات الطّابع العرفانيّ؟

هذه الرِّوائيّة مثيرة للحيرة والأسئلة المتجدِّدة باستمرار: يقولون إنّ الصُّوفيّة هي ما تطبعُ معظم إبداعها الرِّوائيّ، وهذا بحدّ ذاته معضلة بالنّسبة لي، لذا وجب البحث والتَّقصّي وراء حرفها، بل وراء كلّ تفصيل يخصُّ نهجها العرفانيّ هذا. ها هي صورتُها بل صُوَرها أمامي الآن؛ نظرةُ حزن دفينة في عينيْها، وحزنُها بحجم جبلٍ فيه بركان. جسدُها نحيف جدّاً، وكل خليّة فيه تقتاتُ من نفسها. إنّها روح قلقة جدّاً جدّاً، وفوضويّة إلى أبعد الحدود، لكنّ هذا لم يمنعْها من أن تكون في الوقت ذاته مسكونة بنظام بلْ بدقّة من ذاك النّوع الّذي يُصابُ به المهوسون بالأشياء المرتّبة بعنايةٍ فائقة! إنّها باختصارٍ تتمتّعُ بقدرةٍ هائلة على الجمع بين المتناقضات: فوضى في نظام، سكينة في قلق، صباح في ليل، وتراتيل روحيّة في صخبٍ من موسيقى الرّوك، ولوحة دافينشيّة بريشة سرياليّة سالفادوريّة ... وكلّ هذا يُحَفّز على البحث أكثر وأكثر، أيْ عنْ هذا النَفَس الصُّوفيّ الّذي تغوصُ في حروفه رواياتُها، وما مدى عمقه وقوته وصلابتِه؟

ألِف وشفَق مُترجمَيْن هكذا إلى اللّغة العربيّة هُما اسمها ولقبها، وليس أليف شافاق، ولا أليف شافاك كما عادة نراه مكتوباً على أغلفةِ رواياتِها المترجمة إلى

اللّغة العربيّة: ألِف هو أوّل حروف الأبجديّة، وشفق هو الشّفق الأبيض الّذي يُحدِّدُ اقتراب موعد صلاة الفجر. وفي اسمها تكمُنُ حقيقتُها، إنّها ابنة الفيلسوف "نوري بيلغين"، ووالدتها هي المرأة الدِّيبلوماسيّة "شفق أتيمان"، وكما يبدو جليّاً فإن الأديبةَ ألِف قد تنازلتْ عن لقَب والدها بيلغين وجعلتْ من اِسْم أمّها لقباً لها، وهو أمر قد صرّحتْ به أيضاً في روايتها البيوغرافيّة (حليب أسود) حينما قالت:

((على أيّة حال، قرَّرتُ أنّه ليس عليّ أن أذهب بعيداً. في الواقع ليس عليّ الذّهاب إلى أيّ مكان. من الأفضل لي النّظر إلى ما لديّ هنا والآن. عوضاً عن حمل لقب أبي، قرّرتُ أن أحمل اسم أمِّي؛ اسمها الأوَّل سيكون لقبي)).

كونُ الأديبة تحمِلُ لقبَ أمّها فهذا يعني انتصاراً لبناتِ جنسها، وهذا ما يفسّرُ أيضاً اهتمامها بالقضايا النَّسويّة، وبالكتابات الجندريّة، حتّى أنّ الشَّخصيّات الرَّئيسة في معظم أعمالها نسائيّة. وهذا الاختيار لهُ امتداد ضارب في طفولتها البعيدة: إنّها ابنة لوالدين انفصلا وهي بعْدُ في السَّنة الأولى من عمرها، وكبُرتْ وحيدةً بدون أب، ممّا رسخ نظرتها السّلبيّة تجاه الصُّورة الأبوسيّة وجعلَها تتعاطفُ مع أمّها وتعتنقُ قضاياها وقضايا النّساء مثلها.

ألِف شفَق هي كلّ رواياتها، إنّها حاضرة في كلّ شخصيّاتها، قرأتُ لها (قواعد العشق الأربعون)، و(الفتى المتيّم والمعلّم) و(لقيطة إستنبول) و(حليب أسود) وهالني جدّاً كيفَ أنّ معظم النقّاد وصفوا رواياتها بالعرفانيّة والتَّصوّف؟! أعتقد أنّه ثمّة فرقاً جوهريّاً كبيراً بين أن يكون الإنسانُ متصوّفاً وبين أن يكونَ هاوياً للكتابات الصُّوفيّة ولأهل التَّصوّف الأوائل من قبيل جلال الدّين الرُّومي وشمس الدّين التَّبريزي وابن عربي وغيرهم. وهذا هو الأمر الّذي حدثَ لألِف في معظم كتاباتِها، أيْ نعمْ، هيَ ذاتُ دراية متعمّقة بالتَّصوّف وأهله وكلامِهم وعلومهم، وهذا يدخل في إطارِ ثقافتِها الغزيرة والمتنوّعة، ولكنّهُ لا يعني أبداً أنّها اكتشفتْ حقّاً وحقيقةً مركزَ الكونِ الّذي كثيراً ما تتحدّثُ عنه في رواية (الفتى المتيّم والمعلّم). ألِف كما العديد

من أدباء الكتابات "الصُّوفيّة" المعاصرة سقطتْ في فخّ التّسويغ والتَّبرير، ونسيتْ أنّ التَّصوفَ ينبني على ركيزةٍ (اترك نفسك واتبعني)، و(طهّر قلبكَ لتراني)، والصُّوفيّون الأحقّاء لا يُسَوّغون ولا يبرّرونَ الرّذيلة أبداً، وإنّما يطهّرون القلبَ منها، وهي في معظم رواياتها بما فيها (قواعد العشق الأربعون) سوّغَتْ ما حرّمَ الله، واعتبرتْ تطوّرَ علاقة إيلّلا بعزيز زاهارا عشقاً مع أنّ الأمر برمّته خيانة زوجية تتشابكُ فيها الأحداثُ ولا تخرجُ عن إطار العواطف البشريّة والقرارات الصّعبة الّتي غالباً ما يعانيها عامّة النّاس في مواقف شبيهة بالّتي وصفتْها ألِف في روايتِها، وزاهارا وإن أصرّتِ الرّوائيّةُ على نعتِه بالصُّوفيّ ما هو إلّا من عامّة النّاس لا أقلّ ولا أكثر، ولمْ تفلح كلّ تقنياتها الإبداعيّة في إظهاره بخِرقة الصُّوفيّ الحقّة، فلا إصابتُه بالسّرطان شفعتْ لهُ، ولا كتابتُه عن جلال الدِّين الرُّومي وصاحبه الرُّوحي شمس التّبريزي، لكن هذا لمْ يمنعْ مِنْ أن تظهَرَ مِن حين لآخرَ بعضُ بارقاتٍ منْ مواقف صوفيّة حقيقيّة مبنيّة على عنصر التّطهير بنار العشق في روايتِها هذه كتلك التي جسّدتْهَا من خلال موقف شمس التَّبريزيّ مع فتاة اللَّيل (وردة الصّحراء) الّتي كانت غير راضية في قرارة نفسها عن حياتها الملوّثة بالرَّذيلة فرغبت في تطهير نفسها، والسّعي إلى حضور دروس جلال الدِّين الرُّومي، إلى أن ساعدَها شمس الدِّين نفسه على خلع رداءِ ذاتها، والذّهاب برفقته إلى عالم العشقِ الوجوديّ.

فخّ تسويغ ما لا يُسوَّغ ظهرَ بشكل جليّ حتّى في رواية (لقيطة إستنبول)؛ حينما حاولتِ الرِّوائيّةُ تسويغَ أفعال زليخة وكذا ابنتها آسية باعتبار أنّهما ضحيّتان لقضيةٍ شائكة جدّاً هي زنا المحارم والاغتصابات الّتي تحدثُ بين أسوار المنازل وبين أفراد العائلةِ نفسها: حياة الجحيم لا تحتاجُ لتبرير ولا لتسويغ، يجبُ وصفُها كما هي فقط، دون إقحام القارئ في أيِّ نوع من أنواع الابتزاز العاطفيّ. زليخة لمْ تكن مخطِئة، ولا ابنتها آسية وتبقى الظُّروف هي من ساهمتْ في خلق هذا النَّوع من السَّعير الاجتماعيّ الّذي كما أحرقَهُما أُمّاً وخالةً لابنتها أحرقَ أيضاً الأخَ الّذي

اغتصبَ أختَه، والّتي حبلت منهُ بعد هذا الحادثِ الشّنيع. لا يفوتني أيضاً أن أشير إلى أنّه، -إلى جانب هذه المآخذ-، هناك ثغرات أخرى تقَعُ ألِف في فخّها دائماً: كثرةُ الشّخصيّات في رواياتِها بشكل مبالغ فيه، ثمّ كثرةُ الحكايات المتشابكة الواحدة تلو الأخرى حتّى أنّ المتلقّي يشعرُ أحياناً أنّ أحجياتها لا تنتهي أبداً، ولربّما هي محشوّة حشواً من أجل الزّيادة في حجم الصّفحات لتعطي للعمل طابعَ الرّواية الضّخمة، وكثرةُ استعراضها لقراءاتها عبر إدراج العديد من أسماء الكتب والرّوايات ومضامينها في إطار ما يسمّى بالميتا سرد، ولو أنّها استغنتْ عن هذا الأمر لكان أفضل للبناء السَّرديّ لرواياتها.

تميلُ ألِف إلى الدّفاع عنِ "الأقلّيات" وتناولُها لقضية الأرمن في (لقيطة استنبول) كان رائعاً وعميقاً بكلّ المقاييس من خلال شخصيّة الفتاة أرمانوش الأمريكيّة ذات الأصل الأرمنيّ الّتي قضَت عمرها في محاولة البحث عن جذورها إلى أن ذهبت للقاء قازنجي، أو أسرة زوج أمّها في تركيا وفتحتْ مع نسائها حواراً عميقاً باحثة عندهنّ عن اعتذار تركيّ عن مجازر الأرمن، وهو الأمر الّذي لم يتحقّق فعليّاً على الرّغم من تعاطف نساء الأسرة معها، إذ لا صلة لهنّ بمرتكبي تلك الجرائم التّاريخيّة. وإنّي لأعتقدُ أنّ ألِف بلغتْ ذروة الإبداع حينما أدرجت الجانب الميتافيزيقيّ والسّحريّ في روايتها هذه عبر الرّكون إلى عبق الأجداد وإرثهم سواء من خلال شخصيّة الجدّة "ما الهيفاء"، أو الخالة "بانو"، ولو أنّي أرى في كلا الشّخصيتيْن انصهاراً كبيراً يذكّرني بالجدّة الحقيقيّة للكاتبة الّتي كانت قارئة فنجان ومداوية روحيّة تحدّثتْ عنها في الكثير من لقاءاتها الصّحفيّة وعن مهاراتها في إذابة الرّصاص وفكّ السّحر ومعالجة بعض الأمراض، ممّا يجعلني أرى شخصيّة آسية قريبة أيضاً من الكاتبة باعتبارها هي أيضاً كبرتْ مثلها بدون أبٍ، ووحيدة مع أمّها الّتي كانت تتنقلُ بها من بلدٍ إلى آخر بسبب عملها الدّيبلوماسيّ.

إلـى جانـب الدّفاع عن الأقلّيات الإثنيـة فإنّها أيضـا تدافع عن "الأقليّات" الجندريّة، وتهتمّ بقضايا المثليّين، ولو أنّني مازلتُ أرى أنّه ينقصُها الكثير منَ العمق في تناول هذا النّوع من القضايا وإن كانت تدّعي أنّها من المثليّين، وتميلُ جنسيّا إلى كلا الجنسيْن رغم زواجها من أيّوب، وأمومتِها لطفليْن هما شهرزاد زيلدا، وأمير زاهر.

ما من شكّ أنّ ألِف تتمتّعُ بمهارات روائيّة فائقة، أهمّها من وجهة نظري، قدرتُها على ضبط المعمار الرِّوائيّ بشكلٍ لا يضاهيها فيه أحد، وقد ظهر هذا جليّاً في روايتها (الفتى المتيّم والمعلّم)، والّتي اعتبرُها عرفانيّاً أكثر نجاحاً وعمقاً من رواية (قواعد العشق الأربعون)، وذلك لأنّ أحداث الرّواية وشخصيّاتها التّاريخيّة مكنّتها منَ الإفصاح عن الجانب الرّوحيّ فيها من خلال طريقةِ وصفها وحديثها عن سيرة أشهر معماريّي تركيا الخوجة معمار سنان وتلميذه جهان مرّوض الفيل الأبيض ومتيّم الأميرة مهرماه. وإنّي أعتقدُ أنّ الرّوائيّة ألِف نجحتْ في هذه الرِّواية بالذّات بشكل أكبر، لأنّ فنّ الرِّواية بالنّسبة لها كالكونِ؛ موقعَ بناء كبيرٍ على الأديب أن يكونَ واعياً بكلّ ما يحتاجه فيه من موادّ للبناء، وتصاميم هندسيّة جيّدة تكفلُ له الصُّمود إلى أطول فترةٍ ممكنة. إضافةً إلى هذا، راقني جدّاً في روايتها هذه كيفَ أنّها وصلت الشّرقَ بالغرب عبر حديثها عن إيطاليا كبلد المعماريّين الكبار بامتياز بدءاً من ميكيل آنجلو بوناروتّي الّذي ذهب إلى لقائه جَهان بتكليف من معلّمه سنان، وصولاً إلى دانتي أليغييري أبُ الأدب الإيطاليّ وسيّد معماريّي الشِّعر والأدبْ في العالم برمّته والّذي كان من الواجب على التّلميذ جهان أن يقرأ كوميدياه الإلهيّة ويتعلّم اللّغةَ الإيطاليّة كشرطٍ أساسيّ لبلوغ أرقى درجات الإبداع والكمال في مجال الهندسة والمعمار، وبناء المساجد الكبرى والجسور العظيمة عبر الإفادة من خبرات سادتها الإيطاليّين.

أعتقد أنّ أَلِف شفَق بشكل أو بآخر، لا تستطيعُ التَّخلّصَ من شخصيَّاتها بسهولة، وأقول هذا لأنّي رأيتُ الكثير منهَا يعودُ إلى الظّهور في روايات أخرى من المفترض أنّها تتحدّث عن أشياء جديدة لم يسبق لها أن تطرّقت إليها، مثلاً شخصيّة سنان نفسه الَّذي عاد إلى الظُّهور في رواية (لقيطة استنبول)، ضمنَ حديثها عن الانكشاريِّين الأرمن، إضافةً إلى مشكلة تكرار بعض التِّقنيات السَّرديّة في أكثر من رواية كتقنيّة القواعد الّتي ظهرتْ سواء في (قواعد العشق الأربعون) أو في (لقيطة إستنبول) و(حليب أسود) من خلال قواعد الكاتبة الشّابة العازفة عن الزَّواج وقواعد آسية قازنجي الَّتي تقولُ في إحداها: "إذا لم تتمكَّني من إيجاد سبب كي تحبّي الحياة الَّتي تعيشينها، فلا تتظاهري بأنّك تحبِّين الحياة الّتي تعيشينها"، "إنَّ الأغلبيّة السَّاحقة من النَّاس لا يفكّرون مطلقاً، والّذين يفكّرون لا يصبحون الأغلبية السّاحقة أبداً، فاختاري في أيّة فئة تريدين أن تكوني".

وختاماً، أقولُ إنّ أَلِف كالفرجار، لها رجل ثابثة في إستنبول، ورجل أخرى تحوم حول العالم، تحاولُ أن تدخل بها كلّ دوائره وأبوابه المغلقة. لقد أنقذتِ الكتابةُ تلك الطّفلة الانطوائيّة الخجولة الَّتي كانتْها أَلِف منذ سبعٍ وأربعين سنة. وليسَ هذا فحسب، فالكتابةُ بالنّسبة لها هي توأمُها الرُّوحيّ، وهي في حياتها شيء شبيه بما حدثَ حينما التقى جلال الدِّين الرُّومي بتوأم روحه شمس التَّبريزي الَّذي ألقى بكتبهِ في الماء وجلس يشاهد الحروف تتلاشى، ثمّ قال لهُ: ((العِلمُ الّذي لا يأخذكَ أبعد من ذاتك هو علمٌ أسوأ من الجهل)).

٧٥. هناك العديدُ من الجوائز الَّتي تُخَصّصُ لتكريم نتاجاتِ الأدباء في مجالاتٍ إبداعيّة شتّى، شِعْراً كانت أو نقداً أو روايةً، ما رأيكِ بالرّوايات الَّتي تحصلُ على هذا النَّوع من التَّكريم العالمي؟!

أن يحصلَ عملٌ إبداعيٌّ ما على جائزة عالميِّة، لا يعني بالضُّرورة أنّه جيّدٌ في جوهره؛ ثمّة العديد من الرِّوايات الَّتي حصدت هذا النَّوع من الجوائز لكنّها لا تعدو أن تكون مجرّد قطعة من جبال النِّفايات الَّتي تتراكمُ كلّ يوم في المخزون الفكريّ للإنسان المعاصر بكلِّ تناقضاته وخيباته المريرة الَّتي لا تُعدُّ ولا تُحصى، إلّا أنّ هذا لا يعني عدم وجود بعض الاستثناءات الّتي شملتْ روايات تمّ تكريم أصحابها عن جدارة واستحقاق وعُدّتْ بالتَّالي علامةً فارقة في تاريخ الرِّواية العربيّة والعالميّة على حدّ سواء، وقد كتبتُ عن بعض هذه الرِّوايات مقالاتٍ نقديّة تناولتُ فيها بالدِّراسة أعمالاً للروائيّة السُّورية لينا هويان الحسن من قبيل (سلطانات الرمل) و(نساء وألماس)، دون أن تفوتني طبعاً الكتابة عن رواية (مقتل بائع الكتب) للروائي والنَّاقد العراقي الرّاحل سعد محمد رحيم. وفي العام الماضي (٢٠١٧)، فازت بالجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) روايةُ (موت صغير) للأديب السعوديّ محمد حسن علوان، ولم أستطع قراءتَها مباشرةً بعد الإعلان عن فوزها وذلك لأنّني كنت منشغلة بتحرير الجزء الأوَّل من كتابي النّقديّ (كواكب على درب التّبّانة)، وكذا بالعمل على الجزأين الأوَّل والثَّاني من عملٍ موسوعيّ في التَّرجمة يضمّ إحدى عشر مجموعة شعريّة ترجمتُها من وإلى اللّغتيْن العربيّة والإيطاليّة لشعراء من مناطق مختلفة من العالم، فحدثَ أن أجّلتُ قراءةَ الرّواية ووضعتُها ضمن لائحة ما برمجتُ قراءتَهُ لعام (٢٠١٨) من كُتب، وأحمد الله كثيراً أن يسّرَ لي هذا الأمر، فكان أنِ اطّلعتُ فعلاً على (موتٌ صغير) في شهر نيسان الماضي/ ٢٠١٨، وقرأتُها لأكثر من مرّة؛ أوّلاً بعين المتعة، ثمَّ بعد ذلك بعيْن التَّحقيق والنّقد والتَّدقيق.

(موتٌ صغير)، عنوان ناجح، لأنه يثيرُ في القارئ السُّؤالَ ويحفّزه على البحث أكثر وأكثر، والمضيّ بالتَّالي قُدُماً في قراءة الرِّواية للوقوف على سبب هذه التَّسمية الَّتي قد تبدو غريبة في ظاهرها، إذ ليس فيها أبداً ما يدلُّ على أنّ الرِّواية هي بشكل أو بآخر "سيرة ذاتيّة" لسلطان العارفين الشّيخ الأندلسيّ محيي الدِّين بن عربي الحاتمي الطّائيّ.

تقعُ الرواية في ٥٩٠ صفحة، وقد صدرت سنة ٢٠١٦ عن دار السّاقي، جمعَ فيها محمد حسن علوان بين رحلة مخطوطة بدأت سنة ٦١٠ هـ في أذربيجان وانتهت سنة ١٤٣٣ هـ في بيروت، وبين "سيرة" محيي الدِّين ابن عربي بناء على مجموعة من الأحداث التَّاريخيّة والتَّفاصيل السَّرديّة المتسلسلة عبر اثني عشر سِفْراً.

تبدأ الرِّواية بعرض مشهدٍ لكوخ ضيّق مفتوح على كافّة احتمالات الطَّبيعة في قمّة جبل تدخل إليه الرِّيح الباردة في الشِّتاء ويتسرّب منه الماء في أوقات المطر، وتدخل إليه الهوام في ليالي الرَّبيع. وهو المشهد الَّذي يزرع القلقَ منذ أوَّل صفحات الكتاب لأنّه لا يوضّح بشكل جليّ من هو هذا الرَّاوي الَّذي يسكنُ الكوخ الصَّغيرَ ويتحدّثُ عنه الكاتب: هل مباشرة ابن عربيّ؟ أم هو عارف آخر حمل على عاتقه مهمّة الحديث عن ابن عربي، أم هو الكاتبُ محمَّد حسن علوان نفسه في كلِّ الحالات؟ فإذا كان هو ابن عربي فنحن نعلم أنّه بعد أن التقى بوتده الرّابع "شمس التَّبريزي"، وافته المنية في دمشق وهو يبلغ ثمانين سنة تقريباً ولم يكن في أذربيجان، اللَّهمّ إذا كان الأمرُ كلّه متخيّلاً من الكاتب نفسه، وعليه يمكن تقبّل هذه الثَّماني وعشرين سنة الموجودة كفرق بين لحظة بداية كتابة السِّيرة وبين انتقال ابن عربي حقيقة من ملطية إلى دمشق. أمّا إذا كان الأمر فيه حديثاً عن عارف آخر تولّى مهمّة قصّ سيرة ابن عربي، فإنّ القارئ سيكتشف مباشرةً بعد هذا المدخل أنّ الرَّاوي ليس بشخص آخر، وإنّما هو ابن عربي نفسه، أو لنقل بشكلٍ صريح هو الكاتب نفسه وقد لبس شخصيّة ابن عربي ليبنيَ فصولَ روايته الواحدة تلو الأخرى والقائمة

في معظمها على أحداث وشخصيّات ومشاهد هي من صنع خيال الرِّوائي البحث. وإذ أتحدَّثُ هنا عن خيال الكاتب، يتبادر إلى ذهني سؤال مهمّ للغاية: إلى أيّ حدّ خدمَ عنصرُ الخيال البناءَ المعماري للرواية؟

لا أعتقد أنّ عنصر الخيال قد خدم الرِّواية بشكل جيِّد بقدر ما دمّرها، وخلخل أركانَها. ربّما قد يجدُ القارئ العادي أو غير العربيّ الَّذي لا يعرفُ شيئاً عن محيي الدِّين وفكرِهِ وطريقته وحياته وتلاميذه وأسفاره، متعةً كبيرة في قراءة هذه الرِّواية، ولربّما ستبدو له من أفضل ما ظهر على السَّاحة إلى الآن لما فيها من أسلوب عذب ومرونة في السَّرد، وأقوال وحكم مستقاة من مخزون ابن عربي التَّعبيريّ، إلَّا أنَّها بالنّسبة لقارئ آخر قد يكونُ أكثر تعمّقاً ويعرفُ جيّداً من هو ابن عربي، وما تحويه كتبُه ومؤلّفاته، فإنّه سيجدُ الرِّوايةَ كارثة حقيقيّة على كافّة المستويات؛ وسأبدأ بعرض مواطن هذا الضّعف الّذي أشرتُ إليه على درجاتٍ:

١) بساطة اللُّغة: على قدر ما اختزنتهُ لغة محمَّد حسن علوان من جماليّة وعذوبة وجاذبيّة إلَّا أنَّ هذه البساطة هنا لم تخدم الرِّواية بشكلٍ بنّاء يجعلها ترقى إلى مستوى لغة العرفان والتَّصوف الَّتي اشتهر بها ابن عربي، والَّتي لم يكُنْ يملكُ مفاتيحها إلّا الخاصّة من أهل الفكر والكشف.

٢) تضارب الأزمنة وتداخلها: لم يستطع محمّد حسن التَّحكُّمَ بشكلٍ جيد وقويّ في أزمنة الرِّواية وخاصّة في الشّقّ المتعلّق بتدوين تواريخ الأسفار وأماكنها.

٣) تقنيّة الميتاسرديّة، أو انفجار السّرد الأصليّ وتفرّعه إلى حكايات أخرى تتداخلُ فيها الأحداث والشَّخصيّات والبنى الأسلوبيّة كانت هي الضَّربة القاضية الّتي زعزعت البناء الرِّوائي منَ الأعماق، خاصّة في حكاية المخطوطة الموازية الَّتي اضطرّتِ الكاتبَ إلى أن يكتب تفاصيلها بخطّ عريض أسود ليميّزها عن بقية فصول الرواية، فأريك بذلك القارئَ الَّذي لو حاول افتراضاً أن يحذف كلّ الصفحات المتعلّقة بها للَاحظ أنّ أمر الحذف لن يغيّر في مسار الرِّواية شيئاً أبداً، وهذا بالفعل ما قمتُ

به في البداية: إذ قرأتُ الرواية الأمّ بدون أن ألتفت إلى السَّرد الموازي لها، فلاحظت أنّ الأمـر لـم يـؤثر علـى مجمـوع الرّوايـة بتاتـاً. وحـدث أيضـاً أن عـدتُ لقصّـة المخطوطـة فوجدتُ حديثاً عن مخطوط قديم هو لابن عربي تناقله محبّوه ومريدوه منذ أن حفظه تلميذه سودكين في حلب عام ١٢٤٨، ووجدتُ أيضاً قصة تتحدّث عن الأستاذة الجامعيّة الفرنسيّة الّتي أتت بهدف شراء المخطوط من شاب سوري يقيم في بيروت حتّى تستطيع أن تضمّه إلى مجموع المصادر الّتي استخدمتها من أجل كتابة أطروحة الدكتوراة الّتي كانت بصدد إنجازها عن فكر ابن عربي وناقشتها فـي جامعـة السُّوربون معلنـةً أمـام لجنـة الامتحانـات اعتناقَها للإسلام بسبب تأثرها بابن عربي وكتاباته، وهو مشهد لم أستسغه إطلاقاً لما رأيتُ فيه من رسالة دعائيّة وإشهاريّة فاشلة كتلك الّتي يدّعيها معظمُ المثقّفين المقيمين في الغرب للتنصّل من دين أصبح في نظر الغربيّين دين حقد وكراهية ودم وإرهاب، واعتناقِ دين آخر هو "التَّصوُّف"، لأنّه لا يقوم إلّا على مبدأ الحبّ والمحبّة، بالضَّبط كما فعلتْ أَلِف شفق في العديد من رواياتِها، وكأنَّ الإسلامَ اليوم هُو تلك الشّاة الجرباء الَّتي باتَ يتهرّبُ ويخجلُ منها الجميع، ويعتنقون في مقابله "دينا" آخر لا يمتُّ إليه بصلة، ناسين أن عقيدة التَّصوف أو العرفان هي الوجه الحقيقي للإسلام، بل وجهه الأوَّل والأبديّ وما عداه ما هو سوى تحوّلاتٍ وتشوّهات مسّت المسلمين لا الإسلام كدين توحيد قائم على المحبّة والسَّلام والتَّسامح والفضائل والقيَم العليا.

٤) صورة المرأة:

جميل أن يعتني محمّد حسن علوان بصورة المرأة عند ابن عربيّ ويتحرّى عن أروع ما قاله بشأنها ويضمّنه فصولَ روايته، لكن وعلى الرّغم من ذلك تبقى طريقة تناول الكاتب لها غير كاملة من حيث أنّه قدّمَ مثلاً والدة ابن عربيّ بشكل مستكين سلبيّ غير فاعل ولا مؤثّر في الأحداث، أضفْ إلى ذلك أنّه تحدّث عن السِّيّدة فاطمة بنت المثنّى كمرضعةٍ له بشكل مقتضب جدّاً حاصراً دورَها في تلك

الَّتي شرحتْ له مفهوم الأوتاد، ودلّته على معنى تطهير القلب، مع العلم أنَّ السَّيّدة فاطمة بنت المثنّى القرطبيّة ليست بالشَّيء الهيّن أبداً، ولم تكن مرضعتَه بالمعنى الّذي وصفهُ الكاتبُ في الرّواية، وإنّما هي أمّه الرّوحيّة الَّتي تناول ابن عربي حياتها في (الفتوحات المكّيّة) باعتبارها شيختُه الأولى والأخيرة، الّتي تتلمذَ على يديها في بداية شبابه وكانت هي شيخة في الخامسة والتّسعين من عمرها، وخدمها عدّة سنين وقام هو واثنان آخران ممَّن تتلمذوا على يديها ببناء بيت صغير من قصب لها لتستطيع أن تعيش فيه وقد سكنت فيه حتّى وفاتها.

ولدت فاطمة في قرطبة وبدأت رحلتها الرُّوحانيّة في صغرها، وكانت تمارسُ مهنة الخياطة حتى أُصيبت في يدها ففقدت مصدر عيشها واضطرّت إلى العيش بقيّة عمرها في ظروف صعبة جداً، غير أنّها كانت تحمد ربّها وترى هذه المحنة نعمة، وقد تابعت رحلتها الإيمانيّة حتّى وصلت إلى درجة عالية من التّقوى والورع والعلم بالدِّين فكان يقصدها الكبار والصِّغار والرِّجال والنِّساء للتزوُّد من علمها ومن عشقها الإلهي. وكانت تقول: ((أعطاني حبيبي فاتحة الكتاب))، فكانت تقرأ الفاتحة بنيّة شيءٍ ما فيكون ذاك الشَّيءُ. وافتها المنيّة دون أن تترك كتاباً أو تبني قصوراً، لكن إرثَها الحقيقيّ ظلّ هُو الشَّيخ ابن عربي نفسه الَّذي دوّنَ حياتها في كتبه وقال عنها إنّها كانت رحمة لقاطني المعمورة، وإنّها الشَّيخة الّتي استطاعت أن تزرع في قلبه عشق المرأة واستيعاب دور الأنثى في الوجود بأسره.

من بين النّساء اللّائي تطرّق لهنَّ محمَّد حسن علوان في روايته، السَّيِّدة نظام قرّة العين ابنة الشَّيخ أبي شجاع زاهر بن رستم الأصفهانيّ، وهي الأخرى لم تفلتْ من شطحات الكاتب وخيالاته لدرجة أنّه صوّرها كمجرّد عشيقة تولّه بها الشَّيخُ وكتب فيها ديوانهُ (ترجمان الأشواق)، في حين تقول المصادر التَّاريخيّة إنّ نظاماً هي زوجة ابن عربي الأولى، ومن يطّلع على كتابه (محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار) سيجدُ كيف أنّ ابنَ عربي نفسه قد أشار إلى قرّة العين بِإسمها قائلاً:

((وكان لنا أهل تقرُّ العين بها، ففرّق الدّهر بيني وبينها، فتذكّرتُها، ومنزلها بالحلّة من بغداد)) ولا يخفى على أحدٍ أن كلمة (أهل) هنا تعني الزَّوجة، وعبارة (تقرّ بها العين)، تعني اسمَها قرّة العين نظام. وعلى كلٍّ حالٍ يبقى الأمرُ محيّراً حقّا كيف أنّ الكاتبَ سار على نهج بعض الفقهاء المغرضين وتركَ صورة نظام قرّة العينِ معلّقةً ومحفوفة بهذا الشَّكل من الضَّبابيّة، واكتفى بإعطائها رُتبةَ الوتد الثَّالث للشيخِ ليبَرّرَ عدم زواجها أو رفضها للزواج من محيي الدّين، ناسياً أنّه هكذا أساء للشيخ ابن عربي وكذا لزوجته الّتي لا نعلمُ سببَ وجودها آنذاكَ وإقامتها في الحلّة بدار العابدات، ووفاته هو في دمشق بعيداً عنها، على الرُّغم من أنّ هذا الأمر ليس بالغريب أبداً على وليّ سائح في ملكوت الله كابن عربيّ، إذ أنّه لم يكُنْ يعيش حتّى مع زوجته الثَّانية الزَّاهدة والعالمة مريم بنت محمَّد بن عبدون البجائيّ الَّتي على الرُّغم من عيشها بعيدة عنه، فإنّها ظلّت على ذمّته إلى أن وافتها المنيّة.

٥) تلاميذ ابن عربي وأبناؤه:

يُطلِقُ محمَّد حسن علوان العنانَ لخياله مرّة أخرى لينسج قصصاً بعيدة عن الواقع التَّاريخيّ الّذي تشهد به الكتبُ عن حياة تلاميذ ابن عربي، فغيّرَ في أسماء بعضهم، وتركَ أسماء آخرين على حالها، وتوسَّع في سرد بعض الأحداث بشأن أبنائه كما فعل مع ابنه الشَّاعر سعد الدِّين، وربيبه العارف صدر الدِّين القونوي الَّذي كان له دور كبير في نشر علوم الشَّيخ الأكبر في العالم بأسره.

ترك صدر الدِّين القونوي العديدَ من الكتب والمصنّفات منها: (تحفة الشّكور)، (تجلِّيات)، (الرِّسالة الهادية)، (شرح أسماء الله الحسنى)، ثمّ (كشف السّرّ). كمَا لم ينْجُ إسماعيل ابن سودكين من خيال الكاتب الَّذي شاء له أن يصبح بطلَ الجزء الموازي للسرد الرِّوائي الأصليّ والخاص برحلة المخطوطة الّتي وقعت أخيراً بين يدي الباحثة الفرنسيّة في بيروت.

كان ابن سودكين من تلاميذ ابن عربي المقرّبين حيث التقاه في مصر سنة ٦٠٣ ثمّ التزم معه وصاحبه حتّى وفاته، ثمَّ تابع على طريقه وأخذ يدرّس كتبه من بعده. ترك هو أيضاً العديد من الشّروحات والتَّعليقات على كتب الشّيخ الأكبر منها شرحه لكتاب (التَّجلِّيات الإلهيّة) الّذي قام الدّكتور عثمان يحيى بتحقيقه، و(لواقح الأسرار ولوائح الأنوار)، ثمَّ (هدية العارفين).

٦) لعبة الأوتاد

تقنية أو لعبة الأوتاد العرفانية كانت ناجحة جدّا في رواية (موت صغير)، وقد استلهمَها الكاتب من السِّفْر الثالث لفتوحات ابن عربي المكِّية، وبالضَّبط في الباب الخامس والعشرين منه، باعتبار أنّها كانت بالنّسبة له من الطّرق الذّكيّة الّتي مكّنتهُ من تتبّع أسفار ابن عربي وتنقُّلاته وكتاباته وكشوفاته الّتي كان يدوّنها وينشرها في كلّ مدينة كان ينزلُ فيها. ولقدْ توقَّفتُ طويلاً عند قصّة الوتد الرّابع، وتساءلتُ كيف أنّ محمَّداً حسن علوان تجاهلَ الخِضرَ المُعَمِّرَ الحيّ ووتدَ ابن عربي الرّابع الحقيقي والَّذي تحدّثَ عنه لأكثر من مرّة في فتوحاته، واختارَ بدلاً منه شمسَ الدِّين التَّبريزي!

قلتُها في جوابي الرّابع والسّبعين من هذا الحوار، وأعيدُها الآن بصيغة جديدة: بعضُ الرّوائيين يعتقدون أنّ ما يكتبونه هو مجرّد حكاياتٍ وقصص تنتهي بمجرّد أن يُغلقَ القارئُ دفّتَيْ ما يكتبونه من روايات، في حين أنّ التَّأثيرَ يظلُّ يحفرُ في عمق الفكر البشريّ بشكلٍ قد يفوق أيَّ تصوُّرٍ أو خيالٍ؛ إنّ ما فعلتْه (قواعدُ العشق الأربعون) من تشويهٍ لسيرةِ العُرفاء الأحقّاء لا يمكنُ أن يحصرهُ أو يستوعبَهُ عقلُ اليوم، لقد أثَّرتْ هذه الرِّواية حتّى في نفوس بعض الرّوائيّين ومحمّد حسن علوان منهُم، فما بالكَ بالقرّاء العاديين من عامّة النّاس! إنَّ الشّهرةَ التي يكتسبُها شمس الدّين التّبريزيّ، تجعلُ النّاسَ يعمون عن طرح الأسئلة بشأنه، بل تجعلُ الآخرين بمن فيهُم المثقّفُون يتحرّجون منَ الاستفسار عن مدى صحّة الوجود

التَّاريخيّ لهذه الشَّخصيّة حقيقةً، أو منَ التَّفكير والتَّساؤل ولو بشكل افتراضـيٍّ: ماذا لو كان شمس الدِّين مجرّد شخصيّة اخترعهَا جلالُ الدِّين الرُّومي لأسباب "إبداعيّة عرفانيّة" محضة؟ لكن والحال ألّا أحد يجرؤ على السّؤال فإنّ حتَّى محمّد حسن علوان وقعَ في الفخّ مثلما وقعتْ فيه قبلهُ الرِّوائيّة التُّركية أَلِف شفق، وحدثَ أن أصبح شمس التَّبريزي أحقَّ منَ الخِضر الحيّ بأنَّ يكونَ وتدَ ابن عربيّ الرَّابع على الرُّغم من أنّ هذا الأخير قد تحدّثَ عنه بصريح العبارة قائلاً في فتوحاته المكِّية: ((اعلم أيُّها الولي الحميم أيَّدك الله أنّ هذا الوتد هو الخِضر صاحب موسى عليه السَّلام بارك الله في عمره إلى الآن. وقد رأينا من رآهُ واتّفق لنا في شأنه أمرٌ عجيب وذلك أنّ شيخنا أبا العباس العريبي رحمه الله جرت بيني وبينه مسألة في حق شخص كان قد بشَّر بظهوره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال لي هو فلان ابن فلان وسمي لي شخصاً أعرفه باسمه وما رأيته ولكن رأيت ابن عمته فربّما توقَّفت فيه ولم آخذ بالقبول، أعني قوله فيه لكوني على بصيرة في أمره ولا شكّ أن الشَّيخ رجع سهمه عليه فتأذَّى في باطنه ولم أشعر بذلك فإنِّي كنت في بداية أمري فانصرفتُ عنه إلى منزلي فكنت في الطَّريق فلقيني شخصٌ لا أعرفه فسلَّم على ابتداء سلام محبّ مشفق وقال لي يا محمّد صدق الشَّيخ أبا العباس فيما ذكر لك عن فلان وسمي لنا الشّخص الّذي ذكره أبو العباس العريبي فقلت له نعم وعلمتُ ما أراد ورجعت من حيني إلى الشّيخ لأعرفه بما جرى فعندما دخلتُ عليه قال لي يا أبا عبد الله أحتاج معك إذا ذكرتُ لك مسألة يقفُ خاطرك عن قبولها إلى الخضر يتعرّض إليك يقول لك صدق فلانا فيما ذكره لك؟ ومن أين يتّفق لك هذا في كل مسألة تسمعها منِّي فتتوقَّف؟! فقلت إن باب التَّوبة مفتوح فقال وقبول التَّوبة واقع فعلمت إنَّ ذلك الرَّجل كان الخضر ولا شكَّ أنِّي استفهمت الشّيخ عنه أهو هو قال نعم هو الخضر.

ثمّ اتّفق لي مرّة أخرى أنّي كنت بمرسى تونس بالحفرة في مركب في البحر فأخذني وجع في بطني وأهل المركب قد ناموا فقمت إلى جانب السِّفينة وتطلَّعت إلى البحر فرأيتُ شخصاً على بعد في ضوء القمر وكانت ليلة البدر وهو يأتي على وجه الماء حتّى وصل إلي فوقف معي ورفع قدمه الواحدة واعتمد على الأخرى فرأيت باطنها وما أصابها بلل ثمَّ اعتمد عليها ورفع الأخرى فكانت كذلك ثمَّ تكلَّم معي بكلام كان عنده ثمَّ سلَّم وانصرف يطلب المنارة محرسا على شاطئ البحر على تلٍّ بيننا وبينه مسافة تزيد على ميلين فقطع تلك المسافة في خطوتين أو ثلاثة فسمعت صوته وهو على ظهر المنارة يسبح الله تعالى))، وهو الحديث ولا سيما الجزء الأخير منه الّذي نقله محمَّد حسن علوان مع بعض التّغييرات الطَّفيفة وهو في إطار كلامه عن سَفَر ابن عربي إلى بجاية بحراً للبحث عن وتده الثّاني الغوث أبو مدين وهذا نصّه كما ظهر في الرِّواية / السِّفْرُ الرّابع ص ١٩٢: ((بينما أنا في هذه الحال إذ شعرتُ بوجع في بطني وظننت أنّي سأتقيَّأ. فقمت من مكاني، والنّاس في المركب قد ناموا، لأتقيَّأ من حافة المركب. نظرت إلى البحر الممتد أمامي سادراً ومخيفاً فرأيت شخصاً على بعد في ضوء القمر كأنّه يمشي على وجه الماء باتجاهي. اختنق صوتي من الخوف ولم أقوَ أن أنادي أحداً من القوم ليروا ما أرى. بلغ حافّة المركب ورفع قدمه اليمنى أمامي فنظرت إليها فإذا هي جافة بلا بلل، ثمَّ رفع اليسرى فإذا هي كذلك. ثمَّ سلّم عليّ وأولاني ظهره وانصرف ماشياً على الماء كما جاء وكان يقطع قرابة الميل الواحد في خطوة أو خطوتين. ناديت البحارة وأبلغتهم بما رأيتُ فحوقلوا جميعاً ثمّ عضدني أحدهم وأعادني إلى فراشي)). كلّ هذا يجعلني أقول كما لمّح محمَّد حسن علوان نفسُه في أكثر من حوار صحفيّ: إن الأمرَ في هذه الرِّواية لا يتعلّق بسيرة ذاتيّة حقيقيّة لسلطان العارفين محيي الدِّين ابن عربيّ بقدر ما هو قصة خياليّة لشخص "خياليّ" أيضا قد يكون اسمه ابن عربي!

٧) قضيّة الفتوة

لا يمكن الحديث عن هذه الرِّواية دون التَّطرُّق إلى قضيّة الفتوة الّتي أثارها الكاتبُ وهو بصدد الحديث عن أحداث بداية القرن ١٣ الّتي كان فيها الحشّاشون يتعرَّضون بالقتل وسفك الدماء لكلِّ نصرانيّ يلتقونه في طريقهم (الرِّواية ص ٤٦٧)، وكذا في إطار حديثه عن جهاد الفتية الّذين يحرِّرون أطفال المسلمين من الأسر، وعن أحداث حماة (١٩٨٢) مع التّلميح إلى الوضع العربيّ الرّاهن والحروب الّتي تغلي مراجلُها في كلِّ مكان، على الرُّغم من أنِّي لا أجدُ مبرّراً مقنعاً لإقحام كلّ هذا في سيرةِ ابن عربي وربطِها بكتاب للشيخ يتحدّثُ فيه عن مفهوم الفتوة والفتيان، اللَّهمّ إذا كان الكاتبُ حقّاً لا يعِي جيّداً ما قاله ابن عربي عن مقام الفتوة الّذي هو حالة بين الطّفولة والكهولة والبيّن معناه في قوله تعالى في سورة الرُّوم / ٥٤: ((اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ)).

ولأجل هذا فإنّي أقولُ إنّ الفتوة الّتي يعنيها ابن عربي ليستْ نفسها الّتي يشير إليها محمّد حسن علوان في أكثر صفحة من روايته كمرادف للمرتزقة من الشّباب الّذين لا همّ لهم سوى القتل وإشعال فتيل الحروب في كلّ مكان: ((المدينة محروقة. لا وصف أدقّ من ذلك ولا أكفى. البيوت والشّوارع والمساجد والميادين والأسواق. وكذلك القلوب والأرواح والصّدور والجثث والأنفاس. كلّ شيء احترق في سبعة وعشرين يوماً نزل فيها الشّياطين على مدينتنا وكأنّهم يحملون في صدورهم مليون عام من الغلّ منذ أبى إبليس أن يسجد لآدم. شياطين حديثة ذوو تنظيمات يتّسمّون بأسماء غير أسماء الشّياطين: سرايا الدِّفاع، لواء ٤٧ دبّابات. لواء ٢١ ميكانيك. فوج ٢١ إنزال جوّي. قوّات خاصّة. كلهم شياطين في أطياف مختلفة من الخاكي. وآخرون في ملابس مدنيّة. دخلوا المدينة ولا هدف لهم إلّا القتل. القتل فقط. / الرّواية ص ٥٤٠).

فتوة ابن عربي نعتٌ إلهيّ من طريق المعنى الّذي فيه الفتوة إظهارُ الآلاء والمنن وستر المنّة والامتنان، ولهذا وجبَ على الفتى ألّا يراعي الخلقَ ولا يتفتّى عليهم إلّا بصفةٍ حقّ، لأنّ التّفتّي إنّما هو لله. والفتى كما يقول ابن عربي هو من يؤْثرُ العلمَ المشروعَ من الله على ألسنة رسله على هوى نفسه وأدلّة عقله ومن يخرج عن حظِّ نفسه وحقّها إيثاراً لحظّ غيره الأولى فالأولى وإلّا تركَ مقام الفتوة. وتمتاز الفتوة بكمال التَّديُّن أيْ بكمال الآثار الخلقيّة لممارسته في الأخلاق والفعل، إذ لا فتى بغير دين، ولا فتوة لمن لا إيمان له بخالقه، وأولى النّاس بهذا الاسم نبيّ الله إبراهيم أبُ الفتيان الأوّل مصداقاً لقوله عزَّ وجلّ في سورة الأنبياء (٦٠/٦٧): ((قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ، قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ، قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ، قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ، فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ، ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ، قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ، أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)).

ولكل زمانٍ فتوته وفتيانه، وابن عربي كان أيضاً فتى العارفين، وفتوته لم تكُنْ فتوة عرفانيّة فكريّة فحسب بل كانت أدبيّة وشعريّة نهل منها من بعده العديدُ من الأدباء والشُّعراء القدماء منهم والمحدثين من أمثال عبدالوهاب البياتي الّذي أوصى بأن يدفنَ في ضريح الشَّيخ محيي الدين ابن عربي. نعم لقد كان البياتي فتى من فتيان الشّعر باعتباره كان قطباً من أقطاب التّجديد الشِّعري الحديث الَّذي سار على نهج الفتوة الصُّوفيّة المتمثِّلة في ذاك النَّوع من التَّسامي المستلهَم من شخصيّة الغوث أو الولي الَّذي عادة ما يكون مركزاً للكون بحكم عرفانيّته بالأحوال والأسرار. ولا يفوتني أن أذكر بالإسْمِ أيضا فتى النقد الزّاهد عبد الجبار عباس رحمه الله، الذي جدَّد بكتاباته الرصينة في المشهد النقديّ العربيّ. وعليه فإنَّ أقصى ما أتمنّاه في ختمي لهذا الجواب، أن تكون رواية (موت صغير)، فاتحةَ خير على كاتبها محمّد

حسن علوان وتُدخلَه في مقام الفتوة الحقّة، الّذي هو مقام تجديد وإبداع يتسامى عن كلّ الإيديولوجيّات ويعتنقُ الحبَّ والمحبّةَ ديناً واحداً أوحداً له، راجية له المزيد من الإبداع في روايات أكثر جِدّة وأكثر قدرة على الحفر في أرضيّة التّاريخ بمعوَلٍ يجمعُ بين جماليّة الأسلوب ورونق العبارة دون أن يهمِلَ أبداً التّحريّ والتّقصّي وراء صِدق المعلومة التاريخيّة، والله ولي التّوفيق.

٧٦. الانشغال بالهمّ اليوميّ، والعمل الوظيفيّ هما بدون شكّ من المثبِّطات الَّتي تحولُ دون ازدهار الأديب المبدع وتفرّغِه إلى كتاباته اليوميّة، كيف تنظر أسماء غريب إلى هذه الإشكاليّة؟

سؤال في غاية التّعقيد، وكأنّي بكَ تقول لي أيُّهُما أهمّ الخبزُ الجسديّ، أمِ الخبز الفكريّ؟ وأقولُ ليس بالخبز المادّيّ وحدهُ يعيشُ الإنسانُ، وكلا الخبزيْنِ قوت، لا يمكنُ الاستغناء عنه أبداً، فكما تفرضُ علينا طبيعتنا البشريّة السَّعي وراء الغذاء اليوميّ فإنّها أيضاً تحتاجُ منّا أن نغذّيها بالفكر والعلم والأدب. ولو أنّي أرى أنّ البطنَ الجائعة لا تسمحُ للعقلِ أن يُفكّرَ ولا أن يُنْتِجَ بشكلٍ سليمٍ وفعّال، لأنّهُ يحتاج مادّيّاً هو الآخر إلى أن يتغذّى ويتقوّى بما يصلهُ من ماء وطاقة ممّا يقتات به الجسدُ الأرضيّ، وهذه مسألة أزليّة لم يفصل فيها بعدُ العديدُ من الفلاسفة: هل نعيش لنأكل، أم نأكل لنعيش؟ هنا تكمن الإشكاليّة!

وأظن أنّه يمكنني مقاربة السُّؤال بطريقة أخرى، وعبر سؤال آخر مباشر وصريح: المبدعُ المعوز أو الفقير، أيّ إبداع ينتجهُ لنا؟ وفي هذه الحالة يمكنني أن أقول إنّ التَّاريخَ يخبرنا بأنّ معظم الأعمال الخالدة كانت من إبداع أدباء عُرِفوا، لن أقول بالعوز والحاجة، وإنّما بالكفاف والعفاف والغنى عن النّاس، وكانوا موزَّعين بين السّعي نحو القوت اليوميّ وبين العمل الإبداعيّ والفكريّ، ومن معاناتهم هذه كانوا ينتجون فكراً خلّاقاً، لكنّني على الرّغم ممّا قد يبدو في هذا التّصريح من بطولة

سيزيفيّة، فإنّني لا أؤيّدهُ أبداً، وذلكَ لأنّي أتساءل دائما وأقول: ما معنى أن يعانيَ المبدعُ من الفقر ويُكابد الأمرّين وهو صاحب فكرٍ متوهّج ومتنوّر؟ ولماذا لا ينتبهُ أصحاب المناصب الثَّقافيّة الكبرى لما ينتجُ إلّا بعد أن تصبحَ عظامُه تراباً؟ أين يوجد الخللُ؟ هناك مثلاً فنّانون تشكيليون في مناطق مختلفة من العالم ممّن ينتجون حقّا أعمالاً إبداعيّة في غاية العبقريّة الّتي لا يمكن أن يحيط بها عقلُ ناقد تشكيليّ مهما كان ذكاؤه وعمق ثقافته، لكن لا أحد ينتبهُ إليهم ويعيشون في فقرٍ مدقع ولا يجدون حتى ما يكفيهم لسدّ احتياجاتهم اليومية، بل فيهم من ينتهي منتحراً. الشَّيء ذاته يمكن معاينتهُ لدى العديد من الكتّاب الذين لا يجدون من يعتني، -لا أقول بهِم-، ولكن بإبداعهم، وبكُتبهم في شتّى مجالات الفكر والعلم. ومن يعتقد أنّ النّشرَ الرقميّ قد حلَّ مشكلة النّشر الورقيّ فهو واهِم، لأنّ هذه المرحلة الرّقميّة مِن عصرنا هي عابرة بدون أدنى شكّ، وسنستيقظُ يوماً ما لنجد في ذاكرتنا التَّاريخيّة ثقباً كبيراً بحجم الكرة الأرضيّة! لا أحدَ منَ الأجيال القادمة سيتذكّرُ شيئاً ممّا تركهُ السَّابقون، إنّهم بالنّسبة لهم مجرّد خيط دخان، خرجَ من شجرةٍ اشتعلت فيها نار الإبداع ذات يوم ثمّ انطفأت وصعد الدّخان إلى السّماء ولم يبقَ منه أثر.

وعلى مرّ العصور وكما في كلّ المجالات عانى المبدع من فساد القيّمين على شؤون الإبداع والثّقافة، فمنطقُ المحاباة والزَبونيّة وتأسيس العصابات "الفكريّة" هو ما يحكمُ الإبداعَ في كل العالم، أينما تولّي وجهكَ هناك فساد. وحينما يموتُ مبدعٌ ما كانوا يتقنونَ جيّداً تهميشَه على الرَّغم من معرفتهم بمدى فاعليته وقوّته الفكريّة، فإنّهُم يتكالبون بعد ذلك على نتاجاته يصنعون منها المشاريعَ تلو الأخرى، ويتباكون عليه كالتّماسيح في برامج إذاعيّة أو تلفزونيّة تفضحُ نواياهم بقدر ما تواريها، وحينما تمتلئُ الجيوبُ، ينسونَه بشكل نهائيّ، ويمرّون إلى اِسم آخر كاتباً كانَ صاحبه أو مطرباً أو فنّاناً تشكيليّاً أو مسرحيّاً، وتستمرُّ عجلةُ العُهر في الدّوران دون أن يستطيع أحدٌ أن يوقفها أو أن يتساءلَ لماذا كلّ هذا؟ أين هي حقوقُ الفكر،

أين هو الحقُّ في الإبداع، أين هي الشّعارات الضّخمة الّتي يكرّرونها كلّ يوم في جلساتهِم وبرامجهم التّافهة الّتي لا يكفّون فيها عن تبادل الكلام المعسول إلى درجة تثير الغثيان؟!

ما من حلّ، هناكَ أخطاء لا تُغتَفَرُ تُرتكَبُ كلّ يومٍ في حقّ الكلمة، ولا أحدَ يستطيعُ أن يقول شيئاً! في جوابي السّابق، كنتُ قد تحدّثتُ عن رواية (موت صغير) للكاتب السَّعوديّ محمّد حسن علوان باعتبارها فازت بجائزة البوكر العام الماضي (٢٠١٧)، وتعرّضتُ لبعض مواطن الضّعف فيها، مع الإشارة أيضاً إلى مواطن القوّة، لكنّني اليوم أعودُ لأطرح سؤالاً واحداً فقط بشأنها: ألمْ ينتبه أحد في لجنة التّحكيم إلى أنّ هذه الرّواية هي صوتٌ مُكرّر لرواية أخرى هي (جبل قاف) للرّوائي والأديب الباحث المغربيّ عبد الإله بنعرفة، وقد سبق أنْ صدرتْ سنة ٢٠٠٢ بالرّباط عن مطبعة عكراش، ثمَّ سنة ٢٠١٣ في بيروت عن دار ضفاف؟ إنّ من يقرأُ هذه الرّواية، ثمّ رواية (موت صغير) الصَّادرة سنة ٢٠١٦ عن دار الساقي، سيتأكّدُ جيّداً ممّا أنا بصدد الحديث عنه، وسيتساءل مثلي ويقول: هل يا ترى يمكنُ اعتبارُ الأمر مجرّدَ تناصٍّ، أم أنّه بشكلٍ أو بآخر نوع جديد من التّلاصّ؟! وهو السّؤال الّذي تناولتُه بالتّحليل بشكلٍ أكثر تفصيلاً في الجزء الثّاني من كتابي النّقديّ (كواكب على درب التّبانة) في دراسة تُزاوِجُ وتقارنُ بين الرّوايتيْن الأولى هي (جبل قاف) لأديب وعارفٍ مغربيّ كرّسَ حياته للبحث والدَّرس في شؤون التَّصوّف والعرفان عبر مشروع ضخم ألّفَ بموجبه لليوم أكثرَ من عشر روايات عرفانيّة، والثّانية هي (موت صغير)، لروائيّ لم يسبق له أبداً أن كتب في العرفان والتَّصوّف سوى روايتِه هذه الّتي اقتبس الكثيرَ من تفاصيلها من قراءاته المختلفة سواء لرواية عبد الإله بن عرفة، أو لكتب محيي الدّين بن عربي وبالذّات (الفتوحات المكّيّة) و(ترجمان الأشواق) مع ما فيه من تعليقات وحواشي أضيفتْ إلى النُّسخ المتفرّقة القديم منها والحديث والمعاصر، وكتاب آخر هو (شمس المغرب /

سيرة الشّيخ الأكبر محيي الدِّين بن عربي) لصاحبه الدّكتور محمّد علي حاج يوسف.

لا أمل، سيبقى المبدعون الأشراف يعانون في صمتٍ، وليس لنا سوى أن نحمد الخالق ونشكره لأنّه هو من زرعَ في قلوبنا شجرة التّسامي، وأثمرَها بالمحبّة والعلوم لدرجةٍ تجعلُنا نتغاضى ونترفّع عن كلّ هذا، لننتج الأجودَ والأفضل والأرقى، وذلك لعُمق إيماننا بأنّ النّور أقدم وأقوى منَ الظّلام، والخيرَ أسطع من الشّرّ، والسِّلمَ والسّلام هما المبتدأ والخبر وسدرة المنتهى، وبأنّ الحقَّ يتولّى بالعناية صحبَه من الأُثَرِيِّين النُّورانيِّين، ملائكةَ الحرف والقيّمين عليه في كلّ مكانٍ وزمان، وأنّ الباطلَ لا مكانَ له بيننا ومصيره إلى الزّوال مهما علا شأنه وارتفع شأوه.

٧٧. هناك العديد من الأديان غير السَّماوية لا تختلف بشفافيّتها وروحانيّتها ووصاياها عن الأديان السَّماويّة، هل الأديان السَّماويّة امتداد للأديان غير السَّماويّة أم لديك وجهات نظر أخرى؟

الإيمانُ بذرةُ اللهِ في قلوب البشر، والدِّينُ بدعةُ البشر في أرض الدُّنيا والحياة الفانية، لذا فإن الإيمانَ لله، والدّينَ للبشر، وما هو لله واحد لا ينقسمُ ولا يتجزّأ، وما هو للبشَر يتعدّدُ ويأخذُ ألف شكل وصورة، ولهذا كثُرَتِ الأديانُ وبقي اللهُ واحداً أبديّاً أزليّاً قيّوميّاً. لكن يبقى السُّؤالُ الحقيقيُّ الّذي يجِبُ طرحُه الآن هو: لماذا سمحَ اللهُ للإنسانِ بأن يُعَدِّد في دياناتِه ومِلله ونحله؟ أوَليْس منَ "الأفضل" أن يكونَ النّاسُ على ملّة واحدة؟!

من القرآن الكريم أقدِّمُ للقارئ العزيز جوابيَ– السّؤال: أوَلَيْسَ اللهُ هو من قال في سورة الإسراء (آية ٢٣): ((وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ))؟! إذن فمهمَا عبدَ إنسانٌ وكيفما كان ما يعبدُه فإنّه لا يعبدُ حقيقةً إلّا الله، لأنّ عبادتَهُ أمر مقضيٌّ منه منذ الأزل، ولا أحد له القدرة على تغيير هذه الحقيقة المسلّمَة. وما دامَ فعلُ

العبادة مظهراً وتجلّياً من تجلّيات الجمال الإلهيّ، فإنَّ كلّ عابد هو في الحقيقة مُحِبٌّ عاشقٌ لصورة الله الجميل في كلِّ شيء، وهذا هو مقامُ العارفين لأنّهم لا يكتفونَ بحبِّ الله وعشقهِ في صورة واحدة وإنّما في الوجود بأسرِهِ، وهُم بهذا يختلفون عمّن أحبّ ويُحبُّ اللهَ بشكل محدود وفي دين معيّن جاعلاً منَ الأماكن جهَةً يُقدّسُها ويحجُّ إليها، فهذا يهوديّ يوجّهُ بصرَه إلى القدس وحائط المبكى كلّما حلّت أعياد البيساح والشّافوت والسكوت، وذاك مسيحيٌّ يقصِدُ كنيسة القيامة ونهر الأردن والفاتيكان، وآخرٌ مُسلِم يوجّهُ قلبَهُ إلى مكّة حيث الكعبة، ورابعٌ بوذيٌّ يحجُّ إلى لومبيني مسقط رأسِ المعلّم بوذا في النّيبال، وكذلك إلى بود جايا حيث نزلَ عليه الوحي أول مرّة. أو إلى سارناث في الهند، حيثُ أعلنَ عن رسالته وبدأ في نشر تعاليمه، وهكذا دواليك من الأماكن الّتي تختلفُ باختلاف ديانات من يقصدُها. وهؤلاء هُم في مراتب العبوديّة أقلُّ من أولئك الّذين يعبدون الله في كلّ تجلّيات الوجود، لأنّهم قيّدُوا إيمانَهم بقِبْلَة أو جهةٍ واحدة يستفرغون فيها كلّ جهدهم وطاقاتهم. واختلافُ قِبْلَة العبادة تشهدُ عليه آيةٌ قرآنيّة أخرى يقولُ فيها اللهُ عزّ وجلّ: ((وما خلقتُ الجنّ والإنسَ إلّا ليعبدونِ)) (الذاريات/ ٥٦)، وهذا يعني أنّ كلّاً من الجنّ والإنس مشغول بعبادة خالقه الّتي اختلفت باختلاف مقتضيات أسمائه، والّتي يعنيني منها هنا اسميْه (الهادي) الوارد في الآية التّالية: (وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً) (الفرقان / ٣١) ثمّ (المُضِلّ) المذكور في هذه الآية: (مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)) (الأنعام / ٣٩)، وكلاهما عابدٌ؛ الضالُّ والمُهْتدي، إذ المللُ ما تفرّقتْ واختلفتْ إلّا لأنّ كلّ طائفة تعتقدُ أنّ عبادتَها لله على الشّكل الذي اختارتهُ أمرٌ صائب، وإلّا فما معنى أن يقول ربّ العزّة: ((تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً)) (الإسراء / ٤٤)، وهو سبحانه وتعالى المتصرّفُ في عباده من حيث تنوّع عباداتهم واختلافها، وهوَ التّنوّع الّذي تحقّقَ على الأرض

من بابَيِ الولايةِ والنّبوّة. وأبونا آدم (ع) كان أوّل من شرعهُما على مصراعيْهما، لأنّه كان ممّن جمع بين الولاية والنُّبوّة؛ فحينما كانَ في الجنّة، كان وليّاً لله وكان يؤمِنُ به من حيث مقامهُ في دار الكرامة والمشاهدة والكشف، وحينما نزلَ إلى الأرض وتناسلت وكثرت ذريّتُه، أصبح نبيّاً فأُرْسِلَ إليهم ليهديهم إلى طريق الله والإيمانِ به، ومنذ ذلك الحين والبشريّةُ منقسمة بين معتقِدٍ في الله وبين مؤمن بالطّبيعة ونجومها ومائها وأحجارها وكواكبها وبين ناكرٍ للخالقِ تماما، وإن كان حتّى النّاكرُ عابداً لله مُسَبّحاً له وإن لم يفقهِ النّاسُ تسبيحَهُ، ألمْ تسمعِ اللهَ أيُّها القارئُ العزيز وهو يقول في فرقانه المبين: ((مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)) (الرّوم / ٣٢)؟!، نعم، إنّهم فرحون بأعمالهم في الدّنيا وفي الآخرة أيضاً، وإن كان مآلهم إلى الجحيم، وهذا مقال آخر ربّما أفيض في الحديث عنه في المقبل من الأجوبة. أيْ أنّهم على الرّغم مما ذاقوه من عذابٍ في النّار، فإنّهم إذا حدثَ وأعيدوا إلى الحياة الدُّنيا، لعادوا إلى ماكانوا عليه من إنكار لله وعدم إيمانٍ ظاهريّ به، لأنّهم استلذّوا عذابَ الجحيم من باب رحمة اللهِ بعباده، وإلّا لما كان قال الخالقُ: ((أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ)) (النّمل / ٦٢)، فهو وحده يجيبُ المضطرَّ حتّى وإن كان في الجحيم ويكشفُ عنه السّوءَ والعذاب! فسبحانه وحده جعلنا نتكلّمُ أكثر من لغة، وندين بأكثر من دين، لتتحقّق مشيئته وكلمته، ويتجلّى ملكوته!

٧٨. هل استطعتِ أن تسبري ما يجول في نفس وروح وخيال أسماء غريب، أم أنّك ما تزالي تبحثين في خبايا الرُّوح والخيال عن الكثير ممَّا يراودك كي تسطِّرينه على وجنةِ الحياة؟

لا أعتقدُ أنني سبرتُ للآن أغوارَ ما يجول في نفسي وروحي وخيالي؛ كلّ ما مضى، وكلّ ماكتبتُه لليوم ماهو سوى تسخينات وتمارين رياضيّة أوّليّة لا أقلّ ولا

أكثر، مازلتُ أنتظرُ من عقلي وخيالي الأعمق فالأعمق؛ هناك محيطات وأدغال بكر مازلتُ لمْ أحاذيها، وأعرف أنها هناك بانتظاري، لقد رأيتُ بعضاً من صورها في تجلّياتي المتوهّجة، لكنّني مازلت لمْ أدخلها، وهذا الأمر يحتاج منّي إلى المزيد من التَّعرف على نفسي، وأدواتها ورموزها ودهاليزيها، وصحاريها وواحاتها وغاباتها. أريد أن أصل إلى العمق الّذي لا صوت فيه ولا حركة، ذاك المركز الَّذي يضجُّ بالمحبّة والمحبّة لا غير، عندئذ لن يهمّني أبداً أن أكتبَ عنه أم لا، ولكن سيكفيني فقط التَّأكد من أنّني وصلتُ، وإنّني الآن منشغلة في صمتٍ عميقٍ برسم خارطة جديدة لعوالم نفسي، أحدّدُ فيها الاتجاهات والمسافات والبحار والسَّماوات والكواكب والنُّجوم، وأوقات السّفر، وإنّني لأستغرب كيف كان يقضي العديد من العرفاء قديماً أعمارهم في التَّنقل من مكان إلى آخر على غير هدى، في حين أنَّ السّفر الحقيقيّ الأوّل والأخير هو ذاك الّذي يتمُّ بدواخلنا: لا بدّ من خريطة، ولا بدّ من بوصلة روحيّة، ولا بدّ من رفيق ومرشد، وسيبقى اللهُ إلى الأبد رفيقي الأوحد ومرشدي الأوّل في هذا السّفر، لأنّه هو فقط أهل الثّقة بالنّسبة لي، وهو وحده يعرف كيف وأين ومتى يوجّهني ويدلّني على ملكوت المحبّة الأبديّ، قد أصلُ بعد بضع سنوات، كما قد أصل قبل سنوات قليلة تفصل بيني وبين مغادرتي لأرض جسدي، وربّما أكون قد وصلتُ ولا أستوعبُ ذلك حقيقة، إلَّا أنّ هذا لا يمنعني أبداً من أن أشكُرَ خالقي جزيل الشُّكر على كلّ ما قدّمه لي للآن من نصائح وتوجيهات وإرشاداتٍ، استطعتُ بها أن أكتشف العديدَ منَ المعاني. وفي الختام أعود وأقولُ إنَّني دائماً وأبداً مازلتُ في بداية الطَّريق، والشَّمسُ مازالت في قلبي تنتظرُ إليّ باسمة، وتمدُّ لي كلّ يوم يدَها لنكملَ معاً رحلة المحبّة!

٧٩. صدرتْ لكِ حديثاً عن دار الفرات للثقافة والإعلام في بابل موسوعة (ترجمتُ لك) بجزئيها الأوَّل والثّاني، هل لكِ أن تحدّثي القارئ عن فكرة هذا المشروع الموسوعيّ في التَّرجمة، وما هي تطلُّعاتك المستقبليّة بشأنه؟

مدّ جسور الفكر بين الشُّعوب كان دائماً ولم يزل هدفي الأسمى، لأنّه لا حلّ أمامنا من أجل رتق جروح الإنسانيّة سوى التَّواصل عبر العمل في شتّى مجالات الإبداع الفكري بشكل دائم ومستمر. والتَّرجمةُ الأدبيّة هي جزء لا يتجزَّأ من هذا العمل والالتزام. وإنّي لأعلم جيداً أن تحقيق هذا الهدف أمر صعب للغاية، لا سيَّما وأنّ حال التَّرجمة في العالم العربي لا يُبشّرُ أبداً بالخير، فلا حقوق ولا عناية ولا اهتمام بالمترجِم وبمجهوده، ليس فقط من طرف الجهات الثّقافيّة المسؤولة وإنّما من طرف الكتّاب أنفسهم الَّذين "عادة" ما يطرحون أعمالهم للترجمة بين يدي المترجِم بدون أيّ مقابل مادّي، ثمّ ينتظرون منه أن ينشرها لهم ورقيّاً على حسابه الخاصّ وكأنّه مجبَر أو ملزَم بذلك، وإذا لم يحدث النّشرُ يبقى العملُ موقوفاً إلى الأبد ومُخزّناً في الأدراج لدى كلا الطَّرفين؛ صاحبَ العمل ومترجِمُه، ممّا يعني أنَّ الأمر برمّته يصبح حجرَ عثرة في سبيل الرُّقيّ بالفكر عامّة، وهي المشكلة الَّتي ظلَّت تؤرّقني لسنوات وأنا أرى المئات من النّصوص موقوفة هكذا بدون فائدة على الرُّغم من الجهد المضني الّذي بذلته فيها من أجل نقلها من لغة إلى أخرى، فكان أن قرّرتُ جمعَها كلّها وإصدارها باللّغتين العربية والإيطاليّة في عمل يرى النّور بأرض بابل، أرض اللُّغات والحرف الأوَّل، لتستفيد منه الجامعاتُ الَّتي تُدَرّسُ الأدبَ الإيطالي في العالم العربي، وكذا المكتبات العربيّة والغربيّة والمراكز الثّقافيّة الإيطاليّة في شتّى دول العالم، وأطير بالتّالي بمن ترجمتُ لهم إلى سماوات الحرف الواسعة الآن وكذا في المستقبل القريب والبعيد.

وقد ضمّ الجزءان الأوّل والثّاني من هذه الموسوعة، إحدى عشر مجموعة شعريّة قمتُ بترجمتها لشعراء معاصرين من مناطق مختلفة من العالميْن العربيّ

والغربيّ. جاء الجزء الأوّل بطبعة أنيقة وفي ٦٥٩ صفحة من الحجم الوزيريّ، أمّا الجزء الثّاني فجاء في ٧٨٥ صفحة. أمّا الأجزاء المقبلة والّتي لم تصدر بعد، فستكون مخصّصة للمسرح والنّقد والقصّة، وكذا للشِّعر الإيطالي والعربيّ مرة أخرى.

لقد كانت رحلتي مع اللّغة الإيطاليّة رحلة إنسان خيميائيّ عارف، دخلَ إلى تنّور الحرف وأغلقَ عليه فيه، ثمَّ جلسَ يُراقبُ كلَّ التَّحوّلات الّتي كانت تحدُثُ داخلَ القِدْر الكبيرة. لقد كُنْتُ أنا تلكَ القِدْر، وكانتِ اللّغةُ ومازالت لليوم قُوتِي وخمرتي اللَّذَيْن بهِما اكتشفتُ أنّ الكلمةَ كائنٌ بيولوجيّ حيّ تتشكّلُ على ضوء جيناته اللُّغويّة معلومات تتوارثُها الإنسانيّة من جيل إلى آخر، وهذا ما يفسّرُ كيفَ أنّ اللُّغةَ الإيطاليّة ملكتني قبلَ أن أملكَها، وسكنتْني قبل أن أسكنَها، وعشقتني قبل أن أعشقها، عشقاً لم أستطع أن أعبّر عنه إلّا من خلال هذا العمل الموسوعيّ.

في تنّور اللّغتيْن؛ العربيّة والإيطاليّة رأيتُ عقلي واحترمتهُ، وتوطّدَتِ العلاقةُ كلّ يوم أكثر فأكثر مع قلبي، وأصبحتْ خلايا جسدِي تحدّثني بلسانٍ جديد وتحثُّني كلّ يومٍ على التّزمُّلِ بجَلَدِ العارفين وتعمِيم الرَّأسِ بصبْر المُحبّين، لأنّها كانتْ تعرفُ أكثرَ من أيّ مخلوق آخر أنّني كنتُ ومازلتُ أعملُ لوحدي، وأُعَلّمُ نفسي بنفسي، وأقرأُ دونَ كللٍ ولا ملل، وأفكُّ طلاسمَ الحرفِ، بغيةَ إعلاء صرحِ جسدٍ لغويٍّ آخر بعمارة وهندسة جديدتَيْن اقتداءً بسادة المعمار والبناء الكونيّ الأوّل؛ أنبياءَ الرّحمن شيتاً وإدريس وإبراهيم (عليهم السّلام)؛ جسد اخترتُ لهُ بدقّة فائقةٍ النّصُوصَ الّتي أصبحتْ حجَرَ الأساسِ واللّبنات الّتي رصصتُها الواحدةَ تلو الأخرى مع حرصِي الشّديد على أن تكونَ طينتُها من ذاك النّوع الّذي يحتفي بالإنسانِ وبالكلمة، بل بالحرف وسيّدتهِ النّقطة الحافظة لأسرارِ الخلق والخليقة، والّتي علّمتْني كيف في كهف الخلوة الخضراء والصّمت العميق تتوهّجُ ليالي العارفين بسرّ ((وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ)).

٨٠. من هي أسماء غريب الإنسان، في حياتها اليوميّة؟ تحدّثي عنها عبر يوم واحد!

هذا ليس بسؤال وإنّما مرآة حروفيّة، عليّ أن أقف أمامها وأنظر جيّداً فيها وأقول (من أنا في حياتي اليوميَّة؟). عموماً سأحاول على الرُّغم من صعوبة الأمر: إنّني أنواتٌ في جسدٍ واحد، توجدُ بداخلي السيّدةُ الزّوجة بكلِّ ما يتبع ذلك من مسؤوليات تجاه زوجي العزيز والتزامات في البيت والأسرة والَّتي أمارسها بكلِّ محبّة وعشق واقتناع ورضا، ثمّ فيَ السَّيّدةُ الأديبة وهذه مسؤوليّة أخرى لا تقلُّ أهمّيّة عن المسؤوليّة الأولى، لأنّها تقتضي منّي المزاوجة بين الأمرين وإيجاد نقطة توازن بينهما، والحمد لله أن نجحتُ في ذلك بامتياز بفضلٍ من الله عزّ وجلّ ومؤازرة من زوجي الَّذي لا يدّخرُ جهداً في سبيل توفير الأجواء الملائمة لملكتي الإبداعيّة والتزامي الفكريّ في مجالات مختلفة من العطاء. وفيّ السَّيّدةُ العابدة سواء عبر العمل الإبداعيّ والنّتاج اليوميّ، أو عبر العبادة العرفانيّة الّتي لها شروطها هي الأخرى والتزاماتها، وهذا الشّقّ الجامع في شخصيّتي ومن حياتي اليوميّة أحبّ الاحتفاظ به لنفسي، لأنّه أمر خاصّ بيني وبين خالقي.

في حياتي اليوميّة، أستيقظُ باكراً، وأنام مبكّراً أيضاً، إلّا في حالات خاصّة. التّلفزيون في حياتي وجوده كعدمه، فأنا لا أشاهده إلّا في حالات نادرة جدّاً، كأن أكون بصدد القيام بدراسة شخصيّة أدبيّة أو علميّة ما، فحينذاك أستعمل الفيديو ولا تعنيني برامج القنوات التّلفزيونيّة في شيء، لأنّي أرى فيها مضيعة للوقت وغسيلاً مستمرّاً للدماغ. أقرأ كثيراً، وأحبّ طهو الأطباق المتميّزة من المطبخ العالميّ العتيق والأصيل. أحبّ اللّباسَ المغربي لعراقته وأصالته، وأحبّ الزُّهورَ والورود، والبحر، والطَّبيعة البرّيّة البكر، وأشياء أخرى كثيرة تُشكّلني وتجعل منّي ما أنا عليه حقيقةً.

٨١. الموسيقى غذاء الرّوح والفكر، وهي اللُّغة الّتي لا تحتاج إلى وسيط، ما موقعها في حياة أسماء غريب، وكيف تعرّفينها أو تقدّمينها إلى القارئ من خلال تجربتكِ الرّوحيّة؟!

الموسيقى وحيٌ أُنزل على الإنسان من سماوات الصّفاء والنّقاء ليُعَرِّفَهُ بخالقه، ويُسْعِفَهُ بلغة جديدة يتواصلُ بها معهُ، تكونُ ترتيلةً من تراتيل الرّوح، وترنيمةً من ترانيم الفؤاد، وحبلاً سرّيّاً يُغذّيه بمصلٍ كونيّ ليس له مثيل. إنّهَا كالعشقِ تُفتّتُ بمائِها الزّلالِ قلبَ الصّخر، وتغسلُ همومَ النّفس وأحزانَها. وكالقنديلِ تطردُ العتمة من وجه النّهار، وتفتحُ ذراعَيْها لمعانقة كلّ البشر مهما اختلفت لغاتهم وعاداتهم وانتماءاتهم. إنّها الفنّ الَّذي يُجسِّدُ في أحسن صورة سرَّ الخلقِ والخليقة، وهيَ لهذا لصيقة بأهمّ الحالات والتَّجارب الرُّوحيّة الَّتي يمكنُ أن يمرَّ بها كلّ كائنٍ في حياته، وأعني بها تجربةَ العشق، ثمّ تجربةَ الموت والفقد، وكذا تجربة التَّعرفِ إلى اللّه، وهي أمُّ التَّجاربِ كلّها الَّتي منها انطلقَ كلّ شيء، لذا فإنّ صوتَ الإنسان وحده يُعَدُّ في هذه الحالة غيرَ كافٍ للتعبير عمّا يختلج الفؤاد من المشاعر القويّة الجارفة، وهذا ما يُبرّرُ لجوءَهُ إلى اختراع الآلات الموسيقيّة الَّتي تُعَدُّ القيثارة أكثرها رقيّاً وصفاءً .

وكلّمَا تعمّقتْ علاقة الإنسان المؤمن بخالقه كانت موسيقاه أكثر نقاءً وسُمُوّاً وشفافيَّةً، وأصبحَ أكثرَ قدرةً على فهم أسرار لغة الكون المُشَفّرة بجبْر الرِّياضيَّات، ورُزِقَ منطقَ الطّير والبحر والحجر، وأُعْطِيَ مفتاحَ "وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُوراً"، لأَنَّهُ المفتاح الوحيدُ الَّذي يُخْبِرُ عن لغة أهل السّماء.

الموسيقى عارفٌ كبير يُحَدّثُ أهلَ الصّبرِ عن العرش والكرسيّ، ويعرفُ المعمارَ الدَّاخلي لكلّ الأشياء. إنّها ابنةُ النّقطة وشقيقةُ الحرف، تجدُها في نبضِ القلبِ، وفي طرفةِ العين، وفي صوت الجنين وهو يطلُّ من عالمِ المشيمة بوجههِ المُشرق ليدخلَ إلى عوالم الصّدق والكذب، والبسمة والدّمعة. وتجدُها أيضاً في

ضحكات الأمّهات وزغاريدهنّ أثناء الأعراس ومواسم حصاد الحنطة وجني العنب والزَّيتون، كما تجدُها في تراتيلِ الرّجال وسط المعابدِ وتلاواتهم في المساجد وقدّاساتهم في الكنائس، وكذا في مآقي العرائس العذارى وهُنّ يبكينَ بعد الحروبِ موتَ مُحاربٍ حبيبٍ، أو فَقْدَ جُنديّ قريب .

إنّها رفيقُ الرّوح في رحلة الحياة: رفيقٌ مُجَنَّحٌ ما عرف مقامه حقيقةً سوى الواصلين؛ أصحابَ القلوب الخاشعة، والأرواح المرهفة الرقيقة السّابحة في بحار العلوم. رفيقٌ يراهُ الأعمى والمُبصر منهم، ويسمعُ حرفَهُ الأبكمُ والأصمّ فيهُم، لأنّها من أمرِ ربّي، روحاً تتجلّى مِن الدّاخل، وليس من الخارجِ أبداً، لذا تجدُ حتّى الأصمَّ يعرفُها، ويسمعُها بأذن غير الأُذن، فيصبحُ ضوءُ الفجر بها عندهُ مسموعاً، وأنفاسُ الحبيبة معزوفةً لا يُعادِلُ صفاء لحنها شيء، وحضورُ اللّيل نوتةً لا يُمكن عزفها أبداً ما لم يبلغ الفؤادُ مقامَ السّلام. لذا فإنّ أجملَ المعزوفات تلكَ الّتي يعرفُها أصحاب "وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاما"، لأنّهُم أهل السّلامِ الحقّ، أنبياء بدون رسالة وعُلماء بدون كراسٍ، وعرفاء بدون خرقة، ولأنّها وحدَها الموسيقى توحي لهُم بالجمالِ، وتأخذهم إلى فراديس الرُّؤية والمشاهدة، وجنان الخلّة والوفاء واللّقاء. ولأنّها وحدها الخمرةُ المعتّقة الَّتي ماذَاقَهَا بشرٌ إلّا وعافَتْ نفسُه كلَّ حانات الأرض وأهلها، واللّحنُ البلّوري الَّذي منْ سمعَهُ ظهرَ لهُ سيّدُ السّلام، وحظِي منهُ بقُبْلَةٍ فوقَ الجبينِ، تظلُّ متلألئةً بين عينيه إلى ما شاء الله، وتصبحُ نبعاً يأتي إليه كلّ أهل الموسيقى ليغرفوا منهُ ما يطفئُ ظمأَ الرّوح ويُشْفي أسقامَ القلب والجسد، ويبدّدُ وحشةَ الأماكِنِ .

سقيمٌ هو قلبُ من لا يسمع الموسيقى ولا يستمتع بها، وعليلة روحُه يا صاحبي في الحرف والنّوتة، فهي المعراج إلى الحقّ، وهي السُلّم الَّذي ينبغي أن يعرفه أهل المحبّة ويمتلكوا كلّ مفاتيحه، وأعني هنا بأهل المحبّة، أهل المكالمات اللّطيفة والمسامرات العجيبة، والمُحادثات والمشاهدات العرفانيّة الأعجب، أولئك

الَّذين يملكون قلوباً تغنّي بصوتٍ شجيّ ولحن بهيّ نقيّ؛ فإليكَ اليوم أيّها القارئ قولي، وافهمْ بلغة القلب حرفي، وادخلْ بعينِ الفؤاد إلى محّ المعنى في بوحي.

إنَّني أيّها الكريم نقطة بيضاء لا شأن لها بأهل المغنى والطَّرب، ولا بأهل الرّقص والطّبل أو الدَّفّ، ولم يسبقْ لي أبداً أن غنّيْتُ أو شدوتُ فوق مسرح، أو أمام جوقة، أو بين النَّاس وإن كانوا من أصحاب الخلّة والخلوة. لكنْ ما قولكَ في قلبي العجيب هذا؟! إنّه مُذ كنتُ طفلةً صغيرةً يغنّي: أجل، وليس هذا فحسب، إنّهُ يؤلّف الألحان، وينظمُ القصائد ويغنّيها. والأعجبُ من كلّ هذا أنّهُ كلما غنّى قلبي نبتتْ لهُ أجنحة، تطيرُ بي إلى الهناك حيث المشاهدات والأُنس الّذي ما بعدهُ أنس، بل حيث يفتحُ تلفازُ القلبِ شاشتَه ويبدأ في إرسال ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. هذه هي الموسيقى الَّتي أعني؛ سُلّم إلى الحبيب أسجّل بها تطوّر مسارات روح الإنسان وهي تحلّق إلى مدارات العزّة والسُّؤدد، بل إلى سدرة المنتهى وشجرة النُّور والسَّناء، كما أوضحُ هنا في هذا النَّصّ الشّعري الَّذي أخاطبُ فيه الرّوح وأحثّها على طلب السّموّ والكمال:

*

وقفَ ببابِ محْرابهَا
وبيده سلّمٌ ومفاتيح
وقال:
"بفجْر هذا اليوم أدخلُ قلبكِ
وأبني لكِ به معهداً للموسيقى
فتعاليْ هنا اتخِذي لكِ به مقعدا"

*

في ذات الفجْر أخرجَ "المَايستْرُو"
مفاتيحَه السّبعة

وأدراج سُلـّمِه الخَمْسة

ثم عَزَفَ نُوتـَة العشْق الأكْبر

كانت النّوتة عالية

جـدّاً

جـدّاً

جـدّاً

*

سمعتْ صاحبة القلب الرّيشـَةِ

نوتة "المايسترو"

فزعـَتْ منها

ومن أزمِنَـتها الأربعة

ووَلّتْ هاربةً من قاعة الدّرس

*

عـَادَتْ خائفة مُشَوّشَة الذِّهن إلى محرابها

وحينما ارْتـَمَتْ فوق سريرِ رُوحها

وجدَتْ تحْت إزَار نوْمِها ثلاثة مفاتيح

أقصدُ مفتاح "الصّوُلِ" و"الفَا" و"الدّو"

دَهِشـَتْ وتسَاءلتْ باكية:

"كيف لي يا قلبُ أن أجمع

بين نوتة "المايسترو" ونـُوتتـِي؟"

*

سمعَ "المايسترو" بكاءَها

ربـتَ بيده فوق شـَعْرِها وقال:

"صعبُ المنَال بلْ مُستَحِيلٌ ما تطلُبِين
يا صغيرتي
للعشق الأكبر نُوتة لهَا نبْضَان:
واحد في الرّوح وآخر في القلب
فإمّا عَالِيَيْن معاً وإمّا لا
ثمّ منْ أيْن لكِ ببُعْدٍ زَمَنِي واحدٍ
تجْمَعِين فيه بين نبْضيْن مُختلفَي الإيقاع؟"
*
وهمٌ ما أحلُمُ به ويقينٌ ما تقولُ
لذّةُ إحساسٍ تشتَعلُ بعواطفي
ونشوةُ روح هذا اللّهَبُ بداخلكَ
نوتة نبْضِكَ شاهقةٌ ونوتة نبضِي مُنْخفِضَة
جـدّاً
جـدّاً
جـدّاً
*
أجَل يا صَغيرتي
لا يستوي الوَهْمُ واليقينُ
ولا تستوي اللّذةُ والنّشوةُ
وإلّا كسَرْتِ السّلّم والأدْراجَ معاً
وأضَعْتِ المفاتيحَ السّبعة
هيّا عودي إلى الفَصْل
عودي إليّ ترْتفعُ نوتتُك

ويَسْمُو لَحنْك ويَتّحِدِ نبضُك مع نبضِي
فيَسْمَعُه جوَقِي ذو الملائكة المجنّحة
ويَعْرِفُهُ خلْقكِ
ويهْدي أزْمِنِتَه الصّافية
وأبْعَادَهُ المُتوازنة
لكِ أنْتِ وَحدَكِ.

٨٢. ماذا عن النَّوم في حياتكِ، كيف تقيّمينه وما أهمّيته بالنّسبة لمسيرتكِ الإبداعيّة؟

النَّوم لا يحدثُ إلّا حينما تختلطُ الأشياء، وهو لهذا سلطان لا فعلَ يسري فيه، ولا يخضعُ لقوانين أو قواعد مهما كانت صرامتها، لأنّه هو وحده قانون تخضَعُ له كلّ القوانين. تخيّل نفسك في غرفتك وقد داهمك النّوم، ستلقي بنفسك على السَّرير، ستتأمّل الأشياء من حولك كما تفعل كلّ يوم؛ هذا مصباح، وتلك حقيبة، وهذه كتب، وتلك أغطية، وأشياء أخرى عدّة عادة ما توجد في غرف النَّوم كالمرآة، وزجاجات العطر، وبضعة أوراق وملابس وما إليها، لكن الّذي يحدث ولا تنتبه له بتاتاً، أنّك وأنت تحدّقُ في كلِّ هذه الأشياء وتفكّر في أحداث مرّت بك في النَّهار أو في أيّام أخرى من حياتك تتحوّل فجأةً إلى شيء يشبه تلك الأشياء المرتّبة في غرفتك، وذلك لسبب واحد فقط: لقد تمكّن منك النَّومُ، وولجَ إلى غرفتك الدّاخليّة ونقلك من عالم الأشياء الحيّة المتحرّكة إلى عالم الأشياء الجامدة، وهذا لا يحدثُ سوى في البداية، لأنَّ هناك مراحل أخرى لا تتحقّق إلّا حينما يصبح نومك عميقاً، أيْ حينما ستبدأ ذاتُك في التَّسلل إلى الخارج الفسيح لتمتزج بالعالم، هناك حيث لا شيء يخضع لقوانين الجمود أو المستحيل أو الموت؛ في ماورائيّات النَّوم الكلّ حيّ!

والغرف تصبحُ عوالم شاسعة تصطبغ برغبات نفسك الدَّفينة، ولا تتألّق إلّا بما تمدُّه بها روحُك من نور وضياء .

النَّوم عزيزي القارئ سفر الأسفار الكبرى، وعلى قدر علوّ همّتك وعزيمتك تَشْرُف وتعلو رحلاتك. لأجل هذا كلّه فهو ليس بمهمّ فقط من النّاحية العلميّة لأنّه يقوّي جهاز المناعة ويساعد الجسد على الحفاظ على توازنه البيولوجي، وإنّما النَّومُ مهمّ للروح المحلّقة في الأعالي أيضاً، لأنّه البراق الَّذي تمتطيه من أجل التَّعرف على العالم الحقّ، وبلوغ أرفع درجات ملكوت الكشف والمشاهدات السَّنِيّة.

والنَّوم بالنّسبة للأديب الحقّ ملاذ، إليه يلجأ ليبحثَ عن كنوزه، عن مرجانه ولآلئه، إنّه بحر لا يكشفُ أسرارَه إلّا لمن يعرف العومَ، ويعرف ما الحرف وما النّون، وما القلم وما الدُّواة! ولا يمكن الحديث عن أهمِّيّة النَّوم بالنّسبة للأدباء والخاصّة من الأولياء والأنبياء، دون الحديث عن يوسف وأهل الكهف، لأنّهما معاً ممّن رزقوا مفاتيح عوالم النَّوم ورموز مملكته العظمى، وإذا كان يوسف قد حظي بتفسير الأحلام، فإنّ فتية الكهف لمن عرفهم، هم الأقطاب العلّيّة الّتي دخلت إلى بدن الإنسانيّة ومنه رحلت إلى العوالم السّفليّة بحثاً عن استكمال الرّشد وطريق الاستدلال والمكاشفة مستعينين بالله على محاربة إبليس ومخالفة سلطان النّفس المشار إليه بدقيانوس، وهجْر اللّذّات بكلمة التّوحيد وترك عبادة صنم الجسد، فكان أن بدأت شمسُ الرُّوح تتناوب عليهم تارةً بين البزوغ فيسمو الجميع بالتّجرّد عن غواشي البدن، وتارةً بين الغروب الّذي يحجبُهم عن الكمالات، يتقلَّبون ذات اليمين وذات الشِّمال بين الخير وطلب الفضيلة وبين الشَّرّ الّذي تقتضيه نفسهم أو كلبهم الباسط ذراعيه بالوصيد. لذا فلا بدّ للأديب الحقّ من يوسف البهاء، ولا بدّ له أيضاً من كهف الفتية يدخل إليه ليتعرف إلى نفسه ويكتشفَ عوالمها ويمتلك مفاتيح أسرارها ورموزها ليكون أدبه أدب البناء والتّجديد والتَّنوير.

٨٣. تحدّثَ العديدُ من أهل الحكمة والأدب والفلسفة عن الصّبر وفوائده الجمّة، كيف تنظرُ أسماء غريب وتقيّمُ الصّبرَ في حياتها؟

الصّبرُ زينةُ العقلاء، ولا يمكنُ لإنسان أن تتحقّقَ سعادتُه إلّا به. وهو براق العرفاء لبلوغ الكمالاتِ وأرفعِ الدّرجات. وكل ما في الدُّنيا اليوم من خراب هو بسبب عدم تحلّي النّاس جميعاً بالصّبر، وذلك لجهلهم بمعناه وقيمته ومدى أهمِّيته، بل منهم من يعتقدهُ ذريعةَ الضُّعفاء، وحجّة الأغبياء في تبرير ما قد يُحْسَبُ خنوعاً أو خضوعاً أو استسلاماً. لذا، فالصّابر سيّد النَّاس، والصّبور سيّد الأتقياء. ولا بدّ للصّبر من التَّواضع، ولا بدّ له من الحِلم والتَّسامح والتَّسلّح بالصّمت ليكتملَ. وهو صفة من صفات الله عزّ وجلّ، ولهذا وجبَ التَّحلّي بها، والوقوفِ على أسرارها ومعانيها. وما قام الخَلقُ والخليقة إلّا بالصّبر: الصّبر في الصَّنعة، الصّبر في الزّرع، الصّبر في النُّموّ، الصّبر في التَّطوّر، الصّبرُ في العشق، والصّبرُ في كلّ مظهر من مظاهر الحياة .

ولا بدّ لكلِّ إنسان أن يعرف كيف يزرعُ بذرةَ الصّبر في جسده، هذا الجسد الَّذي عادةً ما أسمّيه بأرض زحل البعيدة في الكثير من الأحيان عن شمس الرُّوح، والمفعمة بالرّصاص الّذي من المُستحبّ أن تحوّلَه أيُّها القارئ العزيز إلى ذهبٍ خالص، هو حجر الفلاسفة، وشمسُ العرفاء المتوهّجة. ولكي يحدثَ كلّ هذا عليك بالدُّخول إلى زُحَلِكَ والسَّفر فيه بحثاً عن النَّار والنُّور، والمسابك والمطارق الَّتي بها سيتمُّ العملُ على القلبِ من أجل صقل مرآته، إلى أن تظهرَ لكَ الرُّوح، وتتعرّفَ على نفسك ومقامكَ بين النَّاس، وهذا لايتمُّ إلّا عبر تجاربِ الحياة الطَّويلة العريضة، ولا يهمُّ كم من السَّنوات سيتطلّبُ الأمر، إنَّما الأهمّ هو التَّحلّي بفضائل أهل المناجم، وبراعتهم في النّزول إلى الأقبية المظلمة، والسّفر في الأنفاق الموحشة، والعوالم السُّفليّة. ولا بدّ لكَ أيُّها الإنسان أن تعثُرَ في البداية على غُرابكَ وتصاحبَه بالمحبّة والمودّة والحِلم، لأنّه هو الَّذي سيدلّكَ على حمامتك الَّتي ستعلّمكَ كيف

تصبحُ أنتَ أيضاً طائراً بريشٍ وأجنحة علّ هذا يمكّنُكَ في يوم من الأيَّام من الطَّيران في عوالم البهاء والكشف والسّناء.

ولا يمكنُ الخوضُ في الصّبر دون الحديث عن النبيّ أيوب (ع)، لكن قبل ذلك، دعني أتساءل وإيّاك أيُّها القارئ العزيز قائلةً: هل كان صبر هذا النَّبيّ خُنوعاً واستسلاماً لأنّه لم يجد أمامه سوى هذا الحلّ، أم أنّه كان صبرَ الأذكياء والعقلاء؟!

أيوب كان من الأنبياء الَّذين كوّنوا ثروة هائلة في حياتهم، وأصبح من كبار أثرياء بلده، وله الكلمة والوجاهة بين التّجار والنُّبلاء، وكان الكلّ في أفراد قبيلته وعشيرته يكنُّ له الاحترام والتَّقدير لما بلغه من علو شأن ومركز، لكن حدث أن أفلس فانفضّ عنه الجميع، وأصابه الكرب والبلاء والجذام وبقي وحيداً بدون مال، ولا أهل ولا عشيرة، ولا صحة ولا عافية، أيْ أنّه بعد عزٍّ، صار إلى إفلاسٍ مدقع، فكان أن واجه كلّ هذا بالصّبر وحدثَ أن استعاد كلّ شيء، وأصبح أكثر ثراءً وعافيةً وشباباً ممّا مضى. ومن هنا ينبع سؤال آخر: هل يمكن أن نعتبر ما حدث لأيُّوب نوعاً من أنواع المعجزات الإلهيّة؟ نعم، لكنّها من تلك المعجزات الَّتي يمكنُ لكلّ إنسان أن يُحقّقها بنفسه متى ما أراد ذلك بكلّ صدق وإخلاص. لأنّ قصّة أيوب إنَّما أتت لاستقاء العبرة ولإرشاد الإنسانِ إلى منجم الصَّبر بغية العثور على شمس الرُّوح فيه. كيف ذلك؟

أيّوب (ع) هو رمزٌ لذاكَ القلبِ الذي بعدَ أنْ تتوثّقَ علاقتُه الإيمانية والروحية بخالقه، ويتذوّقَ كلّ الفيوضات الرّبّانيّة بما فيها من علوم وكنوز ولآلئ الحكمة والمعرفة والعرفان، يتجلّى لهُ إبليس بكلِّ الصُّور والتَّمثُّلات، فيبدأ معه رحلة النّكوص والَّتي عادة ما يحدُثُ بها الاكتفاء بما حقّقته النَّفس من ثروات، فتبدأ في الاستغناء عن الله، وهو الامتحان الَّذي يشبه نوعاً ما، ما حدث لعيسى (ع) حينما ظهر له إبليس وبدأ يختبره في لعبة تحدٍّ سافر في فترة صيامه الأربعينيّ قائلاً له: "قل لهذه الحجارة أن تتحوّلَ إلى خبز"، فكان أن ردّ المسيح بكلِّ ذكاءٍ وشجاعةٍ:

"ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، لكن بكلمة من الله"، وذلك لأنّه انتبه إلى أن إبليس بكلماته تلك كان يفكّر في طريقة مثلى يُغيِّر بها إرادة الله، لا سيَّما وأنّه يعرفُ جيداً أن لعيسى القدرة الكاملة على تحويل الحجر إلى خبز. لقد كان يريده أن يستقلّ عن خالقه ويعتمدَ على نفسه ويحدّد بقوّتِه حياتَهُ كاملةً، فلا يحرمُ نفسَهُ من حقّ الابتهاج بالحصول على الطّعام عندما يكون جائعاً، إنّه كان يريد من عيسى حسداً منه أن يبتعدَ عن مكانِ الطَّاعة الكاملة، أيْ أن ينزل من الارتفاع الشّاهق إلى الوحل الملطّخ بالخزي والمذلّة.

أيُّوب خلافا لعيسى، تردّدَ كثيراً في مسألة المساومة هذه، وهذا التَّردّد تمّ الرّمز إليه بالدِّيدان الَّتي كانت تأكل أرض بدنه، والَّتي حينما اشتدّ نهشها له استفاق من غفلته، فصاح بلسان الاضطرار والافتقار: ((أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ))، وما الضرّ هنا سوى كناية عن إبليس الَّذي هو على خلاف ما يتخيّله العديد من النَّاس، يوجد بداخلنا وليس بخارجنا، ولا فكاك لنا منه، بل لا بدّ لنا منه ونحن في طريقنا نحو الشَّمس، فهو الحدّاد الَّذي ينفخُ في أكيارنا ويسبك ويصهرُ معادننا.

حينما انتبه أيُّوب إلى الهاوية الَّتي زجّ بنفسه فيها وطلب المعونة من الله من باب الرَّحمة عاد إلى قلبِه ولسانه، أيْ إلى فطرة الإيمان الَّتي جُبِلَ عليها وبها تمكَّن من الاستماع إلى أمر الله وهو يقول له: (ارْكُضْ بِرِجْلِكَ، هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ)، أيْ عُد إلى عقلك الحيّ، لتتفجّر فيه عينان من الحكمة العمليّة والنَّظريّة، تغتسلُ بهما وتشربُ من علومهما لتتطهّرَ روحك من أدرانها وتعودَ لك عافيتك .

والجميل في صبر أيوب أنّه كان صبر الأذكياء بامتياز، لأنّه لم يكتفِ بطلب الجزاء عن الصّبر على المحن في الدّار الأخرى، وإنّما طلبَهُ في الدَّار الدُّنيا، فوقع أن تحقَّقت له العافيةُ وعادت له حياة العزّ والوجاهة ليكون رسالةً يعتبرُ بها أولو الألباب في الدُّنيا قبل الآخرة.

مشكلة الإنسانيّة اليوم تكمن في استغناء الإنسان عن خالقه، واكتفائه بما حقَّقهُ من انجازات على كافّة المستويات، فحدث أن أصبح جسد الإنسانيّة جمعاء جسداً ترتع فيه الدِّيدان والأمراض والهوام: ديدان الفكر المؤدلَج، وأمراض الرُّوح، وهوام الإلحاد بشتَّى أنواعه وأصنافه، ولأنَّ لا أحد ينتبه إلى الأمر، ولا أحد له الصّبر على تحمّل هذه المحن والتَّوجه إلى الله ليفكّ عنه العذاب، طال المكوث في كهوف الظّلمات، وساد الظَّلام وابتعد النَّاس عن مركز النُّور، وأصبح منطق الحرب هو السَّائد، وغاب السَّلام من قواميس الحياة!

٨٤. لِمن ولماذا تكتب أسماء غريب؟

أكتبُ لخالقِي، ولأبقى في صحبتِه، فهو قارئي الأول وهو دليلي ومرشدي. والكتابةُ عندي صلاةٌ لها طقوسها الرُّوحيّة، كأن أكون مثلاً وأنا أكتبُ على طهارة، أو أن أرطِّبَ شفتيّ بالذِّكر والتّسبيح، ولا نفعَ يرجى من ما قد أكتبهُ ما لم يكن بالله ومنه وإليه. وقبل الوصول إلى هذا المقام كان لا بدَّ لي أن أمرّ بالنّزيفِ الحروفيّ أوّلاً، وأعني به تلكَ المرحلة الَّتي عادةً ما يكتبُ فيها العارف من وحيِ حديثهِ معَ نفسِه عن الله؛ أيْ أنّه يكون في شغل شاغل مع نفسه يُحَدِّثُها شِعراً أو نثراً عن رحلة الاكتشاف الدَّاخليّة لفكرة الإيمان والمعراج إلى سماوات الزّخّ والكشف، وأسمّي هذه المرحلة نزيفاً لأنّ الكتابة فيها تكون باستمرار ولا تتوقّفُ النّفسُ أثناءَها عن ضخِّ كلّ دَمِهَا الإبداعيّ وقذفه فوق الورقة حتّى يستقيمَ أمرُ القلبِ ويتخفّفَ الجسدُ من أثقاله. وهي مرحلة لا بدّ منها، وإن كانَ التَّقدّمُ العلميّ قد حرمنا الكثيرَ ممّا كنَّا نتمتّعُ به في الزّمن الخالي من وصال حقيقيّ بالحرفِ كان يتحقّقُ عبر التَّزاوج بين يدِ الأديب العارفِ وبين قلبه وعقله، وبين يده وبصره والورقة. واليوم أصبحَ الورقُ زجاجاً سائلاً، والقلمُ لوحةَ مفاتيح واستسلمنا مضطرّين إلى أحكام عالم المعلوماتيَّات الَّتي أهلكتْ أصابعَنا وأكتافنا وبصرَنا وعظامنا وعقولنا أيضاً، وهذا لا يعني أنّني ضدَّ

التَّقدم التَّكنولوجي في مجال الإعلاميّات والكتابة وما إليهما، بل على العكس من ذلك تماماً، إنّما أعني أنّهُ منْ عرفَ هبةَ الاطّلاع على بعض ما في لوْح الوجود، ولو لمجرّد فترة وجيزة من الدَّقائق المعدودة يقضيها في النَّظر الرُّوحيّ إلى صفحة أو حتّى فقرة بسيطة من ألواح الخالق، سيعرفُ جيِّداً قيمة ما فقدناهُ، وسيعرف أيضاً أنّ هذه المرحلة الَّتي نعيشها ليست بمرحلة العلم الحقيقيّ، وإنّما العلوم والكنوز الحقّة هي بداخلنا ولا نعرفُ سبيلاً لتفجيرها وتوليدها بشكلٍ يجعلنا نستغني عن هذه العلوم المعاصرة الَّتي نعتقد أنَّها أقصى ما يمكنُ أن يصل إليه إنسان ما.

بعد هذه المرحلة تأتي مرحلة السُّكون، والكتابةُ فيها تكون حديثاً خالصاً مع الرّوح عن الله، وفيها يتوقّفُ النَّزيف الدَّاخليّ، ومن الشّعر ينتقل العارفُ إلى مرحلة النَّثر والعلوم اللَّدنيّة الحقّة عبر النَّظر في اللَّوح المحفوظ الّذي تُفرغ بعضٌ من فصوله في قلبه، وتمرُّ حروفُها إلى أصابعه لتُسكَبَ فوق الورق سكباً ببركة الرّحمن وسلطانٍ وتأييدٍ منه، وقد تكون في كلّ مجالات المعرفة والعلوم والفلسفة والآداب والموسيقى والرِّياضات والكمالات البدنيّة والمعاملات الإنسانيّة والتَّربية الرُّوحيّة والخُلُقيّة وما إليها. أمّا في المرحلة الثَّالثة فإنّ العارفَ الأديبَ يصلُ إلى مقامِ الرّكون، وفيه يركنُ بكلِّيَّته إلى خالقهِ ويُصْبحُ حديثُه خالصاً، ليس عنِ الله، وإنّما معهُ مباشرةً، وهي المرحلة الَّتي لنْ يحتاجَ فيها إلى ورقٍ ولا إلى لوحٍ ولا إلى قرّاء ولا إلى أيّ شيء آخر، لأنّ شعلةَ العشق ولهبها الصَّافي يختطفانه تماماً حتّى من روحه، فيقلُّ ظهوره بين النَّاس وتقلُّ كتاباته، وقد تصبح مجرّد إشارات ونصوص قصيرة جدّاً .

غير هذا، لا أرى أنّ الكتابةَ اليوم قادرة على إحداثِ التّغيير المطلوب مهما كان نوعُها وشكلها، لأنّ كلّ كتابةٍ تخرجُ عن المنظومة الإلهيّة إنّما هي عبث ولهو ومتاع الغرور، وكلّ كتابة لا توصلُ صاحبَها إلى مرحلةِ الانخطاف عشقاً ومحبّةً ليست بكتابة أبداً، إنّما الحرفُ جاء للرقيّ بالإنسانِ، وما الإنسانيّة فيه اليوم من

ظلامٍ وانحطاط يدلُّ على أنَّ رسالة الحرفِ قد حُرّفت، وعبثَ بها العابثون، وأصبح أقصى ما يتمنّاه أديبٌ ما أن يظهرَ على شاشات التّلفزيون، أو أن تركض خلفَهُ الحسانُ من القارئات والمعجبات، أو أن يحظى بألقاب وشهادات فخريّة ما أنزل الله بها من سلطان في زمن أصبح يباع فيه كلّ شيء!

٨٥. تهتمّين في أبحاثك التّرجميّة ودراساتك النّقديّة حتى بأسماء الشُّعراء والكتّاب المغمورين، وتتعاملين مع إبداعاتهم ترجمةً ونقداً بنفس الحِرَفيّة والجدّيّة والعمق الّذي تتعاملين به مع الأسماء المرموقة في عالم الأدب والإبداع، هل يمكن لأسماء غريب أن تشرح للسادة المتتبِّعين سبب هذا الاختيار والاهتمام والعناية؟

دعني أروي لك وللسادة القرّاء الأفاضل الكرام قبل الجواب عن هذا السُّؤال قصّة أسمّيها بـ (حكاية المجذوب وحاكم القرية):

كان يا ما كان في قديم الزَّمان وسالف العصر والأوان شيخ عارف متصوّف، سائح مجذوب يجول ويطوف بين القرى والأسواق والبيوت بلباسه الخشن وعصاه الخضراء ونعله الجلديّة القديمة وشعره الأشعث، لينثر بين النّاس كما تُنثر البذورُ شِعرَهُ وعلمَه وحكمته، وحدثَ أن وصل إلى قرية كان يحكمها رجل ذو بأسٍ شديد، فبدأ يطرق أبواب منازلها، وكان كلّما فتحَ له ساكنٌ من سكان تلك المنازل أوصد في وجهه الباب، ونهره بسبب منظره البئيس وملابسه الرَّثّة. حزن الشَّيخُ على ناس هذه القرية حزناً شديداً، وقال في نفسه، سأذهبُ إلى الحاكم علّه إذا رآني عرضتُ عليه علمي وناقشته في أمر قسوة قلوب النَّاس في القرية الَّتي يديرُ شؤونَها. وما إن وصل الشَّيخُ المجذوب إلى الحاكم حتَّى بادر حرّاس الباب إلى طرده شرّ طردة مشبعين إيّاه ضرباً، وآمرينه بألّا يعود إلى التَّسكع في مكان يقيم به الحاكم وحاشيته.

بكى المجذوب بكاءً مريراً، وعلى خلاف ما قاله له الحرّاسُ قرّر أن يعود للقاء الحاكم ولكن بشكلٍ مختلفٍ ولباس جديد. ومرّت شهور عديدة ثمَّ عاد المجذوب إلى تلك القرية وهو يلبسُ أبهى الثِّياب وأفخرَها، ورائحة المسك تضوع منه، وفي أصابعه المحابس الثَّمينة، وبين يديه سبحة فاخرة وعلى رأسه عمامة من أجوَد الأنواع، وذهب مباشرة قاصداً دار الحاكم، لكنّه هذه المرّة قبل أن ينطق بحرفٍ واحد، وجدَ الحرّاس يرحِّبون به أيّما ترحاب وكأنّهم رأوا الحاكم نفسه، وسألوه عمّا يريده، ثمّ ذهبوا مسرعين في طلب الحاكم الّذي ما إن رآه حتّى بادر إلى إدخاله إلى صالة الضّيوف، وهناك قال له المجذوب إنّه شيخ من كبار شيوخ قرية أخرى بعيدة عن منطقته، وأنّه قدم من أجل أن يعرض عليه أمور التَّعاون السِّياسي والاقتصادي بين قريتيْهما، فهشّ وبشّ الحاكمُ ووافقَه على كلِّ كلمة كان ينطق بها، واقترح عليه أن يقيم عنده قبل عودته إلى دياره ثلاثة أيام وليال ضيفاً عزيزاً، ينعمُ في بيته بما لذَّ وطاب من الولائم والخيرات. وحينما كان اليومُ الثَّالث، وحلّ موعدُ العشاء، جلس المجذوب إلى مائدة الحاكم وحولهُ ضيوف آخرين من وجهاء القرية، وكان في أكمل أناقته ولياقته، وعليه أبهى الألبسة وأغلاها، وحينما جاء الخدمُ ووضعوا الأطباقَ المتنوّعة بادر المجذوب إلى الأكل وهو يغمسُ أكمامَهُ في المرق غمسا عميقا، وعندما استفسر الحاكمُ عن سبب هذا الفعل، وقفَ المجذوب وبدأ يخلع ملابسه قطعة قطعة ويغمسُها في الأطباق وهو يردّد: ((كُلِي وتنعّمي بلذيذ النّعمِ والخيرات يا ملابسي الفاخرة، فالنّاس هنا ينعمون برفقتكِ لا برفقتي، ولولاك لما سمح لي أحد بالجلوس معهم. أنا أيُّها السَّادة هو ذاته ونفسه ذاك الرَّجل الَّذي طردتموه قبل أربعة شهور وأشبعتموه ضرباً، أنا ذاك المجذوبُ البائس صاحب الخرقة والعصا والنّعل، ((أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّـه أَفَلا تَعْقِلُون؟!)) ثم خرج عارياً أمامهم كما ولدته أمّه، تاركاً إيَّاهم غارقين في بحر من الدَّهشة والحيرة!

هكذا هي أمور النّاس على مرّ كلّ الأزمان والعصور، المظاهر تعمي أبصارهم وبصيرتهم، والذّهبُ المزيّفُ يزيغ قلوبهم، وأن يكون كاتب ما ((مغموراً)) هي فقط وجهة نظر، أيْ مغموراً بالنّسبة لمن يراه كذلك والَّذي عادةً ما يكون ممّن يُمَثِّلُ الأصوات الغالبة من عامّة الأدباء الَّذين تضجُّ بهم الأسواق الأدبيّة ومحافلها الرَّسميّة، دون أن يعلم أبداً أنّ ((المغمور)) هو ضالّة الخاصّة من الأدباء والعلماء العرفاء، لأنّهم يبحثون في التُّراب عن المعادن النَّفيسة، وفي الكهوف عن الأقمار والشُّموس، وفي الآبار والمناجم عن حجر الفلاسفة. بل أنّى له ولمن مثله أن يفقه هذا وهو منشغلٌ بمن يظهرُ على الشَّاشات من الأغبياء، ويتملّقُ لهم ويتمسّح فيهم ظنّا منه أنّه برفقتهم سيصلُ –من الأسفل طبعاً– إلى "أعلى المدارج"، لأنّ نعتَ الآخرين باللّامعين أو المرموقين هو أيضاً (وجهة نظر أخرى).

أذكر أنّني كتبتُ قبل سنوات دراسةً نقديّة معمقة عن طفل رسّام موهوب لم يتجاوز سنواته العشر، وكنتُ أعلم جيّداً أن ذلك سيثيرُ حفيظة بعض المحسوبين على الأدب والفنون في العالم العربيّ، ممَّن كانوا يرنون إلى أن أكتب عن أعمالهم بعض المقالات أو ما إليها من دراسات، لكنَّني فضّلتُ عليهم طفلاً لا يعرفُ عنه أحدٌ شيئاً، وذلك لسبب واحد فقط: لقد رأيتُ في هذا الطِّفل ما لم أرَه في غيره: لقد كانت عينهُ الثَّالثة مفتوحة، ولوحةٌ من لوحاته أخبرتني بذلك. كان الطِّفلُ عراقيّاً، وأحببتُ فنّهُ كثيراً، وأحببتُ أيضاً أن أفرِحَ قلبهُ اللّطيف الرّائي بكتابتي عنه وسأكون سعيدة أكثر حينما سأضمُّ ما كتبتُه عنه إلى الجزء الثّاني من كتابي النقدي (كواكب على درب التبانة)، بجانب دراسات أخرى اهتممت فيها بأسماء عالميّة شامخة في سماء الأدب والفلسفة واللّاهوت.

إلى جانب هذا الطفل أذكر أنَّني أيضاً كتبتُ عن شاعر آخر لم يصدر له بعدُ أيَّ ديوان شعريّ بسبب ظروفه المادّيّة، فلامني أحدهم من الأدباء "الرّسميّين" جدّاً، ممَّن يعتنون كثيراً بربطات عنقهم، وتسريحة شعرهم، لكنَّني مضيتُ قُدُماً وأنا

أراه يسقطُ من عيني ويقع في كأس من ماء ولسان حالي يقول: ((يَا لَيتَ قَوْمِي يَعْلَمُون، بِمَا غَفَر لِي رَبِّي وَجَعَلَني مِنَ المكْرَمِينَ))، بل يا ليت قومي يرون ما أرى، لربَّما هانت الأمور وعرفوا أنّه لا يعنيني في شيء أن يكون المبدع ممّن يعرف مثلاً من يكونُ المتنبّي، أو من يكون الماغوط أو محمود درويش، لأنّ ما يهمّني هو النَّصّ، الَّذي قد يقول صاحبهُ شيئاً أكثر عمقاً وأهمِّيّة ممَّن سبقوه من فطاحلة الأدب. نعم، لقد رأيتُ في ديوان الشَّاعر "المغمور" ما لم يره أحد: رأيتُ قلبَ أبٍ ينزفُ بسببِ فقدانه لأطفاله وهُم أجنّة الواحد تلو الآخر بسبب مرض نادر كان يصيبهم في خلايا الدّماغ، فكان أن قرَّرتُ الكتابة عن الدِّيوان بعمق وتآزر شديديْن موجّهة حرفي إلى أطفال الشّاعر وهم هناك في عالم الرَّحمة ولسان حالي يردّد أبياتاً من ديوان شيخ العرفاء المغربيّ عبد الرُّحمن المجذوب:

((فاعل الخير هنّيه بالفرح والشّكر ديما
وفاعل الشرّ خلّيه فْعلُه يرْجَعْ لُه غريمة
لا تخمّم في ضيق الحال شوف أرض الله ما أوسعها
الشّدّة تهزم الأرذال أمّا الرجال لا تقطّعها
الأرض فدّان ربي والخَلْق مجموع فيها
عزريل حصّاد فريد مطامرُه في كلّ جهة
عيّطتْ عيطة حنينة فيّقَتْ من كان نايم
ناضوا قلوب المحنّة ورقدوا قلوب البهايم
اللّفت ولّات شحمة وتنباع بالسّوم الغالي
في القلوب ما بقات رحمة شوف لحالي يا العالي
من يامنك كحْل الرّاس ما شينك بطبيعة
السّنُّ يضحك للسّنّ والقلب فيه الخديعة))

(ترجمة الأبيات ستكون في آخر الجواب)

نعم، (المغمور) هو وجهة نظر ليس إلَّا، وكلّ أولياء الرّحمن وأنبيائه هم من (المغمورين)، المكنوزين في البُعد الغيبيّ غير المكشوف إلَّا لأهل القلوب المتنوِّرة. ولا تنسوا أنَّ يسوعَ قد وُلد في إسطبل –أراه كالغار الحافظ للكنز الثَّمين الّذي به غيّرَ الخالقُ العالمَ –، وبالقرب منه حمار، ورجلٌ صالحٌ نجّار، واللّائحة طويلة من هذه الأمثلة الَّتي لا تعدّ ولا تحصى، لذا، فـ (المغمورون جدّاً) هم الّذين لديهم القدرة على إحداث التَّغيير المطلوب، لذا فلا تستهينوا بأحد من إخوتكم في الإنسانيّة يا باركَكم الله!

ترجمة الأبيات من اللَّهجة الدّارجة المغربيّة:

((منْ يفعلُ الخيرَ هنِّئْهُ بالفرح والشُّكر الدّائم،

ومنْ يفعلُ الشرَّ دعه، فإنّ فعله لن يعود عليه سوى بالنّدم والهزائم.

لا تشغل بالك بضيقِ الحال،

انظرْ أرض الله ما أوسعَها

فالشّدائدُ تهزمُ القوم الأرذال

ولا تنال أبداً من أحرار الرّجال.

الأرض حقلُ ربّي والخَلْقُ مجتمعٌ فيها،

عزرائيل حصّاد فريد ومطموراتُه في كلّ جهة.

ناديتُ نداءً خفيّاً حنوناً فأفقتُ النّائمينَ

نداءً سمعه أصحاب القلوب الطَّيِّبة فاستفاقوا

وسمعه أصحاب القلوب الغافلة

فازدادوا نوماً وشخيراً كالبهائم.

اللّفتُ الأبيضُ أصبح شحماً

يباع في الأسواق بأغلى الأسعار

انعدمت الرّحمة من القلوب

فانظر أيها العليّ إليّ وأرأف بحالي
لا تثق بالنَّاس كثيراً
السّنُّ يضحكُ للسّنّ والقلب فيه الخديعة)).

٨٦. المرض في حياة الإنسان العارف، كيف تراه أسماء غريب؟

بدن الإنسان هو أرض بابل، وكأسُ الذّهب الَّتي أسكرتْ كلّ من ذاق عسلها وشرب خمرتَها. بل هو رسول الخالق الأوّل إلى الخَليقة، يكلّمُها كل يوم بألف لغة ولسان، وما المرضُ إلَّا لغة من هذه اللُّغات، من عرفَ حرفَها وخبر أبجديتَها رُزق الشَّفاء والنَّجاة، ومن احتجبَ عنها بكثافة الجهل عاش أبد الدَّهر سقيماً عاجزاً عن الوصول إلى مدارج السّعادة والهناء. أجل، هو المرض تَذكرةُ الإنسان وقطارهُ الّذي يسافر بهِ إلى أرض الأمان، وهو الكاسرُ لكلّ قوانين الجاذبيّة، لأنّه يجذبُ الرّوح إلى أعلى العلّيّين. والكلّ في مرض، الإنسانُ كما الحيوان، والنّبات كما النُّجوم والأفلاك والكواكب، وكلُّ مريض لا يمرضُ وحدَه، وإنّما يمرض ويعاني ويتألّم بهِ ومعه الكونُ بأسره، وإن كنّا لا نفقه لغة هذه المعاناة. وهو ليس بعقاب ولا بعذاب إلهييْن، وإنّما صنعةُ الله وحشوته في الكون، لنكتمل ونتحرَّر به من شرنقاتنا، ونطير إلى سماوات الزّخّ الأخضر، حيث لا داء ولا علّة ولا سقم. ولا فرق في المرض بين الجنين والشّيخ، ولا بين الطّفل والكهل، ولا بين المرأة والرّجل، ولا بين الصّالح والطّالح، ولا بين القديس والعاصي، فالكلُّ يمرض، حتّى العرفاء، بل هُم أوَّل المرضى وأشدّهم مقاساة ومكابدة، وعند هذه النّقطة أحبّ أن أتوقَّف قليلاً: ثمّة من قد يسألُ في عتاب؛ أليْسَ النُّور بشافٍ من كلّ الأسقام، فلماذا يمرض العارف وهو أقرب النّاس إلى مصدر الطّاقة الإلهيّة، لماذا يمرض القدّيسون والأنبياء والأولياء، مثلهم في هذا مثل عامّة النّاس؟!

لأنّ الكثير من العرفاء يجهلون – مثلهم مثل غيرهم من عامّة النّاس – أبجديات النُّور الحقّة: صحيح أنَّ الإنسانَ اختار رداء الطِّين ولبسهُ بدناً، لكنّ لباس النُّور ونبعَه الصّافي يوجدُ بداخله، وهو على سبع درجات، لكلّ درجة منه علاقة بمركزٍ من مراكز العيش في الإنسان: العقلُ، والقلب، والمعدة، ومركز الماء الدَّافق الَّذي منه تتخلّقُ الحياة ويكثر النّسل. ولأنّ الإنسانَ خُلِق من عَجَل، ويكره التأنّي والصَّبرَ على الأشياء، فإنّه حينما يكون في طريقه إلى الاكتمال، يرغبُ في حرق المراحل والوصول إلى النَّبع مباشرة، في حين أنَّ هذا الأمر يتطلَّبُ الكثير من الأناة والحِلم والهدوء، حتّى يأخذ الجسدُ والنّفس فيه مع الرّوح طريقهم الصّحيح نحو النّجاة، وهذه العجلة غالباً ما تقود إلى المرض، والاختلال في وظائف أجهزة الجسد، لأنّ الّذي يحدث حقيقة هو أنَّ أجهزة الطّاقة النّورانيّة تُفتح داخل الجسد بشكل خاطئ ومرتبك، فتتداخل الوظائف، وتبدأ الهرمونات والغدد والخلايا في إرسال رسائلها إلى الإنسان "السّالك" لتخبره بأنَّ عطباً ما قد حدث، ولعلّ أكثر أنواع الخلل حدّة لدى العرفاء؛ هي مسألة الرُّؤى والكشوفات الَّتي لم يُجزم إلى اليوم في مدى سلامتها عند بعضهم، ومدى تشوّهها عند آخرين، وهذه الرُّؤى غالباً ما تنبعث من مركز الصّوَرِ أو التَّصوير السِّينمائي (كما أفضّلُ أن أسمّيه) والّذي يحمله الإنسان في مقدِّمة رأسه (الجبهة) والَّتي تُعَدُّ الغدّة الصُّنوبريّة مسؤولة عنه بشكل كبير: فنحن لليوم لا نعرف إلى أيّ مدى هذه المشاهدات والمكاشفات لها علاقة بالملكوت الإلهي حقّاً أم لا؟! وذلك لأنّنا لم نطوّر إلى اليوم علوماً تختصُّ في هذا المجال، وتهتمُّ بسلامة العارف العقليّة والنّفسيّة والجسديّة، وذلك لأنَّ العديد من العرفاء يحاصرون أنفسهم بجدار سميك من الصَّمت والخصوصيّة، ولا يبوحون بمكنوناتهم "العرفانيّة" إلى أن تتفاقم الأمور وتظهر في كثير من الأحيان على شكل انحرافات فكريّة يحار في تفسيرها أهل الحصافة والفكر.

أخطر هذه الانحرافات تلك الَّتي لها علاقة بالحياة الجنسيّة للعارف: الرُّؤى الشَّبقيّة الَّتي تتجسَّد فيها "الحوريات" اللّائي يقضين اللَّيل بأكمله في حضرة العارف وهو يعتقد بأنّ ذلك ما هو سوى من المشاهدات الإلهيّة الّتي تتجلَّى في صورة المرأة باعتبارها قناة من قنوات الخطاب الإلهي. وهذا الانحراف هو بشكل أو بآخر شبيه بذاك الذي يعيشه العديد من الشّبّان من عامّة النَّاس، والّذي أوْصَلَ الكثيرَ منهم إلى معانقة فكرة "جهاد النِّكاح". كما لا تفوتني أيضاً الإشارة إلى الظَّواهر الفضائحيّة الَّتي تظهر بين العديد من رجال الدّين كتلك الّتي لها علاقة بالمِثليّة والولع بالأطفال الصِّغار على سبيل المثال لا الحصر. وهذا كلّه مردّه إلى خلل في طريقة النّهل من نبع الطّاقة الإلهيّة الحقّة، فيحدث أن تتهدّم مدينة بابل الجسد على صاحبها، وينهارَ البرج الكبير. ومن الأمراض الأخرى الّتي يمكن أن يتعرّض إليها العارف، سقوطه في شراك السّحر والدّجل والشّعوذة، وهذا له علاقة وطيدة بما يسمّى لدى أهل الطّبّ بالشّيزوفرينيا البصريّة وكذا السّمعيّة، فتجده يتخيّل أشياء ما أنزل الله بها من سلطان، ويتحدّث عن كائنات ومخلوقات وحوارات لم نتأكد إلى اليوم من صحّة العديد ممّا حيكَ عنها من أساطير.

حينما يحدثُ الخلل في توزيع الطّاقة بين شَكَرات الجسد، يعاني العرفاءُ كثيراً وهُم في طريقهم إلى الكمال، وهناك من يصاب بالشَّلل، وهناك من يصاب بالعمى أو ضعف في البصر، وهناك من يصاب بالجلطات القلبيّة، أو بتضخّم في القلب، وهناك من يصاب بآلام حادّة في رأسه مصحوبة بحالات من الإغماء والغثيان، وهناك من يصاب جسده بالحروق، والأمراض الجلديّة الخطيرة والسّرطانات، إلى غير ذلك من مظاهر المرض الّذي به يتوسّلُ الجسدُ صاحبَه؛ يسأله أن يخلّصه ممّا هو فيه!

كلّ هذا يحدث بسبب العجلة مصداقاً لقوله تعالى: ((لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ، كلّا بلْ

تحبّون العاجلة وتذَرُون الآخرة)) (القيامة ١٦-٢١)، وذلك لأنّ بعض العرفاء - لا كلّهم - بعجلتهم هذه يحتجُّبون عن الآجلة حتّى في حالة وجود السَّكينة وكمال الوقار، لأنَّ النّفسَ تظهر لتستولي على المشهدِ عند حدوث التَّجلّيات لتتلقّفَ المعاني، ولو تحلّت قليلاً بالصّبر وغابت عن مصدر التَّجلّي والشُّهود لسلِمَ القلبُ وأمِنَ الجسدُ من الأمراض، لأنّه سيكون لديه كلّ الوقت الكافي من السَّنوات للدخول في مقام الوحدة والفناء عن الذَّات في عين الجمع، حتّى لا يبقى منه بقيّة أو أثر، ويصبح جاهزاً لتلقي المعاني كاملة في وقتها الحقّ.

هل يمكن الشّفاء من مثل هذه الأمراض؟ إذا كانت من النَّوع الّذي ذكرتُ وله علاقة بالطّاقات الشَّكَريّة، فمن الصّعب جدّاً أن يحدث الشّفاء بشكل سريع إلّا بتدخُّل إلهيّ محض، عبر وعيِ العارفِ واستيقاظه من غفلة القلب والرُّوح، وذلك لأنّه هو من أمرضَ نفسَه وجسدَهُ، وهو من عليه أن يخلصّهما ممّا ألحق بهما من أذى عبر العودة إلى خالقه وطلب معونته وعفوه وكرمه. وأمّا لمن يسأل وماذا عن دور الطّبّ في هذا المجال؟ أقول: إنّه للأسف مازلنا لم نطوّر علماً كاملاً يجمع بين الرُّوح والجسد بشكلٍ لا جدال فيه، ويجمع بين الكون والجسد، وبين هذا الأخير وخالقه، لا سيَّما وأن معظم العلوم اليوم تسير في الاتجاه المعاكس تماماً، والّذي ترنو به إلى فصل الإنسان عن خالقه، وقطع الحبل السِّرّي الَّذي يجمع بينهما. إنّ ما يجبُ التَّركيز عليه هو محاربة هذا النَّوع من الفكر السّلبيّ الّذي يريد أن يعزل الإنسان عن مصدر النُّور، والمرضُ عادةً ما يولد من فكرة تستحوذ على الإنسان، قد تكون غارقة في ذاكرته الطُّفوليّة، وقد تكون أيضاً حاضرة جدّاً في حياته اليوميّة، وغالباً ما تتحوّلُ هذه الفكرة إلى أفكار سلبية أخرى، وتأتي الغدّة الصُّنوبريّة لتحوّلَها إلى شخصيّاتٍ تكتبُ لها سيناريو، وتصنع لها مونتاجاً، ثمّ تعمل منها فيلما حقيقيّاً يؤثِّر على الإنسان بكليّته فتنكسه وتقضي عليه!

ما العمل في هذه الحالة؟ تخلّص أيُّها الإنسان من أفكارك السّلبيّة، جدّدْ طاقتك، وخذْ وقتك الكافي جدّاً لكي يحدث التَّوازن في توزيع هذه الطَّاقة من مركزها الأصليّ، ولا تستعجل الكمال، فهذه ليست مهمّتكَ أبداً، إنَّما مهمّتكَ الحقيقيّة أن تعيش إنسانيّتك كما هي، وترضى بها وبالرّيش الّذي ينبت فوق جسدك كلَّما تقدّمت بك السُّنون، لأنَّ الجاذبيّة في حضرة "المرض" ترفع إلى أعلى، ولا يسقط منك على الأرض سوى شرنقتك، أو جسدك!

٨٧. المرأة، كيف تراها أسماء غريب وتقيّمُ مسارها الحضاريّ؟

باركتني هذه الحياة بتجارب عميقة اطّلعتُ من خلالها على المرأة في كلتا حالتَيِ الإشراق والكسوف، أمّا عن حالة الإشراق فأعني بها ماحققته المرأة من إنجازات وانتصارات على المستوى الروحي والأخلاقي والعلميّ والفكريّ على حدّ سواء، فظهرت إلى الوجود أسماء لنساء غيّرن العالم بين قدّيسات وطبيبات ومهندسات، وعالمات وأديبات وأمّهات مددن المجتمعات بأجيال ناجحة من الأبناء الذين ساهموا في إعلاء صرح الحضارة الإنسانية منذ أقدم العصور إلى اليوم، أمّا حالة الكسوف، فأعني بها تلك التي تُسَجِّلُ مرحلة سقوط المرأة في بئر الرذيلة بشكل جعلها تصبحُ العدوّ الأول حتّى لبنات جنسها، وهي لهذا تراها تتقلّبُ كما فصول الحياة الأربعة، فتارةً تجدُها خضراء ذات عطر وعطاء وكرم، ومرّة أخرى مكفهرّة عارية من كلّ فضيلة وخُلُق، ومرّة ثالثة تصبح جحيماً، مفعمة بكل غلّ وحقد، وقحط وجدب. وهي لأجل هذا القحط الذي أصبحت فيه –حينما تخلّتْ عن فضيلتها ومنبتها الأول وطبعها الكريم الذي جبلها عليه الرحمن –، سهُلَ التلاعبُ بعقلها وعواطفها، فحدثَ أن سقطت في شراك ما يسمى بـ"الحضارة المدنية" و"التقدم" و"الديمقراطية" الكاذبة وأحابيلها المعسولة، فخرجت من بيتها وهي تراه سجناً لتعانق العالم العريض، وتركت أبناءها وزوجها للخادمة، وعرّت ذراعيها وصدرها وحشرت

نفسها في البناطيل الضيقة وكشفت عن ساقيها ورُكْبَتَيْها، وصبغت شعرها بالأخضر والبنفسجيّ، وبالأحمر والأشقر والأسود، ظنّاً منها أنها هكذا ستبدو في أعين الرجال أجمل وأجمل، ناسية أن كلّ هذا التقدّم الذي أصبحت فيه ما هو في الحقيقة سوى تطورٍ إلى الخلف تحوّلت بموجبه إلى مجرد سلعة بعد أن كانت ملكة بيتها وسيّدة نفسها، وكيف لا، وهي التي خوّلت لدُورِ الموضة والسينما والإعلانات استدراجَها إلى كلّ شيء أفرغها من إنسانيتها، حتى أنها أصبحت لا تحبُّ الدخول إلى المطبخ وطهي الطعام فيه حتى لا توسَم بالدونية والتخلّف، وأصبحتْ ترفض تماما إرضاع أطفالها حتى لا تعود إلى عهود الظلام الأولى! المسكينة ضحكوا عليها في كلّ شيء، وروّجوا بها كلّ شيء، ووضعوا صورتها عاريةً حتى على معلبات أكل القطط والكلاب. وهي بكل هذا سعيدة وراضية جدّا جدّا.

آآه، يا عزيزتي المرأة، ما الذي فعلتِه بنفسكِ، بالله عليكِ، متى تستيقظين، وتضعين كأس الوهم من يديك، وتتركين حانات المكر والخديعة، في زمن أصبحت فيه القدوة من النساء، تلك التي تغادر بيت الزوجية إلى الأبد، أو تلك التي تحتال على أكبر عدد من الرجال! متى يُرفع عنك كلّ هذا الحجب يا امرأة من ريح، يا من كنتِ لي ولغيري من أصدقاء الحرف خير معلّم، ودليل تعلّمْنا في تنوره دروس الحياة الكبرى!

٨٨. السعادة في حياة أسماء غريب، ماذا عنها؟

كمُّ تجارب الإنسان في الحياة هو الذي يحدّدُ المعاني الحقيقة للأشياء، وأنا من وحيِ تجربتي أقول إنّ السعادة ليست فقط إمكانيات، وإنما هي قرار داخلي: أيْ ليس بالضرورة أن تكون ثرياً مثلاً، بل يكفي أن يكون عندك ما يضمنُ لكَ العيشَ بكرامة وعزّة نفس، وألا تخونك صحتُك، حتى لا تحتاج لأحد في زمن لا يعتني فيه أحد بأحد.

السعادة هي أن تتعلّم كيف تتخلّص من آلامك ومراراتك: مرارات الطفولة، وخيبات الأهل والأحبة، وخيانات الأصدقاء، وتكون سيّدَ النسيان في كلّ شيء: لأن النسيان يعني أن تغسل جراحك وتعقّمها قبل أن تخيطها.

السعادة هي أن تعتني بنفسك، وبروحك وعقلك وبسلامة قلبك في كلّ التفاصيل: حياة بسيطة، وعدد قليل من الأصدقاء الخُلّص إن وجدوا، وإلا فكُن لوحدك، محاطا بانتصاراتك على نفسك، وعلى تحديات الحياة وصعوباتها التي لا تنتهي. سعادتُك أيها الإنسان بيدك، وإن كنت تعيش وسط عالم من الأشقياء، لأنها انتصار شخصيٌّ يأتي من الدّاخل. لا تقارن نفسك بأحد، لا تتحسّر على ما يملكه غيرك، كن أنت، واترك دائما بينكَ وبين الغير مسافة من الاحترام، ومن البُعد والحصافة، كي تكون في مأمن من الصدمات.

السعادة أن تضع قلبك بين يديْ خالقك، وتتركه لهُ يطبّبه، ويعلّمه دروس الحياة الكبرى بما يرى فيه النجاة لك في الدنيا قبل الآخرة. والسعادة ختاما أن تحبَّ، أن تعشق بكلّ ما تملك من حرية وأمل، لأنّ الحبّ الحقّ، والعشق الحقّ يغيّرُ من الأعماق، ويبني الإنسان من جديد، ويشفيه من كلّ العلل. فطوبى لمن أحبّوا وعشقوا، وأخلصوا في حبّهم الذي به دخلوا إلى الملكوت.

٨٩. كيف فاتكِ أن تترجمي ما تحملينه من رؤى في نصوص روائيّة تصبُّ في ألق الكلمة الصَّافية صفاء نسيم الصَّباح؟

اطّلعتُ في خزانة المحبوبِ على ما هو أجمل وأرقى وأبهى؛ جزءٌ بسيط جدّاً جداً ولمدّة لا تتجاوز الثَّواني، فأحنيتُ رأسي تواضعاً وخشوعاً، وعلمتُ أنَّني ولجتُ مقامَ الصّبر والانتظار، وأنّه حانت في حياتي مرحلة أخرى من مراحل التّتلمُذِ أو التَّذكُّر العرفانيّ، لذا فالأجدر بي أن أختار لي مقعداً جديداً في مدرسة الحرف الإلهي، وبدرجات أسمى وأعلى، لأنهل من معين العلم اللّدنيّ وأتذكّر ما علّمني إياه

الخالق منذ الأزل بلسانٍ من نور، وأجنحة سبْعٍ من لهب، وناعورة كلّها عيونٌ تدور عجلتُها في بحر من نار، وإنِّي لأعتقد أنّ هذا النَّوع الجديد من الأبجديّة الرِّوائيّة هو الَّذي يناسبني حقيقةً لأكتبَ من خلاله روايات عرفانيّة تتحدّثُ عن ملكوت الرّحمن بحرف العشق ومطر الخير.

٩٠. المبدعون والنّرجسيّة أيّة علاقة بينهما، وإلى أيّ مدى ترى أسماء غريب أنّ المبدع يمكنه أن يشفى يوما من نرجسيّته؟!

لا بدّ للمبدع من نرجسيته، لكنّ النّرجسيّة فيها ما فيها، فهناك النّرجسيّة المحمودة وهي الَّتي تدفع بصاحبها إلى التَّطوُّر نحو الأفضل دائماً، ومن خلالها يقدّمُ فكرَه المتميّز البنّاء إلى جمهوره من القرّاء أو المتتبِّعين بشكلٍ عام لأعماله سواء تعلَّق الأمر بمجال الأدب، أو بالموسيقى والفنّ التَّشكيلي وما إليه من فنون أخرى، وهناك النّرجسيّة المقيتة والَّتي يمكن تصنيفها إكلينيكيّاً كنوع من الأمراض النَّفسيّة الَّتي نادراً ما يشفى منها المبدعون الفاشلون! وأن نتحدّثَ عن مبدع نرجسيّ من عيار الصُّوفيّ ابن عربي مثلاً والّذي كان يجاهر بفتوحاته ورؤاه وكشوفاته ومناماته العرفانيّة ويكتبُ عنها بغزارة قلّ نظيرها في مجال الإبداع الصُّوفيّ، أو عن أديب من الوزن الثَّقيل كمارسيل بروست أو فنّان تشكيلي نرجسيّ آخر كبابلو بيكاسو ليس تماماً كأن نتحدّث عن "مبدعين" آخرين أصبح لا يصلنا من إبداعهم إلّا ما تنتجه آلة التَّصوير أو الهواتف الذَّكيّة على مواقع التَّواصل الاجتماعي، أو عن "أدباء" آخرين إذا صح أن نسمِّيهم هكذا، وصل بهم الأمر إلى كتابة مقالات نقديّة عن أعمالهم الشَّخصيّة بأسماء وهميّة ودفعِها لتنشُرهَا المواقعُ الثّقافيّة أو الصّحف الّتي تهتمّ بالنِّتاج الأدبيّ، كما حدث مع الرِّوائي الأمريكي جيمس إلروي (والَّذي سبق أن أشرتُ إلى اسمه في سياق الجواب ٦٦ من هذا الحوار)، وهو روائي مختصّ في أدب الجريمة، ونال من الشّهرة على مستوى المبيعات ما لم ينله أحد غيره في مجال

إبداعه الرِّوائي، لكنَّ نرجسيته المَرضيّة دفعته إلى أن يقوم بما لم يستطع استيعابه أحد من متتبِّعيه: كان يكتب بنفسه وبأسماء وهميّة على المواقع الإعلانيّة التِّجاريّة الثّقافيّة مقالات نقديّة يمدح فيها رواياته وطريقة السّرد فيها والحبكة وتفاعل الشّخصيّات وما إلى ذلك ليرفع في كلِّ يوم من عدد القرّاء والمقتنين لأعماله! وهذا الأمر يدفعني للقول إنّه تحت نرجسيّة المبدع المَرَضيَة يوجد دائماً كمّ هائل من الهشاشة، ومن الضّعف والبؤس الَّذي مهما حاول "الكاتبُ" أن يغطّيه برداء الثّقة بالنّفس الزّائدة فإنّه لا بدَّ سيأتي ذاك اليوم الّذي يطفو فيه كلّ شيء على السَّطح، وتسقط الأقنعة ليظهر صاحبُها مجرّد كائن مريض تفصله عن الإبداع الحقّ ملايين من السّنوات الضَّوئيّة. ومن مظاهر النّرجسيّة وجنون العظمة في مجال الكتابة والإبداع اليوم، ظهور نقّاد يقتاتون على نرجسيّة الكتّاب، ويكتبون مقالاتهم النّقديّة عن ديوان أو رواية ما مقابل أجور مادّية دسمة، وكلَّما ارتفع السّعر زاد سيل الكلام المعسول الّذي يلعب على أوتار النّفخ والتّلميع المبالغ فيه للكاتب المعني بالأمر، وهذا كلّه يؤدِّي طبعاً إلى انتشار الأدب الحامض والفاسد الّذي يسمّم ذائقة القارئ، ويزيد من انحطاط مستوى الوعي والثّقافة في البلدان العربيّة. ومرآة النّرجسيّة قد تكون بحراً من الماء الصّافي الَّذي يرى فوقه المبدع نفسه ويتعرّف عليها فيُخْرِجُ أبهى ما فيها من لؤلؤ ومرجان، وقد تكون مستنقعاً من الماء العكر الَّذي يرى فوقهُ الكاتبُ نفسَهُ، فيخرجُ أسوأ ما فيه ليشتريَ بعد ذلكَ من يُلمِّعُه له من براغيث الوقت، وهذا هو ما يحدث اليوم ومع كامل الأسف في شتّى مناطق العالم وتزيد من تفشّيه وسائل الإعلام والصَّحافة ومواقع التَّواصل الاجتماعي الّتي دمّرت كلّ شيء.

٩١. لماذا يفشل المرء في الحبّ، في قيادة نفسه، في تجنّب الأحزان والمآسي الَّتي تلاحقه أينما كان؟

الفشلُ في الحبّ مرتبط بكمّ تجارب الإنسانِ اليائسة والمحبطة في علاقته مع خالقه، منذ بدء الخليقة إلى اليوم، أيْ منذ الانفصال عن الذَّات الدَّاخليَّة الإلهيّة الكامنة، والّذي تلاه مباشرة الالتصاق بعدد لا محدود من الذَّوات المزيّفة، بما فيها الذَّات الأبوسيّة الَّتي عادة ما يفتحُ عليها المرءُ عينيْه منذ ولادته، والمتمثِّلة بسُلطة والديْهِ عليه، والَّتي منها وبها يتكوّن أوّل مفهوم خاطئ عن الحبّ، وأعني به الحبَّ المشروط والخاضع لقوانين المجتمع والقبيلة والعشيرة والدّين ورجاله. وهي القوانين الَّتي لا يمكن للحبّ فيها سوى أن يكونَ بالمقابل: أنت محبوب لأنّك إنسان ملتزم بأعراف وقوانين المجتمع والأسرة، بل أنت محبوب جدّاً، فقط حينما تكون خاضعاً لأطر اجتماعيّة وأخلاقيّة مشروطة ومحدودة جدّاً، وإذا تمّ الخروج عنها أو الانفلات منها فإن أبسط ما سينالكَ هو غضبُ أبيك وأمّكَ عليك، ثمّ الأسرة كاملة، لتنتهي المأساة بنبذ المجتمع لك. نعم، بهذا المنطق يتعاملُ الإنسانُ أيضاً في علاقته مع خالقه الّذي صوّرتهُ "الدِّيانات" بإيديولوجياتها المحدودة وأساطيرها القديمة جدًّاً، كإله يغضبُ، ويكرهُ ويحقد وينتقم، وهي كلّها أفكار مسمومة للغاية ومبنيّة على الخرافة ليست لها أيّة علاقة بما يكونُهُ اللهُ حقيقةً، والّذي ما هو سوى الحبّ المطلق بدون شروط وحدود وقيود!

لأجل هذا أصبح مفهوم الحبّ مشوّها لدى الإنسان وقائماً على الخوف من إله منتقم ومرعب، ولأجل هذا أيضاً، يعطي الإنسانُ الحبَّ بنفس الطَّريقة الّتي يتصوَّر بها خالقَه: مشروطاً.

ولو حدث أن أدرك كلّ شخصٍ الهدفَ الأسمى الَّذي خُلقَ من أجلهِ لتغيّر كلّ شيء، ولو أدرك كل واحد منّا من هُو حقيقة لتفجّرَ بحرُ الحبّ بلا انقطاع: إنّنا جميعنا هذا الله السّاكن بداخلنا، المحبّ الأبديّ الأزليّ. بل إنّك أيُّها الإنسان أجملَ

ممّا يمكنُكَ أن تتصوّرهُ أو تتخيّلهُ عن نفسك وشخصيّتكَ، لكنّ الآخرين ممّن سبقوك في التّاريخ والانوجاد علّموك أنّك ضعيفٌ، ناقص ولا تستحقُّ الكثير ممّا في الحياة من جمال وبهاء. لقد زرعوا فيك الخوف حتّى من ذات الله السَّاكنة فيك، وحتّى من سماواتك وأقمارك ونجومك وكواكبك الدَّاخلية. ولأنّك لا تعرف أو نسيتَ من تكونُ حقيقة صدّقتَهم، ووقعتَ في الفخّ، وبقيتَ إلى اليوم بعيداً عن نبع الحبّ والمحبّة!

٩٢. ما رأيكِ بتأسيس وزارة السَّلام في كلِّ دولة من دول العالم، وتأسيس هيئة سلام عالميّة، وتكون وزارات السَّلام تابعة لهذه الهيئة العالميّة لتحقيق ما يتطلَّبه السَّلام بشكل قانوني في كلِّ دول العالم؟

هذا أمر يمكن تحقيقه في حالة واحدة فقط: حينما يصل الإنسان إلى استيعاب فكرة أنّ الذّات الإلهيّة كامنة فيه حقّاً وحقيقة، أيْ حينما يصبح قادراً على ردّ الاعتبار إلى نفسه وإلى كينونته النُّورانيّة الَّتي خُلق بها ومنها وفيها، عندها فقط سيستعيد الإنسان قدرته على التَّأسيس وسيكفّ عن تدمير كلّ ما يحيط به، أو ما يقع بين يديه. وهذا لا يمكن أن يحدث لكَ أيُّها القارئ حتّى تتوقّف عن القول بأنّك عرفت الذّات الإلهيّة، ما دام لليوم، ما ثمّة شيء فعَله الإنسانُ أكثرَ من حديثه عن هذه الذّات وعن معرفته بها عبر سلسلة طويلة من الأديان والحروب والمجازر. نعم حينما ستتوقّف عن القول بأنّك تعرف الله أكثر من غيرك، أو أنّك تسمعه أكثر من غيركَ، هناك فقط ستتجلَّى لك حقيقتك الّتي مصدرها خالقُك، لا الآخرون بمن فيهم القدِّيسون والعرفاء ورجال الفلسفة والسّياسة والاقتصاد، حتّى وإن كانوا يشكِّلون بالنّسبة لك مراجع موثوق منها جدّاً، وذلك لأنّهم جميعهم، ما فعلوا من شيء في حياتهم سوى تشويش وصول الحقيقة إليك كما هي من نبعها الصّافي، الحقيقة الَّتي تقول: إنّك أنت مثلك في هذا مثل غيرك من النّاس تستحقُّ أن تكون قدّيساً، وحكيماً ووليّاً وخليلاً لله. نعم، لقد ضخّموا عقدة النّقص بداخلك، وبِتَّ تشعرُ أنّك لست أهلاً

لمخاطبة الله لك، في حين أنّه لا يكفّ عن مخاطبتكَ والحوار معك، بالضّبط كما أفعلُ اليوم وفعلتُ على مرّ عامين منذ بدأت جوابي على أوّل سؤال في هذه الرِّحلة المئويّة.

ألا ترى أنّنا معاً الآن بصدد تحقيق معجزة كبرى؟ ألا ترى أنّني بصدد تفجير وتوليد حقيقتك العليا بداخلك؟ أنت رائع، رائع جدّاً أيُّها القارئ، أيُّها الَّذي تستمع إليّ أينما كنت وحللت، وكيفما كان معتقدك. أعلِنْ إذن عن نفسك، وقل معي إنّه من الممكن جدّاً أن تؤسّسَ وزارة للسَّلام تنطلق من مقرّها الحق: قلبك وكيانُك الدّاخلي. عليك أن تكون في هذا شريكاً مع خالقِك، مع نفسك العليا، لأنّهُ هكذا فقط سترقى حياتُك وتسمو مقاصدُك، ولن يكون بعد ذلك شرّ ولا حروب ولا مآسي.

صدّقني، إذا توصّلت إلى هذه الحقيقة وسمَوْتَ، فتأكّد أنَّ حياتك ستنقلب رأساً على عقب، ربّما نعتكَ أهلك بالجنون، وربما اتّهموك بالكفر، كما فعل النّاس قديماً مع العديد من أهل هذه الحقيقة السّامية الَّتي أنا بصدد الحديث معك عنها. لكن بعد الرّفض، سيبدأ الجذب، أجل، حقيقتُك ستبدأ في جذب العديد من النّاس إليك لا عن اقتناع دائم أو تامّ، وإنَّما في كثير من الأحيان بسبب الحسد والغيرة، لأنَّ حقيقتك الجديدة القديمة وحياتك البسيطة ستبدأ في تهديدهم مادامت تقترحُ عالماً من الفرح والجمال والحبّ غير المحدود أو المشروط.

لكن ماذا لو قبِلَ الآخرون تماماً بهذه الحقيقة واعتبروها حقيقتَهم أيضاً؟ سينتهي الخوف لا محالة، وستتوقّفُ الحروبُ الَّتي نُفّذت إلى اليوم بإسم الله، وسيمكن حينئذ تأسيس وزارة للسلام. كُنْ جاهزاً إذن، ولن يقلقك العالمُ بأسره، لأنّه سيجدك راضياً بما أنت فيه، مادمت قد انتصرتَ على كلِّ خوفٍ، وقضيتَ على كلّ وهمٍ بداخلك!

٩٣. ماذا عن ثقافة الحوار في العالم العربي؟

ثقافة الحوار في العالم العربيّ مغيّبة عن العقول والقلوب، والجميع منشغل عنها بثقافة الموت والحروب، والمحاولات اليتيمة الَّتي يقوم بها في هذا المجال بعض المتنوِّرين من أهل الحصافة والفكر لا تلقى أيّ تشجيع من أحد، بل لا يلتفت لها ولا يدعمها أو يموِّلها أحد. وذلك لأنّ لا أحد يعنيه أن تكون شعوب الأرض في حالة وئام وسلام.

ثقافة الحوار غائبة أوّلاً في البيت، ثمَّ في المدرسة والجامعة، وغائبة في الشَّارع وأماكن العمل: الأب لا ينصت إلى أبنائه وأهل بيته ولا يتحاور معهم، لأنّه إمّا طاغية دكتاتور وإمّا رجل هدّته الحياة وتحدِّياتها، فلم يعد في وسعه أن يهب بعضاً من قلبه أو وقته ليتحاور ويصل مع الغير من أهل بيته إلى حلول عادلة وشافية لمشاكل الدَّهر وصعوباته. وفي أماكن الدِّراسة الشَّيء نفسه، لا سيّما الجامعيّة منها، فحتَّى الأساتذة منشغلون بقوتهم اليوميّ، وبالتَّنافس مع زملائهم لدرجة تصل إلى اندلاع حروب وأحقاد لا أوّل لها ولا آخر بينهم، ممّا يعني أنّ الكلّ في ضنك وقهر تتّسعُ دائرتهما لتطال كلّ الأرض على مرّ العصور والأزمان.

الحوار يتطلَّب التَّواضع، والتَّحليّ بالصَّبر والأناة وسعة الصّدر، والحال أنَّ اليوم لا أحد يعنيه في شيء الصَّبر والخُلق الحميد، فإنّ معظم محاولات الحوار بين النّاس بمن فيهم أصحاب الشّهادات العليا تنتهي بالفشل وإن كانوا حول طاولات المؤتمرات والنّقاشات والمعاهدات الدَّوليّة. نعم، غيابُ الخُلُق الحميد والرّقي الرُّوحي والفكري، يعني غيابَ الصّدق الّذي عادة ما يحتاجُه المحاور في كلامه حتَّى يكسبَ احترام وثقة الطَّرف الآخر، فتزداد قدرته على الإقناع. ويعني أيضاً غيابَ الحِلم والصّبر، إذ لا بدّ من أن يتحلّى المتحاورُ بالصَّبر على مواصلة الحوار حتّى آخره، ويتحمّلَ ما قد يصدر عن الطَّرف الآخر من سوء.

إضافة إلى وجوب التَّحلّي بالصّبر، على المتحاور أن يكون ممن يحسنون الاستماع للطرف الآخر، وإحاطته بالمودّة والاحترام فلا يقاطعه ولا يقطع عليه حبل أفكاره، وإن اختلف معه في الرّأي والفكر، لأنّ بالاختلاف يزداد الحوار ثراءً ورقيًّاً، ولا يجب تحويله أبداً إلى موقف ضغينة أو خصام بين الطَّرفين. وإلى جانب الآداب الخُلقيّة هناك آداب علميّة لا بدّ من الالتزام بها، وأعني بها وجوب وجود خلفيّة علميّة للتوصّل إلى نتائج مُرضية ومنطقيّة في ختام أيّ حوار، إذ لا يمكن أبداً أن نتوقّع شيئاً بين متحاورَين لا يعرفان شيئاً عن الموضوع أو القضيّة الّتي هم بصدد الحديث بشأنها، كما يجب أيضاً تبنّي أسلوب الحجج والبراهين وطرح الأمثلة الّتي عادة ما تقوّي الحوارَ وتزيده عمقاً وثراءً، وتجعله أكثرَ واقعيّة وفهماً للطرفِ الآخر. وفي الختام لا بدّ للحوار من رسالة يتوخّى كلا طرفيْه إيصالَها: قد تكونُ عِلميّة، أو خُلُقيّة أو سياسيّة أو اجتماعيّة أو فلسفيّة، يُشترَط فيها القدرة على بناء الإنسان والمجتمع وتجديد قواه الفكريّة والرّوحيّة. وبغض النَّظر عنِ المفهوم الكلاسيكي للحوار الّذي عادةً ما يكون بين شخصين أو أكثر بشأن قضيّة ما، فهناك مستوى آخر من الحوارات وهو الأعمق والأهمّ، وأعني به حوار الإنسان مع ذاته، وهو أشبه ما يكون بتحدُّث الشّخص مع شخصٍ آخرَ لكنّه في الحقيقة صوت داخليّ يمثِّل الشَّخص نفسه بغرض الوصول إلى تحقيق نوع من التَّناغم والوئام الرُّوحيّ عبر التَّخلُّص من كلِّ الجَّوانب والأمور السّلبيّة الَّتي كانت تضبِّب رؤى الشّخص المتحاور مع ذاته، أو من خلال استدعاء الذّكريات والمواقف السَّعيدة والجميلة في حياة الإنسان والَّتي ساعدته على أن يصبح الشَّخصَ الّذي هو عليه الآن بكلِّ نجاحاته وانتصاراته، وخيباته ومراراته أيضاً، وهو هذا النَّوع من الحوار الَّذي تبنّيْتُه في هذه الرِّحلة مع صبري يوسف، هذا الأديب الّذي عرف جيّداً كيف يحفر بأسئلته في عمق البنية الرُّوحيّة لبعضٍ من مكنوناتي الفكريّة والثّقافيّة والأدبية والحياتيّة الّتي

كوّنت عبر الأيّام والسّنين هذه الكينونة الفكريّة والإنسانيّة الّتي أصبحتُها اليومَ بشكل أو بآخر.

٩٤. السَّفر في حياة أسماء غريب، ماذا عنه؟

حياتي قضيتها مسافرة، وأحمق من يظنُّ أنّه وحده التّنقل من بلد إلى آخر هو السَّفر الحقّ، إنَّما السّفر هو ذاك الَّذي يكون بدواخلنا، هناك في الأعماق الّتي تشكّلت عبر تاريخ الإنسان مذ ألبسَهُ خالقُه رداء الطِّين، وأنبت له فيه الأجنحة ليحلّق بها في أعالي الملكوت. هناك في أرض الجسد الَّتي جمعت بين الجليد والنَّار، وبين الجبال والسُّهول، وبين المروج والصّحاري، هناك حيث أنتَ أيضاً أيُّها القارئ العزيز كنز مدفون، وحيث أنا في أسفاري هذه أتعلم وأتذكّرُ كل يوم شيئاً جديداً عن أجسامنا، وأدخل في سبيل هذه المعرفة إلى مواقع غريبة حقّاً أجد فيها أحافير الأسماك وهياكل أجدادي العظميّة وأنصتُ لها وهي تروي لي تاريخي وكيف كنت منذ آلاف السِّنين، بل كيف كنّا أنتَ وأنا منذ بدء الخليقة إلى اليوم. حتَّى أنَّني أسأل نفسي وأقول: من يدري، لربَّما كنتُ ذات يوم سمكة لا ككلّ الأسماك –كإشارة منّي إلى رمزها الرّوحيّ–، تعلَّمتُ كيف أغادر الماء لأعيش في اليابسة، وأشياء أخرى كثيرة وأنا في أرض جسدي: مثلاً كيف أمشي وأسبح، وكيف أتكلّمُ وأكتبُ، وكيف أسافر وأطير، وكيف أكون في النَّار كما في الماء، وفي الجليد كما في الصَّحراء دون أن أفقد ذاك الحبل السِّرّي الَّذي يُمَكِّنُني من التَّواصل مع ذاتي الدَّاخليّة العليا، وأبقى معها في تحاورٍ وحوار مستمرّ، كما فعلتُ في هذا الحوار المئوي الَّذي عبَّرتُ فيه عن البعض من مكنوناتي، ووضعتُ نفسي من خلاله تحت مجهر التَّطوّر، لأراقبَها كيف أصبحتْ وإلى أين تريدُ الوصول، وما الَّذي أفادتهُ من تجاربها وتحوّلاتها الفكريّة والرُّوحيّة إلى اليوم.

٩٥. ماذا كانت تحبّ أسماء غريب أن تكون غير ما هي عليه الآن؟

ربما ليس هذا أقصى ما كنتُ أريد الوصول إليه أو تحقيقه لا سيّما في مجال الإبداع الأدبي، لكن عندي اليقين أنّني لم أنْوَجد في هذه الحياة إلّا من أجل أن أكُدَّ وأعمل وأسعى إلى ما أرغب في أن تكون عليه حياتي حقيقة. قد لا يبدو الأمر في عيون الآخرين بذات الأهمّيّة الّتي تبدو في عينيّ، لكن هذا ليس بالمهمّ أبداً، لا سيّما وأنّني أعرف جيّداً أنّ مهمّتي هي الخَلقُ كما خالقي. وأعرفُ أيضاً أنّ الله خلق كلّ شيء من حولي والكون بأسره من أجلي ككينونة إنسانيّة، لكنّه يريد منّي أن أكمل الباقي. نعم، اللهُ يخلقكَ أيُّها الإنسان، لكن عليك أن تتولّى الأمور الأخرى بنفسكَ، أيْ أن تخلقَ حياتكَ! وفكرتي هذه تفسّرُ سبب عدم استجابة الله لكلّ أدعيتك على الأقل ظاهريّاً. كثرة الصَّلاة لا تنفع، إنّما العمل والحركة بالمحبّة هما اللّذان يحرّكان الوجود، وينقلان الجبال من أماكنها. حينما نسمع من الآخرين أنّ الصَّلاة بقيت غير مستجابة، أو أنّ أدعية النّاس لخالقهم في أن يغيّر حياتهم إلى الأفضل ظلّت بدون نتيجة، فهذا مردّهُ إلى أنَّ حرارة المشاعر الّتي يصلّي بها الإنسان قد بدأت تعمل حقيقة لكن هناك أفكار أخرى بداخله تتحكَّم فيها، لأنّ النَّاس غالباً ما يطلبون ما هو ليس موجوداً عندهم، ولا يحمدون أبداً الخالق على ما عندهم. ولربّما قلّة هم أولئك الّذين يعرفون أنَّ الذَّات العليا يمكنها أن تعطيك كلّ شيء إلّا ذاك الشَّيء الّذي لا تملكه! على الصَّلاة أو الدُّعاء أن يكون دعاء حمد وشكر لا طلب. وهذا لا يعني بتاتاً أنَّ الذَّات الإلهيّة ذاتاً مزاجيّة تجيب متى ما تريد على الأدعية، ولا يعني أيضاً أنَّ عليها أن تحقِّق لك كل ما تريده، وذلك لأنّها لا تكوّن حياتَك أو تخلقها، وإنّما تعتني بك وتراقبك كيف ستخلق حياتك أنت لوحدكَ، وهذا يعني أنّها تضفي عليك وتهبك أسمى صفاتها: الخلق والإبداع.

لكن كُنْ على حذر هنا أيضاً، لأنّ كون الخالق يدعكَ تخلقُ حياتَك كما تريدها أن تكون، فإنّه لا يعني أنّه سيحقّق معك فيما عليك أن تقوم به أو في

الطَّريقة الَّتي اخترتها هل هي صائبة أم لا؟ وذلك لأنّه عليك أن تعرف جيداً أنّه طالما أنت تحت عينه الّتي لا تنام وتؤمن بذلك إيماناً راسخاً، فإنّه لن يصيبك أيّ مكروه، لأنّك في أرض الأمان والسَّلام الإلهيَّيْن.

ستصبح كما أيّ قديس أو وليّ: تعيش في سلام داخلي كبير، وسيحاول النّاس أن يفعلوا مثلك وهم يستغربون كيف أنّك مثلاً لستَ بنفس ثرائهم الماديّ، ومع ذلك فأنت إنسان سعيد، وسريعاً ما سيتحوَّل استغرابهم إلى حسد ثمَّ إلى غضب، لأنّهم لا يستطيعون مشاركتك الفرح والبهجة اللَّذان يفيضان عليك باستمرار.

النَّاس يفعلون هذا لأنّهم يشكّون في شيء اسمه الله الكامن بداخلهم، وهذا الشَّك غالباً ما يحوّلُ كلَّ شيء إلى خوف وغضب، لكن هذا الشّك يصبح أكثر خطورة حينما يتحوَّل إلى رغبة الإنسانيّة كاملة في خلق قوة معاكسة لهذه القوّة الإلهيّة الَّتي يوهمون أنفسهم بغيابها، وهذه القوّة المعاكسة هي (إبليس)، ويبلغ الهذيان الإنساني ذروته حينما يتخيّل كلّ فرد وجوب دخول الذَّات العليا في حرب مع هذه القوّة الشَّيطانيّة، وهو متأكّد في قرارة نفسه من هزيمتها وخسرانها مادام يشكّ أصلاً في وجودها وخلقها للكون بأسره، وهذا كلّه يتعارض مع ما يفصح عنه عادةً العديد من النَّاس في معرفتهم للخالق مصداقاً لقوله عزّ وجلّ: ((وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)) (لقمان / ٢٥).

٩٦. القراءة وإشكالياتها الثّقافيّة والفلسفيّة والتّأويليّة، كيف تواجهها أسماء غريب؟

القراءة عالمي الّذي أسّستُه بمعول البهجة والفرح منذ طفولتي إلى اليوم: إنَّها عيادتي الخاصّة الّتي أدخلها لأرتّب شؤوني الدَّاخليّة. كنت دائماً أحرص على اختيار ما أراه الأفضل بالنّسبة لي، لكن هذا الاختيار أصبح صعباً للغاية

اليوم، لأنّ فعل الكتابة يعيشُ أسوأ عهوده، فما عادت ثمّة كتابات قادرة على هدم الجدران الدَّاخليّة وبناء المملكة الإنسانيّة من جديد. معظم المؤلّفات تسقط فيما هو سياسي، أو استهلاكي تسويقيّ محض. الرِّواية والرِّوائيُّون في أزمة، وكذا أهل النَّقد الأدبي، وكتب اللّاهوت والدّين مازال أصحابها يتخبّطون بين الحلال والحرام، ويعيشون في عباءات الماضي السَّحيق، وجلابيب الخوف والرُّعب من التَّجديد والتَّنوير. لأجل هذا أقول، إنَّني أعيش حاليَّاً فترة ملل ممّا تُنتجه وتطبعه دور النَّشر في العالم الغربيّ أيضاً. كما يؤسفني أيضاً ما آل إليه أدب الطّفل – بما أنّني ممّن يحبّ كثيراً قراءة هذا النَّوع من الإبداع الأدبي وحكاياته الأسطوريّة والخرافيّة –: نعم، هناك أزمة حقيقيّة في هذا المجال؛ إذ ليس هناك من جديد، والكل يقوم بتكرار واجترار ما أبدعه الأوائل من قبيل حكايات شارل بيرو والأخوين غريم وهانس كريستيان أندرسن، وغيرهم من بعض الأدباء الرّوس الَّذين أبدعوا وتفوّقوا في هذا المجال.

نحن بحاجة إلى الجديد، ذاك الَّذي يعيد إلينا فرحة الاندهاش والبراءة الحروفيّة، لكنِّي لست متشائمة ولا خائفة ممّا أراه من تكلُّس فكري، بل أعتبره فرصة للتركيز على الكتاب الحقيقي الّذي عليّ أن أقرأه بامتياز وأتفنّن في العثور على مفاتيحه التأويليّة والفلسفيّة الخاصّة؛ وأعني به كتاب الوجود: كينونة الإنسان الدّاخليّة وعلاقتها بخالقها والكون الّذي يحيط بها. هذا الكتاب هو أمُّ الكتب كلّها وخميرتها الأولى، ونحن مازلنا لم نكتشف لليوم فيه أيّ شيء له قيمة معرفيّة وروحيّة تُذكر. هذا الكتاب يحتاج إلى الكثير من الشّجاعة، ومن القدرة على الهدم من أجل إعلاء صروح فكريّة جديدة قادرة على السّير قُدماً بالإنسان، والوصول به إلى مدارج الرّقي الحضاري.

هل تتذكّرون طفولتنا البعيدة أيُّها الأصدقاء؟ حينما كنّا صغاراً نستعجل تعلّم الحروف لنصبح أكثر قدرة على القراءة، لأنّنا كنّا متشوّقين أكثر لاكتشاف تلك العوالم الّتي كان يحكي لنا عنها الآباء والأجداد قبل الخلود إلى النّوم؟!

أين ذهب هذا الشَّوق للتعلُّم والعلم وللقراءة؟ ضاع كلّ شيء، وأصبح المراهق اليوم يُغلق عليه في غرفته وحيداً بعد أن كان هو من يحفّزُ في طفولته والديه ويحثّهم على أن يقرأوا له كلّ يوم قصّة أو كتاباً. إنّه لا يريد اليوم أن يزعجه أحد، وذريعته في هذا أنّه يقرأ وعنده امتحانات يجب أن يستعدّ لها: يا للهول، يقرأ في غرفته، ماذا؟ لا، بل إنّه يحمل كتابَه المدرسي ووسطه كتيّب آخر للتسلية، ربّما للكلمات المتقاطعة، أو مجلّة صغيرة من مجلّات الإعلانات الإشهاريّة لنساء جميلات عاريات مثلاً. إنّه في حالة مهولة من الملل، والآباء يعرفون هذا جيّداً، لكنَّهم يتظاهرون بعدم معرفة أيّ شيء، ويحاولون تصنّعَ الهدوء وهم جالسين في صالة غرفة الأكل أمام التّلفاز سعداء بابنهم الّذي في غرفته "يقرأ"!.

أين ذهب ذاك الطّفل اللّطيف الصَّغير الّذي كان يتورّط معهم في رواياتهم وأساطيرهم الخياليّة بمكر طفوليّ جميل؟! لقد اختفى تحت سمّاعاته الملصقة بأذنيه يستمع إلى موسيقى الرُّوك الصَّارخة، أو أمام هاتفه الذَّكيّ يشاهدُ مقاطع من أفلام أنتم أعلم بها منّي أيُّها السَّادة، أو ذهب إلى لقاء أصدقائه في أحد الملاهي اللَّيليّة، أو إلى مشاركة أحدهم تدخين سيجارة مشبوهة! يا للهول، لا أحد يقرأ فعلاً، وفيديوهات اليوتيوب الّتي تُظهِرُ مجموعة من الشّباب أو الشَّابات وهم يستعرضون كمْ من الكتب والرِّوايات قرَؤُوا، كاذبة كلّها، لأنّ أصحابها كاذبون، والجميل في كلّ هذا أنّهم يعتقدون أنّ عين المتخصّص لن تكتشف كذبَهم، وسذاجتهم والمحنة الفكريّة الّتي يمرّون بها، والّتي لا محالة ستنتج لنا جيلاً من الشّباب الكاذبين والمخادعين في كلّ شيء!

٩٧. لنعد إلى صقليّة أو جزيرة الشَّمس كما تحبِّين تسميتها، ماذا عن المسرح فيها وبالذّات مسرح الطّفل؟

لا يمكن الحديث عن مسرح الطّفل في صقليّة دون الحديث عن ثلاثة رجال هُم المؤسِّسون الحقيقيّون والأوائل لهذا المسرح، وهم كلّا من دجوزيبه بيتريه، وأنطونيو باسكوالينو وميمّو كوتيكيو. أمّا عن ذكري لاسم دجوزيبه بيتريه فذلك مردّه إلى ارتباطه بالمادّة الخام الّتي استند عليها معظم المهتمّين بمسرح الطّفل –عالميّاً وليس فقط على المستوى الإيطالي– من أجل كتابة نصوصهم المسرحيّة. وهي المادّة الخام الّتي تتكوَّن من أرشيف ضخم يوثّقُ فولكلورَ وعادات وتقاليد الشُّعوب الأوروبِّيّة، إضافة إلى موسوعة الأغاني الشَّعبيّة الَّتي تتحدَّث عن العشق والمحبّة والأمثال والحكايات والقصص القديمة جدَّاً، وغيرها من النُّصوص الَّتي تهتمُّ بالطّب الشّعبي والأعياد والاحتفالات الشَّعبيّة أيضاً. ولقد أصبحت هذه الموسوعة فيما بعد مادّة استلهاميّة مهمّة لأدباء آخرين، أشهرهم دجوفاني فيرغا ولويدجي كابوانا.

أصبح دجوزيبه بيتريه سنة ١٩٠٣ سيناتورا بمجلس الشِّيوخ الرُّوماني آنذاك وفي سنة ١٩٠٦ بدأت تصدر مجلّته التُّراثيّة الشَّهيرة الموسومة بـ "أرشيفات من أجل دراسة العادات والتَّقاليد الشَّعبيّة". وقد كانت له في إطار العمل من أجلها مراسلات ثريّة وقيّمة مع العديد من الدَّارسين والباحثين في مناطق مختلفة من أوروبا وهي الآن كلّها محفوظة في المتحف الإثنوغرافي الصَّقلِّي الّذي يحمل اسمه (دجوبيه بيتريه).

توفي دجوزيبه بيتريه بمدينة باليرمو سنة ١٩١٦ (١٠ نيسان). وترك تراثاً ضخماً أذكر منه على سبيل المثال:

. النَّحو الصّقلِّي؛

. صلاة الغروب بين العادات والتَّقاليد الصَّقلِّيّة؛

. الحياة في باليرمو لمئة سنة مضت، وهذا الكتاب من مجلدين؛
. الكتاب الأحمر؛
. ثمَّ قصص جحا.

أمّا بالنّسبة لأنطونيو باسكوالينو فهو طبيب جرّاح ومؤرّخ وعالمٌ أنثروبولوجي. وقد أوقف هو أيضاً حياته على الاهتمام بكلِّ ما له علاقة بعادات وتقاليد الحضارة الصّقليّة كيْ يحكي من خلالها تاريخ أوروبا وملحماتها الشِّعريّة ويجسّد عبرها أدوار فرسانها العظام الَّذين كانوا يحاربون في جيوش الإمبراطور شارلمان أو كارل الكبير الّذي دام حكمه من سنة ٧٤٢م إلى ٨١٤ م.

ومعظم النُّصوص الَّتي تجسِّدها الدّمى على خشبة المسرح بمدينة باليرمو كانت ولم تزل مقتبسة من أساطير وحكايات نشيد رولاند، ومن أعمال أدباء إيطاليين آخرين مثلاً ملحمة توركواتو تاسّو والموسومة بـ (تحرير أورشليم) وملحمة أورلاندو فوريوزو أو أورلاندو الهائج لكاتبها لودوفيكو أريوستو وكان قد ظهر أوَّل إصدار لها سنة ١٥١٦ م. إضافة إلى الحكايات الأخرى الَّتي تتعلَّق بانتصارات البطل القومي الجنرال دجوزيبّه غاريبالدي (١٨٠٧/١٨٨٢) والمتعلّقة بحروب الاستقلال والوحدة التّرابيّة الإيطاليّة.

لحماية هذا التُّراث التَّاريخي والأدبي القيّم من الضّياع قام الأنثروبولوجي أنطونيو باسكوالينو رفقة زوجته دجين فيبابيك / Jeane Vibaek ومجموعة من المثقَّفين بتأسيس جمعيّة الحفاظ على عادات وتقاليد الشُّعوب وذلك عبر السَّهر على ترتيب وتنضيد كلّ الدُّمى الَّتي تمّ صنعها إلى تلك الفترة بكلِّ تفاصيلها وأكسسواراتها وحتَّى نصوص المسرحيّات والملحمات الّتي كانت ولم تزل الدُّمى إلى اليوم تؤدِّي أدوار شخصيَّاتها المتعدِّدة والمتنوِّعة. وتلا بعد هذا الحدث تأسيس مسرح خاص بهذه الدّمى سنة ١٩٧٥، ومنذ تلك الفترة لم يكفّ المسرح عن تقديم أنشطة

ومسرحيّات لا حصر لها، إضافة إلى أنشطة المهرجان الشَّعبي "مرجانة" الَّذي ينظمه المسرح كل سنة بمعظم مدن صقلّيّة.

لكن الرّجل الحكّاء ميمّو كوتيكيو يبقى العقل الّذي بثّ الرّوح في كلّ هذا التُّراث الَّذي جمعه كلّ من دجوزيبه بيتريه وأنطونيو باسكواليني، لأنّه بكلّ بساطة هو من كان ومازال يحمل مسرحه المتحرّك ويدور من بلد إلى بلد ليجسد النُّصوص التُّراثيّة ويصنع الدّمى الخاصّة بها والَّتي كان ومازال ينتظرها أطفال الجزيرة وسواحلها باشتياق وحماس لا نظير لهما. وهو اليوم يعدّ من أيقونات مدينة باليرمو عاصمة الثّقافة في أوروبا باعتباره لم يكتفِ فقط باستخدام التُّراث الصّقلّي في مسرحيّاته وإنّما جدّد فيه وأضاف وكتب نصوصاً أخرى تحتفي بجزيرة الشَّمس في كلّ تجلِّياتها، وبكلّ ما فيها من تنوُّع ثقافي وإثنوغرافي.

٩٨. ماذا عن جديدكِ الإبداعيّ؟

بالنّسبة للترجمة، أنا منشغلة في هذه الفترة بتحرير الجزأين الثَّالث والرَّابع من (ترجمتُ لكَ)، وهي الموسوعة الَّتي صدر جزءَاها الأوَّل والثَّاني في أيار ٢٠١٨ عن دار الفرات للثقافة والإعلام بالعراق. وسيتطلّب هذا العمل الكثير من الصّبر والأناة حتَّى أتمكن من تنسيق النُّصوص وتنقيحها وتنضيدها سواء في الجزء الخاص بالشِّعر أو بالقصّة والمسرح، مع الحرص طبعاً على تزويد المادّة المترجمة بالسِّير الذّاتيّة الخاصّة بالأدباء المترجم لهم من كلا الضّفَّتَين الغربيّة والشَّرقيّة.

أمّا في مجال النَّقد، فمازالت ورشة العمل على الجزء الثَّاني من (كواكب على درب التَّبَّانة) مفتوحة وفي كلّ مرّة أضيف إليها دراسة نقديّة موسَّعة عن علم من الأعلام الأدبيّة العربيّة وفقاً لبرنامج صارم سبق وحدَّدت خطوطه العريضة منذ صدور الجزء الأوَّل. وفي إطار الإبداع الشِّعري أنا مقبلة على الانتهاء من ديواني

الجديد، والَّذي أفضل الاحتفاظ بعنوانه حاليَّاً إلى أن أكمل العمل على الجزء الثَّاني منه.

٩٩. بعد عامين قضيتهِما في الرَّدّ على أسئلة هذا الحوار كيف تقيّمين رحلتكِ المئويّة هذه؟!

أعتقد أنّها كانت من أجمل الرّحلات الحواريّة على الإطلاق! أذكر أنّه حينما وصلتني ورقة أسئلتك المئة، قرأتها لأكثر من مرّة، وبقيتُ لقرابة أيّام أفكّر فيها، كيف سأبدأ ومن أين؟ كنت أعلم أنّها ليست من النَّوع التَّقريريّ ولا الصّحفي، لذلك اقتضى منّي الأمر أن أتريّث كثيراً. كان لا بدّ من إعادة ترتيب الأسئلة أولاً، ثمّ قرَّرتُ أن أختار لها المنهاج السِّيرذاتيّ، لا سيَّما وأنّه شجَّعتني في تلك الجملة الأخيرة الّتي بها ختمتَ الورقة: ((بإمكانك أن تحذفي أي سؤال لا تستهويك الإجابة عنه، كما تستطيعي أن تضيفي أي سؤال فاتني حول تجربتك الأدبيّة والفنّيّة وتجيبين عنه!)).

نعم لقد كان الانطلاق من هذه الجملة الَّتي بها أصبح الحوار حوارا مع الذَّات الدَّاخليّة، وكذا مع الذَّات العليا، فأضفتُ بعضَ الأسئلة واحتفظتُ بمعظم أسئلتكَ، وهو الأمر الَّذي وجدتُ فيه من الحرّية ما أعطاني مساحةً فيها الكثير من المرونة بشكل مكّنني من التَّحرّك والحفر في ذاتي بكلِّ الاتجاهات بدءاً من الطُّفولة وصولاً إلى اليوم، وفي كثير من الأحيان كنت أشعرُ بالمفعول "السِّحريّ" للأجوبة: لقد كانت قادرة أيضاً على أن تخلّصُنِي حتَّى من بعض المرارات الّتي تراكمتْ عبر السِّنين! نعم، الحوار كان لهُ أيضاً هذا الدَّور (الاستشفائيّ / terapeutico) عبر التَّنفيس عن بعض المكنونات الَّتي كانت تضغط عليّ في الاتجاه الخطأ. وفي هذا الإطار يمكنني أن أقول إنّ الحوار كانت له أيضاً (كراماته)، فمثلاً وأنا أتحدّثُ عمَّا كان يقضُّ مضجعي في مجال الإبداع التَّرجميّ وما كنتُ أراه فيه من كيْد ومكر

ونصب واحتيال (انظر الجواب رقم ٢٠ في الجزء الأوّل من الحوار)، قطعتُ على نفسي وعداً بنشر أعمالي الّتي ترجمتُها إلى اليوم، وحدثَ أن تحققّ الوعدُ والأمنيّة، وظهر إلى الوجود الجزءان الأوّل والثّاني – بعناية وتوفيق إلهيَّيْن – من موسوعتي في مجال التَّرجمة (انظر الجواب رقم ٧٩ في الجزء الثّاني من هذا الحوار)، إضافة إلى كرامة أخرى لها صلة وثيقة بما كنت أعانيه من تطفّلِ بعض "الأدباء والأديبات" الَّذين يدّعون الأدب والإبداع العرفانيّ في صفحتي الفيسبوكيّة الأولى، لا سيَّما وأنّهم كانوا يزعجونني بإرسالهم لأعمالهم من أجل الكتابة عنها أو ترجمتِها، وهم يعلمون جيّدا أنّني منشغلة ومتفرّغة تماماً لهذه الرِّحلة المئويّة ولإبداعاتي التَّرجميّة والشِّعريّة الأخرى، فحدثَ أن تطرّقتُ في أجوبتي إلى سفاهة وخفّة عقول بعض أهل "العرفان" المعاصر المزيّف، وتضخّم الأنا وجنون العظمة لديهم، فانخسفوا، وألغيتُ صفحتي الأولى، وارتحت منهم ومن جنونهم إلى الأبد. ثمّ فتحت صفحة فيسبوكيّة جديدة احتفظت فيها ببعض "الصَّداقات" القليلة جدّاً.

١٠٠. كلمة أخيرة تكون خاتمة لهذا الحوار؟!

لا بدَّ من كلمة شكر أتوجّه بها لمقامك الكريم أيُّها الأديب الفاضل صبري يوسف على ما تفضّلت به من قراءة واعية لكلّ أجوبة هذا الحوار، بروح مفعمة بالسَّلام والاحترام والمحبّة، وعقل مكلّل بتاج الصّبر والالتزام بآداب الحوار الإنسانيّ والحضاريّ الرّاقيّ، ولا يفوتني طبعاً في الختام أن أدعو لزميلات الحرف وإخوتي في الإبداع بالتَّوفيق وهُم على أبواب خوض تجربة حوارية تقترحُها عليهم مثلما اقترحتها عليّ قبلهم. وآخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين!

الملاحق

مقتطفات من تعقيبات الأديب والتّشكيلي صبري يوسف

على بعض من أجوبة هذه الرّحلة

١) الأديبة المبدعة والمترجمة والنّاقدة الرّاقية د. أسماء غريب، كم أشعر بالفخر والاعتزاز أنّني أجري معكِ هذا الحوار يا أيّتها الصَّديقة المبدعة، وكم سررتُ عندما قمتِ بترجمة ديواني "السَّلام أعمق من البحار"، وقدَّمتِ دراسة نقديّة تحليليّة عن أدبي وفنّي حول السَّلام والوئام بين البشر ونشرتِ هذه الدّراسة ضمن ديواني السَّلام أعمق من البحار كمدخل عميق بعد ترجمته إلى الإيطاليّة، ونشره عن دار أريانّا الإيطاليّة، سررت جدَّاً بترجمتك وطريقة توغُّلكِ إلى أعماق حرفي ونصِّي ولوني، أراك بمثابة راهبة في الأدب والتّرجمة والنَّقد وفي النَّشر والصِّياغات النِّهائيّة للكتب شعراً ونقداً وترجمةً! وكلُّ هذا الإبداع الَّذي تتميّزين به، دفعني بكلِّ سرورٍ إلى إعداد هذا الحوار معكِ: رحلة المئة سؤال وجواب، وهو مشروع كتاب حول تجربتك الإبداعيّة، وتأتي إجاباتكِ عميقة، وأشعر أنّني قمتُ بواجبي تجاه قامة شاهقة من قامات الأدب في العالم العربي، وكم بديتِ لي أنّكِ تحملين رؤية تصبُّ في العالميّة من حيث الانفتاح والإبداع والتَّواصل، فلم أجد سلاسةً في التَّعامل مع وهج الحرف قراءةً ونقداً وترجمةً وشعراً مثلما وجدتها عندكِ، وأرقى ما تتميَّزين به هو عشقكِ العميق لكلِّ حرفٍ تكتبينه في أيِّ مجالٍ أدبي، لهذا كلّه يغمرُني الفرح العميق يا جميلتي المبدعة أنّكِ من الصَّديقات المجنّحات نحو سموِّ الحرف بأجمل وأرقى معانيه، ولهذا أيضاً تعمَّقَ التّعاون في الأعمال الإبداعيّة فيما بيننا، وكم كنتِ مبدعة في قراءتكِ النَّقديّة لأدبي وفنّي في كتابك النَّقدي الأخير الَّذي حمل عنوان: تَمثُّلاتُ السّادة الملائكة الكروبيّين في تجربة صبري يوسف الإبداعيّة (من الأدب إلى الفنّ التّشكيليّ)، وكم سرِرْتُ عندما أمسكتُ قلمي وكتبتُ مقدّمة هذا الكتاب، متوغِّلاً في أعماق ما جاء فيه من تحاليل خلّاقة، قلّما نجد من يتناول الأدب من

هكذا رؤية شاهقة في التَّحليل، وكم أشعر أنّني مَدين لكِ يا عزيزتي المبدعة بكلِّ ما قدّمتينه وتقدِّمينه لي وللإبداع في العديد من الأجناس الأدبيّة وأراك في مصافِّ المبدعات الشَّرقيات العربيَّات الّتي عندها إمكانيّات عميقة تضاهي الكثير من المبدعات الشَّرقيّات والغربيّات بإمتياز، دمتِ متألِّقة يا صديقتي الأديبة الشّاهقة الخلّاقة د. أسماء غريب!

٢) مبدعة بامتياز، كم أشعر بالفخر والاعتزاز وأنا أقرأ إجاباتكِ العميقة الرَّهيفة الشَّفيفة، وأنتِ تغوصين في بحار الأدب والإبداع ووهج الحرف، وكم شعرتُ أنّني أمام مسؤوليّة كبيرة وأنا أكتب مقدِّمة لديوانك ٩٩ قصيدة عنكَ، وقد تربّعتْ مقاطع من هذه المقدِّمة على ظهر الغلاف، وكم شعرت وأنا أقدّمك أنّني أمام قامة إبداعيّة شاهقة، في كيانكِ وهج الحرف ينمو ليل نهار، أنت يا صديقتي المبدعة مجبولة من طينِ الحياة وألقِ الرُّوح المتصاعدة نحو بهاء السَّماء وأنت تسبحين في رحاب الحرف ووهج الألوان، في روحك تنمو حبور القصائد، تشبهين حلماً منساباً فوقَ مآقي الغيوم، هل كنتِ يوماً غيماً متهاطلاً فوق مروج القصائد؟! فجاءت قصائدك معبّقة باخضرار الحياة، كم أشعر بحنين الكلمة وأنا أنسجها فوق بسمة الرُّوح قبل أن تناغي هدهدات ليلك المفعم بالتَّجلي، تنسجين القصيدة من شهقة انبعاث الرُّوح وهي تسمو نحو أشهى تجلِّيات الخيال، استلهمت يوماً نصّاً شعرياً رهيفاً من معالم فضاءاتك ونصوصك وألوانك فكان جزءاً بهيّاً من أنشودة الحياة، كوني مطراً خيّراً منبعثاً من بسمة السّماء فوق أسرارِ الحياة أيّتها الأديبة المبدعة د. أسماء غريب! دمتِ بخير وأنتِ تحلِّقين عالياً تغترفين ألقاً شهيَّاً من نكهة العسل البرّي وتحبكينَ أشهى تجلِّياتِ بوح الحرف فوقَ خدودِ القصائد!

٣) لماذا لا تنفتح آفاق المؤمنين والمؤمنات للسلام والوئام كالتّنويريّة الصُّوفيّة د. أسماء غريب؟

لو كانَ منهج البشر في العالم العربي من طينة الأديبة والمترجمة والنّاقدة المبدعة، التَّنويريّة الصّوفيّة المغربيّة د. أسماء غريب، لكُنّا بألف ألف خير، ولما نشبت حربٌ أو صراع ولا تمَّ إطلاق رصاصة واحدة في الشَّرق أو الغرب أو في أيّةِ رقعة جغرافيّة في العالم، فهي مبدعة صوفيّة ولها قلب عفيف رهباني وئامي ومتنوِّر بالمحبّة والعطاء الخلّاق، وروحها صافية صفاء المطر ومبلَّلة بخيرات نعيم السّماء. كم نحن البشر نحتاج هكذا إنسانة بهذا الصَّفاء الرُّوحي والإنساني والعطاء الصُّوفي الرّاقي، كم يحتاج العالم العربي والغربي إلى التَّشبُّع بهذه الثَّقافة الرّوحيّة الرّاقية باستلهام وترسيخ رحيق جوهر الأديان، فقد تمعّنَت المبدعة الخلّاقة أسماء غريب بالأديان السّماويّة، واصطفَتْ من هذه الأديان أرقى ما فيها من تجلّيات السَّلام والوئام والمحبّة بين البشر، وتستشهد بكتاباتها وتطلُّعات آفاقها بما قاله الرُّسل والأنبياء والقدِّيسون من سائر الأديان حتّى يخّيل لمتابعيها أنّها متشرّبة من كلِّ الأديان وكأنّها (يهوديّة مسيحيّة مسلمة) مستنيرة بروحانيّة منقطعة النّظير، إنسانة صافية صفاء نور الصَّباح المنبعث من الشّمس والَّذي يضيء العالم، قرأتِ الأديان السّماويّة والأديان الأرضيّة والآداب العربيّة والعالميّة والفلسفة الشَّرقيّة والغربيّة، ووصلت إلى مرحلة الصّفاء الرّوحي والفكري الخلّاق فيما يخصُّ علاقة الإنسان بالإنسان وعلاقته بربِّ الأرضِ والسّماء، تدهشني شفافيّة روحها ونقاء قلبها وصفاء فكرها وروعة انفتاحها على كلِّ ما هوّ خيِّر وسلام ومحبّة في الحياة، وتبدو لي كأنّها رسولة المحبّة والكلمة الطّيّبة والسَّلام والوئام بين البشر كلّ البشر، ورأيت فيها مؤمنة كونيّة بكلِّ ما هو إبداعي جميل وروحي وسماوي بطريقة هادئة شفيفة رحيمة حنونة مضيئة مثل شمعة للبشر كلّ البشر، فلا يشعر من يتابع كتاباتها وقراءة أفكارها ومقالاتها وأشعارها وقصصها ونصوصها إلّا وأنّه أمام طاقة روحيّة فكريّة إبداعيّة صافية ومشبّعة لفعل الخير والفضيلة والمحبّة والتَّواصل مع الخالق رب السّماوات بكلِّ صفاء، وجلّ إهتمامها منصبّ على ترسيخ قيم السَّلام بين البشر،

وقد اخترتُ مجموعة من مقالات ونصوص المبدعة الصُّوفيّة أسماء غريب ونشرتها في ملف خاص في العدد الرَّابع من مجلّة السَّلام الدَّوليّة، الّتي أحرِّرها من ستوكهولم، وتعمل الدّكتورة كمستشارة في هيئة التّحرير، وقد حمل ملفّها عنوان: "نصوص في وعن السَّلام، ملف خاص عن السَّلام"، تضمّنت العناوين التّالية: "رسالةٌ إلى أبي آدم في السّلم والسّلام، رسالةٌ إلى صديقتي بيرثا فون سوتنر، الإيمان والموسيقى، وجهان لمعزوفة واحدة اسمُها السّلام، سفيرةُ السّلام، سانتا آغنيس، راهبة علمانيّة، كيارا: الشّمعةُ العارية، شمسٌ وبدر: روزالبا ونيكولاس، سِدرةُ المُنْتَهَى". وتناولت عبر مقالاتها الثّمانية جوهر السَّلام من منظور جوانب دينيّة عديدة بكلِّ رحابها حول مرامي السَّلام، بأسلوب متفرِّد من نوعه، كأنّها راهبة صوفيّة مشبّعة ومتنوّرة بكلِّ الأديان، ممّا جعل نصوصها ومقالاتها عميقة المغزى والرُّؤية والتَّحليل.

إنّي أتوسَّمُ بالمبدعة الرَّاقية أسماء غريب كأنموذجٍ راقٍ عن تآخي الأديان، إنسانة منفتحة بروحانيّة عالية على رحابة آفاق الأديان وتستشرف منها رحيقها الأسمى وجوهرها الأنقى وتسير بموجب ما يقنعها من رؤية روحيّة وئاميّة خلّاقة، كأنّها تنتمي إلى دين الإنسان ودين الأديان السَّماويّة المتناغمة مع آفاق ربِّ السّماء، فكم نحتاج إلى تكريس وترويج ثقافة السَّلام بهذه الشّفافيّة والرُّوحانيّة الرّاقية، بعيداً عن تعصّبات دينيّة ورؤية أحاديّة، لأنَّها مبدعة مجبولة بروح العفاف والسَّلام والمحبّة إلى درجة تبدو وكأنّها تبشِّر بدين الأديان والمحبّة والصَّفاء الرّوحي من خلالِ تبنّيها أسمى ما جاء في الأديان، وهي الطّريقة الأرقى في تعامل البشر مع بعضهم بعضاً بتناغم الآفاق الدِّينيّة، بعيداً عن أيِّ صراعٍ أو خلافٍ، متوقِّفةً عند كلِّ ما هو روحي وإنساني ووئامي لتعميق ثقافة السَّلام والمحبّة بين البشر كلّ البشر على مدى كلِّ الأزمان!

٤) (عن الجواب ٥٢): روعة الرّوعات، إجاباتكِ هي نصوص أدبية سامقة، ودراساتكِ النَّقدية شامخة شموخ القصائد الخالدة، أيّتها الأديبة والمترجمة والنّاقدة الرَّائدة د. أسماء غريب، كم أنا سعيد بهذا الحوار الموسوعي الَّذي يسلِّط الضَّوء على تجربتك العميقة في الأدب والتَّرجمة والنَّقد، وكم يسرّني صبرك وهدوءَكِ ومتابعاتك الحثيثة في الحوار والكتابة والنّقد والتَّحليل بطريقة خلّاقة، دمتِ متألِّقة وباسقة كما عهدناك كأشجار الغابات المخضوضرة بالعطاءاتِ الخيّرة، وكم أتوسَّم بهذا الحوار أن يكون من الحوارات المهمّة على السّاحة الأدبيّة في الشَّرق والغرب في أدب الحوار، هذا الجانب الّذي نفتقره على السّاحة الإبداعيّة بهذا الشُّمول وهذا العمق، لأن الحوار في الأدب والفن والثَّقافة والفكر الإنساني وفي الكثير من ميادين الحياة هو الَّذي يقودنا إلى أعماق المعرفة وإلى جوهر الفكر الَّذي يبدعه المفكِّرون والمبدعون في شتَّى أنواع الأجناس الأدبية والفكريّة والفنِّية في الحياة! أراك على خير كلَّ الخير!

٥) (عن الجواب)٦١: جواب بديع بديع بديع! جواب يلخّص عشرات الصَّفحات ممَّا يمكن أن يُقال في هذا السِّياق، خالص الشُّكر والتَّقدير الدّكتورة المبدعة أسماء غريب على كلِّ ما تفضلتِ به من تحليل وعرض ونقد، وللنتائج الَّتي وصلتِ إليها في رؤاك العميقة حيث تضعين يدكِ على الجراح المتفاقمة في الجسد العربي والشَّرقي، وتعرضين كيفيّة الشَّفاء من تصادمات ما نراه من أسباب التَّخلف في دنيا الشَّرق، مع العديد من الأسباب الَّتي تنبثق ممَّا ذهبتِ إليه. دمتِ متألقة ومتنوّرة وعميقة الرُّؤية في توجّهاتك الإبداعيّة والفكريّة والحياتيّة والرُّوحية، أراك على خير وإبداع متجدِّد في كافة المناحي.

٦) (عن الجواب) ٦٢: إجاباتكِ أشبه ما تكون قصائد منبعثة من حبقِ الشَّمس، في صباحٍ باكر، أشعر بسعادة عميقة وأنا أتصفَّح بشغفٍ عميق رحلة المئة سؤال وجواب! وهل برأيك هذه الرّحلة المئوية تكفي لسبر أغوار شاعرة ومبدعة

من طينة الأديبة الخلّاقة أسماء غريب أم سيتلوها رحلات أخرى في مستقبل الأيام؟ هذا ما ستكشفه لنا مهاميز حرفنا وهو يسطع فوق قبّة الصّباح! دمت متألّقة في بناء الحرف وشموخ الحرف في زمنٍ يزداد انزلاقاً نحو أسفل السَّافلين، فهل الكلمة الطَّيِّبة ممكن أن تنتشل ما تمَّ انزلاقه؟ وحدَها الكلمة ووحدَها القصيدة تفتحُ أبواب الفرح والبهاء والسَّلام أمام جنون هذا الزَّمان! أراك على فرح وفي حالة إبداع متواصل في سماء الكلمة المتلألئة فوق تيجان الحنين إلى أزاهير بوح الرُّوح!

٧) (عن الجواب)٦٣: حقيقة إجابة مدهشة، عميقة، شاهقة في تحليلها وتسليط الضَّوء على أبعاد الحلم الصَّافي وتجلِّيات الرُّوح عندما تكون الملاذ الرَّاقي للإنسان، هذا السُّؤال وهذه الإجابة أشبه ما تكون بلسماً شافياً للكثير من تصدُّعات روح البشر أو غربتهم! هي رحلة في البحث عن أبجديّات راحة الإنسان وإيقاظ ضميره الحي، الكتابة هي منقذنا من ضجر هذا الزَّمان وتصدُّعاته المريرة، والحلم هو الجوُّ الأصفى كي نزرع في فضائه ما ينتابنا من جموحٍ روحي وألق وجداني روحي، .. فتحَتْ إجابتك أمامي مرافئ شفيفة في عالم الكتابة، وجعلتني أن أتيقَّن أكثر أن الكتابة هي بلسم لشفاء جراح الرُّوح والجسد معاً، وهي منقذنا من عتمة الحياة ومن ظلم هذا الزّمان، وهي أي الكتابة سفينة الأمان الّتي تقودنا إلى مرافئ أشهى القصائد وهي الّتي تمنحنا غبطة الغبطات ونحن نحلِّق في بيادر المحبّة والسَّلام والوئام مع ذواتنا الهاربة من زمهرير هذه الأزمان، هذه الذَّات الجامحة فينا هي رُبّان الرُّوح في صيغةٍ ما، عبر تدفُّقات حرفنا الظَّامئ إلى اخضرار الرُّوح عبر شهقاتنا العامرة بضياء أعماقنا وفتح مسارات بهيجة لطفولتنا وعمرنا وما ينتظرنا من أيام.

كم أشعر أنّ لديك طاقات روحيّة عرفانيّة صافية صفاء الكلمة المنبعثة من ندى الصّباح، كأنك كيان متهاطل من المطر الصَّافي عبر تدفُّقات الأحلام وهي تترجم ما في أعماقنا من أشواق وشموع وبهاء وعطش إلى ضياء الحياة وتجلِّيات

فيض السَّماء، هل نحن البشر في هذه الحالة، حالة انبعاثيّة من لجين أحلام السَّماء المجذرة في كينونتنا منذ الأزل، وهل الرُّوح طاقة مضيئة لنفوسنا المتعبة، وهل هي مرجعنا الأوَّل والأخير لضياء عتمة الحياة للوصول إلى فراديس النَّعيم عبر الكلمة الخلّاقة وعبر الصَّفاء الخلّاق وعبر السَّلام والوئام الّذي ينمو في داخلنا ويوحِّدنا بكلِّ ما هو جميل وبديع عبر الكلمة الطَّيّبة والصَّفاء والهدوء والسَّكينة المنبعثة من السَّناء السَّاطع في قلوبنا، ؟؟؟ .. شعرت أنَّ هذا السَّؤال يتطلب ويسير نحو الكثير من العمق والعبور في مجاهيل بهيجة أكثر وأكثر وتفتح هذه المجاهيل أمامي الكثير من المسارات لكتابة نصوص من لون تدفّقات صافية صفاء النّدى في صباح باكر، دمتِ متألقة كأزاهير حبر القصائد، أيتها المحبوكة من طين المحبّة والوئام وروح مخضوضرة بأشهى ما في ضياء الحياة!

٨) (عن الجواب) ٦٦: أجدني إزاء هذا الجواب كأنّي أقرأ فصلاً مكثفاً من فصول عمل روائي أو نصّاً سرديّاً شامخاً في بنائه السَّردي وعميقاً في الرُّؤى المتعدّدة الّتي تطرحها الأديبة المبدعة د. أسماء غريب.

بدت لي رحلة المئة سؤال وجواب، أنَّ الأديبة الرَّهيفة د. أسماء غريب، جاهزة للتدفُّق والتَّجلِّيات عبر انسيابيّة خلّاقة، حيث تمتلك شطحات متدفِّقة، هذه الشّطحات الإبداعيّة تولد معها لحظات تدفُّق قلمها السّيال، لهذا أراني منتعشاً ومحظوظاً وموفّقاً في هذا الحوار، وتبدو لي أسماء في بعض الإجابات وكأنَّها تكتب نصّاً شعريّاً، وفي إجابات أخرى كأنَّها تكتب نصّاً قصصيّاً أو سرداً روائيّاً وفي إجابات أخرى كأنّها في سياق مقال فكري بديع، وهكذا تتلوّن إجاباتها وكأنَّنا أمام نصوص تضمُّ أغلب الأجناس الأدبيّة، فلم أقرأ جواباً واحداً لها فيه أسلوب الصّحافي والتّقليدي المتعارف عليه عند بعض الكتّاب والكاتبات، فلا تجيب عن تساؤلاتي إلّا بطريقةٍ إبداعيّة، وكأنّها أثناء الكتابة أو الإجابة في أوجِ تألُّقِها وجاهزيّتها للإجابة عن السُّؤال، أو هي بصدد كتابة نص إبداعي، لهذا نراها أحياناً

تجيب عن العديد من التَّساؤلات خلال فترة وجيزة وأحياناً أخرى تظلُّ شهوراً ولا تكتب سطراً عن الإجابات، أولاً لإنشغالاتها في العديد من الأعمال الأدبيّة من ترجمة وشعر ونصوص متنوِّعة وحوارات ودراسات نقديّة، ثمَّ فجأةً نراها تجيب عن تساؤلات عديدة في فترة وجيزة، وكلُّ هذا يوحي لي أنّها تكتب إبداعاتها بحسب تجلِّيات هذه الإبداعات، بغضِّ النَّظر عن برنامجها في الكتابة، فلكل مبدع برامجه في الكتابة ولكن كم يقفز المبدع عن برامجه ويكتب ما يتدفّق به في لحظةٍ ما، وهكذا تولد الكتابة من رحم الحياة ولها العديد من الأسباب والهواجس كي تولد بهذه الطَّريقة أو تلك!

الأديبة المبدعة د. أسماء غريب، راودني مراراً وأنا أقرأ إجاباتكِ، كيف تستيطعي أن تحيطي بكلِّ هذه الأجناس الأدبية وتمسكي بخيوط هذا الحوار وتنسابين في العطاء وكأنّك في حالة استعداد دائم للتدفّق لجنسٍ أدبي من حيث التَّخطيط لهذا الجنس الأدبي أو ذاك، من حيث أن تدرَي أو لا، يولد التَّدفُّق بعفويّة لا نستطيع أن نعرف أسباب تفاصيل تدفُّقه في هذه الدَّقيقة أو تلك بهذا الشَّكل أو ذاك! وهكذا أراني أمام أديبة كأنّ في مخزون مخيالها وفكرها ورؤاها ينبوع صاف يتدفَّق منه الماء الزُّلال في أيِّ حين، وما علينا أو عليها إلّا أن تمسك قلمها وتنسج تجلّيات ما يتراءى لها على إيقاع هدهدات هدوء اللّيل الحنون!

٩) (عن الجواب ٨٥): ردٌّ محبوك برهافة عالية، ممكن أن نستنبط منه أفكاراً عديدة ونصيغ منه نصوصاً ورؤى خلّاقة، تغوصين عميقاً فيما وراء الأفكار الّتي تتطرَّقين إليها ثمَّ تسترسلين في رحاب القصيدة ـ النَّص. إجاباتك تصبُّ معظمها في مرافئ بوح القصائد، لأنّك تمتلكين خيالاً وفكراً وقّاداً وتدفُّقات غير قابلة للإحاطة بها عبر القلم، لما تحملين من رؤى فسيحة في بناء الكلمة الَّتي تولد من رحم خيالٍ فسيح، كأنّك مجبولة من طين الكلمة الحرف اللُّغة، المندلقة من زغبِ السّماء! لغتك تنساب مع انبعاثات الخيال والفكر الوقّاد، كيف تستطيعين أن تمسكي

خيوط رؤاك المتهاطلة مثل أحلام الصَّباح خلال المساءات الغارقة في بوح الأحلام؟! أشعر أحياناً أنّك تكتبين فصولاً من أعمالٍ روائيّة وأنت تجيبين عن بعض تساؤلاتي، وأحياناً أخرى يراودني أنَّ إجاباتك أشبه ما تكون نصًّا روائيًّاً بامتياز، لما تحمل رؤاك من انسيابية فسيحة في البناء السَّردي وتدفُّقات الأفكار إلى درجة أنَّ القارئ يشعر أنّك في حالة توهانيّة رهيفة غير قابلة للإحاطة بها. تولد أفكارك بطريقة مفتوحة في أبهى تجلِّيات انبعاث الحرف، كيف تكتبين ابتهالاتك، كيف تنسجين إجاباتك، نصوصك، أفكارك، رؤاك؟ في قلبكِ ضياء من فرح، مسارات عاشقة معبّقة بحليب السَّنابل، تشبهين مطراً يزداد تهاطلاً من أحلام اللّيل الحنون. كيف فاتكِ أن تترجمي ما تحملينه من رؤى في نصوص روائيّة تصبُّ في ألق الكلمة الصَّافية صفاء نسيم الصَّباح؟ أكثر بوح يناسب عالمك الإبداعي هو السَّرد الرِّوائي، تشبهين حبق الرُّوح المنسابة من مآقي السَّماء وهي تسقي أزاهير الصَّباح بعذوبة رؤاها، حرفك من مذاق شهوة الرُّوح العطشى لضياء النُّجوم، أنت كائنة مجبولة من طين المحبّة، في كينونتك ألف قصيدة وقصيدة وألف رؤية ورؤيا غارقة في بهجة انتعاش الرُّوح، كم أودُّ أن أرسم فوق جبينك أسرار تجلِّيات بوح الرُّوح، أسمع همساتك وأنت تمسكين بمرامي تساؤلاتي وتغوصين عميقاً كأنّك تلتقطين درراً من أعماق البحار. أراكِ تشمخين مثل بحر القصائد وبحر الفرح والحبِّ والحياة، أراك ترفرفين وتحلِّقين عالياً مثل يمامة بيضاء، تعانقين زرقة السَّماء، بحثاً عن خبز الحياة، وتوقاً إلى تحقيق إنسانيّة الإنسان عبر لجين حرفكِ المندلق من أهازيج حنين الرّوح المتناغمة مع تهاطلات بوح السّماء!

١٠) (عن الجواب ٩١): دمتِ متألِّقة أيّتها الصَّديقة المبدعة الخلَّاقة، الأديبة الرَّاقية، والنّاقدة الحصيفة د. أسماء غريب، أراك تزدادينَ غوصاً في مرامي بوح السُّؤال حتّى منتهاه، تحفرين بإزميل رؤاك الرَّهيفة منارات بديعة وتفتحين مسارات غير مطروقة في دنيا من بكاء، أنتِ منارةُ حبٍّ في زمنٍ تخشَّبَتْ علاقات

الكثير الكثير من البشر، تنثرين حبق المحبّة عبر هلالات حرفكِ المعجون من حليب الحنطة، تشبهين الماء الزُّلال وهو يتهاطل فوقَ أحلام البشر خيراً وفيراً، أراك نسيماً محبوكاً باخضرار الحياة، غابة عشقٍ معبّقة بالنَّارنج والياسمين وأشهى تجلّيات بوح القصائد، كم أراك قريبة إلى أحضان القصيدة وهي تنساب من مآقي السَّماء، أنتِ حرفٌ منبعث من شهقة غيمة طافحة بالخير وحبِّ الحياة، أنت ضياء عاشقة من طينِ الأزل، تكتبينَ حرفكِ كمَن تترجم أحلاماً مبرعمة من هلالات الغمام، في قلبكِ ينمو حرفٌ من لونِ ضياء الشمس، في روحِكِ تتراقص أهازيج عشق الحياة من خلال تجلِّياتك المتماهية مع بسمة النّجوم، أتدفَّق مثل غمية حبلى بالفرح كلَّما أتواصل مع مروج دنياكِ، تعالي نرسم فوق جبين القصائد أسرار الحنين إلى منارة السّماء، تعالي نهدهد أريجَ المحبّة عبر انبعاث الحرف، تعالي نزنّر وجه الدُّنيا بأسرارِ تجلِّيات الرُّوح وهي تزدان بأهازيج النّجوم، هل كنتِ يوماً نجمة فرحٍ في ظلال حروف القصائد، بينك وبين الحرف مسافة عشقٍ مضمّخة بأريج النّرجس البرّي، بينك وبين السَّماء شهقات عشقٍ مجنّحة برفرفات أجنحة اليمام، هل كنتِ يوماً حمامة حبٍّ فوق أغصان الجنّة، حرفكِ مندّى بماء النَّعيم، لهذا ينبعث منه كل هذه التَّجلِّيات الوارفة مثل خصوبة موجات البحار!

١١) الأديبة والنّاقدة والمترجمة المبدعة د. أسماء غريب! كم أنا سعيد بهذه الرّحلة الحواريّة الخلّاقة، وكم أنا فخور أن تكوني ضيفة العدد السّادس من مجلّة السَّلام الدَّوليّة عبر الجزء الثَّاني من الحوار العميق الَّذي أجريته معكِ حول تجربتك الإبداعيّة بشتّى الأجناس الأدبيّة، وتجلِّيات فكرك النّير. ولا أخفي عليك ولا على الأحبّة القرّاء والقارئات، أنني لم أرتوِ من حواري معكَ، إنّني ماأزال أخبِّي بين مسارات مخيالي ورؤاي الكثير من الأسئلة حول رحلتي الحوارية معكِ، لما تمتلكين من تجلِّيات الغوص في أعماق مرامي الحوار، لهذا ليس من المستبعد أن أغوص

عميقاً في مرامي فضاءاتك الخلّاقة واستكمل الحوار عبر أجزاء أخرى في مستقبل الأيام!

أنت يا غاليتي المبدعة تمتلكين كنزاً شهيَّاً في الأدب والمعرفة والعرفان وأبهى شموخ تجلِّيات الحرف، فلماذا لا نقدِّم عبر منارات الحوار تجلّيات بوحكِ للأحبة القرّاء والقارئات، وتأكَّدي تماماً أن الإبداع الحقيقي ينبعث من هلالات هذه السِّياقات وكأنّنا في حلم شهي نغوص في فراديس النّعيم، لأنَّ الكتابة الشّاهقة أشبه ما تكون مروج مخضوضرة بثمار الجنّة، والإبداع بهذا الإيقاع هو عبور في مرافئ النَّعيم وكأنّه النّعيم بذاته، ولا يمكن أن تتحقَّق هذه التَّجلِّيات عبر المبدع نفسه، لهذا أعتبر حواري مع الذّات بمثابة حوار مع ذوات الآخرين، وأعتبر حواري معكِ هو استكمال لحواري مع الذَّات ذاتي، لأنّني أراك ذاتاً منفتحة على ذوات الكون! هل للكون ذوات؟! أجل للكون ملايين الذَّوات وها أنتِ إحدى هذه الذَّوات المخضّبة بأبهى تجلِّيات الحرف والفكر الخلّاق عبر زمنٍ مقعَّر من أغلب الجهات!

دمت متألقة وشاهقة في منائرِ الحرفِ أيَّتها المبدعة الرّهيفة أسماء غريب!

أراك على فرح وإبداع دائم

صبري يوسف

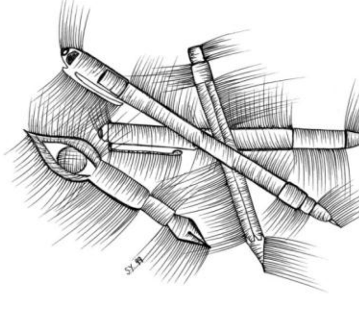

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المحتويات	٧
الجزء الأول	١٧
كلمة صبري يوسف	١٩
الملاحق	١٧٣
الجزء الثاني	١٩٥
كلمة صبري يوسف	١٩٧
الملاحق	٣٥٥
الفهرس	٣٦٧

الطباعة: دار الفرات للثقافة والإعلام – العراق – بابل

السنـــة: ١٤٤٠هـ / ٢٠١٨م

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٣٠٥٦) لسنة ٢٠١٨م

Al-Furat House for Education and Information

Iraq – Babylon